١٩٢٨

مكتبة نوبل

سيغريد أوندست

كريستين لافرانسداتر

الجزء الأول

إكليل العروس

ترجمة
توفيق الأسدي

مراجعة
د. مجيد الراضي

علي مولا

الجزء الأول

إكليل العروس

مكتبة نوبل

اسم المـــؤلف : سيغريد أوندست
عنوان الكتـــاب : ١/ إكليل العروس
من ثلاثية كرستين لافرانسداتر
ترجـــمـــــة : توفيق الأسدي
مـــراجـــعـــة : د. مجيد الراضي
الــنــاشـــــــر : المدى
الطبـعـة الأولى : ١٩٩٩

الحقوق محفوظة

صدر هذا الكتاب بالتعاون مع
مـؤسـسـة نورلا النرويجيـة .

Author : Sigrid Undset
Title : 1/The Bridal Wreath
Kristin Lavransdatter
Translator: Tawfik Al-Assadi
Revised by Dr. M. Al-Radhi
Al- Mada : P. C.
First Edition 1999

Copyright © Al-Mada

This title was published in collaboration with Norla (Norwegian literature abroad)

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا - دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون : ٢٧٧٦٨٦٤ - ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ - فاكس : ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada : Publishing Company F.K.A. Cyprus
Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or 7366 .
Tel: 2776864 - 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289

All rights reserved. No parts of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system , or transmitted in any form or by any means , electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission, in writing, of the publisher.

١٩٢٨
مكتبة نوبل

سيغريد أوندست

كريستين لافرانسداتر

الجزء الأول

إكليل العروس

ترجمة
توفيق الأسدي

مراجعة
د. مجيد الراضي

القسم الأول

يورونـد غارد

١

حين قسمت أراضي وأمتعة « إيفار غييسلنغ أوف سوندبو » الأصغر ، وذلك بعد وفاته في عام (١٣٠٦) ، فإنّ أراضيه في « سيل أوف غودبراندسدال » كانت من نصيب ابنته « راغنفريد » وزوجها « لافرانس بيورغولفسون » . وحتى ذلك الحين كان هذان يعيشان في ضيعة لافرانس في « سكوغ » عند « فولّو » ، قرب أوسلو . ولكنهما انتقلا الآن إلى « يورونداغارد »[٢] في أعلى أراضي « سيل » المنبسطة .

كان لافرانس من تلك السلالة المعروفة في هذا البلد باسم « لاغماندسونز » التي وصلت إلى هنا من السويد مع لاورنتيوس ، لاغماند[٣] من غوتلاند الشرقية ، الذي أخذ أخت « بلبو يارل » ، « الليدي بنغتا » من « دير فريتا » ، وحملها إلى النروييج . عاش السير لاورنتيوس في بلاط الملك « هاكون »[٤] العجوز ، ونال حظوة كبيرة لدى الملك ، الذي وهبه ضيعة سكوغ . ولكن بعد أن أقام حوالي ثمانية أعوام في هذا البلد ، مات في سريره ، وكان أن مضت أرملته ، التي كانت تنتمي إلى نسب « فولكونغا » ، وتلقب بابنة الملك بين النروويجيين ، وأصلحت الأمور مع أقربائها . لاحقاً ، تزوجت من رجل غني في أرض أخرى . لم ترزق بأطفال من السير

لاورنتيوس ، لذلك فإن ميراث سكوغ أضحى من نصيب « كيتيل » شقيق لاورنتيوس . وكان هذا جد لافرانس بيورغولفسون لأبيه .

تزوج لافرانس في سن صغيرة . كان أصغر بثلاث سنوات من زوجته ، وفي الثامنة والعشرين فحسب حين وصل إلى « سيل » . في شبابه كان بين حرس الملك ، كما أنه تمتع بتربية جيدة . ولكنه عاش بعد زواجه حياة هادئة في ضيعته ، فقد كانت راغنفريد غريبة الأطوار صعبة المزاج ولم تبد عليها علائم الراحة بين سكان الجنوب . وبعد أن عانت من الحظ العاثر بفقدان ثلاثة أبناء ، الواحد إثر الآخر ، في المهد ، فقد أضحت أكثر عزلة عن الناس . وهكذا فقد انتقل لافرانس إلى غودبراندسدالن ليجعل زوجته أقرب إلى أهلها ومعارفها القدماء ، وهذا سبب بين أسباب أخرى . وحين وصلا إلى هناك ، أحضرا معهما الابنة الوحيدة الباقية على قيد الحياة ، فتاة صغيرة اسمها « كريستين » .

ولكن حين استقروا في يورونداغارد فقد عاشوا معظم الوقت بهدوء هناك ، في عزلة . لقد بدا وكأن راغنفريد لم تكن تهتم كثيراً بأقاربها فقد كانت لا تراهم إلاّ في المناسبات التي تتطلبها الواجبات . وكان ذلك يعود في بعض منه إلى أن لافرانس وراغنفريد كانا أكثر من مجرد شخصين ورعين يخشيان الرب ، نشيطين في الذهاب إلى الكنيسة ، وعلى الدوام مستعدين بسرور لمنح المأوى لخدم الرب ، والرسل الذين ترسلهم الكنيسة في مهمات ، أو للحجاج في طريقهم صاعدين من الوادي إلى نيداروس . كما كانا يبديان أعظم الإجلال إلى قس أبرشيتهما : الذي كان أيضاً أقرب جيرانهما إليهما ، ويعيش في رومونداغارد . كان الأشخاص الآخرون في الوادي أكثر ميلاً إلى الاعتقاد بأن الكنيسة كانت ترهقهم كثيراً في العُشر والبضائع والنقود ، وأنه لم تكن هناك علاوة على ذلك حاجة إلى الصيام

والصلاة إلى ذلك الحد ، أو إلى إحضار القساوسة والرهبان إلى منازلهم ، ما لم تكن هناك حاجة ملحة إليهم .

وخلاف ذلك كان سكان يورونداغارد محترمين في نظر الناس ومحبوبين أيضاً ، وخاصة لافرانس الذي كان معروفاً بأنه شخص قوي وجريء ، إنما محب للسلام وهادئ ومستقيم ، بسيط في معيشته ، إنما دمث ومحتشم في أساليبه ، مزارع جيد إلى حد نادر وصياد ماهر : وما كان يصطاد بحماسة سوى الذئاب والدببة وكل أنواع الوحوش الضارة . خلال سنوات قليلة ، كان قد حصل على الكثير من الأرض ، ولكنه كان مالك أرض طيب ومعين لمزارعيه المستأجرين .

ما كان الناس يرون راغنفريد كثيراً حتى أنهم سرعان ما تخلّوا عن ذكرها كثيراً . في المرة الأولى بعد عودتها إلى الوادي تعجّب الكثيرون ، فقد تذكروها حين كانت في بيتها في سوندبو في شبابها . لم تكن جميلة قطعاً ، ولكنها بدت لطيفة وسعيدة . والآن ذوت حتى لتظنها عن حق أكبر بعشر سنوات من زوجها وليس بثلاث فحسب . وقد اعتقد معظم الناس أنها عانت من ثكلها لأبنائها أكثر مما يسمح به العقل ، حيث أنها لولا ذلك لكانت من كل النواحي في حال أفضل من معظم الزوجات : كانت تعيش في خير وفير واحترام كبير ، وكانت علاقتها جيدة مع زوجها بقدر ما كان الناس قادرين على استشفاف ذلك . لم يكن لافرانس يطارد نساء أخريات ، وكان يشاورها في كل الأمور ؛ وسواء كان صاحياً أم ثملاً ، فإنه لم يفه قط بكلمة قاسية تجاهها . وعلاوة على ذلك لم تكن هي عجوزاً إلى ذلك الحد وقد تكون قادرة بعد على إنجاب الكثير من الأطفال لو شاء الرب .

كان صعباً عليهما إقناع الشبان بالخدمة في يورونداغارد ، فسيدة المنزل كانت صعبة المزاج ، وكان الصوم أمراً ملتزماً به بصرامة . وعدا ذلك

فقد كان منزلاً ملائماً ليخدم فيه المرء ، فقد كانت العبارات القاسية والعقوبات قليلة الاستخدام ، وكان كل من لافرانس وراغنفريد يقود كل العمل . فالسيد كان ذا مزاج طيب خاص به ، وكان يشارك في الرقص أو يقود الغناء حين يؤدي الشبان ألعابهم على مرج الكنيسة في عشيات الأعياد . ومع ذلك كان الأكبر سناً هم الذين يأتون ليخدموا في يوروندغارد ، فقد كان هؤلاء يحبون المنزل جيداً ويمكثون فيه طويلاً .

•

حين كانت الطفلة كريستين في السابعة من عمرها ، حدث مرة أن أُذن لها باصطحاب أبيها إلى «السايتر» الجبلي .

كان صباحاً جميلاً ، في أحد أيام الصيف غير الباكر ، وكانت كريستين في غرفة العليّة ، حيث ينامون الآن بعد حلول الصيف . رأت الشمس تشرق في الخارج وسمعت أباها ورجاله يتحدثون في الباحة في الأسفل ، وكانت سعيدة إلى حد أنها لم تستطع الوقوف بثبات بينما راحت أمها تلبسها ثيابها ، بل راحت تنط وتقفز في المكان خلال إلباسها كل قطعة من ثيابها . لم يكن قد سبق لها صعود الجبال بعد ، عدا مرورها بالممر المؤدي إلى «فاغ» ، حين أخذت لتزور أقرباء أمها في سوندبو ، وأحياناً إلى الغابات القريبة من الضيعة مع أمها وسكان المنزل ، حين كانوا يخرجون لقطف التوت لتمزجها راغنفريد مع الجعة قليلة الكحول أو لصنع العجينة الحامضة من التوت البري وتوت البقر الذي كانت تأكله على خبزها في «الصوم الكبير» بدلاً من الزبدة .

جدلت الأم شعر كريستين الطويل الأصفر وربطته بقبعتها الزرقاء العتيقة ، ثم قبلت ابنتها على خدها ، وقفزت كريستين مبتعدة واتجهت إلى

أبيها . كان قد سبق للافرانس أن امتطى سرجه . رفعها وأجلسها خلفه على عباءته التي طواها ووضعها على كفل الحصان كوسادة . كان على كريستين الجلوس هناك مفرشخة وأن تتمسك بحزام أبيها . صاحا : «وداعاً» تجاه راغنفريد ، ولكنها هبطت مسرعة من الشرفة حاملة عباءة كريستين ذات القبعة وسلمتها إلى لافرانس وطلبت منه أن يعتني بالطفلة .

كانت الشمس ساطعة ، ولكن المطر كان قد هطل غزيراً خلال الليل ، لذا كانت الجداول تندفع وتغني في كل مكان نازلة المنحدرات المعشوشبة وأكاليل الضباب تتشبث وتنجرف تحت جوانب الجبل . ولكن فوق قمة الجبل كانت غيوم الطقس المعتدل تتعاظم في الهواء الأزرق ، وقال لافرانس ورجاله في أنفسهم إنه من المحتمل أن يكون الجو حاراً مع تقدم النهار . كان هناك أربعة رجال مع لافرانس وكلهم مسلحُ جيداً ، إذ أنه من المعتاد في مثل هذا الوقت وجود كثير من الناس الغرباء القابعين بين الجبال ، رغم أن مجموعة قوية كهذه ، ولو أنها لن تمضي بعيداً ، ما كان من المحتمل لها أن ترى أو تسمع شيئاً عن هؤلاء الناس . كانت كريستين مغرمة بكل رجال أبيها . كان ثلاثة منهم قد تجاوزوا سن الشباب ، ولكن الرابع ، آرن غيردسون من فينسبريكن ، كان فتى يافعاً والصديق المفضل لكريستين . كان يركب حصانه وراء لافرانس ووراءها ، فقد كان هو الذي عليه أن يحكي لها عما كانوا يرونه في طريقهم .

مروا بين منازل روموندغارد وتبادلوا التحيات مع الكاهن آيريك(٥) . كان واقفاً في الخارج يوبخ ابنته ـ مدبرة منزله ـ حول نسيج من القماش المصبوغ حديثاً الذي علقته ونسيته في اليوم السابق ، فقد اعتراه التلف الآن من مطر الليل .

على الجبل خلف بيت الكاهن كانت الكنيسة . لم تكن كبيرة إنما

ملائمة ومرضية ، معتنى بها جيداً وقد طليت بالقطران مجدداً . عند الصليب خارج بوابة ساحة الكنيسة خلع لافرانس ورجاله قبعاتهم وأحنوا رؤوسهم ، ثم التفت الأب في سرجه ولوّح هو وكريستين إلى راغنفريد ، التي كانت لا تزال تحت مرمى بصرهما في الأسفل هناك في البيت واقفة على المرج قرب المنازل . وقد لوحت لهما أيضاً مع سقوط غطاء رأسها الكتاني .

هنا في الأعلى على مرج الكنيسة وفي ساحتها اعتادت كريستين أن تأتي لتلعب في الجوار كل يوم ، ولكن في هذا اليوم ، وبينما كانت تستعد للانطلاق بعيداً ، فإن المشهد الذي تعرفه جيداً ـ البيت وكل الأبرشية من حوله ـ بدا للطفلة جديداً وغريباً . كانت مجموعات المنازل في يوروندغارد تبدو أصغر حجماً وأكثر رمادية ، قابعة هناك على منبسطات الساحة وفناء المزرعة . كان النهر يتلوى لامعاً متابعاً طريقه ، وينتشر الوادي بعيداً بمروج خضراء واسعة ومستنقعات في القعر ، ومزارع بأراض مفلوحة ومراع تمتد صعوداً حتى الجبال تحت جدران الجبال الرمادية شديدة الانحدار .

بعيداً إلى الأسفل ، حيث كانت الجبال تتقارب وتغلق الوادي ، عرفت كريستين أن لوبتسغارد تقبع هناك . هناك كان يعيش سيغورد و يون ، وهما رجلان مسنان بلحيتين بيضاوين . كانا يلاعبانها ويداعبانها دائماً حين يأتيان إلى يوروندغارد . كانت مولعة بيون ، فقد كان هذا ينحت لها من الخشب أجمل الحيوانات ، كما أهداها خاتماً ذهبياً ذات مرة . ليس هذا فحسب ، بل إنه في آخر مرة زارهم فيها ، في ويتسونتايد ، جلب لها فارساً منحوتاً على نحو جميل جداً وملوّناً بألوان زاهية إلى حد أن كريستين ظنت أنه لم يسبق لها أن حصلت على هدية بذلك الجمال . لذلك كانت تأخذ الفارس إلى السرير معها كل ليلة . ولكنها حين كانت تستيقظ في الصباح كانت تجده دائماً على الدرجة أمام السرير الذي كانت تنام فيه مع أبيها

وأمها . قال أبوها إن الفارس قفز عند أول صياح للديك ، ولكن كريستين كانت تعرف بما فيه الكفاية ، أنه بعد أن تنام ، كانت أمها تبعده ، فقد سمعتها تقول إنه قاس جداً ويؤلم كثيراً لو اندس تحتهم في الليل . كانت كريستين تخشى من سيغورد أوف لوبتسغارد ، ولم تكن تحب أن يضعها على ركبته ، فقد كان يقول إنها حين تكبر ستنام بين ذراعيه . كان قد دفن زوجتين وقال هو نفسه إنه سيعيش بعد دفن الثالثة ، وأن كريستين يمكن أن تكون الزوجة الرابعة . ولكن حين بدأت تبكي لسماعها هذا الكلام ، ضحك لافرانس وقال إنه لا يخشى أن تسلم «مارغيت» الروح بتلك السرعة ؛ ولكن لو حصل أسوأ التوقعات وجاء سيغورد طالباً يدها ، فإن على كريستين ألا تخشى شيئاً – فلن ينال إلاّ الرفض جواباً .

على مرمى قوس أو نحوه شمال الكنيسة كانت إلى جانب الطريق كتلة كبيرة من الصخر ، ومن حولها بستان صغير كثيف من أشجار البتولا والحور الرجراج . لقد اعتاد الأطفال أن يلعبوا هناك لعبة الكنيسة ، وكان توماس ، الابن الأصغر لبنت الكاهن آيريك ، يقف هناك مشخصاً جدّه ويتلو القداس ويرش الماء المقدس وحتى يعمّد ، حين يكون هناك ماء مطر في تجاويف الصخرة . ولكن حدث مرة في الخريف السابق ، أن انتهت اللعبة نهاية محزنة لهم . فأولاً زوّج توماس كلاً من كريستين وآرن : لم يكن آرن كبيراً جداً إنما كان يحب اللعب مع الأطفال كلما لاحت له الفرصة . ثم التقط آرن خنوصاً ماراً إلى القرب منهم ، وأدخلوه إلى الكنيسة ليتم تعميده . قام توماس بمسحه بالوحل وغمسه في بركة ماء ، وإذ راح يقلد جده ، فقد تلا القداس باللاتينية وعنّفهم على ضآلة قرابينهم ، وقد ضحك الأطفال عند سماعهم هذا إذ كانوا قد سمعوا أهاليهم يتحدثون عن طمع آيريك الزائد في المال . ولكن كلما ضحكوا أكثر كان توماس أشد تورطاً في الأمور التي

يتطرق إليها : فقد قال تالياً إن هذا الطفل قد ولد في «الصوم الكبير» ، وعليهما أن يدفعا غرامة ، إلى الكاهن والكنيسة لقاء ارتكابهما للخطيئة . ضحك الصبيان الأكبر سناً عالياً لسماعهم هذا ، ولكن كريستين كانت خجلة جداً إلى حد أنها بكت ، وهي واقفة هناك والخنوص بين ذراعيها . وبينما كان هذا مستمراً إذا بآيريك نفسه يأتي مصادفة ، إذ كان عائداً إلى البيت على مطيته من زيارة لمريض . وحين فهم ما كان يفعله الصغار ، فقد قفز من على حصانه ، وسلم الأوعية المقدسة إلى «بنتاين» ، أكبر أحفاده ، الذي كان معه ، على نحو مفاجئ جداً حتى أن بنتاين كاد يوقع حمامته الفضية وفيها جسد الرب على جانب التل ، بينما اندفع الكاهن بين الأطفال مهاجماً كل من استطاع الوصول إليه . تركت كريستين الخنوص ينزلق من ذراعيها واندفعت صارخة تهبط الطريق وثوب العماد يتجرجر وراءها . وبينما راحت أحصنة آيريك تشب وتندفع من الذعر ، فإن الكاهن دفعها هي أيضاً فوقعت كريستين أرضاً ، وقد ضربها بقدمه بشدة إلى حد أنها شعرت بالألم في وركها لأيام بحالها فيما بعد . اعتقد لافرانس حين سمع بذلك أن آيريك كان شديد القسوة مع كريستين فهي لم تكن سوى طفلة صغيرة . قال إنه سيكلم الكاهن عن ذلك ، ولكن راغنفريد رجته ألاّ يفعل ، فالطفلة قد نالت ما تستحقه فحسب ، لأنها شاركت في تلك اللعبة التجديفية . لذلك توقف لافرانس عن ذكر تلك المسألة ، ولكنه كال لآرن أسوأ ضرب ناله في حياته .

وهكذا ، وبينما كانوا يمرون بالصخرة ، راح آرن يشدّ كمّ كريستين . لم يتجرأ على قول أي شيء لخشيته من لافرانس ، ولكنه لوى وجهه ، ثم ابتسم وضرب ظهره بيده . إلاّ أن كريستين طأطأت رأسها خجلاً .

كان طريقهم يؤدي إلى غابات كثيفة . ساروا على امتداد الطريق تحت «هامرهيل» . ضاق الوادي وأصبح معتماً هناك ، وراح هدير النهر يعلو أكثر

فأكثر ويصبح أقسى : وذلك حين لمحوا نهر « لاغن » فقد كان يجري أخضر ثلجياً وأبيض من الرغوة بين جدران الصخور . كانت الجبال على كلا جانبي الوادي سوداء من الأحراج . في الوادي كان الطريق معتماً وضيقاً وبشعاً وكانت ريح باردة تهب عليهم . عبروا جدول « روستا » عند الجسر المصنوع من جذوع الأشجار ، وسرعان ما استطاعوا مشاهدة الجسر فوق النهر الكبير هناك في الوادي إلى الأسفل . تحت الجسر بقليل كانت هناك بركة يعيش فيها « كلبي » [جنيٌّ تزعم الأساطير الاسكتلندية أنه يغرق المسافرين /المترجم] ، فبدأ آرن يحكي لكريستين عنه ، ولكن لافرانس قال للصبي أن يبقى صامتاً في الغابات وألاّ يتحدث عن هذه الأمور . وحين وصلوا الجسر ، قفز عن حصانه وقاده من رسنه ، بينما أمسك بالطفلة من خصرها بذراعه الأخرى .

على الجانب الآخر من النهر كان ممرّ خاص بجياد الركوب يؤدي على نحو حاد إلى صخور التل صعوداً ، لذلك نزل الرجال عن أحصنتهم ومضوا على أقدامهم ، ولكن أبا كريستين حملها لتجلس على السرج حتى تستطيع التمسك بقوسه ، وتركها تقود « غولدسفاينن » وحدها .

برزت قمم صخرية رمادية وقبب زرقاء مبقعة بالثلج فوق سلسلة الجبال وهم يصعدون نحو الأعلى ، ورأت كريستين الآن عبر الأشجار لمحات من الأبرشية شمال الممر الضيق وراح آرن يشير إلى المزارع التي كانوا قادرين على رؤيتها في الأسفل هناك ويذكر لها أسماءها .

عالياً عند جانب الجبل وصلوا إلى مزرعة صغيرة . توقفوا عند الحاجز المصنوع من القضبان . صاح لافرانس وارتدّ صوته المرة إثر الأخرى من الجبال المحيطة . هبط رجلان بسرعة ، بين البقع الصغيرة المحروثة . كان كلاهما من أبناء الدار . كانا رجلين يتقنان إحراق القار ، وكان لافرانس

يستأجرهما لإحراق بعض القار لأجله . جاءت أمهما من بعدهما حاملة وعاءً كبيراً من الحليب المبرّد فقد كان الجو قد أصبح حاراً كما تنبأ الرجال .

قالت بعد أن حيّتهم : «لاحظت أنك اصطحبت ابنتك معك ، وقلت في نفسي إن عليّ أن أراها . ولكن عليك أن ترفع القبعة عن رأسها . يقولون إن لها شعراً جميلاً جداً» .

فعل لافرانس ما طلبته منه المرأة ، وسقط شعر كريستين من فوق كتفيها وتدلى حتى السرج . كان كثيفاً وأصفر مثل القمح الناضج . أخذت المرأة المسماة «إيسريد» بعضاً منه في يدها وقالت :

«حسناً ، والآن أرى أن ما قيل عن ابنتك الصغيرة هذه لم يكن مبالغاً فيه ، إنها زهرة ليلك حقاً ، ولها مظهر ابنة رجل فارس . ولها عينان لطيفتان أيضاً : إنها تشبهك أكثر مما تشبه آل «غييسلينغ» . فليمنحك الرب السعادة منها يا لافرانس بيورغولفسون! وهاأنت تمتطي غولدسفاينن ، صلباً ومنتصباً كساعي البريد» .هذا ما قالته ضاحكةً وهي تمسك بالوعاء حتى تشرب منه كريستين .

احمرّ وجه الطفلة من السعادة ، فقد كانت تعرف جيداً أن أباها كان يعتبر أوسم الرجال في هذه الأنحاء . كان يبدو كفارس ، وهو واقف هناك بين رجاله ، رغم أن ثيابه كانت أشبه بثياب مزارع ، تلك الثياب التي تلبس في البيت للاستخدام اليومي . كان يرتدي معطفاً من النسيج الصوفي الغليظ المصبوغ بالأخضر ، واسعاً وقصيراً ، مفتوحاً عند الحنجرة ، لذلك كان يبدو قميصه من تحت المعطف . أما بقية ملابسه فكانت بنطلوناً ضيقاً وحذاءً من الجلد غير المصبوغ ، وعلى رأسه قبعة صوفية عريضة الحافة ذات طراز قديم . ولم يكن يضع زينة سوى إبزيم فضي أملس على حزامه ، ودبوس فضي صغير في قبة قميصه ، إلاّ أن بعض

حلقات سلسلته الذهبية كانت تظهر على عنقه . كان لافرانس يرتدي هذه السلسلة على الدوام ، وعليها كان معلقاً صليب ذهبي مع بلورات صخرية كبيرة . كان الصليب مصمّماً ليُفتح ، وفي داخله كان بعض الشعر ومزق من كفن السيدة إيلين المقدسة من سكوفدي ، فقد كان آل لاماندسون يعتبرون أنهم من سلالة بنات السيدة المقدسة . ولكن حين يكون لافرانس في الغابات أو في الخارج يقوم بعمله ، فقد اعتاد أن يحشر الصليب قريباً من صدره العاري ، حتى لا يضيّعه .

ومع ذلك فقد كان يبدو في ملابسه البسيطة الخشنة أشرف نسباً من كثير من فرسان بلاط الملك في أفخر ملابسهم الخاصة بالحفلات . كان قوي البنية ، طويلاً عريض المنكبين نحيل الخصر . أما رأسه فكان صغيراً وجاثماً على نحو معتدل على عنقه . كانت ملامحه وسيمة وطويلة نوعاً ما : وجنتان ممتلئتان على نحو مناسب وذقن مستدير وفم جيد التشكيل . كانت بشرته فاتحة ووجهه نضر اللون ، وكانت عيناه رماديتين وشعره كثيفاً وناعماً وحريرياً أصفر اللون .

وقف هناك وتحادث مع إيسريد حول شؤونها ، وسألها حول «تورديس» أيضاً ، وهي قريبة لإيسريد كانت تعتني بـ «سايتر» يوروندغارد في هذا الصيف . كانت تورديس قد رزقت للتو بطفل ، وكانت إيسريد تنتظر فحسب فرصة الحصول على مرافقة آمنة عبر الغابات قبل أن تصطحب الصبي لتعميده . قال لافرانس إنه من الأفضل لها أن تأتي معهم إلى «السايتر» . كان سيهبط مجدداً في المساء التالي ، وسيكون أكثر أمناً وأفضل لها أن يكون معها رجال كثر ومع الطفل غير المعمّد بعد .

شكرته إيسريد . «لو قلت الحقيقة فإني كنت أنتظر هذا . نعرف جيداً ، نحن الفقراء في الأراضي العالية هنا ، أنك ستقوم بهذا العمل الكريم

لو استطعت حين تأتي إلى هنا » . وقد هرعت إلى الكوخ لتحضر صرتها وعباءتها .

كان لافرانس يحب بالفعل التواجد بين هؤلاء الناس المتواضعين الذين يعيشون في الأراضي مقطوعة الشجر بين الغابات والأراضي المستأجرة في المناطق العالية في أطراف الأبرشية . كان دائماً سعيداً ومرحاً بينهم . كان يحادثهم عن وسائل حيوانات الأحراج ورنّة الأراضي البور الشمالية ، وكل الأمور الغريبة التي كانت تحدث في مثل تلك الأماكن . وكان يقف إلى جانبهم ويساعدهم بالقول والفعل ، يرى إلى قطعانهم المريضة ويساعدهم في رحلاتهم إلى الحداد أو النجار ، بل وكان أحياناً يستخدم قوته الهائلة في العمل حين تكون الأحجار أو الجذور الأسوأ في حاجة إلى تكسير أو انتشال من الأرض . لذلك كان هؤلاء الناس سعداء جداً في تحية لافرانس بيورغولفسون وكذلك غولدسفاينن ، الحصان الفحل الأحمر الضخم الذي كان يمتطيه . كان حيواناً جميلاً ذا جلد لامع وشعر وذيل أبيضين وعينين فاتحتي اللون ؛ قوياً ونارياً ، لذا كانت شهرته قد انتشرت في كل أنحاء المناطق المجاورة ؛ ولكنه كان مع سيده وديعاً كحمل ، واعتاد لافرانس أن يقول إن الحصان كان عزيزاً عليه كأخ أصغر .

كانت مهمة لافرانس الأولى رؤية برج النار على «هايمهاوغن» . ففي الأوقات الصعبة والمضطربة قبل مئة عام أو يزيد ، بنى ملاكو الأرض الصغار في الوديان أبراج النار هنا وهناك في أعالي الهضاب فوقها ، وكأنها العلامات البحرية في المطلاّت على الشاطئ . ولكن أبراج النار هذه في الأراضي العالية لم تكن تحت حماية ضرائب الملك ، بل كانت تعتني بها نقابات ملاك الأراضي الصغار[٦] وكان أعضاء النقابة يتناوبون على الاهتمام بها .

حين وصلوا إلى أول «سايتر» جعل لافرانس كل الأحصنة عدا حصان

الحمولة ترعى هناك . وها هم الآن يعبرون ممراً منحدراً على الأقدام . وقبل أن يمر وقت طويل بدأت الأشجار تقل وتتناثر . كانت أشجار التنّوب الضخمة تقف ميتة وبيضاء كالعظام فوق الأراضي المستنقعية ، ورأت كريستين الآن قمماً جرداء ذات صخور رمادية تعلو نحو السماء في كل الاتجاهات . تسلقوا امتدادات طويلة بين صخور متقلقلة ، وأحياناً كانت الجداول تجري على الدرب ، بحيث كان أبوها يضطر إلى حملها . هبت الريح قوية وباردة في الأعلى هناك ، وكانت الأرض سوداء من التوت البري بين الخلنج ، ولكن لافرانس قال إنهم لا يستطيعون التوقف الآن لقطفها . كان آرن يقفز إلى المقدمة ثم إلى الخلف ، ويقطف التوت لها ، ويحكي لها عن «السايترات» ولمن كانت تنتمي كل واحدة منها ، تلك التي كانوا يرونها تحتهم في الغابة ، فقد كانت هناك غابة فوق كل هوفرينغسفانغن في تلك الأيام .

و الآن كانوا قريبين من أعلى قمة جرداء مستديرة وشاهدوا الكومة الهائلة من الأخشاب أمام السماء مع بيت الحارس تحت ملاذ جرف شديد الانحدار .

و حين وصلوا إلى حافة المنحدر وتجاوزوها اندفعت الريح ضدهم وراحت تضرب ملابسهم : بدا الأمر لكريستين وكأن شيئاً حياً يسكن هناك كان يقابلهم ويحييهم . كانت الريح تهب بقوة شديدة من حولها هي وآرن وهما يتقدمان فوق الطحالب ، حتى وضعتهم بعيداً فوق حد بارز ، وحدقت كريستين بعينين كبيرتين : لم يسبق لها أن حلمت أن العالم كان كبيراً وواسعاً إلى هذا الحد .

كانت سلاسل جبلية شعثتها الأحراج تقبع تحتها من كل الجوانب ؛ وكان الوادي مجرد صدع بين المنحدرات الشاهقة الهائلة وماتزال الوديان

الصغيرة المنعزلة الجانبية ، عبارة عن منحدرات أصغر . كان هناك الكثير منها ، ومع ذلك كان هناك جدول صغير والكثير من المنحدرات . ومن كل ما حولها كانت قمم رمادية ، تشتعل بأشنات ذهبية ، وتبرز فوق بحر من الأحراج ، وإلى البعيد ، على حافة السماء ، نهضت قمم زرقاء تومض هنا وهناك بالثلج وتذوب أمام أعينهم ، متحولة إلى غيوم الصيف الزرقاء - الرمادية والبيضاء الصافية . ولكن باتجاه الجنوب الشرقي ، على نحو أقرب ، إلى ما وراء غابات «السايتر» ، كانت تقبع مجموعة من القباب ذات اللون الأردوازي مع أقلام من الثلج المتساقط حديثاً على منحدراتها . وقد خمنت كريستين أن هذه هي «جبال الخنزير البري» التي سمعت عنها ، فقد كانت بالفعل لا تشبه سوى قطيع من الخنازير البرية يتابع طريقه نحو الداخل وقد أدار ظهره للأبرشية ، ومع ذلك فقد قال لها آرن إن الوصول إلى هناك سيتطلب ما يعادل مسيرة نصف يوم .

كانت كريستين تظن دائماً أنها لو استطاعت الوصول إلى قمة منحدرات بيتهم لشاهدت أبرشية أخرى كأبرشيتهم ، مع مزارع محروثة ومساكن ، وكان أمراً عجيباً بالنسبة إليها أن ترى مدى تباعد الأماكن التي يقطنها الناس . شاهدت النقط الصفراء والخضراء الصغيرة في الأسفل في قاع الوادي ، والفسحات الصغيرة بنقطها الرمادية التي هي منازل بين الأحراج الجبلية ، وبدأت تعدها ، ولكنها بعد أن عدت اثني عشر منها ثلاث مرات ، لم تعد تستطيع المتابعة . ومع ذلك كانت هذه المساكن البشرية تبدو مثل لا شيء في ذلك المكان المقفر الواسع .

كانت تعرف أنه في الغابات الموحشة كانت الذئاب والدببة هي المسيطرة ، وأنه تحت كل حجر كانت تسكن أقزام خرافية وعفاريت وجن ، وأنها كانت خائفة ، فلم يكن هناك من يعرف عددها ، ولكنها لاشك تزيد في

أعدادها مرات عديدة عن الرجال والنساء المسيحيين . ثم نادت على أبيها ، ولكنه لم يستطع سماعها لشدة عصف الريح : فقد كان هو ورجاله مشغولين بدحرجة أحجار ثقيلة صعوداً إلى قمة الجبل لتكويمها حول أخشاب برج النار .

و لكن إيسريد جاءت إلى الطفلين وأرت كريستين أين كان يقع المنحدر إلى غرب «فاغ» . وأشار آرن إلى «غرايفل» ، حيث كان الناس من الأبرشية يصطادون حيوانات الرنة بالأشراك ، وحيث يعيش صيادو صقور الملك في أكواخ صخرية . وكانت تلك مهنة يفكر آرن في أن يمارسها في يوم من الأيام ـ ولكنه لو فعل لكان عليه أن يتعلم ويدرب الطيور على القنص ـ وها هو يرفع ذراعيه عالياً وكأنه يطلق صقراً .

هزت إيسريد رأسها .

«إنها حياة قاسية وشريرة ، تلك يا آرن غيرودسون . ستسبب أسى كبيراً لأمك ، أيها الغلام ، إذا ما قررت أن تصبح صياد صقور . لا أحد يكسب عيشه في تلك الجبال الموحشة إلاّ إذا انضم إلى عصبة من أسوأ الرجال ، أجل ، ومعهم من هم أسوأ حتى» .

كان لافرانس قد وصل إليهم وسمع آخر كلمة . قال : «أجل ، أكثر من «هيد» [مقياس انكليزي قديم للأراضي[المترجم] واحد هناك لا يدفع ضريبة ولا عشراً ...»

قالت إيسريد ملاطفة : «أجل ، لابد أنك رأيت الكثير أنت يا من يسافر بعيداً خارج الوطن...» .

قال لافرانس ببطء : «أجل ، أجل . ربما – ولكني أظن أنه من الأفضل عدم التحدث عن هذه الأمور كثيراً . وعلى المرء – كما أقول – ألا يحسد الناس الذين فقدوا سلامهم في الأبرشية ، مهما يكن ذاك السلام الذي

يجدونه بين المنحدرات الشاهقة . ولكني رأيت مع ذلك حقولاً صفراء ومروجاً رائعة حيث لا يعرف سوى قلة من الناس وجود مثل هذه الأشياء ؛ ورأيت قطعاناً من الماشية والمواشي الصغيرة ، ولكني لا أعرف إن كانت تنتمي إلى البشر أو إلى قوم آخرين... »

تقول إيسريد : « أوه ، أجل! الدببة والذئاب مسؤولة عن الحيوانات التي تفقد من السايترات هنا ، ولكن هناك لصوص أسوأ منها بين الجبال » .

« هل تسمينهم أسوأ » ؟ سأل لافرانس متأملاً ، وهو يربت على قبعة ابنته . « في الهضاب هناك إلى الجنوب من جبال الخنزير البري رأيت ثلاثة فتيان صغار ، وكان أكبرهم حجماً بطول كريستين هذه ، ولهم شعور صفراء ومعاطف من الجلد . وقد صرّوا بأسنانهم تجاهي مثل جراء الذئب قبل أن يركضوا ليختبئوا . وإنه لأمرٌ لا يكاد يكون مستغرباً لو أن الرجل الفقير الذي امتلكهم كان مسروراً لسرقة بقرة أو اثنتين... »

تقول إيسريد بنزق : « أوه لكل من الذئاب والدببة صغار! وأنت لا تبقي عليها يا لافرانس ، لا هي ولا صغارها . ومع ذلك فليس لديها تقاليد قانونية ولا دين مسيحي ، كما لهؤلاء الأشرار الذين تتمنى لهم الخير... »

« أتظنين أني أتمنى لهم كثيراً من الخير لمجرد أني أتمنى لهم ما هو أفضل قليلاً من الأسوأ ؟ » قال لافرانس وهو يبتسم قليلاً . « و لكن هيا الآن ، دعونا نَرَ ما الطعام الذي أرسلته راغنفريد معنا اليوم » . أخذ كريستين من يدها وقادها معه . وبينما هما ماضيان انحنى وقال بنعومة : « فكرت بأخوتك الثلاثة الصغار ، يا كريستين الصغيرة » .

اختلسوا النظر إلى داخل بيت الحارس ، ولكنه كان مغلقاً وفيه رائحة عفونة . نظرت كريستين فيما حول البيت ، ولكن كان هناك بعض المقاعد

الطينية من حول الجدران ، وحجر موقد في وسط الأرضية ، وبعض براميل القار وبعض حزم جذور الصنوبر ولحاء الحور . فكر لافرانس في أنه سيكون من الأفضل لهم أن يأكلوا في الخارج ، وقد وجدوا على مسافة قريبة بين الحور قطعة مرج خضراء جميلة .

تم إنزال الحمل عن حصان الحمولة ، وتمددوا فوق العشب . في المحافظ التي أعطتهم إياها راغنفريد كان الكثير من أطايب الطعام : خبز طريّ وكعك وزبدة وجبن ولحم خنزير مقدّد ولحم رنّة مجفف بالريح ، وشحم خنزير ، ولحم صدر عجل مسلوق ، وبرميلان صغيران من الجعة الألمانية وإبريق صغير من الميد [شراب مخمر يعد من عسل وملت وخميرة/ المترجم] . جرى تقطيع اللحم وتقسيمه بسرعة ، بينما أشعل «هالدفان» ، أكبر الرجال سناً ، ناراً ، إذ كان إشعال نار جيدة في الغابات يمنح شعوراً زائداً بالأمان .

جمعت إيسريد وآرن الخلنج والحور القزم ورمياه في النار . وقد طقطقت النار وهي تمزق الأخضر اليانع من الأماليد ، وارتفعت ألسنة لهيب بيضاء صغيرة فوق خيوط الشعلة الحمراء . دوّم الدخان سميكاً وأسود نحو السماء الصافية . جلست كريستين وراحت تراقب . بدا لها أن النار كانت سعيدة بوجودها في الخارج هناك متمتعة بحريتها وقادرة على أن تلعب وتمرح . كان هذا مخالفاً لما تفعله النار في البيت حيث تقعي النار فوق الموقد وتعمل بطبخ الطعام ومنح الناس الموجودين في الغرفة النور .

جلست مستكينة إلى أبيها وأحد ذراعيها حول ركبته . كان يعطيها أفضل ما هو موجود وجعلها تشرب حتى امتلأت من الجعة وتذوقت الميد جيداً .

قال هالفدان ضاحكاً : «ستكون ثملة إلى حد أنها لن تصل أبداً إلى السايتر على قدميها» . ولكن لافرانس ربت على خديها المستديرين :

«و لكن هناك أشخاص بالعدد الكافي لحملها - سينفعها ذلك - واشرب أنت أيضاً يا آرن . عطايا الرب تنفعكم ولا تضركم أنتم الذين لا تزالون في مرحلة النمو بعد : إنها تصنع دماً حلواً أحمر وتمنح نوماً عميقاً وليس جنوناً وحماقة...»

شرب الرجال أيضاً مراراً وبعمق ، كما لم تتخلف عنهم إيسريد . وسرعان ما أصبحت أصواتهم وهدير وطقطقة النار مجرد ضجيج بعيد في أذني كريستين ، وبدأ رأسها يثقل . كانت لا تزال واعية كيف راحوا يسائلون لافرانس ليحكي لهم عن الأمور الغريبة التي رآها حين كان يخرج للصيد . ولكنه لم يقل الكثير . وبدا هذا لها جيداً وآمناً ، وكانت قد أكلت جيداً جداً .

كان أبوها يحمل شريحة من خبز الشعير الطري في يده . كان يقرص منها قطعاً صغيرة بأصابعه ويحولها إلى أشكال أحصنة ، ثم يقطع شرائح من اللحم ويضع هذه فوق الجياد ويجعلها تركب على فخذه ثم إلى فم كريستين . ولكن سرعان ما أضحت مرهقة إلى حد لم تعد تستطيع معه لا فتح فمها ولا المضغ : وهكذا غاصت فوق الأرض ونامت .

•

حين صحت من جديد كانت متمددة في عتمة دافئة ضمن ذراع والدها ، فقد كان قد لف عباءته من حولهما كليهما . جلست كريستين ومسحت الرطوبة عن وجهها ، ثم فكت قبعتها حتى يجفف الهواء خصلاتها الرطبة .

كان النهار قد انقضى معظمه بكل تأكيد ، فأشعة الشمس كانت ذهبية ، وقد استطالت الظلال وسقطت نحو الجنوب الشرقي . لم تكن هناك نسمة ريح واحدة ، وكان البعوض والذباب يطن ويحوم من حول مجموعة من الرجال النائمين . جلست كريستين ساكنة ، وحكت يديها اللتين لسعهما البعوض وحدقت إلى ما حولها . كانت قمة الجبل فوقهم تلتمع بيضاء من الطحالب وذهبية من الأشنات تحت أشعة الشمس ، وكومة الأخشاب التي بليت من التعرض لعوامل الطقس كانت تنتصب أمام السماء مثل هيكل عظمي لحيوان عجيب .

شعرت بالقلق! كان غريباً جداً أن تراهم جميعاً نياماً هناك تحت نور النهار العاري . في البيت ، لو حدث واستيقظت ليلاً ، كانت تستكين إلى أمها في العتمة من جانب ، ومن الجانب الآخر إلى السجادة المطرزة المعلقة على الحائط . وعندها كانت تعرف أن الغرفة ومخرج دخانها قد أغلقا وتم إزلاج الباب أمام الليل وعوامل الطقس ، وكانت تأتي أصوات النوم من الأشخاص النائمين بنعومة وأمان على الوسائد بين الجلود . ولكن كل هذه الأجساد المضطجعة بانثناء وانحناء على جانب الجبل هنا ، من حول الكومة الصغيرة من الرماد الأسود والأبيض قد تكون ميتة : كان البعض نائماً على وجهه ، والبعض الآخر على ظهره ور كبهم نحو الأعلى ؛ وقد أخافها الضجيج الصادر عنهم . كان أبوها يشخر بعمق ، ولكنه حين سحب نفساً زمّر هذا وصفّر خارجاً من أنفه . أما آرن فنام على جنبه ، ووجهه مخفي في ذراعه ، بينما كان شعره اللامع البني الفاتح منتشراً بين نباتات الخلنج . كان نائماً بهدوء شديد حتى خشت كريستين أن يكون قد مات . كان عليها أن تنحني نحو الأمام وتلمسه ، وقد تقلب في نومه قليلاً عندما لمسته .

وفجأةً فكرت كريستين أنهم قد يكونون قد ناموا طوال الليل كله وكان

هذا هو اليوم التالي : وقد أخافها هذا إلى حد أنها هزّت أباها . ولكنه نخر فحسب وتابع النوم . كانت كريستين نفسها لاتزال ثقيلة الرأس ، ولكنها لم تتجرأ على الاضطجاع لتنام مجدداً . وهكذا زحفت نحو الأمام إلى النار وحركتها بعصا : كانت لاتزال هناك بعض الجمرات الملتهبة في الأسفل . رمت فوقها بعض الخلنج والأغصان الصغيرة التي انتزعتها ممّا حولها ، فلم تجرؤ على تجاوز حلقة النائمين لتجد فرعاً أكبر .

جاء صوت قعقعة وتهّشم من الغابات القريبة ، وغاص قلب كريستين وأحست بالبرد من الخوف . ثم رأت شكلاً أحمر بين الأشجار ، وخرج غولدسفاينن من الأجمة . وقف هناك وحدق إليها بعينيه الصافيتين اللامعتين . كانت سعيدة جداً برؤيته ، فقفزت على قدميها وهرعت إلى الحصان . وهناك أيضاً كان الحصان الكميت الذي ركبه آرن ، وحصان الحمولة أيضاً . أحست الآن بالأمان والسعادة مجدداً . ذهبت وربتت على خواصر الجياد الثلاثة كافة ، ولكن غولدسفاينن أحنى رأسه حتى تستطيع الوصول إليه وتداعب خديه ، وتجذب خصلته الأمامية البيضاء المصفرة ، بينما راح هو يتشمّم يديها بمنخره الطري .

تجولت الجياد وهي تقتات ، هابطة المنحدر الذي تنمو فيه أشجار الحور ، ومضت كريستين معهم – أحست أنه ليس عليها أن تخشى شيئاً طالما بقيت قريبة من غولدسفاينن – فقد كان قد سبق له حسب علمها وحمل دباً على الفرار . كان توت عنب الدب ينمو بكثافة هنا ، وكانت الطفلة ظمآنة الآن ، وتشعر بطعم غير مستحب في فمها . لم تكن تحب مذاق الجعة ، ولكن التوت الحلو ذا العصارة كان جيد المذاق كالنبيذ . إلى البعيد ، على ركام من الحجارة ، شاهدت فريزاً برياً نامياً هناك أيضاً ، لذلك أمسكت بغولدسفاينن من عرفه وأمرته بصوت عذب أن يذهب معها إلى

هناك ، وتبع الفحل الفتاة الصغيرة راغباً . وهكذا وبينما راحت تتجول مبتعدة نزولاً على منحدر الجبل ، فقد لحق بها حين كانت تناديه وتبع الحصانان الآخران غولدسفاينن .

في مكان ما قريب سمعت خرخرة وخرير جدول . تبعت الصوت حتى وجدته ، ثم انبطحت فوق لوح مسطح كبير من الصخر وغسلت وجهها ويديها اللتين كانتا حارتين ملسوعتين من البعوض . تحت اللوح الصخري وقف النهر متحولاً إلى بركة ساكنة سوداء ، فقد برز أمامه جدار من الصخر خلف بعض أشجار الحور والصفصاف الصغيرة . وقد أضحت هذه البركة مرآة صافية كل الصفاء ، وانحنت كريستين من فوقها ونظرت إلى نفسها في الماء ، فقد كانت ترغب في أن ترى إن كانت تشبه بالفعل أباها كما قالت إيسريد .

ابتسمت وأومأت وانحنت نحو الأمام حتى اصطدم شعرها اللامع بالوجه الطفولي المستدير ذي العينين الكبيرتين الذي رأته في الجدول .

من حولها كان ينمو كثير من تلك المجموعات البرية الوردية من الزهور المسماة بالناردين : أكثر حمرة إلى البعيد وأجمل هنا قرب جدول الجبل ممّا هي في البيت قرب النهر . وقد قطفت منها كريستين ولفتها بالأعشاب حتى جمعت لنفسها أكبر اكليل وردي قرنفلي . ضغطته الطفلة فوق رأسها وركضت إلى البركة لترى كيف يكون منظرها وقد زينت نفسها كفتاة ناضجة تذهب إلى الرقص .

انحنت فوق الماء ورأت صورتها الداكنة تصعد من القعر وتصبح أوضح وهي تقترب لتقابلها - ثم رأت في مرآة البركة شكلاً آخر يقف بين أشجار الحور في الجهة المقابلة وينحني نحوها . وبسرعة نهضت على ركبتيها وحدقت عبر البركة . في البداية ظنت أنها الصخرة والشجيرات المتشبثة

بقدمها . ولكنها سرعان ما أصبحت مدركة بوجود وجه بين الأوراق - كانت سيدة تقف هناك ، شاحبة لها شعر ملوّح بلون التبن وعينان واسعتان بلون رمادي فاتح ومنخران واسعان ورديان مثل منخري غولدسفاينن . كانت ترتدي شيئاً ذا لون أخضر فاتح بلون أوراق الشجر ، وكانت الفروع والأغصان تخفيها حتى صدرها الواسع الذي كان مغطى بدبابيس الزينة والسلاسل اللامعة .

حدقت الفتاة الصغيرة إلى الشكل البشري ، وبينما راحت تحدق رفعت السيدة يداً وأظهرت إكليلاً من الزهور الذهبية ، أومأت به .

إلى الخلف منها سمعت كريستين غولدسفاينن يصهل بصوت مرتفع من الخوف . التفتت برأسها : تراجع الحصان وهو يصرخ حتى رن الصدى ، ثم التفت وصعد الجبل هارباً وحوافره تصدر صوتاً كالرعد . تبعه الحصانان الآخران صاعدين كومة الحجارة ، بينما راحت الحجارة تهبط مقعقعة مع أغصان وجذور تتحطم وتخشخش .

عندها صرخت كريستين بصوت مرتفع . زعقت : «أبي! أبي!» . نهضت على قدميها ولحقت بالأحصنة دون أن تجرؤ على النظر إلى الخلف . تسلقت ركام الحجارة بصعوبة ثم داست على طرف ثوبها فانزلقت هابطة نحو الأسفل . ثم تسلقت مجدداً ، متمسكة بالحجارة بيدين داميتين ، زاحفة على ركبتين مرضوضتين موجعتين ، وهي تنادي غولدسفاينن تارة وأباها تارة أخرى : بدأ العرق يخرج من كل مسام من مسامات جسدها ويجري كالماء إلى عينيها ، وراح قلبها يدق حتى ليكاد يتحطم على ضلوعها ، بينما اختنقت حنجرتها بنشيج الذعر :

«ياأبي! ياأبي!»

ثم سمعت صوته يأتي من مكان ما في الأعلى : رأته ينزل بقفزات

كبيرة نازلاً ركام الحجارة – ذلك الركام اللامع الذي تنيره الشمس . كانت أشجار الحور والحور الرجراج تنتصب على امتداده وتغمز بأوراقها الصغيرة المفضضة – وكانت حافة الجبل هادئة جداً ، لامعة جداً ، بينما جاء أبوها يقفز ويناديها باسمها ، وهمدت كريستين وعرفت أنها قد نجت الآن .

«يامريم المقدسة!» ركع لافرانس وأمسك بابنته . كان شاحباً وغريب المنظر عند الفم ، فأضحت كريستين أكثر جزعاً ؛ كأنما قرأت في وجهه كم كان الخطر الذي أحدق بها عظيماً .

«يا طفلتي ، يا طفلتي...» رفع يديها الداميتين ونظر إليهما ، ورأى الإكليل فوق رأسها المكشوف ، ولمسه . «ما هذا ؟ كيف جاء إلى هنا يا كريستين الصغيرة ؟...»

«ذهبت مع غولدسفاينن» ، بكت على صدره . خفت كثيراً لرؤيتكم نياماً جميعكم ، ولكن جاء غولدسفاينن وكان هناك شخص ما عند الجدول في الأسفل هناك وأومأ إليّ...»

«من الذي أومأ ؟ هل كان رجلاً ؟»

لا ، كانت سيدة... لقد أومأت بإكليل من الزهور الذهبية... أعتقد أنها كانت جنية يا أبي .(٧)

قال لافرانس بصوت هادئ : «يا يسوع المسيح!» ثم رسم شارة الصليب على نفسه وعلى الطفلة .

ساعدها في صعود ركام الحجارة حتى وصلا إلى منحدر معشوشب ثم رفعها وحملها . تشبثت بعنقه وبكت ، ولم تتوقف عن البكاء رغم كل محاولاته لتهدئتها .

سرعان ما قابلوا الرجال وإيسريد . ضربت المرأة يديها بقوة حين سمعت ما جرى :

«أجل ، كانت تلك هي الجنية ، لاشك في ذلك . كانت ستغري الطفلة الشقراء لتصعد إلى الجبل . ثق بي» .

قال لافرانس بصرامة : «اصمتي! ما كان علينا أبداً أن نتحدث في هذه الغابات كما فعلنا... لا أحد يعرف ما يكمن تحت الصخور ويصغي إلى كل كلمة» .

سحب السلسلة الذهبية من تحت قميصه وعلقها مع الصليب الحاوي للأثر المقدس حول عنق كريستين ثم دفعه إلى جسدها العاري .

قال : «و لكن احذروا جميعاً وحافظوا على أفواهكم مغلقة ، حتى لا تعرف راغنفريد أبداً بأن الطفلة تعرضت إلى مثل ذلك الخطر» .

ثم أمسكوا بالجياد الثلاثة التي كانت قد هربت إلى الغابة ، ونزلوا بسرعة إلى المرعى حيث كانت الجياد الأخرى ترعى . وهناك ركبوا جميعاً مطاياهم إلى« سايتر» يوروندغارد ، فلم تكن بعيدة جداً .

كانت الشمس على وشك الغروب حين وصلوا إلى هناك . المواشي كانت في الحظائر ، وكانت تورديس والقطعان مشغولين بحلب الحليب . وفي داخل الكوخ كانت العصيدة قد طهيت وتنتظرهم ، إذ كان سكان «السايتر» قد شاهدوهم عند برج النار في وقت مبكر من اليوم وكانوا في انتظارهم .

والآن ، هدأ بكاء كريستين أخيراً . جلست على ر كبة أبيها وأكلت العصيدة والقشدة من ملعقته نفسها .

كان على لافرانس أن يذهب في اليوم التالي إلى بحيرة على مسافة أبعد في الجبال حيث يقطن بعض الرعيان مع الثيران . كانت كريستين ستذهب معه ، ولكنه قال الآن إن عليها أن تبقى في الكوخ خلال رحيله . «و عليكما الانتباه يا تورديس وإيسريد ، فالباب يجب أن يبقى مغلقاً وحتى فتحة

الدخان كذلك ، حتى نعود ، وذلك من أجل كريستين والطفل المسكين غير المعمّد بعد في مهده» .

كانت توردیس خائفة جداً إلى حد أنها لم تجرؤ على البقاء مع الصغير هنا ، فقد كانت قد توقفت عن الذهاب إلى الكنيسة منذ أن وضعته : كانت تفضل بالأحرى النزول فوراً والبقاء في الأبرشية . قال لافرانس إن هذا يبدو أمراً غير حكيم ؛ فهي ستنزل معهم في مساء اليوم التالي . وقد فكر في أن يحضر أرملة أكبر سناً لتخدم في يوروندغارد ، في الأعلى هناك بدلاً منها .

كانت توردیس قد نشرت عشباً جبلياً نضراً حلو الرائحة تحت الجلود على المقاعد . وكانت رائحته قوية جداً وطيبة جداً ، وكانت كريستين نائمة تقريباً حين قرأ أبوها فوقها «أبانا الذي» و«السلام عليك يا مريم» .

قال لافرانس وهو يربت على خدها : «أجل ، سيكون يوماً طويلاً قبل أن أصطحبك إلى الجبال مرة ثانية» .

استيقظت كريستين مجفلة :

«أبي ، ألن أذهب معك أيضاً حين تسافر جنوباً عند الحصاد ، كما وعدتني...»

«سنرى ما نفعله حول ذلك» ، قال لافرانس ، وسرعان مانامت كريستين بين جلود الخراف .

٢

في كل صيف كان من عادة لافرانس بيورغولفسون أن يركب جنوباً ليتفقد ضيعته في فولّو . رحلات والدها هذه كانت علامات فارقة سنوية في حياة كريستين – الأسابيع الطويلة التي كان يغيب فيها ، ومتعة عودته إلى البيت حاملاً هدايا رائعة : مواد أجنبية جميلة لصندوق عرسها ، تين ، زبيب وخبز معسّل من أوسلو – وأمور غريبة كثيرة أخرى يحكيها لها .

و لكن في هذا العام لاحظت كريستين وجود شيء ما أكثر من العادي يأخذ مجراه مع اقتراب موعد رحيل أبيها . وقد تم تأجيله ثم تأجيله مجدداً . كان كبار السن من لوبتسغارد يحضرون على جيادهم في أوقات غريبة ويجلسون حول المائدة مع أبيها وأمها . كانوا يتحدثون عن الميراث وحقوق الأراضي الحرة والإصلاح والعوائق أمام تشغيل الأملاك من تلك المسافة البعيدة ، وكرسي الأسقف وقصر الملك في أوسلو الذي تطلب الكثير من العمل من المزارع المحيطة بالبلدة . لم يكن لديهم أي وقت ليلعبوا معها ، وكانت ترسل إلى المطبخ إلى الفتيات . كان خالها «تروند إيفارسون» من سوندبو يأتي إليهم عدداً من المرات أكثر من المعتاد : ولكنه لم يعتد قط أن يلعب مع كريستين أو يدلّلها .

وشيئاً فشيئاً وصلها تلميح عمّا كان يجري . منذ أن وصل إلى « سيل » راح لافرانس ينشد تجميع قواه هنا في الأبرشية ، فالسير أندرس غودوموندسون كان يعرض عليه « فورمو » في « سيل » وهي ما ورثه السير أندرس من أمه ، مقابل « سكوغ » ، التي كانت في موقع أفضل له ، بما أنه كان واحداً من حراس الملك الشخصيين ، وكان نادراً ما يأتي إلى هنا إلى « ديل » . كان لافرانس كارهاً التخلي عن سكوغ التي هي ميراثه الحر ، وقد وصلت إلى أجداده كهدية ملكية . ومع ذلك فإن الصفقة ستكون لمصلحته من نواح كثيرة . ولكن شقيق لافرانس ، آسموند بيورغولفسون كان سيسره الحصول على سكوغ – كان يقطن الآن في هادلاند حيث تزوج من امرأة ذات أملاك – ولم يكن أمراً مؤكداً أن يتنازل آسموند عن حق وصله عن طريق القرابة .

ولكن قال لافرانس في أحد الأيام لراغنفريد إنه سيصطحب كريستين معه إلى سكوغ . سترى الضيعة التي ولدت فيها ، والتي هي منزل آبائه ، مع احتمال أن تصبح الآن خارج أملاكهم . اعتبرت راغنفريد هذا صحيحاً رغم أنها كانت تخشى كثيراً أن ترسل طفلة صغيرة إلى هذا الحد في رحلة طويلة كهذه ، هذا مع وجودها هي إلى القرب منها .

بقيت كريستين ، بعد مشاهدتها الجنية ، شديدة الخوف حتى أنها كانت تبقى لفترات طويلة داخل المنزل قرب أمها . كانت تخشى حتى من رؤية الأشخاص الذين كانوا معها في الجبال وعرفوا ما جرى لها ، وقد سرها أن أباها حظر التحدث عن تلك الرؤيا التي رأتها .

ولكن مع مرور بعض الزمن ، بدأت تفكر بأنها تود التحدث عنها . في أفكارها روت القصة لشخص ما – لم تكن تعرف لمن – وكان أمراً غريباً ، فكلما مر المزيد من الوقت ، بدا أنها تذكرتها ، وأصبحت أوضح فأوضح ذكرى السيدة الجميلة .

ولكن أغرب ما في الأمر ، أنها في كل مرة فكرت فيها بالجنية ، كانت تشعر بتوق للرحلة إلى سكوغ ، وبخوف أشد فأشد بأن أباها لن يصطحبها معه .

وأخيراً استيقظت ذات صباح في غرفة الدور العلوي ورأت أمها وغونهيلد العجوز تجلسان على العتبة تتطلعان إلى كومة من جلود السنجاب تخص لافرانس . كانت غونهيلد أرملة تجول على المزارع وتعمل في تبطين الفرو في المعاطف وما شابه . وخمنت كريستين من حديثهما أنها ستنال معطفاً جديداً مبطناً بجلود السناجب وله حواش من فرو الدلق . ثم عرفت أنها ستصحب أباها وقفزت في سريرها وصرخت من الفرحة .

اقتربت منها أمها وربتت على خدها :

«هل أنت سعيدة كل هذه السعادة يا ابنتي أنك ستبتعدين عني إلى ذلك الحد ؟ »

•

كررت راغنفريد هذا الكلام نفسه يوم السفر . استيقظوا مع صياح الديك . كان الجو معتماً في الخارج ، مع ضباب كثيف بين المنازل ، بينما راحت كريستين تختلس النظر من الباب إلى الطقس . تلاطم الضباب كدخان رمادي حول المصابيح ، وفي الخارج قرب أبواب المنزل المفتوحة . كان أشخاص يجرون بين الاسطبلات والمباني الإضافية ، بينما النساء يخرجن من المطبخ حاملات قدور العصيدة التي يخرج منها البخار صوانيَ خشبية عليها لحم عجل وخنزير : كانوا سيحملون الكثير من الطعام المغذي قبل أن ينطلقوا في برد الصباح .

في الداخل ، كانت عدول الخروج تغلق وتفتح ، والأشياء المنسية

توضب في داخلها . كانت راغنفريد تذكر زوجها بكل المهمات التي عليه أن يقوم بها لأجلها ، وتتحدث عن الأقرباء والأصدقاء على الطريق والذين كان عليه أن يحييهم ولا ينسى أن يسأل عنهم .

كانت كريستين تجري إلى الخارج والداخل ، وتودّع الجميع مرات عديدة في المنزل ، دون أن تتمكن من أن تقف ساكنة لحظة واحدة في أي مكان .

«هل أنت سعيدة إلى هذا الحد يا كريستين أنك ستبتعدين عني إلى ذلك الحد وخلال هذه المدة ؟» سألت الأم . خجلت كريستين واضطربت وتمنت لو لم تقل أمها ذلك . ولكنها أجابت بأفضل ما تستطيعه :

«لا ، يا أمي العزيزة ، ولكني سعيدة أني ذاهبة مع أبي» .

قالت راغنفريد وهي تتنهد : «أجل ، هذا صحيح» . ثم قبلت الطفلة ووضعت اللمسات الأخيرة على ملابسها .

وأخيراً كانوا قد امتطوا الجياد ، القافلة كلها : كانت كريستين تمتطي «مورفين» ، الذي كان قبل الآن جواد ركوب أبيها : كان عجوزاً وحكيماً وموثوقاً . رفعت راغنفريد جرن الماء المقدس الفضي مع كأس الركاب [كأس الوداع] إلى زوجها ، ومدت يدها إلى ركبة ابنتها وطلبت إليها أن تضع في ذهنها كل ما علمتها أمها إياه .

وهكذا خرجوا من باحة الدار في النور الرمادي . كان الضباب قابعاً أبيض مثل الحليب فوق الأبرشية . ولكن خلال فترة بدأ يرق وراحت أشعة الشمس تخترقه . وراحت منحدرات جبال خضراء تلتمع وتنقّط طلاً عبر السديم الأبيض ، وكذلك حقول جذامات شاحبة وأشجار صفراء وأشجار السمّن اللامعة بالتوت الأحمر . بدت لمحات من جوانب جبال زرقاء تبرز عبر السديم البخاري ، ثم تلاشى الضباب وانساق في أكاليل عبر

المنحدرات ، وراحوا ينزلون نحو «ديل» في أروع نور للشمس ، بينما كريستين في مقدمة الركب إلى جوار أبيها .

وصلوا إلى «هامار» في مساء معتم وممطر ، وكريستين جالسة في الأمام على قربوس سرج أبيها ، فقد كانت منهكة جداً حتى أن كل ما حولها كان يعوم أمام عينيها : البحيرة التي راحت تلتمع بشحوب إلى يمينهم ، والأشجار الكئيبة التي كانت تنقط عليهم وهم يمرون من تحتها ، والمجموعات المعتمة الرصاصية اللون من المنازل على الحقول الكئيبة معدومة اللون على جانبي الطريق .

كانت قد توقفت عن عد الأيام : بدا لها وكأنه كان زمناً لا نهاية له خلال الرحلة . كانوا قد زاروا أقرباء وأصدقاء على امتداد «ديل» كما كانت قد تعرفت إلى أطفال في الضياع الكبيرة ولعبت في منازل وحظائر وباحات غريبة ، وارتدت مرات عديدة ثوبها الأحمر ذا الأكمام الحرير . كانوا يرتاحون إلى جانب الطريق نهاراً حين يكون الطقس معتدلاً . كان آرن يجمع الجوز لها وكانت تنام بعد وجبات الطعام فوق عدول الخرج حيث كانت ملابسهم . في أحد المنازل الكبيرة كان لديهم وسائد مغطاة بالحرير في أسرتهم . ولكن جرى في إحدى الليالي وهم نائمون في نزل ، أن كانت في السرير الآخر امرأة مضطجعة وهي تبكي بنعومة ومرارة في كل مرة استيقظت فيها كريستين . ولكن في كل ليلة كانت تنام بأمان خلف ظهر أبيها العريض الدافئ .

•

استيقظت كريستين مجفلة : لم تعرف مكانها ، ولكن الصوت الرنان الهادر الذي سمعته في حلمها ظل مستمراً . كانت تتمدد وحدها في سرير وفي مدفأة الغرفة كانت النار موقدة .

نادت أباها ، فنهض من جانب المدفأة حيث كان جالساً واقترب منها مع امرأة بدينة .

سألت : «أين نحن ؟» وضحك لافرانس وقال :

«نحن في هامار الآن ، وها هي مارغريت ، زوجة فارتاين صانع الأحذية . عليك تحيتها على نحو جميل الآن ، فقد نمت حين وصلنا إلى هنا . والآن ستساعدك مارغريت في ارتداء ملابسك» .

سألت كريستين : «هل حلّ الصباح ؟ ظننت أنك قادم الآن إلى الفراش . أوه! هيا ساعدني» . ، هكذا توسلت ، ولكن لافرانس قال شيئاً صارماً بأن عليها أن تكون بالأحرى ممتنة لمارغريت اللطيفة لمساعدتها .

«و انظري ما الذي لديها لك كهدية!»

كان حذاء أحمر اللون له إبزيم حريري . ابتسمت المرأة لوجه كريستين السعيد وألبستها قميصاً تحتانياً وبنطالاً ضيقاً حتى لاتضطر إلى الدوس على الأرض الطينية حافية القدمين .

سألت كريستين : «ما الذي يصدر مثل هذه الضجة ، كأنه جرس كنيسة إلاّ أنها أجراس كثيرة ؟»

ضحكت مارغريت : «أجل ، تلك هي أجراسنا . ألم تسمعي أن رئيس الكهنة هنا في البلدة ؟ إلى هناك ستذهبين الآن . وها هو الجرس الكبير يدق! والآن هو يقرع في الدير وفي كنيسة الصليب المقدس أيضاً» .

وضعت مارغريت طبقة سميكة من الزبدة على خبز كريستين ووضعت العسل في حليبها ، حتى يكون ما تأكله كافياً إذ لم يكن لديها سوى وقت قليل للأكل .

في الخارج كان الظلام لا يزال مخيماً والطقس صقيعياً . كان الضباب بارداً لاذعاً . آثار أقدام الناس والماشية والجياد كانت قد تقسّت كأنها

صبت من حديد ، لذلك فإن حذاء كريستين الجديد الرقيق قد آلم قدميها ، وما أن داست على الجليد فوق القناة في وسط الطريق حتى أصبحت ساقاها مبللتين وباردتين . ثم حملها لافرانس على ظهره .

أجهدت عينيها في العتمة ، ولكن لم يكن هناك الكثير الذي تستطيع رؤيته من البلدة : لمحت جمالونات منازل وأشجاراً عبر الهواء الرمادي . ثم خرجوا إلى مرج صغير كان يلتمع بالجليد ، وفوق الجانب البعيد من المرج رأت على نحو غير واضح بناء رمادياً باهتاً ، كبيراً كجبل . كانت تنتصب من حوله أبنية حجرية كبيرة ، وفي نقط محددة كانت الأنوار تشع من ثقوب النوافذ في الجدران . الأجراس التي كانت صامتة منذ بعض الوقت ، عادت لترن مجدداً ، والآن كان صوتها قوياً جداً حتى أن قشعريرة باردة سرت في ظهرها .

كان ذلك أشبه بدخول منحدر جبلي ، كما ظنت كريستين ، وذلك حين صعدا إلى البهو الأمامي للكنيسة . كان الجو بارداً وقارساً في الداخل هناك . عبرا باباً واستقبلتهما الرائحة العتيقة الباردة للبخور والشموع . والآن كانت كريستين في مكان مظلم وسامق ذي اتساع . لم تستطع أن ترى نهاية له ، لا من فوق ولا في الجوانب ، عدا الأنوار التي راحت تشتعل فوق المذبح بعيداً إلى الأمام . هناك كان كاهن يقف وقد راح صدى صوته يتجول على نحو غريب في هذا المكان الواسع ، مثل تنفس وهمسات . رسم أبوها إشارة الصليب بالماء المقدس على نفسه وعلى الطفلة ، وهكذا تقدما . ورغم أن خطاه كانت حذرة ، إلاّ أن مهمازيه راحا يقعقعان عالياً على الأرض الحجرية . مرّا عبر أعمدة هائلة ، وبين الأعمدة كان الأمر أشبه بالنظر في ثقوب سوداء كالفحم . إلى الأمام ، قريباً من المذبح ، ركع الأب وركعت كريستين بالقرب منه . بدأت تتبين الأشياء في العتمة : كان الذهب والفضة

يلتمعان على المذابح بين الأعمدة ، ولكن كان على المذبح الذي أمامهما شموع نحيلة تلتمع وتحترق على شمعدانات مذهبة ، بينما راح النور يتراجع من الأوعية المقدسة والصورة الجميلة الكبيرة خلفه . جعل هذا كريستين تفكر مجدداً بقاعة سكان الجبل ـ حتى ولو حلمت بذلك فلا بد أنه رائع كهذا ، ولكن مع أنوار أكثر . وهنا رأت وجه الجنية ـ ولكنها رفعت عينيها فرأت على الجدار فوق المذبح المسيح نفسه ، عظيماً ومتجهماً فوق الصليب . حل الخوف بها . لم يكن [المسيح] يبدو رقيقاً وحزيناً كما في البيت في كنيستهم الصغيرة البنية المصنوعة من الخشب ، حيث كان معلقاً بثقل ، مثقوب القدمين واليدين وقد أحنى رأسه الذي تناثر عليه الدم تحت تاج الشوك . هنا كان واقفاً على مسند قدم بذراعين صلبتين ممدودتين ورأس مرفوع . التمع شعره المذهّب وكان تاجه من الذهب ، أما وجهه فكان مرفوعاً إلى فوق وقاسياً .

ثم حاولت أن تلاحق كلمات الكاهن وهو يقرأ أو يرتّل ولكن كلامه كان متسرعاً جداً وغير واضح . في البيت اعتادت أن تفهم كل كلمة ، حيث كان «سيرا آيريك» ذا نطق شديد الوضوح ، وقد علمها كيف تقال العبارات المقدسة بالنرويجية ، حتى تبقى أفكارها مع الرب وهي في الكنيسة .

و لكنها ما كانت قادرة على فعل ذلك هنا ، ففي كل لحظة كانت تدرك شيئاً ما جديداً في العتمة . كانت هناك نوافذ عالية جداً في الجدران ، وقد بدأت هذه تلتمع من نور النهار . وإلى القرب منهما حيث كانا يركعان كانت هناك سقالات رائعة من الخشب ، ولكن كان خلفها كتل من الأحجار الفاتحة اللون ، وكذلك أحواض الملاط وأدواته ، وسمعت أناساً يقتربون على رؤوس أصابعهم في المكان . ولكن عينيها سقطتا

مجدداً على المسيح المتجهم على الجدار ، وناضلت حتى تبقي أفكارها مثبتة على الصلاة . كان البرد الجليدي القادم من الأرض الحجرية يصلّب ساقيها حتى فخذيها ، وراحت ركبتاها تؤلمانها . وأخيراً بدأ كل شيء من حولها يتأرجح وشعرت بتعب شديد .

ثم نهض أبوها . كان القداس قد انتهى . تقدم الكاهن وحيّا أباها . وبينما راحا يتحادثان ، جلست كريستين على درجة ، فقد رأت صبي الكورس يفعل مثل ذلك . تثاءب ، وراحت هي تتثاءب أيضاً . وحين لاحظ أنها كانت تنظر إليه ، فقد نفخ وجنته بلسانه وحوّل عينيه باتجاهها . ثم أخرج كيساً من تحت ملابسه وأفرغ على الأحجار كل ما كان فيه : صنانير لصيد السمك وكتل من الرصاص وسيور جلدية وزوج من النرد ، وفي هذه الأثناء كلها كان يومئ بإشارات إليها . وتعجبت كريستين إلى حد كبير .

و لكن الكاهن وأباها نظرا إلى الطفلين . ضحك الكاهن ، وأمر الصبي بالعودة إلى المدرسة ، ولكن لافرانس عبس وأمسك بيد كريستين .

بدأ النور يزداد في الكنيسة الآن . التصقت كريستين وسنى بيد لافرانس ، بينما راح هو والكاهن يتمشيان تحت الأخشاب ويتحدثان عن أعمال البناء التي يقوم بها الأسقف إنغيالد .

تجولا في أنحاء الكنيسة ، وفي النهاية خرجا إلى البهو الأمامي . ومن هناك كان درج حجري يؤدي إلى البرج الغربي . صعدت كريستين الدرجات بصعوبة . فتح الكاهن باباً يؤدي إلى مصلّى جميل ، وقال أبوها إن كريستين يجب أن تجلس في الخارج على الدرج وتنتظر ريثما يذهب ليعترف ، ثم تستطيع هي القدوم لتقبل ضريح القديس توماس .

عند ذاك اقترب راهب عجوز في رداء بني رمادي من خارج المصلى . توقف للحظة ، ابتسم للطفلة ، وأخرج بعض الأكياس وملابس من النسيج

الصوفي الغليظ كانت محشورة في ثقب في الجدار . وقد نشر هذه على منبسط الدرج .

«اجلسي هنا ، ولن تشعري بالبرد » ، قال ثم هبط الدرج بقدميه الحافيتين .

كانت كريستين نائمة حين خرج « كانون مارتاين » ، كما كان يدعى الكاهن ، وأيقظها بلمسة . من أعلى الكنيسة كانت تأتي أعذب أغنية ، وفي المصلى كانت الشموع تحترق فوق المذبح . أشار الكاهن بأن عليها أن تركع إلى جانب أبيها ، ثم تناول مذخراً [وعاء تحفظ فيه الذخائر الدينية/ المترجم] ذهبياً كان موضوعاً فوق طاولة المناولة . همس لها بأنه كان جزءاً من الملابس الدامية للقديس توماس أوف كانتربري ، وأشار إلى تمثال القديس على المذخر حتى تضع كريستين شفتيها على قدميه .

كانت الألحان الجميلة لاتزال تأتي من الكنيسة وهي تهبط الدرج . قال كانون مارتاين : «عازف الأرغن يتدرب وصبيان المدرسة يغنون» ؛ ولكن لم يكن لديهما الوقت الكافي للبقاء والإصغاء ، إذ كان أبوها جائعاً ـ فقد جاء إلى هنا صائماً لأجل الإعتراف ـ وكانا سيذهبان الآن إلى غرفة الضيوف في حجرة الكاهن لتناول الطعام .

كان نور الشمس في الخارج ينزلق على الشواطئ المنحدرة على الجانب الآخر للبحيرة الكبرى ، وكل بساتين الأشجار المورقة الآخذة بالاصفرار تلتمع كالتبر بين غابات الصنوبر ذات اللون الأزرق الداكن . كانت البحيرة تجري في موجات ذات قبعات بيضاء صغيرة راقصة من الزبد تغطي رؤوسها . هبت الريح قارسة ومنعشة ، وراح الكثير من الأوراق متعددة الألوان ينجرف على منحدرات الجبال المكسوة بالصقيع .

تقدمت مجموعة من الفرسان بين قصر الأسقف ومنزل «اخوة الصليب

المقدس» . تحرك لافرانس جانباً وانحنى ويده على صدره ، وكاد يمسح الأرض المعشوشبة بقبعته ، لذلك استطاعت كريستين أن تخمن أن الرجل النبيل في معطف الفرو لا بد أن يكون الأسقف نفسه ، فانحنت حتى الأرض .

لجم الأسقف حصانه وردّ على التحية . أشار إلى لافرانس ليتقدم منه وكلمه برهة من الزمن . وخلال فترة قصيرة عاد لافرانس إلى الكاهن والطفلة وقال :

«أنا مدعو الآن للطعام في قصر الأسقف . أتظنّ يا كانون مارتاين أن أحد الخدم في الكنيسة يستطيع اصطحاب ابنتي الصغيرة إلى منزل فارتاين صانع الأحذية ؟ وأن يطلب من رجالي أن يرسلوا هالفدان ليقابلني هنا مع غولدسفاينن في ساعة العصر ؟ »

أجاب الكاهن أن ما يطلبه سينفذ دون شك . والآن اقترب الراهب الحافي القدمين الذي كلم كريستين عند درج البرج وحياهما :

«هناك رجل في مضافتنا هنا لديه مهمة تخصه عند صانع الأحذية . وهو يستطيع تنفيذ أمرك يا لافرانس بيورغولفسون ، وتستطيع ابنتك الذهاب معه أو تبقى في الدير معي حتى يحين موعد ذهابك . وسأضمن لها أن تتناول طعامها هناك» .

شكره لافرانس ولكنه قال : «من العار أن تزعج نفسك بالطفلة أيها الأخ إدفين...»

«الأخ إدفين يجذب إلى شخصه كل الأطفال الذين يستطيع الوصول إليهم» ، قال كانون مارتين وضحك . «على هذا النحو ينال من يستطيع أن يعظهم... »

«أجل ، أمامكم أيها السادة العلماء هنا في هامار لا أجرؤ على عرض مقالاتي» ، قال الراهب دون غضب ، وهو يبتسم . «كل ما أنا جدير به هو

أن أتحدث إلى الأطفال والفلاحين ، ولكن رغم ذلك فإنه ليس بالأمر الملائم ، كما نعرف أن نكمم الثور الذي يدرس القمح » .

رفعت كريستين بصرها إلى أبيها متضرعة . كانت تظن أنه لم يكن هناك شيء تحبه أكثر من الذهاب مع الأخ إدفين . لذلك شكره لافرانس مجدداً ، وبينما كان أبوها والكاهن يلحقان بموكب الأسقف ، فإن كريستين وضعت يدها في يد الراهب ، ونزلا نحو الدير ، وهو مجموعة من المنازل الخشبية وكنيسة حجرية ذات لون فاتح عند شاطئ البحيرة .

ضغط الأخ إدفين على يدها قليلاً ، وبينما راحا ينظران الواحد إلى الآخر ، ضحكا كلاهما . كان الراهب نحيلاً وطويلاً ، ولكن ظهره شديد الإنحناء . فكرت فيه الطفلة على أنه أشبه بكركي عجوز في الرأس ، فقد كان رأسه صغيراً مع قمة صلعاء صغيرة لامعة فوق إطار أبيض أشعث من الشعر ، موضوعاً فوق عنق نحيلة طويلة مجعدة . كان أنفه كبيراً أيضاً ومدبباً كمنقار . ولكن كان هناك شيء ما جعلها مرحة وسعيدة بمجرد نظرها إلى الوجه الطويل الضيق ذي الخطوط العميقة . كانت العينان العجوزان الزرقاوان بلون البحر محاطتين بإطار أحمر والجفون بنية ورقيقة كالقشارة . كانت آلاف التجاعيد تنتشر منطلقةً منهما ، أما الوجنتان الذابلتان اللتان رسمت عليهما شبكة حمراء من العروق فكانتا محزّزتين بتغضينات تجري نازلة إلى فمٍ رقيق الشفتين ، ولكن بدا الأمر وكأن الأخ إدفين قد أصبح مجعداً إلى هذا الحد لكثرة ابتسامه للبشرية . ظنت كريستين أنها لم يسبق لها أن رأت شخصاً شديد المرح واللطف إلى هذا الحد . بدا أنه يحمل سعادة لامعة وسرية في داخله وهي ستتعرف عليها حين يبدأ بالكلام .

تبعا حاجز بستان التفاح حيث كانت لاتزال معلقة على الأشجار بضع

ثمار حمراء وذهبية . كان أخوان واعظان في ردائين بالأسود والأبيض يقلّبان معاً نباتات فاصولياء ذاوية في الحديقة .

لم يكن الدير مختلفاً كثيراً عن أي مزرعة صغيرة ، وكانت المضافة حيث قاد الراهب كريستين أشبه بمنزل فلاحي فقير ، رغم وجود أسِرَّةٍ كثيرة فيه . في أحد الأسرة كان رجل عجوز يضطجع ، وعند الموقد جلست امرأة تلف طفلاً صغيراً ، بينما يقف إلى جانبها طفلان أكبر سناً ، صبي وفتاة .

همهما كلاهما ، الرجل والمرأة ، قائلين إنهما لم يحصلا على فطورهما بعد : «لا أحد سيزعج نفسه بحمل الطعام إلينا مرتين في اليوم ، لذا علينا أن نموت جوعاً بينما تتجول أنت في البلدة أيها الأخ إدفين! »

«هيا ، لا تكن كثير الشكوى يا ستاينولف» ، قال الراهب ، «اقترب وسلّم على كريستين .ألا ترى هذه الفتاة الجميلة العذبة التي ستبقى وتتناول الطعام معنا اليوم ؟ »

ثم حكى كيف أن ستاينولف قد مرض وهو عائد إلى بيته من أحد المعارض ، وقد أخذ إذناً بالبقاء في مضافة الدير ، فقد كانت لديه قريبة تسكن في المأوى وكانت لعينة إلى حد أنه لم يستطع تحمل البقاء معها .

«و لكني أرى جيداً أنهم سيملّون من وجودي هنا» ، قال الفلاح . «حين تنطلق مجدداً ، أيها الأخ إدفين ، فلن يكون هناك شخص لديه الوقت ليعتني بي ، وسوف يأخذونني إلى المأوى مجدداً» .

«أوه ، ستكون في صحة جيدة وقوياً قبل أن أنهي عملي في الكنيسة بوقت طويل» ، قال الأخ إدفين . «عندها سيأتي ابنك لاصطحابك...» تناول إبريقا من الماء الساخن من الموقد وترك كريستين تحمله بينما قام هو بالعناية بستاينولف . بعد ذلك أضحى الرجل العجوز في حال أفضل ، وسرعان ما وصل راهب مع الطعام والشراب لأجلهم .

قرأ الأخ إدفين صلاة على اللحم ، وجلس على حافة السرير قرب ستاينولف حتى يساعده على تناول طعامه . مضت كريستين وجلست قرب المرأة وأعطت الصبي طعاماً ، فقد كان صغيراً جداً لا يستطيع الوصول إلى طبق العصيدة ، وقد أراق الجعة على نفسه حين حاول أن يغرف من وعاء الجعة . كانت المرأة من هادلاند ، وقد وصلت إلى هنا مع زوجها وأطفالها لرؤية أخيها الذي كان راهباً هنا في الدير . ولكنه كان بعيداً يجول على أبرشيات البلد ، وكانت تتذمر كثيراً لاضطرارها للبقاء هنا وإضاعة الوقت .

تكلم الأخ إدفين كلاماً لطيفاً مع المرأة ، وقال إنه ليس عليها أن تقول إنها تضيع وقتها وهي موجودة في الأسقفية . فقد كان هنا كل أعضاء الكنيسة الورعين والرهبان والقساوسة الذين يقيمون القداسات وينشدون طوال النهار والليل ... وكانت البلدة جميلة ، أجمل من أوسلو حتى ، رغم أنها كانت أصغر نوعاً ما . ولكن توجد فيها حدائق لكل حي سكني : «عليك أن تريها كما رأيتها في الربيع ، كانت بيضاء والزهر يغطي البرج كله . وبعد ذلك حين يتفتح نسرين الكلاب...»

«أجل ، وهذا جيد بالنسبة لي الآن» ، قالت المرأة بتجهم . وهنا الكثير من الأماكن المقدسة أكثر من القداسة كما أعتقد...

ضحك الراهب قليلاً وهزّ رأسه ثم بحث في قش سريره وأخرج حفنة كبيرة من التفاح والإجاص التي وزعها على الأطفال . لم يسبق لكريستين أن تذوقت مثل هذه الفاكهة الطيبة . كانت العصارة تجري من زوايا فمها مع كل قضمة .

و لكن كان على الأخ إدفين الآن أن يذهب إلى الكنيسة ، كما قال ، وعلى كريستين الذهاب معه . كان طريقهما منحرفاً عبر الفناء ، ثم عبرا خلال بويب جانبي صغير إلى الجزء من الكنيسة المخصص للمرتلين .

كان العمل لا يزال جارياً في هذه الكنيسة أيضاً ، لذلك كانت هنا أيضاً سقالة عالية في التقاطع الذي يلتقي فيه صحن الكنيسة مع جناح الكنيسة . كان الأسقف انغيالد يحسّن ويزيّن المكان المخصص للمرتلين ، كما قال الأخ إدفين . كان الأسقف صاحب ثروة عظيمة ، وكان يستخدم كل ما لديه من أموال لتزيين الكنائس هنا في البلدة . كان أسقفاً نبيلاً ورجلاً طيباً . كان «الرهبان الواعظون» في «دير القديس أولاف» رجالاً طيبين أيضاً ، يعيشون عيشة نظيفة ، أصحاب علم وتواضع . كان الدير فقيراً . ولكنهم رحبوا به أشد الترحيب : كان الأخ إدفين قد اتخذ له سكناً في «دير المينوريت» في أوسلو ، ولكن نال الأذن لإنفاق فصل هنا في أبرشية هامار .

قال : «هيا تعالي من هنا» ، وقاد كريستين عبر أسفل السقالة . أولاً صعد سلماً ووضع بعض الألواح باستقامة هناك ، ثم نزل ثانية وساعد الطفلة على الصعود معه .

على جدار الحجر الرملي فوقها رأت كريستين نقطاً خفاقة رائعة من النور : حمراء كالدم وصفراء كالجعة ، وزرقاء وبنية وخضراء . كانت ستلتفت لتنظر خلفها ، ولكن الراهب همس : «لا تلتفتي» . ولكن حين وقفا معاً عالياً فوق الألواح ، جعلها تلتفت بلطف ، ورأت كريستين مشهداً جميلاً جداً حتى انبهرت أنفاسها .

فوقها مباشرة على جدار صحن الكنيسة كانت صورة تلمع كأنها مصنوعة من أحجار كريمة لامعة لا غير . كانت النقاط متعددة الألوان من النور فوق الجدار تأتي من أشعة بعيدة عن تلك الصورة . كانت تقف هي والراهب في وسط هذه الروعة . يداها كانتا حمراوين كأنما غمستا في النبيذ . بدا وجه الراهب ذهبياً كله ، أما رداؤه الداكن اللون فكان يعكس ألوان اللوحة . تطلعت إليه مستفسرة ، ولكنه أومأ وابتسم فحسب .

كان الأمر أشبه بالوقوف بعيداً والنظر إلى المملكة السماوية . وخلف شبكة من الخطوط السوداء ، ميّزت تدريجياً المسيح نفسه في أنفس الأردية الحمراء ومريم العذراء في ثياب زرقاء كالسماء ، ورجالاً مقدسين وعذارى مقدسات في ملابس صفراء وخضراء وبنفسجية . وقفوا تحت أقواس وأعمدة لمنازل مومضة ، التفت عليها الأغصان والفروع ذات الأوراق اللامعة الغريبة .

سحبها الراهب مسافة أبعد قليلاً فوق المصطبة .

همس : «توقفي هنا وسوف ينزل عليك النور مباشرة من رداء المسيح » .

من الكنيسة تحتهما كانت تصعد تجاههما رائحة واهنة من البخور والحجر البارد : كان الجو معتماً في الأسفل ، ولكن أشعة الشمس دخلت منحرفة عبر صف من النوافذ الناتئة في الجدار الجنوبي لصحن الكنيسة . بدأت كريستين تفهم أن الصورة السماوية هي زجاج نافذة ، فقد كانت تملأ مثل هذه الفتحة . كانت الأخرى فارغة أو مغطاة بألواح من مادة قرنية في إطارات خشبية . جاء طائر وحط على حافة النافذة ، غرّد قليلاً ثم طار بعيداً ، وخارج جدار المكان المخصص للمرتلين سمعوا رنين المعدن على الحجر . ما عدا ذلك كان كل شيء ساكناً . كانت الريح تأتي في نفحات صغيرة وتتنهد قليلاً حول جدران الكنيسة ثم تتلاشى .

قال الأخ إدفين : «أجل ، أجل» ، ثم تنهد . «لا أحد في هذه البلاد يستطيع صنع مثيل له : إنهم يطلون الزجاج ، هذا صحيح ، في نيداروس ، ولكن ليس هكذا . ولكن بعيداً في بلاد الجنوب ، يا كريستين ، في الكاتدرائيات الكبيرة ، لديهم هناك مثل هذه الألواح الزجاجية على النوافذ ولكنها كبيرة مثل أبّواب الكنيسة هنا...»

فكرت كريستين بالصور في الكنيسة في البيت . كان هناك مذبح

القديس أولاف ومذبح القديس توماس أوف كانتربري ، مع صور على نوافذهما الأمامية وعلى الهياكل خلفهما ، ولكن تلك الصور بدت لها كئيبة وخامدة بينما راحت تفكر بها الآن .

هبطا السلم ودخلا مكان المرتلين . هناك كانت منضدة المذبح فارغة وخالية ، وعلى اللوح الحجري كان الكثير من العلب الصغيرة وفناجين معدنية وخشبية وفخارية ، وسكاكين صغيرة غريبة ، وأدوات حديد وأقلام وفراش . قال الأخ إدفين إن هذه كانت عدته . كان يمارس مهنة رسم الصور ونحت أوعية المذبح واللوحات الزجاجية التي كانت منتصبة هناك عند مقاعد المذبح ، وهنا في كنيسة «الرهبان الواعظين» .

راقبته كريستين وهو يمزج المساحيق الملونة ويحركها في فناجين صغيرة من الفخار ، وتركها تساعده في حمل الأشياء إلى مقعد عند الجدار . وبينما راح الراهب ينتقل من لوح إلى آخر ويرسم خطوطاً حمراء دقيقة في الشعور اللامعة للرجال والنساء المقدسين حتى ليستطيع المرء أن يراها وهي تتجعد وتتموج ، وبقيت كريستين إلى القرب من كاحليه وراحت تحدق وتستفسر وراح هو يشرح لها ما كان يرسمه .

على أحد الألواح جلس المسيح في كرسي من ذهب ، بينما جلس القديس نيكولاس والقديس كليمنت تحت سقف إلى جانبه . وعلى الجوانب رسمت حياة القديس نيكولاس وأعماله . في أحد الأمكنة كان يجلس كطفل رضيع على ركبة أمه . كان يلتفت عن الثدي الذي مدته إليه ، فقد كان مقدساً جداً إلى حد أنه منذ المهد لا يرضع أكثر من مرة واحدة أيام الجمع . وإلى جانب هذه كانت صورة له وهو يضع أكياس النقود أمام باب المنزل الذي تقطن فيه الفتيات الثلاث اللواتي كن فقيرات إلى حد لم يستطعن معه إيجاد أزواج لهن . رأت كيف شفى طفل الفارس الروماني ، ورأت الفارس

يبحر في زورق وفي يده الكأس غير الصحيحة . كان قد وعد أسقفاً مقدساً بكأس ذهبية كانت في منزله منذ ألف عام ، وذلك كمكآفأة لقاء شفاء ابنه . ولكنه كان عازماً على التحايل على القديس نيكولاس ، وإعطائه كأساً مزيفاً بدلاً عنه . لذلك سقط الصبي في البحر والكأس الأصلية بين يديه . ولكن القديس نيكولاس قاد الصبي دون أن يصاب بأذى تحت الماء وحتى الشاطئ ، في الوقت نفسه الذي كان فيه أبوه يقف في كنيسة القديس نيكولاس ليقدم الكأس المزيفة . وكان هذا كله مرسوماً على الألواح بالذهب وأجمل الألوان .

على لوح آخر جلست مريم العذراء والمسيح الطفل على ركبتها . كان يضغط على ذقن أمه بيد ويمسك تفاحةً بالأخرى . إلى القرب منهما وقفت القديسة سونيفا[٨] والقديسة كريستينا . كانتا تنحنيان بأسلوب جميل من خصريهما ، ووجهاهما كانا باللونين الأحمر والأبيض النقيين ، وكان لهما شعر ذهبي وتاجان ذهبيان .

ثبت الأخ إدفين نفسه باليد اليسرى على الرسغ الأيمن ورسم أوراق شجر وأزهاراً على التيجان .

قالت كريستين وهي تنظر إلى صورة القديسة التي سميت هي باسمها : «التنين صغير جداً كما أرى ، لا يبدو وكأنه يستطيع ابتلاع الفتاة» .

قال الأخ إدفين : «و هو لا يستطيع ذلك فعلاً . لم يكن حجمه أكبر من ذلك . تبدو التنانين وكل ما شابهها ممن يخدم الشيطان ، تبدو ضخمة طالما كان الخوف في أنفسنا . ولكن لو قصد انسان الرب بحماسة وتوقد وبكل روحه ، بحيث يتحول توقه إلى قوة ، عندها فإن قوة الشيطان ستعاني سقوطاً هائلاً بحيث تصبح أدواته صغيرة وعاجزة : تنكمش التنانين والأرواح

الشريرة وتصبح في حجم الجنيات الصغيرات والقطط والغربان . ترين أن كل الجبل الذي كانت فيه القديسة سونيفا لا يتعدى حجمه ما تستطيع هي لفّه في تنورة ثوبها » .

سألت كريستين : « و لكن ألم يكونوا في الكهوف ، أعني القديسة سونيفا ورجال سيليي ؟ أليس هذا صحيحاً ؟ »

لمعت عينا الراهب نحوها وابتسم مجدداً :

« صحيح وغير صحيح معاً . بدا الأمر كذلك للناس الذين وجدوا الجثمانات المقدسة . صحيح أيضاً أن الأمر بدا كذلك لسونيفا ورجال سيليي ، فقد كانوا متواضعين وظنوا العالم أقوى من كل البشرية الآثمة ، وظنوا أنهم أنفسهم أقوى من العالم لأنهم لم يحبوه . ولكن لو أنهم عرفوه فحسب ، لاستطاعوا أخذ كل الجبال ورميها في البحر كالحصى . لا يمكن لأي شخص أو شيء أن يؤذينا ياطفلتي إلاّ ما نخشاه أو نحبه » .

سألت كريستين خائفة : « و لكن ماذا لو أن شخصاً لا يخشى الرب ولا يحبه ؟ » .

أخذ الراهب شعر كريستين الأصفر بيده ، وأحنى رأسها إلى الخلف بلطف ، ونظر إلى وجهها وعيناه مفتوحتان على وسعهما وزرقاوان .

« لا يوجد رجل ولا امرأة يا كريستين لا يحب الرب ويخشاه ، ولكن لأن قلوبنا مجزّأة بين حب الرب والخشية من الشيطان والولع بالعالم والشهوات ، لذلك فإننا غير سعداء في الحياة والموت . لأنه إن لم يكن لانسان أي توق للرب وكينونة الرب ، عندها سيكون عليه أن يحشر في جهنم ، وسنكون وحدنا من لا يفهم أنه وصل إلى هناك حسب رغبة قلبه . فهناك لن تحرقه النار إن لم يكن لديه توق للبرودة ، ولن يشعر بعذاب لدغة الحيات ، إن لم يكن يعرف التوق نحو السلام » .

نظرت كريستين إلى وجهه . لم تفهم شيئاً ممّا قاله . وتابع الأخ إدفين :

«لقد كان الرب رحيماً بنا حين رأى كيف أن قلوبنا ممزقة ، فهبط وسكن بيننا ، حتى يتذوق في اللحم إغواءات الشيطان وذلك حين يوقعنا الرب في شرك السلطة والأبهة ، وكذلك وعيد الدنيا حين تصب علينا ضرباتها واحتقارها ومساميرها الحادة في اليدين والقدمين . على هذا النحو يبين لنا الرب السبيل ويعبّر عن حبه...»

نظر إلى وجه الطفلة الجدي الساكن ، ثم ضحك قليلاً وقال بصوت آخر تماماً :

«هل تعرفين من كان أول من عرف أن الرب قد جعل نفسه يولد ؟ كان ذلك هو الديك ، فقد رأى النجم فقال ـ كانت كل الحيوانات قادرة على النطق باللاتينية في تلك الأيام ـ فصاح : «كريستوس ناتوس إيست» [المسيح قد ولد] » .

و قد صاح بهذه الكلمات الأخيرة كما يصيح الديك حتى أن كريستين ضحكت من كل قلبها . وقد نفعها الضحك ، فقد كانت كل الأشياء الغريبة التي قالها الأخ إدفين قد أثقلت على قلبها .

ضحك الراهب أيضاً .

«أجل ، وحين سمع الثور ذلك ، بدأ يخور : يوبي ، يوبي ، يوبي .

«و لكن العنزة ثغت وقالت : بيت لحم ، بيت لحم ، بيت لحم!

«و تاقت النعجة لرؤية سيدتنا وابنها فثغت فوراً : إياموس ، إياموس! [أنا أكون] .

«و العجل حديث الولادة الذي كان قابعاً في القش رفع نفسه ووقف على أطرافه وقال : فولو ، فولو ، فولو! [أطير] » .

«ألم تسمعي هذا من قبل ؟ كلا ، أستطيع تصديق ذلك . أعرف أنه كاهن كفء «سيرا آيريك» ذاك الذي عندكم ، وهو عالم ؛ ولكنه لا يعرف هذا ، وأنا واثق من ذلك ، فالمرء لا يعرفه إلاّ إذا سافر إلى باريس...»

«هل كنت في باريس إذاً ؟» سألت الطفلة .

«ليباركك الله يا كريستين ، فقد كنت في باريس وسافرت في أماكن كثيرة أخرى من العالم أيضاً ، وليس عليك أن تصدقي أي شيء آخر عدا أني أخاف الشيطان وأحب وأشتهي كأي أحمق آخر . ولكني أتمسك بالصليب بكل قوتي... على المرء أن يتشبث به كما تتمسك القطيطة بلوح خشبي حين تقع في البحر .

«و أنت يا كريستين... ما رأيك أن تتبرعي بشعرك الجميل هذا وتخدمي «سيدتنا» شأن هؤلاء العروسات اللواتي رسمتهن هنا ؟»

«ليس لديهم في البيت من طفلة عداي» ، أجابت كريستين ، «لذلك لابدّ لي من أن أتزوج . وأعتقد أن أمي لديها خزائن وأدراج وفيها جهاز عرسي مهيأ منذ الآن» .

قال الأخ إدفين «أجل ، أجل» ، ثم حك جبهته . «هكذا يتعامل الناس مع أطفالهم الآن . يعطون للرب بناتهم العرجاوات أو المصابات بالعمى الجزئي أو القبيحات ، أو المشوهات ، أو يدعون الرب يسترجع الأطفال حين يعتبرون أن الرب قد منحهم أكثر من حاجتهم . ثم يتعجبون من أن كل من يقطن في الأديرة ليسوا رجالاً مقدسين وعذراوات مقدسات...»

ثم اصطحبها الأخ إدفين إلى الموهف وأراها كتب الدير التي كانت موضوعة هناك في خزانة كتب . كان فيها أجمل الصور . ولكن حين دخل أحد الرهبان تظاهر الأخ إدفين وكأنه يبحث عن رأس حمار لينسخه . فيما بعد هزّ رأسه مومئاً لنفسه وقال :

« أجل ، ها أنت ترين ما يفعله الخوف يا كريستين... ولكنهم يخشون كثيراً على كتبهم في المنزل هنا . لو كنت صاحب إيمان وحب صادقين ، ما كنت لأقف هنا كما أفعل ، وأكذب على الأخ أسولف... ولكن حينها كنت أستطيع أن آخذ قفازات الفرو هذه وأعلقها تحت شعاع الشمس هناك... »

تناولت طعام الغداء مع الراهب في بيت الضيوف ، ولكنها بقيت في الكنيسة طوال اليوم وهي تراقبه في عمله وتثرثر معه . ولم يتذكرا ـ إلاّ حين جاء لافرانس ليصطحبها ـ الرسالة التي كان يتوجب إيصالها إلى صانع الأحذية .

•

تذكرت كريستين لاحقاً تلك الأيام في « هامار » أكثر من كل ما حدث لها في تلك الرحلة . كانت أوسلو بالفعل مدينة أعظم من هامار ، ولكن الآن بعد أن رأت بلدة السوق ، فلم تبدُ لها شديدة الأهمية . كما أنها لم تعتبر سكوغ جميلة شأن يوروندغارد ، رغم أن المنازل كانت أفخم... ولكنها كانت سعيدة بأنها لم تكن تقطن هناك . كانت الضيعة فوق منحدر جبلي ، وإلى الأسفل كان نهر « بوتنفيورد » الرمادي والحزين مع حرج داكن . وعلى الشاطئ الآخر البعيد وخلف المنازل وقفت الغابة والسماء فوق أعالي الأشجار مباشرة . لم تكن هناك تلال عالية منحدرة كما في موطنها ، لترفع السماء عالياً فوق المرء لإبقاء النظر محمياً ومتاحاً حتى لا يبدو العالم كبيراً جداً ولا صغيراً جداً .

كانت رحلة العودة إلى البيت باردة وكان شهر عيد الميلاد قد اقترب ، ولكن حين وصلوا إلى « ديل » ، كان الثلج قد تساقط ، لذلك استعاروا مزلجة وساروا بها معظم الطريق .

أما فيما يخص مسألة العقارات فقد تنازل لافرانس عن سكوغ لأخيه آسموند ، مبقياً حق الاسترداد لنفسه ولورثته .

٣

في الربيع الذي تلا رحلة كريستين الطويلة ، ولدت راغنفريد لزوجها ابنة أخرى . كان الأب والأم كلاهما يتمنى بالفعل أن يكون ابناً ، ولكن سرعان ما أحسا بالراحة ، وقد امتلأ قلباهما بأرقّ حب نحو « أولفهيلد » الصغيرة . كانت طفلة جميلة جداً ، صحيحة البدن ، طيبة ، سعيدة ، هادئة . شغفت راغنفريد إلى حد كبير بالطفلة الجديدة حتى أنها بقيت ترضعها خلال السنة الثانية من حياتها ، لذلك ، وبناء على وصية سيرا آيريك ، فقد تخلّت نوعاً ما عن صيامها الصارم وممارساتها الدينية خلال إرضاعها لطفلتها .إذن ، بسبب فرحتها بأولفهيلد ، عاد شبابها إليها ، وفكر لافرانس في أنه لم يسبق له أن رأى زوجته سعيدة إلى هذا الحد أو جميلة أو لطيفة إلى هذا الحد خلال سنوات زواجهما كلها .

شعرت كريستين أيضاً بكل تلك السعادة التي وصلت إليهم مع هذه الأخت الصغيرة اللطيفة . لم تكن قد فكرت في أن مزاج أمها الكئيب قد جعل جو البيت راكداً . كانت تظن أنه كما يجب أن يكون ، وأن أمها يجب أن تكون على حق وأن توبخها ، بينما كان أبوها يلاعبها ويمزح معها . ولكن راغنفريد أصبحت ألطف بكثير معها الآن وراحت تعطيها

المزيد من الحرية . أصبحت تربت عليها أكثر أيضاً . لذلك لم تنتبه كريستين إلاّ قليلاً إلى أن أمها أصبح لديها وقت أقل تكرسه لها . لقد أحبت أولفهيلد بقدر الآخرين ، وكانت تفرح حين يسمحون لها بحمل أختها أو هزّها ، ومع مرور الوقت أصبحت تمارس المزيد من اللعب مع الطفلة الصغيرة حين بدأت هذه تحبو وتمشي وتتكلم وأصبحت كريستين قادرة على اللعب معها .

و هكذا مرت ثلاث سنوات طيبة على سكان يوروندغارد . كان الحظ معهم بطرق كثيرة ، وبنى لافرانس في الضيعة وحسّن فيها ، فقد كانت الأبنية وحظائر الماشية قديمة وصغيرة حين وصل إلى هنا : إذ كان آل غييسلينغ قد أجّروا المكان لفترات تزيد على فترة حياة واحدة .

والآن حدث في أسبوع العنصرة في السنة الثالثة أن أتى «تروند إيفارسون» من سوندبو ، مع زوجته «غودريد» وأبناؤهما الثلاثة الصغار إلى يوروندغارد لزيارتهم . في صباح أحد الأيام كان الأفراد الكبار من العائلة يجلسون ويتحدثون في شرفة العلّية ، بينما راح الأطفال يلعبون في الباحة في الأسفل . كان لافرانس قد بدأ ببناء مسكن جديد في الباحة ، وكان الأطفال يتسلقون ويزحفون فوق ألواح الخشب التي جلبت للبناء . كان أحد أولاد غييسلينغ قد ضرب أولفهيلد وجعلها تبكي . وعند ذلك نزل تروند وضرب ابنه ، ثم رفع أولفهيلد بذراعيه . كانت أجمل وأعذب طفلة رأتها العيون ، وكان عمها يحبها كثيراً ، رغم أنه ما كان يحب الأطفال كثيراً . عند ذاك وصل رجل عبر الباحة من مرعى الأبقار ، وهو يجر ثوراً أسود كبيراً ، ولكن الثور كان متوحشاً وغير سهل القياد وقد أفلت من الرجل . قفز تروند من على كومة الأخشاب وقاد الأطفال الأكبر أمامه ، ولكن كانت أولفهيلد في ذراعيه وابنه الأصغر يمسك بيده . ثم انزلق جذع خشبي تحت قدميه

وانـزلقت أولفهيلد من قبضته وسقطت على الأرض . وانـزلـق الجذع خلفها وتدحرج فوق الطفلة واستقر فوق ظهرها .

كان لافرانس قد هبط من الشرفة في اللحظة نفسها . ركض وكان سيرفع الجذع حين اندفع الثور باتجاهه . حاول أن يمسكه من قرنيه ، ولكنه رُمي أرضاً ونُطح . إلاّ أنه استطاع إمساكه من منخريه فرفع نفسه نصف رفعة عن الأرض واستطاع أن يثبت الحيوان حتى عاد تروند إلى رشده بعد اضطرابه وهرع خدم المزرعة من المنازل ورموا السيور من حول الثور حتى أوثقوه .

كانت راغنفريد على ركبتيها تحاول رفع الجذع . والآن كان لافرانس قادراً على رفعه قليلاً حتى تستطيع سحب الطفلة من تحته إلى حضنها . كانت الصغيرة تبكي على نحو مثير للشفقة حين يلمسونها ، ولكن أمها بكت بصوت مرتفع : «إنها حية ، حمداً لله ، إنها حية!»

وكان أمراً عجباً ألاّ تكون الطفلة قد انسحقت تماماً ، ولكن الجذع سقط بحيث كان عند أحد طرفيه فوق حجر في العشب . وحين نهض لافرانس مجدداً كان الدم يسيل من زاويتي فمه ، وكانت ملابسه كلها ممزقة عند الصدر بسبب قرني الثور .

أتت تورديس تعدو بغطاء جلدي . ونقلت هي وراغنفريد الطفلة إلى الغطاء ، ولكن بدا وكأنها كانت تعاني ألماً لا يحتمل عند أقل لمسة . حملتها أمها وتورديس إلى غرفة الشتاء .

وقفت كريستين فوق كومة الأخشاب ، شاحبة وساكنة ، بينما التصق الصبيان الصغار بها باكين . كان كل أهل البيت والمزرعة محتشدين الآن في الباحة ، النساء يبكين ويعولن ، أمرهم لافرانس بإسراج غولدسفاينن وحصاناً آخر أيضاً . وحين وصل آرن بالحصانين ، سقط لافرانس على الأرض حين

حاول أن يصعد إلى السرج . لذلك أمر آرن بالذهاب لاستدعاء الكاهن ، بينما مضى هالفدان جنوباً لجلب «الحكيمة» التي كانت تقطن عند التقاء النهرين .

رأت كريستين وجه أبيها شاحباً بلون الرماد ، وأنه كان قد نزف حتى أصبحت ملابسه ذات اللون الأزرق الفاتح مغطاة كلها ببقع حمراء بنية . وعلى الفور وقف منتصباً ، وتناول فأساً من أحد الرجال ، وذهب إلى حيث كان بعض الناس يقفون وقد أمسكوا بالثور . ضرب الحيوان بين قرنيه بمؤخرة الفأس ، فسقط أرضاً على ركبه . ولكن لافرانس لم يتوقف عن الضرب حتى كان دمه ودماغه قد تناثرا في كل أنحاء المكان . ثم أصابته نوبة سعال فسقط على الأرض على ظهره . اقترب منه تروند ورجل آخر وحملاه إلى داخل المنزل .

عند ذاك ظنت كريستين أن أباها قد مات بالتأكيد . صرخت بصوت عال وعدت خلفه وهي تناديه وكأن قلبها كان ينسحق .

في غرفة الشتاء كانت أولفهيلد قد وضعت على السرير الكبير : رميت كل الوسائد على الأرض ، حتى تضطجع الطفلة باستواء . لكأنه قد سبق لها ومُدّدت على قش الموتى . ولكنها كانت تبكي بصوت مرتفع دون توقف ، وكانت أمها منحنية فوقها ، تخفف عن الطفلة وتربت عليها .

تمدد لافرانس على السرير الآخر . نهض وترنح عبر الغرفة حتى يواسي زوجته . عندما رأت ذلك أجفلت وصرخت :

«لا تلمسني ، لا تلمسني! يا يسوع ، يا يسوع ، ظننت أنك ستضربني الضربة القاضية... لن ينتهي أبداً سوء الطالع الذي أجلبه لك...»

«أنت يا زوجتي العزيزة ، لم يكن أنت من سبب هذا لنا» .

قال تروند إيفارسون بخشونة : «لا شك أنها تعني أن ذلك كان من فعلي» . نظرت أخته إليه والحقد في عينيها وأجابت :

«تروند يعرف ما أعنيه» .

عدت كريستين نحو أبويها ، ولكنهما كلاهما دفعاها بعيداً عنهما . ثم أمسكتها توردیس التي كانت تحضر إبريقاً من الماء الساخن من كتفها وقالت : «اذهبي ، اذهبي إلى منزلنا ، يا كريستين ، أنت واقفة في طريقنا هنا» .

كانت تورديس ماضية إلى لافرانس لتعتني بجراحه ـ وكان قد أجلس نفسه على الدرجة أمام السرير ـ ولكنه قال إنه على ما يرام لولا القليل من الانزعاج :

«و لكن أليس هناك شيء تستطيعين فعله للتخفيف من آلام أولفهيلد... ليساعدنا الرب! إن بكاءها ليحرك الحجر في منحدر الجبل!»

«لا ، لا نستطيع لمسها قبل أن يصل الكاهن أو انغجيبرد الحكيمة ،» قالت تورديس .

عندها وصل آرن قائلاً إن سيرا آيريك لم يكن في منزله . وقفت راغنفريد بعض الوقت تعصر يديها . ثم قالت :

«أرسلوا وراء الليدي آشيلد أوف هوغن! لا شيء يهم الآن لو نستطيع فقط إنقاذها...»

لم يأبه أحد بكريستين . زحفت إلى المقعد خلف رأس السرير ، جثمت ووضعت رأسها على ركبتيها .

بدا لها وكأن أيدياً حجرية كانت تضغط على قلبها . كان لا بد من إحضار الليدي آشيلد! لم تقبل أمها أن يرسلوا في طلب الليدي آشيلد حتى حين كانت هي نفسها قريبة من بوابة الموت عند مولد أولفهيلد ، ولم تقبل كذلك حين اعترت كريستين ذات مرة حمى شديدة . كانت الليدي آشيلد ساحرة كما يقول الناس ـ كان أسقف أوسلو وجماعة الرهبان قد حاكموها ،

ولا بد أنها كانت ستُعدم أو تُحرق حتماً ، لولا أنها كانت من أسرة رفيعة المقام وكانت أشبه بالأخت للملكة انغبيورغ ـ ولكن الناس تقول إنها سمّمت زوجها الأول ، وإنها فتنت الثاني ، الذي هو معها الآن ، بالسحر ؛ فقد كان في عمر ابنها . كان لها أولاد ، ولكنهم لا يزورون أمهم أبداً ، وهذان الزوجان رفيعا المقام ، بيورن وآشيلد ، يقيمان في مزرعة صغيرة في دوفر ، وقد فقدا كل ثروتهما . ما كان أحد من النبلاء في «ديل» يتعاطى معهما ، ولكن كان الناس يستشيرونها سراً ، بينما كان الفقراء يذهبون علناً إليها بمشكلاتهم وأمراضهم ، ويقولون إنها كانت لطيفة إلاّ أنهم يخشونها كثيراً .

ظنت كريستين أن على أمها ، التي كان من عادتها الصلاة باستمرار ، أن تتضرع إلى الرب والعذراء بالأحرى . حاولت هي نفسها أن تصلي : إلى القديس أولاف خصيصاً ، فقد كانت تعرف أنه طيب جداً ويساعد الكثيرين ممن عانوا المرض أو الجراح أو العظام المكسورة . ولكنها لم تستطع أن تلملم أفكارها .

كان أبوها وأمها وحدهما في الغرفة الآن ، كان لافرانس قد تمدد في سريره مجدداً ، وجلست راغنفريد منحنية فوق طفلتها المصابة ، وهي تمرر بين الحين والآخر خرقة مبللة فوق جبينها ويديها ، وتبلل لها شفتيها بالنبيذ .

مضى وقت طويل . كانت توردیس تطلّ بين الحين والآخر ، وكان من شأنها أن تقدم يد المساعدة بكل سرور ، ولكن راغنفريد كانت تبعدها في كل مرة . بكت كريستين بصمت وصلت في قلبها ، ولكنها راحت تفكر طوال الوقت في الساحرة وتنتظر قدومها بتوق .

و فجأة سألت راغنفريد في الصمت :

«هل أنت نائم يا لافرانس ؟»

أجاب زوجها : «لا . أنا أصغي إلى أولفهيلد . لا شك أن الرب سيساعد حمله البريء يا زوجتي... لا يمكننا الشك في ذلك . ولكن من المنهك الجلوس هنا والانتظار...»

قالت راغنفريد بيأس : «الرب يكرهني لأجل خطاياي . ماجرى لأبنائي قد جرى وهم حيث هم ، لا أشك في ذلك ، ولكن يبدو الآن أن ساعة أولفهيلد قد أزفت أيضاً... ولكنه يكرهني لأن قلبي عش لمصاصة دماء ، مليء بالخطايا والحزن...»

ثم رفع شخص ما المزلاج : دخل سيرا آيريك ونصب هيكله الضخم حيث كان واقفاً وقال بصوته الواضح العميق : «فليساعدنا الرب جميعاً في هذا المنزل!»

وضع الكاهن علبة أدويته على الدرجة التي أمام السرير ومضى إلى الموقد المفتوح وصب ماء دافئاً على يديه . ثم أخرج صليباً من صدره وضرب به الزوايا الأربع للغرفة وهمهم بشيء ما باللاتينية . ثم فتح فتحة التهوية حتى يدخل النور إلى الغرفة ، ومضى ليرى أولفهيلد .

خشيت كريستين أن يراها فيخرجها من الغرفة ، فلم تكن عينا سيرا آيريك تتركان شيئاً يفوتهما في الأغلب . ولكن الكاهن لم يتطلع فيما حوله . أخرج قارورة من العلبة ، وصب منها شيئاً على لبادة من الصوف الممشط بدقة ووضعها على فم وأنف أولفهيلد .

قال الكاهن : «الآن سيخف ألمها» . مضى إلى لافرانس وعاين جروحه ، بينما راحا يقصان عليه كيف جرى الحادث المشؤوم . كان ضلعان من أضلاع لافرانس قد كُسرا ويوجد جرح في رئته ، ولكن الكاهن رأى أن وضعه ليس بالخطير جداً .

سأل الأب خائفاً : «و أولفهيلد ؟»

أجاب الكاهن : «سأقول لك حين أكون قد عاينتها على نحو أفضل ، ولكن عليك أن تمكث في العلية ، حتى يكون الجو أهدأ هنا على أولئك الذين عليهم العناية بها» . وضع ذراع لافرانس حول كتفه ، أمسكه بشدة وحمله خارجاً . كان من شأن كريستين أن تخرج مع أبيها بكل سرور الآن لولا أنها لم تتجرأ على إظهار نفسها .

حين عاد سيرا آيريك لم يخاطب راغنفريد بل قام أولاً بقص ملابس أولفهيلد التي راحت تئن أقلّ الآن وتبدو نصف نائمة . ثم راح يتحسس بعناية جسم الطفلة وأطرافها .

«هل طفلتِي في حالة سيئة جداً يا آيريك حتى أنك لا تعرف كيف تنقذها ، بما أنك لا تقول شيئاً ؟» سألت راغنفريد وهي تتنفس بصعوبة .

أجاب الكاهن بصوت خفيف .

«يبدو أن ظهرها قد أصيب بشدة يا راغنفريد . لا أرى حلاً أفضل من أن أتركها بين يدي الرب والقديس أولاف... لا أستطيع فعل ما هو أفضل» .

صاحت الأم بانفعال : «إذن علينا أن نصلي! أنت تعرف جيداً أن لافرانس وأنا مستعدان لإعطائك أي شيء تطلبه ولا نبخل عليك بأي شيء لو استطاعت صلواتك أن تقنع الرب بجعل أولفهيلد تعيش» .

قال الكاهن : «ستكون معجزة أن تعيش وتعود إليها صحتها مجدداً» .

«أولست تعظ بالمعجزات في العشايا والأصباح ؟ ألا تعتقد أن معجزة ما قد تحدث لطفلتي ؟» هكذا قالت باللهجة المجنونة نفسها .

أجاب الكاهن : «صحيح أن المعجزات تحدث ، ولكن الرب لا يلبي كل الدعوات... نحن لا نعرف ما يضمره . ألا تعتقدين أن أسوأ الأمور أن تنشأ هذه الفتاة الصغيرة الجميلة مشوهة أو عاجزة عن المشي ؟»

هزت راغنفريد رأسها . ناحت بصوت خفيض : «لقد سبق لي وفقدت الكثيرين أيها الكاهن ولا أستطيع فقدانها» .

أجاب الكاهن : «سأفعل كل ما بوسعي وسأصلي بكل قدرتي . ولكن عليك أن تكافحي يا راغنفريد لحمل الصليب الذي فرضه الرب عليك» .

أنّت الأم بصوت خفيف :

«لم أحبب أحداً من أولادي كما أحببتُ هذه الصغيرة... ولو أنها أخذت مني أيضاً فأنا على ثقة تامة بأن قلبي سيتحطم» .

«ليكن الرب إلى جانبك يا راغنفريد إيفارسداتر» قال سيرا آيريك وهزّ رأسه . «في كل صلاتك وصيامك فكرت فقط في فرض إرادتك على الرب . أتستطيعين أن تتعجبي من أنها لم تساعدك إلاّ قليلاً ؟»

نظرت راغنفريد بتحدٍّ إلى الكاهن ونطقت :

«لقد أرسلت الآن في طلب الليدي آشيلد» .

أجاب الكاهن : «حسناً أنت تعرفينها أما أنا فلا» .

«لا أستطيع العيش دون أولفهيلد» ، قالت راغنفريد كما من قبل . «لو شاء الرب ألاّ يساعدها ، فسوف أستشير الليدي أشيلد ، بل وأنا مستعدة حتى أن أسلم روحي للشيطان لو كان من شأن هذا أن ينفع» .

بدا على الكاهن كأنه سيرد بحدّة ، ولكنه أحجم مجدداً . انحنى وتحسس أطراف الفتاة الصغيرة المصابة مرة أخرى .

قال : «يداها باردتان وكذلك قدماها ، يجب أن نضع جراراً من الماء الساخن من حولها ، ثم عليك ألاّ تلمسيها بعد الآن حتى تصل الليدي آشيلد» .

عادت كريستين لتقبع فوق المقعد دون ضجة وتضطجع كالنائمة . كان قلبها يدق بقوة من الخوف : لم تكن فهمت سوى القليل من الحديث بين

سيرا آيريك وأمها ، ولكنه أخافها إلى حد كبير ، وعرفت الطفلة جيداً أنه لم يكن من المفروض أن تسمعه .

نهضت أمها لتذهب وتحضر جرار الماء الساخن ، وفجأة انطلقت هي بالبكاء . «و لكن صلِّ لأجلنا يا سيرا آيريك!» .

سرعان ما عادت مع توردِيس . ثم انشغل الكاهن والمرأتان بأولفهيلد ، ثم سرعان ما وجدت كريستين وطُلب إليها الانصراف .

●

أبهر النور الطفلة وهي واقفة خارج الباحة . كانت قد ظنت أن معظم النهار قد انقضى بينما هي جالسة في غرفة الشتاء المعتمة ، ومع ذلك كانت المنازل تنتصب هناك بلون رمادي فاتح ، وكان العشب يلتمع مثل الحرير تحت النور الأبيض لشمس منتصف النهار . التمع النهر خلف أجمة أشجار جار الماء المعرشة ذات اللون الكميت والذهبي : كان يملأ الجو بصوته المندفع الفرح ، فهنا عند يوروندغارد كان يجري فوق سطح منبسط انتشرت فوق الصخور الكبيرة . برزت جدران الجبل أمام السديم الأزرق الرقيق ، وجرت الجداول على الجوانب عبر الثلج الآخذ بالذوبان . جلب الفيض الربيعي العذب القوي في الخارج الدموع إلى عينيها ، مع كل الأسى الذي كانت تستشعره فيما حولها تجاه العجز .

لم يكن هناك أحد في الباحة ، ولكنها سمعت أصواتاً في كوخ «الهاوس كارل» . كانت تربة جديدة قد نثرت فوق البقعة حيث قتل أبوها الثور . لم تكن تعرف ما تفعله بنفسها ، لذلك زحفت خلف جدار المنزل الجديد : كان صفان من الألواح الخشبية قد سبق أن ثبتا في الأرض . في الداخل كانت ألعاب أولفهيلد وألعابها هي . وضعتها كلها معاً في ثقب بين أخفض لوح

خشبي وجدار الأساس . مؤخراً كانت أولفهيلد تريد كل ألعابها ، وكان هذا يثير غضبها أحياناً . والآن فكرت في أنه لو شفيت أختها ، ستعطيها كل ما لديها من ألعاب . وقد أراحتها هذه الفكرة قليلاً .

فكرت بالراهب في هامار ، كان واثقاً من أن المعجزات يمكن أن تحدث لكل شخص . ولكن سيرا آيريك لم يكن واثقاً من ذلك ولا والديها أيضاً . كانت هي معتادة على التفكير كما فعلوا هم . هبط عبء ثقيل عليها حين خطر لها لأول مرة أن الناس يستطيعون التفكير على نحو شديد الاختلاف في كثير من الأمور ـ ليس الناس الشريرين غير الأتقياء والناس الطيبين فحسب ، ولكن أيضاً مثل هؤلاء الأشخاص شأن الأخ إدفين وسيرا آيريك ـ بل وحتى أمها وأبوها : أحست فوراً أنهما لم يكونا متشابهين في كثير من الأمور...

وجدتها توردیس هناك في الزاوية ، نائمة ، في وقت متأخر من النهار ، وأخذتها إلى بيتها . لم تكن الطفلة قد أكلت شيئاً منذ الصباح . كانت توردیس مع راغنفريد ترعيان أولفهيلد خلال الليل كله ، وكانت كريستين تنام في سرير توردیس مع «يون» ، زوج توردیس ، وكذلك آيفيند وأورم ولديهما الصغيرين . جعلت رائحة أجسادهم وشخير الرجل وتنفس الطفلين المنتظم كريستين تبكي بصمت . لم يكن قد مرّ زمن طويل على المساء الأخير منذ أن نامت ، كما فعلت في كل ليلة من ليالي حياتها ، قرب أبيها وأمها وأولفهيلد الصغيرة : بدا لها الأمر وكأن عشاً قد شطر نصفين وتناثر في كل مكان ، ورميت هي خارج حمى الجناحين اللذين كانا يبقيانها دافئة على الدوام . وأخيراً بكت حتى نامت ، وحيدة وبائسة بين أشخاص غرباء .

في صباح اليوم التالي ، وما أن أفاقت ، حتى سمعت أن خالها وكل جماعته قد غادروا المكان : غاضبين . كان تروند قد دعا أخته بالحمقاء

المجنونة ، ودعا صهره بالمغفل غير الحازم الذي لم يعرف كيف يتحكم بزوجته . غضبت كريستين ولكنها كانت خجلة أيضاً ، فقد فهمت جيداً الآن أنّ شيئاً غير لائق قد حدث إذ أن أمها قد طردت أقرب الناس إليها من بيتها . ولأول مرة أحست أن هناك شيئاً ما يخص أمها لم يكن كما يجب : أنها لم تكن مثل النساء الأخريات .

و بينما راحت تفكر في ذلك ، دخلت خادمة وقالت إن عليها الصعود إلى العلية لترى أباها .

و لكن حين دخلت الغرفة نسيت كريستين أن تنظر إليه ، فقد جلست أمام الباب المفتوح مباشرة ، والنور موجه مباشرة على وجهها ، امرأة ضئيلة الحجم خمنت كريستين أنها لا بدّ أن تكون الساحرة . ومع ذلك فإن كريستين ما كانت تظن أن مظهرها سيكون كذلك .

بدت ضئيلة الحجم كطفلة ورقيقة التكوين ، وهي جالسة في الكنبة عالية الظهر التي حملت إلى هناك . كانت مائدة قد وضعت هناك أيضاً مغطاة بأفضل غطاء مائدة كتاني مطرز لدى أمها . كان لحم الخنزير المقدد ولحم الطيور قد وضع أمامها على طبق فضي ، وكذلك نبيذ في طَسَّةٍ خشبية ، وأمامها قدح لافرانس الفضي لتشرب منه . كانت قد أنهت طعامها وكانت منهمكة في تجفيف يديها الصغيرتين الرشيقتين بواحدة من أفضل مناشف اليد لدى راغنفريد . أما راغنفريد نفسها فكانت تقف أمامها وتحمل لها طستاً نحاسياً فيه ماء .

تركت الليدي آشيلد منشفة اليد تسقط في حجرها . ابتسمت للطفلة وقالت بصوت واضح جميل :

« تعالي إليّ أيتها الطفلة! » ثم قالت لأمها : « لديك طفلتان جميلتان يا راغنفريد » .

كان وجهها شديد التجعيد ، ولكنه أبيض ووردي وصاف مثل وجه طفلة ، لقد بدا وكأن بشرتها يجب أن تكون طرية ولطيفة الملمس . كان فمها أحمر ونضراً كفم امرأة شابة ، وكانت عيناها الواسعتان الكستنائيتان تلتمعان . كانت تغطي رأسها بمنديل أبيض رقيق من الكتان وينزل قريباً من وجهها كما كان مثبتاً تحت ذقنها بمشبك ذهبي . من فوقه كان هناك خمار من الصوف الطري بلون أزرق داكن . كان ينزل من حول كتفيها ويصل إلى ثوبها الداكن الضيق . كانت تقف مستقيمة مثل عصا ، وشعرت كريستين أكثر مما فكرت أنه لم يسبق لها أن رأت امرأة جميلة ومهذبة شأن هذه الساحرة العجوز التي كانت علية القوم في الوادي لا ترضى بالتعامل معها .

أمسكت الليدي آشيلد بيد كريستين في يدها العجوز الناعمة وتحدثت إليها مازحة بلطف ، ولكن كريستين لم تستطع أن تجيب بكلمة واحدة . ثم قالت الليدي آشيلد مع ضحكة صغيرة :

« هل هي خائفة مني ، كما تعتقدين ؟ »

« لا ، لا » صرخت كريستين . ثم ضحكت الليدي آشيلد مرة أخرى وقالت للأم :

« لها عينان حكيمتان ، ابنتك هذه ، ويدان جيدتان قويتان ، وهي ليست معتادة على الكسل كما أستطيع أن أرى . ستكونين في حاجة إلى مثلها قريباً لتساعدك على العناية بأولفهيلد ، بعد أن أرحل . لذلك فإنه لأمر حسن أن تدعي كريستين قريبة مني وتساعدني بينما أنا هنا... إنها كبيرة بما فيه الكفاية لهذا الأمر . إنها في الحادية عشرة ، أليس كذلك ؟ »

عند ذلك خرجت الليدي آشيلد ، وكانت كريستين ستلحق بها ، ولكن لافرانس نادى عليها من سريره . كان مضطجعاً على ظهره والوسائد محشورة

تحت ركبتيه المرفوعتين إلى أعلى . كانت الليدي آشيلد قد أمرت بأن يضطجع على هذا النحو ، حتى يخف الألم في صدره على نحو أسرع .

سألت كريستين : «والآن سرعان ما ستشفى بالتأكيد يا سيدي الوالد . أليس كذلك ؟»

نظر إليها لافرانس : لم تكن الفتاة قد خاطبته بكلمة «سيدي» من قبل . ثم قال بجدية :

«بالنسبة لي لا خوف عليَّ . الأمر أسوأ بالنسبة لأختك» .

قالت كريستين : «أجل» ، ثم تنهدت .

وقفت لبعض الوقت أيضاً قرب سريره . لم يقل والدها شيئاً آخر ، ولم تجد كريستين ما تقوله . وحين قال لها لافرانس بعد فترة إن عليها النزول إلى أمها والليدي آشيلد ، أسرعت كريستين خارجة وعدت عبر الباحة نحو غرفة الشتاء .

٤

مكثت الليدي آشيلد في يوروندغارد معظم الصيف . وهكذا حدث أن الناس كانوا يأتونها إلى هناك للمشورة... سمعت كريستين سيرا آيريك يسخر من ذلك بين الحين والآخر ، وقد خطر لها أن أباها وأمها أيضاً لم يكونا مسرورين . ولكنها أبعدت كل الأفكار عن مثل هذه الأمور بعيداً عنها ، ولم تفكر في رأيها بالليدي آشيلد بل كانت معها دائماً وتحاول عدم الإصغاء إلى الليدي أو مراقبتها .

كانت أولفهيلد لا تزال ممدة على ظهرها في السرير الكبير . كان وجهها الصغير أبيض حتى الشفتين ، وحلقات سوداء تجمعت تحت عينيها . كان لشعرها الأصفر الجميل رائحة كريهة ، فهو لم يغسل من زمن طويل ، كما كان قد أصبح داكن اللون وفقد كل لمعته وتجعيدته ، بحيث بدا كالقش القديم المحترق . بدت متعبة ومعانية وصابرة ؛ ولكنها كانت تبتسم بضعف وسقم لأختها حين تجلس كريستين قرب السرير وتثرثر وتري الفتاة الصغيرة كل الهدايا التي جلبها أبوها وأمها وأصدقاؤهم وأقرباؤهم من جميع الأنحاء . كانت هناك دمى وطيور وحيوانات خشبية ولوح داما صغير ، وحلى صغيرة وقبعات مخملية وأشرطة ملونة . أبقتها كريستين كلها في علبة لها ، وكانت

أولفهيلد تنظر إليها بعينيها الوقورتين ، وتتنهد ، ثم تسقط الكنوز من يديها المنهكتين .

و لكن حين كانت الليدي آشيلد تقترب ، كان وجه أولفهيلد يشع بالسعادة . كانت تشرب بلهفة المشروبات التي تبل الظمأ وتنوّم والتي كانت الليدي آشيلد تحضرها لها . وحين كانت الليدي آشيلد تعالج جراحها لم تكن تتذمر ، وكانت تضطجع سعيدة مصغية بينما تعزف الليدي على قيثار لافرانس وتغني : كان لديها مخزون كبير من الأغاني الغريبة على أسماع سكان « ديل » .

و غالباً ما كانت تغني لكريستين حين تنام أولفهيلد . وأحياناً كانت تحكي لها عن أيام شبابها ، حين كانت تسكن في الجنوب في بلاط الملك ماغنوس ثم الملك آيريك وملكتيهما .

وذات مرة وبينما هما جالستان هكذا والليدي آشيلد تحكي عن هذه الأمور ، زلّ لسان كريستين عن فكرة كانت دائماً في بالها :

ـ أعتقد أنه من الغريب أن تكوني سعيدة في كل الأوقات ، أنت التي اعتدت عليّ... وهنا صمتت واحمر وجهها .

نظرت الليدي آشيلد نحو الفتاة مبتسمة :

« تعنين لأني ابتعدت عن كل ذلك الآن ؟ » ثم ضحكت بهدوء وقالت : «لقد مرت عليّ أوقات سعيدة يا كريستين ، ولست حمقاء إلى حد أن أتذمر إن كان عليّ الآن أن أشرب الحليب دون قشدة واللبن الرائب بعد أن شربت نبيذي وجعتي . قد تدوم الأيام الطيبة طويلاً لو عاش المرء بحكمة وتعامل بحذر مع ما لديه . كل الناس الحكماء يعرفون ذلك ، ولذلك أعتقد أن على الناس الحكماء أن يكونوا قانعين بالأيام الطيبة : فأفضل الأيام طراً تكلف غالياً . في هذا العالم يسمون الشخص الذي يبدد إرثه حتى يمرح في

أيام شبابه بالأحمق . فيما يخص هذا ، فإن كل إنسان قد يتصرف كما يهوى . ولكن الإنسان الوحيد الذي أسميه أحمق وغبياً جداً هو ذاك الذي يندم على صفقته بعد أن تتم ، وأعتبر الساذج وكبير الحمقى ذاك الذي يفكر في رؤية المزيد من رفاقه المرحين بعد أن يزول إرثه... »

« ... أهناك شيء على غير ما يرام في أولفهيلد ؟ » نادت بلطف تجاه راغنفريد التي قامت بحركة حادة حيث كانت تجلس قرب سرير الطفلة .

قالت أم الطفلة : « لا شيء . إنها تنام جيداً » ،و اقتربت الليدي آشيلد وكريستين من المدفأة . كانت يداها على عمود فتحة الدخان ، حين وقفت ونظرت في وجه الليدي آشيلد .

قالت : « كريستين لا تفهم مثل هذه الأمور » .

أجابت الليدي : « لا . ولكنها حفظت صلواتها أيضاً وأنا لا أشك أبداً في ذلك ، قبل أن تفهمها . في الوقت الذي نكون فيه في حاجة إلى صلوات أو مشورة ، لا نكون في مزاج قابل للتعلم ولا للفهم » .

زمّت راغنفريد حاجبيها الداكنين معاً متأملة . في مثل تلك الأوقات كانت عيناها اللامعتان الغائرتان تبدوان كبحيرتين صغيرتين تحت منحدر جبلي مغطى بالأحراج ، هكذا كانت كريستين تظن وهي صغيرة بعد ، أو هكذا سمعت الآخرين يقولون . نظرت الليدي آشيلد إلى راغنفريد بابتسامتها نصف الصغيرة ، وأجلست الأم نفسها على حافة المدفأة ، فأخذت عوداً وحشرته في الجمر .

« و لكن ذاك الذي أهدر ميراثه على أسوأ البضائع ، ثم ينظر لاحقاً إلى كنز يعطي حياته بسعادة لقاء تملكه ، ألا تظنين أنه سيندم بمرارة على حماقته ؟ »

قالت الليدي آشيلد : «ليس هناك فعل دون بعض الندم يا راغنفريد .

وذاك الذي يكون مستعداً لمنح حياته يجب أن يغامر ويرى ما يستطيع كسبه » .

انتزعت راغنفريد العود المحترق من النار ، نفخت اللهيب حتى انطفأ وثنت يدها فوق النهاية المتقدة حتى شعّ بلون الدم الأحمر من بين أصابعها .

« أوه! هذه كلمات ، كلمات ، مجرد كلمات ياليدي آشيلد » .

قالت الأخرى : « حسناً ، حقاً يا راغنفريد ، لا يوجد الكثير مما يستحق الشراء بهذا الثمن الغالي شأن حياة المرء » .

« لا ، بل يوجد » ، قالت راغنفريد بانفعال . ثم همست قائلة بصوت لا يكاد يسمع : « زوجي » .

قالت الليدي آشيلد بصوت خفيف : « يا راغنفريد ، ظنت كثير من العذراوات ذلك حين حاولن أن يربطن رجلاً بهن وقمن بمنحه بكارتهن لقاء ذلك . ولكن ألم تقرئي عن رجال وعذراوات منحوا الرب كل ما يملكون ، وذهبوا إلى دير أو عراة إلى البرية ، ثم ندموا بعد ذلك . أجل ، هؤلاء يدعون بالحمقى في الكتب الدينية . وسيكون من الإثم التفكير في أن الرب قد غشهم في صفقته معهم » .

جلست راغنفريد ساكتة لبعض الحين . ثم قالت الليدي آشيلد :

« عليك أن تأتي معي الآن يا كريستين ، فقد حان موعد الذهاب لجمع الندى لنغسل به أولفهيلد في الصباح » .

•

في الخارج كانت باحة الدار سوداء وبيضاء تحت نور القمر . ذهبت راغنفريد معهما ، عبر فناء المزرعة ثم نزولاً إلى بوابة بستان الملفوف .

رأت كريستين شكل أمها النحيل المعتم ينحني هناك ، بينما كانت هي تهز الندى عن أوراق الملفوف الكبيرة الباردة كالثلج ، وطيات نباتات « غطاء السيدة » وذلك في كأس أبيها الفضية .

سارت الليدي آشيلد بصمت إلى جانب كريستين . كانت هناك لتحرسها فقط ، فلم يكن أمراً جيداً ترك طفلة تخرج وحدها في مثل هذه الليلة . ولكن كان للندى مزية أفضل لو جرى جمعه من قبل عذراء بريئة .

حين عادتا إلى البوابة كانت راغنفريد قد رحلت . كانت كريستين ترتجف من البرد وهي تسلم الكأس الفضية المثلجة إلى يدي الليدي آشيلد . عدت في حذائها الرطب نحو العلية ، حيث كانت تنام هناك الآن مع أبيها . كانت قدمها قد داست على الدرجة الأولى حين خرجت راغنفريد من ظل الشرفة . في يديها كانت تحمل وعاء يخرج منه البخار .

قالت الأم : « هيا ، لقد سخنت بعض الجعة لك يا ابنتي » .

شكرت كريستين أمها بسرور ، ورفعت الوعاء إلى شفتيها . ثم سألت راغنفريد :

« يا كريستين... الصلوات وكل الأمور الأخرى التي تعلمك إياها الليدي آشيلد... هل أنت واثقة أنه ليس فيها ما هو آثم أو شرير ؟ »

أجابت الطفلة : « لا أستطيع اعتقاد ذلك أبداً . هناك اسم يسوع ومريم العذراء ، وأسماء القديسين فيها كلها... »

سألت الأم مجدداً : « ما الذي تعلمك إياه ؟ »

« أوه!... أمور حول الأعشاب... والتعاويذ لوقف الدم النازف ولمعالجة الثآليل والعيون المحمرة... وكذلك العث في الملابس والفئران في حجرة المؤونة - وما هي الأعشاب التي على المرء قطفها في نور الشمس وما هي

تلك التي يحبذ قطفها تحت المطر... أما الصلوات فلا يجب أن أقولها لأحد ، وإلاّ فقدت مفعولها » . هذا ما قالته بسرعة .

تناولت أمها الوعاء الفارغ ووضعته على الدرجة . ثم رمت بذراعيها فجأة من حول ابنتها وضمتها بشدة إليها وقبلتها... . أحست كريستين أن وجنتي أمها كانتا مبتلتين وحارتين :

« فليحرسك الرب وسيدتنا من كل شر... نحن الوحيدين الذين لم يمسسهم سوء الطالع : أنت وأبوك وأنا . يا حبيبتي ، يا حبيبتي ، لا تنسي أبداً أنك أعز شيء على أبيك... »

عادت راغنفريد إلى غرفة الشتاء ، خلعت ملابسها وزحفت إلى السرير قرب أولفهيلد . وضعت ذراعاً من حول الطفلة ووضعت خدها قريباً من خد الصغيرة ، حتى شعرت بدفء جسد أولفهيلد وشمت الرائحة الحادة لشعرها الرطب . كانت أولفهيلد تنام بعمق وثقل ، وهي على هذا النحو بعد الجرعة المسائية التي تعطيها إياها الليدي آشيلد . كان قش فرشة الليدي المفروش تحت الفراش ، يعطي رائحة تبعث على النوم . ومع ذلك فإن راغنفريد كانت تضطجع أرقة ، محدقة إلى بقعة الضوء الصغيرة في السقف التي كان القمر يلمع من خلالها عبر نافذة مخرج الدخان .

في الفراش الآخر كانت تضطجع الليدي آشيلد ، ولكن راغنفريد ما كانت تعرف أبداً إن كانت نائمة أم مستيقظة . ما كانت الليدي تتحدث أبداً عن معرفتهما ببعضهما في الأيام الغابرة... وكان هذا يخيف راغنفريد . وقد بدا لها أنها لم تعرف مطلقاً أسى مراً كهذا ومثل هذه الخشية التي تسكنها كما يحدث الآن... حتى لو أنها عرفت أن لافرانس كان سيستعيد صحته بالكامل مجدداً... وأن أولفهيلد ستعيش .

•

بدا وكأن الليدي آشيلد كانت تستمتع بالحديث إلى كريستين ، ومع كل يوم يمرّ كانت الفتاة تصبح على علاقة صداقة أوثق معها . وفي أحد الأيام ، حين ذهبتا لجمع الأعشاب ، جلستا معاً في مكان عال فوق منحدر جبل على مرج أخضر صغير تحت ركام للحجارة . كانتا قادرتين على النظر إلى المزرعة في «فورمو» وتريان سترة آرن غيردسون الطويلة الضيقة : كان قد ركب معهما عبر الوادي ، ثم كان عليه أن يعتني بجواديهما بينما هما على منحدر الجبل تبحثان عن الأعشاب .

و بينما هما جالستان ، حكت كريستين لليدي آشيلد عن لقائها مع الجنية القزمة . لم تكن قد فكرت بها منذ سنوات كثيرة ، ولكنها برزت أمامها الآن . وبينما راحت تتكلم ، خطرت لها الفكرة على نحو غريب بأنه كان هناك شبه بين الليدي آشيلد والجنية : رغم أنها كانت تعرف جيداً طوال الوقت أنهما لم تكونا متشابهتين فعلاً . ولكن حين حكت كل ما لديها ، جلست الليدي آشيلد ساكنة لفترة ونظرت نحو «ديل» . ثم قالت بعد فترة طويلة :

«لقد تصرفت بحكمة إذ هربت ، فقد كنت مجرد طفلة آنئذ . ولكن ألم يسبق لك أن سمعت عن أشخاص أخذوا من الجن الأقزام الذهب الذي يعرضه هؤلاء ثم أثقلوا الجن بالحجارة ؟»

«سمعت بمثل هذه الحكايات» ، قالت كريستين . «و لكني لن أتجرأ أبداً على فعل ذلك . وأعتقد أنه عمل غير عادل» .

«إنه جيد حين لا يجرؤ المرء على فعل ما لا يفكر في أنه عمل عادل» ، قالت الليدي آشيلد وهي تضحك قليلاً . «و لكنه لا يكون جيداً إلى ذلك الحد حين يفكر المرء في أن شيئاً ما لن يكون عملاً عادلاً لأن المرء لا يجرؤ على فعله... لقد كبرت كثيراً هذا الصيف» ، قالت الليدي فجأة . «هل تعرفين أنك ستصبحين جميلة [عادلة] على الأرجح ، كما أتساءل ؟»

قالت كريستين : «أجل ، يقولون إني أشبه أبي» .

ضحكت الليدي آشيلد بهدوء .

«أجل ، سيكون الأفضل لك أن تتشبهي بلافرانس من حيث العقل والبدن ، أيضاً . ومع ذلك سيكون أمراً مثيراً للشفقة إن كانا سيزوجانك هنا في «ديل» . ليس على أي امرئ أن يحتقر البساطة والريف . ولكنهم يظنون ، هؤلاء الناس الكبار هنا ، أنهم رائعون جداً حتى أنه لا يوجد شبيه لهم في أرض النرويج . وهم يتعجبون من أني أستطيع العيش وتحقيق الازدهار ، رغم أنهم يغلقون أبوابهم في وجهي . ولكنهم كسالى ومغرورون ، ولن يتعلموا أساليب جديدة... وهم يضعون اللوم على الصراع القديم مع الملك في أيام «سفير» . كل هذا كذب . لقد بنى جد أمك صداقة مع الملك سفير وتلقى هدايا منه . ولكن لو كان خالك سيصبح واحداً من رجال ملكنا ويتواجد في بلاطه ، فسيكون عليه أن يهذب نفسه من الخارج والداخل ، ولن يزعج تروند نفسه بذلك . ولكن أنت يا كريستين ، عليك أن تتزوجي من رجل نشأ بأساليب فروسية وكياسة...»

جلست كريستين تنظر إلى باحة «فورمو» في الأسفل ، وإلى ظهر آرن الأحمر . ما كانت تعرف العالم إلاّ بالكاد ، ولكن حين تحدثت الليدي آشيلد عن العالم الذي دخلته ذات مرة كانت كريستين تفكر بالفرسان والنبلاء في شكل آرن . أما سابقاً ، حين كانت صغيرة ، فقد كانت تراهم دائماً في شكل أبيها .

«قد يكون ابن أختي ، إرلند نيكولاوسون أوف هوسابي عريساً ملائماً لك... لقد تربى تربية ملائمة ، ذاك الفتى . لقد زارتني أختي ماغنهيلد في العام الماضي وهي في طريقها عبر «ديل» ، وكان هو بصحبتها . أجل ، ليس الأمر بسيطاً إلى هذا الحد ، أعني مسألة حصولك عليه ، إلاّ أنه كان

سيسرني أن أنشر غطاء السرير فوقكما كليكما في السرير الزفافي : إنه شاب أسود الشعر مثلما أنت شقراء ، وله عينان مليحتان... ولكن لو عرفت صهري على النحو الصحيح لقلت إنه قد سبق له وفكر دون شك بعروس أفضل منك لابنه إرلند » .

سألت كريستين متعجبة : « ألست عروساً مناسبة إذن ؟ » لم تفكر قط في أنها قد تشعر بالإساءة بسبب أي شيء تقوله الليدي آشيلد ، ولكنها أحست بالقهر والحزن أن الليدي قد تكون على نحو ما أفضل من أهلها بالذات .

قالت الأخرى : « أجل ، أنت عروس مناسبة ، ولكنك لا تصلين من حيث المستوى إلى أسرتي أبداً . كان جدك خارجاً على القانون في هذه البلاد وغريباً ، وكان آل غييسلينغ قد جلسوا وتعفنوا على مزارعهم إلى فترة طويلة حتى كادوا أن يُنسوا خارج « ديل » . ولكن أنا وأختي تزوجنا أولاد أخ الملكة مارغريت سكولسداتر » .

لم تستطع كريستين حتى أن تجمع شجاعتها لتقول إنه لم يكن جدها بل أخوه ، الذي وصل إلى هذه البلاد كخارج على القانون . جلست وحدقت إلى المنحدر الجبلي عبر « ديل » ، وفكرت بذلك اليوم قبل سنوات كثيرة ، حين كانت هناك في الجبال العالية ورأت كيف أن كثيراً من الجبال كانت بين واديها والعالم الخارجي . ثم قالت الليدي آشيلد إن عليهما أن تعودا إلى البيت الآن ، وأمرتها أن تنادي آرن . لذلك وضعت كريستين يديها على فمها ، وصاحت ولوحت بمنديلها ، حتى رأت البقعة الحمراء في المزرعة تتحرك وتلوح لها .

•

بعد هذا بفترة طويلة عادت الليدي آشيلد إلى بيتها . ولكن عبر الخريف وأول جزء من الشتاء غالباً ما كانت تصل إلى يوروندغارد لتقضي بضعة أيام مع أولفهيلد . كانت الطفلة ترفع من السرير الآن في وقت النهار ، وتجري محاولات لجعلها تقف ، ولكن ساقيها كانتا تتراخيان تحتها حين تضع قدميها على الأرض . كانت دائمة الشكوى ، شاحبة ومنهكة ، وكانت الجاكيت المطرزة المصنوعة من جلد الحصان والأماليد الرقيقة والتي صنعتها لها الليدي آشيلد تزعجها على نحو مؤلم ، لذلك كانت تفضل البقاء ساكنة في حضن أمها . كانت راغنفريد تبقي ابنتها المريضة دائماً بين ذراعيها ، لذلك كانت توردیس تدير شؤون المنزل كلها الآن . وكانت كريستين تذهب مع توردیس ، بناء على أوامر أمها ، لتتعلم وتساعد .

كانت كريستين تتوق لليدي آشيلد بين الحين والآخر ، وكانت الليدي تثرثر كثيراً معها أحياناً ، ولكن في المرات الأخرى كانت الطفلة تنتظر عبثاً كلمة عدا التحية من الأخرى حين تصل وحين تمضي . كانت الليدي آشيلد تجلس وتتحدث مع الكبار فقط . كانت هذه هي الحال دائماً حين يكون زوجها في رفقتها ، فقد كان يحدث أحياناً أن يأتي بيورن غوناسورن مع زوجته . ركب لافرانس إلى هاوغن في أحد أيام الخريف ليأخذ إلى الليدي أجرها : كان ذاك أفضل إبريق فضي كان لديهم في المنزل ، مع طبق يلائمه . كان قد قضى الليلة هناك ، ومنذ ذلك الحين راح يمدح المزرعة إلى حد كبير . كانت جميلة وجيدة التنظيم ، وليست صغيرة إلى ذلك الحد ، كما قال . وضمن المنزل كان الجميع يتحدثون عن السعادة ، وأن عادات المنزل كانت ملائمة تشبه عادات بيوت كبار العائلات في الجنوب . لم يقل لافرانس رأيه في بيورن ، ولكنه كان يرحب به جيداً في كل مرة يأتي فيها مع زوجته إلى يوروندغارد . ولكنه كان يحب الليدي آشيلد كثيراً جداً ، وقال

إنه يعتبر معظم الحكايات التي كانت تُحكى عنها مجرد أكاذيب . وقال أيضاً إنه على ثقة من أنها قبل عشرين سنة ما كانت في حاجة إلى السحر لتربط زوجاً بها : فقد شارفت على الستين الآن ، وهي لا تزال تبدو شابة ولديها قامة جميلة ومغوية .

رأت كريستين جيداً أن أمها ما كانت تحب هذا كله إطلاقاً . كان صحيحاً أن راغنفريد ما كانت تقول شيئاً عن الليدي آشيلد ، ولكنها شبّهت بيورن مرة بالعشب الأصفر المهروس الذي يجده المرء نامياً تحت الأحجار الكبيرة ، وفكرت كريستين بأن هذا يلائمه جيداً . بدا بيورن شاحباً إلى حد غريب . كان بديناً إلى حد ما ، شاحباً وكسولاً ، وأصلع بعض الشيء ، رغم أنه لم يكن أكبر سناً بكثير من لافرانس . ولكن يمكن للمرء أن يرى أنه كان رجلاً وسيماً ذات مرة . لم تبادله كريستين أطراف الحديث بتاتاً : كان قليل الكلام ومعتاداً على الجلوس في المكان نفسه الذي جلس فيه أول مرة ، منذ دخوله إلى الغرفة وحتى ذهابه إلى السرير . كان يشرب بكميات هائلة ، ولكن يلاحظ المرء ذلك قليلاً عليه .كان لا يأكل إلاّ القليل من الطعام ، ولكنه يحدق بين الحين والآخر إلى شخص أو آخر في الغرفة بنظرة ثابتة متأملة بعينيه الغريبتين الشاحبتين .

•

ما كانوا قد رأوا أقرباءهم القاطنين في سوندبو منذ حصول الحادث المشؤوم رغم أن لافرانس زار « فاغ » أكثر من مرة . ولكن سيرا آيريك كان يأتي إلى يوروندغارد كما في السابق ، وغالباً ما كان يقابل الليدي آشيلد هناك ، وكانا صديقين جيدين . فكر الناس في أن هذا أمر جيد للكاهن ، فقد كان هو نفسه حكيماً ماهراً جداً . وكان هذا دون شك أحد الأسباب في

أن أصحاب الاقطاعيات الكبرى ما كانوا يطلبون مشورة الليدي آشيلد ، في الأقل ليس صراحة ، حيث كانوا يعتبرون الكاهن ماهراً بما فيه الكفاية ، كما لم يكن من السهل عليهم أن يعرفوا كيف يتصرفون تجاه شخصين كانا منبوذين نوعاً ما من قبل أقربائهم وأهلهم . قال سيرا آيريك نفسه إنهما ما كانا متلائمين ، وأما ما يخص سحرها ، فهو لم يكن راعي أبرشيتها ـ وقد تكون الليدي عرفت أكثر مما هو ملائم لصحة روحها ـ و لكن على المرء ألا ينسى أن الجهلاء كانوا دائماً مستعدين للتحدث عن السحر ما أن تكون امرأة أكثر حكمة بقليل من جاراتها . أما الليدي آشيلد من جانبها ، فكانت تمتدح الكاهن كثيراً وكانت مثابرة على الذهاب إلى الكنيسة لو حدث أن كانت في يورروندغارد في يوم مقدس .

كان موسم الميلاد حزيناً في ذلك العام . لم تكن أولفهيلد قادرة بعد على وضع قدمها على الأرض ، وهم لم يسمعوا ولا رأوا أياً من سكان سوندبو . عرفت كريستين أن الكثير من الكلام كان يجري في الأبرشية وأن أباها كان يتأسى . ولكن بدت أمها عديمة الاهتمام . أما كريستين ففكرت في أن هذا تصرف خاطئ من قبلها .

و لكن في إحدى الأمسيات ، نحو نهاية موسم الميلاد ، وصل سيرا سيغورد ، كاهن منزل ثروند غييسلينغ ، وهو يجر أمامه مزلجة ضخمة ، وكانت مهمته الرئيسية هو أن يدعوهم إلى وليمة في سوندبو .

لم يكن سيرا سيغورد محبوباً في الأبرشيات المجاورة ، فقد كان هو الذي يدير بالفعل أملاك تروند ؛ أو في الأقل كان هو المسؤول عن معاملات تروند التجارية القاسية وغير العادلة ، ولم يكن هناك إنكار في أن تروند كان قاسياً مع مزارعيه المستأجرين . كان كاهنه متعمقاً في الكتابة والمحاسبة ، خبيراً في القانون و« حكيماً » حاذقاً : وإن لم يكن حاذقاً إلى الحد الذي

الحد الذي يدعيه . ولكن لم تكن راغنفريد تحبه ولا لافرانس لأساليبه ، إلا أن سكان سوندبو ، كانوا يعتمدون كثيراً على كاهنهم ، وكانوا كما هو منزعجين جداً من أنه لم يتم استدعاؤه ليداوي أولفهيلد .

والآن لسوء الحظ ، فقد حدث أنه حين وصل سيرا سيغورد إلى يورووندغارد ، كان قد سبق الليدي آشيلد وسير بيورن أن كانا هناك ، علاوة على سيرا آيريك وغيرد وإنغا من فنسبريكن والدي آرن ، وكذلك يون العجوز من لوبتسغارد ، وراهب واعظ من هامار هو الأخ آسغاوت .

وبينما قامت راغنفريد بمد الموائد من جديد بطعام عيد الميلاد ، راح لافرانس يقرأ الرسائل التي حملها سيرا سيغورد ، بينما تمنى الكاهن أن يرى أولفهيلد . كان قد سبق لها ونامت في سريرها ، ولكن سيرا سيغورد أيقظها ، تحسس ظهرها وأعضاءها وسألهم الكثير من الأسئلة ، أولاً بلطف كاف ، ثم بخشونة وفقدان صبر بينما بدأت الطفلة تشعر بالخوف . كان سيغورد رجلاً ضئيل الحجم ، مجرد قزم ، مع وجه أحمر كبير متوهج . وحين أراد أن يرفعها ليضعها على الأرض ليختبر قدميها ، بدأت تصرخ عالياً . عندها وقفت الليدي آشيلد ، ومضت إلى السرير ، وغطت أولفهيلد بالجلود ، قائلة إن الطفلة وسنى جداً ، إلى حد أنها لا تستطيع الوقوف على الأرض حتى لو كانت ساقاها قويتين .

بدأ الكاهن بالكلام بصوت مرتفع . كان هو أيضاً معدوداً بين من يعرفون فن «الحكمة» . ولكن الليدي آشيلد أخذته من يده وجرته إلى المقعد العالي وراحت تحكي له عما فعلته لأولفهيلد ، وتطلب رأيه في كل مسألة . وقد تحسّن مزاجه بعد هذا فأكل وشرب من ضيافة راغنفريد الكريمة .

ولكن مع تصاعد الجعة والنبيذ إلى رأسه ، تغيّر مزاج سيرا سيغورد

مجدداً وأصبح ميالاً إلى الشجار والعناد ـ كان يعرف جيداً أنه لا أحد في الغرفة يحبه . أولاً التفت إلى «غيرد» ـ كان وكيل مزرعة أسقف هامار في «فاغ» و«سيل» ، وكانت شجارات كثيرة قد جرت بين الكرسي الأسقفي وتروند إيفارسون . لم يقل غيرد الكثير ، ولكن «إنغا» كانت امرأة نارية ، كما انضم إليها الأخ آسغاوت وتكلم :

«عليك ألاّ تنسى يا سيرا سيغورد أن أبانا المحترم انغيالد سيدك أيضاً : نحن نعرف ما يكفي عنكم في هامار . أنت تتقلب في أحضان النعمة في سوندبو ، ولا تفكر أبداً بأنك مكرس للقيام بعمل آخر غير أعمال المراقبة لتروند ، ومساعدته في كل ما يرتكبه من مساوئ ومظالم ، مما يعرض روحه للخطر مع الإساءة إلى حقوق الكنيسة المقدسة . أو لم تسمع بما يحدث للكهنة المزيفين والجامحين الذين يتحايلون ضد آبائهم الروحيين وأولئك الذين في السلطة ؟ ألا تعرف بتلك الحادثة حين أخذت الملائكة القديس توماس أوف كانتربري إلى باب جهنم وتركته ينظر إلى داخلها ؟ لقد تعجب كثيراً حين لم ير أياً من الكهنة الذين كانوا يعارضونه ، كما عارضت أسقفك . كاد يشكر الله على رحمته ، فذلك القديس لم يكن يكره أن يشمل الخلاص كل الخاطئين . ولكن عند ذاك أمر الملاك الشيطان أن يزيح ذيله قليلاً ، وهناك رأى بضجة عالية ورائحة الكبريت الكريهة ، كل الكهنة والعلماء الذين حاربوا خير الكنيسة . وهكذا عرف أين كان مصيرهم» . قال الكاهن : «هنا تكذب أيها الراهب . لقد سمعت تلك الحكاية أنا أيضاً ، ولكنهم لم يكونوا كهنة بل كانوا مجرد رهبان شحاذين أتوا من مؤخرة الشيطان كما تخرج الزنابير من عشها» .

ضحك يون العجوز بصوت أعلى من أصوات كل الخدم ، وزمجر :

«كان هناك كلا النوعين ، على ما أعتقد جازماً...»

«إذن لا شك أنه كان للشيطان ذيل عريض جميل» ، قال بيورن غونارسون ، وابتسمت الليدي آشيلد ثم قالت :

«أجل ، ألم تسمعوا بأن الشر يجرّ خلفه ذيلاً طويلاً ؟»

صرخ سيرا سيغورد : «اصمتي يا ليدي آشيلد ، لا تتكلمي عن الذيل الطويل الذي يجره الشر خلفه . تجلسين هنا وكأنك سيدة المنزل ، وليس راغنفريد . ولكن من الغريب أنك لم تستطيعي مساعدة طفلتها : أو لم يعد لديك شيء من ذلك الماء القوي الذي كنت تتعاملين فيه ذات مرة ، والذي كان يستطيع أن يجعل الخروف بكامله يغلي في القدر ، وتحولين النساء إلى عذارى في سرير العرس ؟ أتعتقدين أني لا أعرف عن الزفاف الذي جرى في هذه الأبرشية حيث غسلت العروس التي لم تكن عذراء... ؟»

قفز سيرا آيريك وأمسك بالكاهن الآخر من الكتف والفخذ ، ورمى به فوق المائدة ، حتى انقلبت الأباريق والأوعية ، وجرى الطعام والشراب فوق الأقمشة والأرض ، بينما ارتمى سيرا سيغورد بطوله على الأرض بملابس ممزقة . قفز آيريك من فوق اللوح ، وكان سيضربه مجدداً وهو يهدر فوق الفوضى التي حدثت :

«أمسك فمك القذر ، يا كاهن جهنم...»

حاول لافرانس جاهداً أن يفرقهما ، ولكن راغنفريد نهضت ، شاحبة كالموت ، عند اللوح ، وفركت يديها . ثم هرعت الليدي آشيلد وساعدت سيرا سيغورد على النهوض على قدميه ، ومسحت الدم عن وجهه وصبت كوباً من «الميد» في حلقه قائلة :

«ليس عليك أن تكون صارماً إلى هذا الحد يا سيرا آيريك ، حتى أنك لا تستطيع سماع مزاح في جو من الشراب . اجلسوا وستسمعون عن ذلك الزفاف . لم يجر في «ديل» هنا إطلاقاً ، كما أني لم أكن تلك المحظوظة

التي امتلكت ذلك الماء . ولو أني استطعت استخراجه ، فأعتقد أننا ما كنا لنجلس هنا الآن في مزرعة جبلية صغيرة في البراري . كنت سأصبح امرأة غنية وتكون لي سلطتي في الأبرشيات العظيمة الغنية ، بل وفي مدن وأديرة وأسقف ورجال كنيسة » . ثم ابتسمت للرجال الثلاثة من رجال الكنيسة .

« و لكن يقال إن هذا الفن كان معروفاً في الأيام الغابرة » .

ثم روت الليدي حكاية مرحة عن سوء الحظ الذي جرى في أيام الملك إنغا ، حين استخدم الغسول السحري خطأ من قبل المرأة غير الملائمة ، وما جرى لاحقاً .

ضحك الجميع عالياً في الغرفة ، وصرخ كل من غيرد و يون طالبين المزيد من هذه الحكايات من الليدي آشيلد . ولكن الليدي قالت : « لا! يجلس هنا كاهنان وكذلك الأخ أسغاوت ، وهناك شبان صغار وخادمات . الأفضل أن نتوقف قبل أن يصبح الكلام غير ملائم وفظاً . فلنتذكر أن هذا يوم مقدس » .

صرخ الرجال احتجاجاً ولكن النساء أيدت موقف الليدي آشيلد . لم يلاحظ أحد أن راغنفريد قد غادرت الغرفة . سرعان ما حان بعد ذلك وقت نوم كريستين التي كانت جالسة في أخفض مكان على مقعد النساء ، بين الخادمات . كانت تنام في منزل توردیس ، فقد كان في المنزل كثير من الضيوف .

كان البرد لاذعاً ، وكانت الأنوار الشمالية تتوهج وتتراقص فوق جباه الجبال إلى الشمال . تكسر الثلج تحت قدمي كريستين وهي تعدو عبر الباحة مرتجفة ، وذراعاها قد تصالبا على صدرها .

ثم شعرت بوجود امرأة في ظل المتبن العتيق تمشي مسرعة جيئةً وذهاباً فوق الثلج ، وهي ترمي بذراعيها من حولها ، وتفرك يديها وتعول

عالياً . رأت كريستين أن هذه كانت أمها ، وعدت نحوها خائفة ، سائلة إياها إن كانت مريضة .

«لا ، لا» . انفجرت راغنفريد . «و لكني لم أستطع البقاء في الداخل . اذهبي إلى فراشك يا طفلتي» .

وحين التفتت كريستين نادتها أمها بلطف :

«عودي إلى الغرفة واضطجعي قرب أبيك وأولفهيلد : خذيها بين ذراعيك حتى لا يتقلب عليها خلال نومه دون قصد ؛ إنه ينام نوماً ثقيلاً حين يشرب كثيراً . سأذهب لأنام في العلية الليلة» .

قالت كريستين : «يا للمسيح يا أمي! ستتجمدين حتى الموت لو نمت هناك ، ووحدك أيضاً . وما الذي تعتقدين أن أبي سيظنه لو أنك لم تأت إلى الفراش الليلة ؟»

أجابت الأم : «لن يلاحظ ذلك . لقد كان قد سبق له ونام حين غادرت ، وغداً سيستيقظ متأخراً . اذهبي وافعلي كما أقول لك» .

«سيكون البرد شديداً جداً هناك» ، قالت كريستين متذمرة ، ولكن أمها أبعدتها ، على نحو ألطف ، ثم أغلقت الباب على نفسها في العلية .

في داخلها كان الجو بارداً كما في الخارج ، وكانت معتمة جداً . تلمست راغنفريد طريقها إلى السرير ، رفعت غطاء رأسها وخلعت حذاءها وزحفت بين الجلود التي بثت فيها البرد حتى العظام ، فقد كان الأمر أشبه بالغرق في أكداس من الثلج ... . غطت نفسها بالجلود إلى ما فوق رأسها وجذبت ركبتيها حتى ذقنها ، وحشرت يديها في صدرها : هكذا اضطجعت وبكت : أحياناً بصوت هادئ خفيض ودموع منهمرة ، وأحياناً بصوت عال وهي تصرّ بأسنانها . ولكن مع مرور الوقت دفأت السرير من حولها جيداً حتى أصبحت وسنى ، وظلت تبكي حتى نامت .

٥

في ربيع السنة التي بلغت فيها كريستين سن الخامسة عشرة ، تواعد لافرانس بيورغولفسون وسير أندرس غودموندسون أوف دايفرين على اللقاء في «هوليديس ثينغ» . وهناك اتفقا أن يتزوج ابن أندرس الثاني ، سايمون ، من كريستين لافرنسداتر وأن يحصلا على «فورمو» ، وهي إقطاعية كانت تعود لأم سير أندرس ، وعلى هذا تصافح الرجلان ، ولكن دون تدوين خطي بعد ، فقد كان على السير أندرس أن يتفق بعد مع أولاده الآخرين حول ميراثهم . لهذا السبب لم تنصب وليمة الخطوبة ، ولكن السير أندرس وسايمون وصلا إلى يورونداغارد ليشاهدا العروس وأقام لهم لافرانس وليمة كبيرة .

في ذلك الحين كان قد سبق للافرانس أن بنى منزله الجديد ذا الطابقين ، مع مدفأتي زاوية معمرتين في كل من غرفة المعيشة والعلية فوقها ، وقد زخرفهما وزينهما بمنحوتات خشبية جميلة . كان قد أعاد بناء العلية أيضاً ، وحسّن الأبنية الأخرى بطرق كثيرة ، حتى أصبح منزله الآن ملائماً لـ «اسكواير» [منزلة دون مرتبة الفارس/ المترجم] مع شعار النبالة . كان غنياً جداً الآن ، فقد كان محظوظاً جداً في صفقاته وكان حكيماً

وحريصاً على بضاعته . وكان معروفاً أكثر من أي شيء آخر كمربّ لأفضل الجياد وأحسن القطعان من كل الأنواع . وكان قادراً الآن على أن يرتب زواج ابنته من آل «ديفرين» وإقطاعية «فورمو» ، وكان الجميع قد اعتبروا أنه قد استطاع أن يجد نهاية طيبة لغايته في أن يصبح صاحب المقام الأول في الريف . كان هو وراغنفريد أيضاً مسرورين بالخطوبة ، وكذلك السير أندرس و[ابنه] سايمون .

كانت كريستين خائبة الأمل قليلاً حين رأت سايمون أندرسون للمرة الأولى . كانت قد سمعت كلاماً كثيراً عن وسامته وتصرفاته اللائقة ، لذلك تجاوزت كل الحدود في آمالها لما سيكون عليه عريسها .

كان سايمون جيد المظهر ، ولكنه كان بديناً نوعاً ما لشاب في العشرين . كان قصير العنق وله وجه مستدير ولامع كالقمر . كان له شعر جميل ، بني ومجعّد ، وكانت عيناه رماديتين وصافيتين ، ولكنهما غائرتان ، كأنما أغلق عليهما ، وكان جفناه سميكين جداً . أما أنفه فكان صغيراً جداً ، وكان فمه صغيراً أيضاً إلاّ أنه ناتئ ، ولكن ليس قبيحاً . ورغم بدانته كان خفيفاً وسريعاً ورشيقاً في كل أساليبه وماهراً في كل الرياضات . كان نشيطاً جداً ومنطلقاً في الكلام ، ولكن لافرانس قال إنه أبدى ذكاء طيباً وثقافة حين تحدث مع رجال أكبر سناً منه .

سرعان ما أحبته راغنفريد ، كما أحبته أولفهيلد أعظم الحب : كان ألطف وأشفق على الطفلة الصغيرة المريضة من أي شخص آخر . وحين أضحت كريستين معتادة قليلاً على وجهه المدور وطريقته في الكلام ؛ فقد راحت تصبح راضية عن خطيبها وسعيدة بالأسلوب الذي اتبعه أبوها في ترتيب الأمور لها .

حضرت الليدي آشيلد في المأدبة . ومنذ أن فتحت يورونداغارد أبوابها

لها ، فإن علية القوم في الأبرشيات المجاورة قد بدأوا يتذكرون نسبها العالي ويفكرون أقل في سمعتها الملتبسة ، لذلك أصبحت الليدي تظهر أكثر فأكثر بين الناس . قالت بعد أن رأت سايمون :

« إنه زواج ملائم يا كريستين . سايمون هذا له مستقبل في هذا العالم : سينجيك من هموم كثيرة وسيكون العيش معه جيداً . ولكنه يبدو لي بديناً جداً إلى حد ما ومرحاً جداً . لو كانت الحال في النرويج الآن كما كانت في الأيام الماضية ، وكما هي لا تزال في بعض البلدان الأخرى ، أي حين لم يكن الناس أكثر قسوة مع الخاطئين مما هو الرب نفسه ، لقلت إن عليك أن تجدي صديقاً نحيلاً وحزيناً ، شخصاً تستطيعين الجلوس والحديث معه . ثم لقلت ما كان يمكنك أن تجدي أفضل من سايمون » .

احمر وجه كريستين ، رغم أنها لم تفهم جيداً معنى كلمات الليدي . ومع مرور الزمن وامتلاء صناديق جهازها ، راحت تسمع دائماً الكلام عن عرسها ، وما الذي ستأخذه إلى منزلها الجديد ، بدأت تتوق إلى أن يتم ربط عقدة الخطبة مرة وإلى الأبد ، وأن يأتي سايمون شمالاً . وهكذا فكرت فيه كثيراً في النهاية ، وكانت سعيدة بالتفكير في أنها ستجتمع به مجدداً .

•

كانت كريستين قد نضجت الآن وأصبحت جميلة تملأ العين . كانت أشبه بأبيها وقد أضحت طويلة القد ، ذات خصر نحيل وأطراف ومفاصل رشيقة ورقيقة ، إلا أنها مستديرة وممتلئة كذلك . كان وجهها قصيراً ومدوراً نوعاً ما ، وجبينها منخفضاً وعريضاً وأبيض كالحليب ، أما عيناها فكانتا واسعتين ولطيفتين ، تحت حاجبين مرسومين على نحو ملائم . كان فمها كبيراً نوعاً ما ، ولكن بشفتين حمراوين ممتلئتين لامعتين . أما ذقنها فكان

مستديراً مثل تفاحة ذات شكل جيد . كان شعرها طويلاً وكثيفاً ، ولكن لونه داكن نوعاً ما ، تقريباً بني بقدر ما هو أصفر وسبط تماماً . ما كان لافرانس يحب شيئاً كما يحب سماع سيرا آيريك يتفاخر بكريستين : لقد رأى الكاهن الفتاة وهي تنمو ، ودرّسها الكتب والكتابة ، وأحبها كثيراً . ولكن الأب لم يكن مسروراً جداً حين كان الكاهن يشبّهها أحياناً بمهرة خالية من العيوب وذات بشرة من الحرير .

ولكن الجميع كانوا يقولون إنه لولا ذلك الحادث المؤسف لكانت أولفهيلد أجمل من أختها بكثير . كان لها أجمل وأعذب وجه ، أبيض وأحمر كالسوسن والورد ، وشعر أصفر فاتح ، ناعم كالحرير ، كان يتموج ويلتصق برقبتها الرقيقة وكتفيها الصغيرتين . كانت عيناها أشبه بعيني آل غييسلينغ . كانتا غائرتين ، تحت حاجبين مستقيمين داكنين ؛ وكانتا صافيتين كالماء وبلون أزرق رمادي . ولكن نظرتها كانت رقيقة ، وليست حادة كنظراتهم . كما كان صوت الطفلة شديد الصفاء وجميلاً ، حتى أنه كان أمراً ممتعاً الإصغاء إليها ، سواء حين تتكلم أو تغني . كانت كفءاً في التعلم من الكتب وفي عزف كل أنواع الآلات الوترية وفي لعب الداما ، ولكن ما كانت تميل كثيراً إلى العمل بيديها ، إذ سرعان ما كان ظهرها يؤلمها .

بدا أن هذه الطفلة الجميلة لن يكون أمامها أمل كبير في أن تستطيع استخدام أطرافها استخداماً سوياً . صحيح أنها كانت قد تحسنت قليلاً بعد أن اصطحبها أبوها وأمها إلى «نيداروس» إلى مقام القديس أولاف . لقد ذهب لافرانس وراغنفريد إلى هناك مشياً على الأقدام ، دون رجل أو خادمة تعتني بهما . وقد حملا الطفلة فيما بينهما على محفة طوال الطريق . بعد الرحلة تحسنت أولفهيلد كثيراً حتى أنها أصبحت قادرة على المشي قليلاً على عكاز . ولكنهما لم يستطيعا أن يأملا أنها ستتحسن إلى درجة تتزوج

معها ، لذلك ، عندما يحين الوقت ، فلا بدّ من إرسالها إلى دير مع كل الثروة التي ستكون من نصيبها .

لم يكونا يتحدثان عن هذا ، وكانت أولفهيلد نفسها لا تعرف إلا بالكاد كم كانت مختلفة عن الأطفال الآخرين . كانت مغرمة جداً بالحلي المبهرجة والملابس الجميلة ، وما كان أبوها وأمها ليتجرآ على إنكار أي شيء عليها . لذلك خاطت راغنفريد لها وزيّنتها كابنة ملك . مرة مرّ بعض الباعة الجوالين بالأبرشية ، وباتوا ليلة في «لاوغاربرو» ، وشاهدت أولفهيلد بعض أغراضهم هناك . كان معهم حرير بلون الكهرمان ، وقد تمنت أن تنال شيئاً منه . ما كان لافرانس ميّالاً إلى التعامل مع مثل هؤلاء الناس ، الذين كانوا يتجولون ويتصرفون ضد القانون ، فقد كانوا يبيعون حوائج من بلدات السوق في أبرشيات الريف ؛ ولكنه اشترى منهم الرزمة كلها على الفور . أعطى كريستين بعض القماش أيضاً لتصنع منه قميص العرس ، وكانت تخيطه في هذا الصيف . حتى الآن كانت كل القمصان التي بحوزتها من الصوف أو من الكتان في أفضل الأحيان . ولكن أولفهيلد كان لديها قميص من حرير الآن لأجل الأعياد وقميص كتاني لأيام الأحد مع ثوب حرير من فوقه .

كان لافرانس بيورغولفسون يملك لاوغاربرو أيضاً ، وكانت توردیس و يون مسؤولين هناك . كانت معهما الآن رامبورغ ، أصغر بنات لافرانس وراغنفريد ، التي كانت تورديس ترضعها . كانت راغنفريد لا تنظر إلا بالكاد إلى الطفلة وظلت هكذا لبعض الوقت بعد ولادتها ، إذ كانت تقول إنها تجلب سوء الطالع لأولادها . ومع ذلك فقد أحبت الفتاة الصغيرة كثيراً وكانت ترسل الهدايا إليها وإلى تورديس على الدوام . ثم راحت لاحقاً تزور لاوغربرو غالباً لترى رامبورغ ، ولكنها كانت تحب القدوم بعد نوم الطفلة لتجلس إلى جوارها . كان لافرانس والبنتان الأكبر يأتون غالباً إلى لاوغربرو

للعب مع الصغيرة . كانت طفلة قوية مليئة بالصحة ، ولكن ليست على ذلك القدر من الجمال الذي كانت عليه أختاها .

•

كان هذا آخر صيف يقضيه آرن غيردسون في يورونـدغارد . كان الأسقف قد وعد غيرد بمساعدة الشاب في تلمس طريقه في هذا العالم ، وكان على آرن الانطلاق في الخريف نحو هامار .

كانت كريستين على علم بأنها عزيزة على آرن ،و لكنها كانت لا تزال من نواح كثيرة طفلة في تفكيرها وما كانت تفكر إلا قليلاً في ذلك ، وتعامله كما كانت تفعل دائماً منذ كانا طفلين . كانت تبقى معه أطول فترة ممكنة وتقف دائماً معه حين يكون هناك رقص في البيت أو على مرج الكنيسة . أمّا ألاّ تحب أمها ذلك فهو نكتة في رأيها . ولكنها لم تذكر سايمون أو زفافها أمام آرن ، فقد لاحظت أنه كان يصبح حزيناً حين يجري الحديث عن ذلك .

كان آرن رجلاً ماهراً جداً وكان يصنع لكريستين كرسي خياطة(٩) الآن كتذكار . كان قد غطى الصندوق وإطار الكرسي بنحت جميل أنيق ، وكان منهمكاً الآن في صنع اليدين الحديد مع قفل . في إحدى الأمسيات الجميلة في أواخر الصيف نزلت كريستين إليه . كانت قد أخذت معها سترة لأبيها كان عليها إصلاحها ، وجلست على العتبة الحجرية تخيط وهي تحادث الشاب الموجود في دكان الحدادة . كانت أولفهيلد معها وهي تقفز على عكازها في أرجاء المكان ، وتأكل من الفريز البري الذي ينمو بين أكوام الحجارة حول الحقول .

بعد حين اقترب آرن من باب دكان الحدادة ليبترد . تظاهر كأنه

سيجلس قرب كريستين ، ولكنها ابتعدت عنه قليلاً وطلبت منه أن ينتبه لئلا يوسخ ماكانت تخيطه على ركبتها .

قال آرن : «هل وصلت الأمور بيننا إلى حد أنك ما عدت تجرؤين على السماح لي بالجلوس إلى جانبك خشية أن يلوثك الغلام القروي ؟ »

نظرت كريستين مستغربة وقالت :

«أنت تعرف جيداً ما كنت أعنيه . ولكن هيا اخلع مريلتك واغسل الفحم عن يديك واجلس قليلاً واسترح إلى القرب مني هنا...» ثم وسعت له مكاناً .

ولكن آرن جلس على العشب أمامها ، ثم قالت له مجدداً :

«هيا ، لا تغضب يا عزيزي آرن . أتظن أني غير ممتنة للهدية الرائعة التي تصنعها لي أو أني نسيت أنك كنت خير صديق لي في البيت هنا طوال أيام حياتي ؟ »

سألها : «و هل كنت كذلك ؟ »

قالت كريستين : «أنت تعرف ذلك جيداً ، ولن أنساك أبداً . ولكن أنت الذي سيخرج إلى العالم ـ أتمنى لك أن تكسب الثروة والشرف اللذين تأمل فيهما ـ قد تنساني قبل أن أنساك بفترة طويلة» .

قال آرن مبتسماً : «ألن تنسيني أبداً ؟ وهل سأنساك أنا قبل أن تنسيني ؟ أنت مجرد طفلة يا كريستين» .

أجابت : «وأنت لست كبيراً إلى ذلك الحد يا آرن» .

قال مجدداً : «أنا في عمر سايمون دار . ونحن نلبس الخوذة ونحمل الترس شأن آل دايفرين ، ولكن أهلي ليسوا أصحاب ثروة» .

كان قد جفف يديه على خصل العشب وأخذ الآن بكاحل كريستين وضغط بوجنته على القدم البارزة من تحت ثوبها . كانت ستسحب قدمها بعيداً ولكن آرن قال :

«أمك في لاوغاربرو وأبوك في طريقه إلى هناك على حصانه... من المنازل لا أحد يستطيع رؤيتنا هنا حيث نجلس . بالتأكيد تستطيعين السماح لي بالتحدث إليك هذه المرة عمّا هو في خاطري» .

أجابت كريستين :

«لقد عرفنا طوال عمرنا ، أنت وأنا ، أنه لن يكون أمراً ذا جدوى أن يحب أحدنا الآخر» .

قال آرن : «هل لي أن أضع رأسي في حجرك ؟ وبما أنها لم تجب ، فقد وضع رأسه في حجرها وعانق بذراعه خصرها . وبيده الأخرى راح يشد خصل شعرها .

سألها بعد فترة قصيرة : «كيف ستشعرين لو أن سايمون وضع رأسه في حجرك هكذا وداعب شعرك ؟»

لم تجب كريستين . بدا وكأن ثقلاً قد هبط عليها فجأة ـ كلمات آرن ورأس آرن في حجرها ـ بدا لها وكأن باباً قد انفتح إلى غرفة فيها دهاليز معتمة تؤدي إلى عتمة أكبر ، حزينة وثقيلة على القلب ، فتعثرت ولم تجرؤ على التطلع إلى الداخل .

«ليس من عادة الأشخاص المتزوجين أن يفعلوا مثل هذا» ، هذا ما قالته فجأة وبسرعة ، وكأن ثقلاً قد خف عنها . حاولت أن ترى وجه سايمون السمين المستدير ينظر إليها كما ينظر آرن الآن . سمعت صوته ، ولم تستطع مغالبة الضحك :

«أعتقد أن سايمون لن يجلس أبداً على الأرض ليداعب حذائي ، ليس هو!»

قال آرن : «لا ، فهو يستطيع اللعب معك في سريره» . جعلها صوته تشعر بالغثيان والعجز في آن معاً . حاولت أن تدفع برأسه بعيداً عن حجرها ، ولكنه ضغطه على ركبتيها وقال بصوت لطيف :

«و لكنني سأداعب حذاءك وشعرك وأصابعك ، وسألاحقك في الخارج وطوال النهار يا كريستين ، لو أنك تكونين زوجتي وتنامين بين ذراعي في كل ليلة» .

نهض قليلاً ووضع ذراعه حول كتفها وحدق إلى عينيها .

قالت كريستين بخجل وبصوت خفيض : «لا يليق بك أن تكلمني على هذا النحو» .

قال آرن : «لا» . ثم نهض ووقف أمامها . «و لكن قولي لي شيئاً واحداً : أما كنت تفضلين بالأحرى لو كنت أنا... ؟» .

«أوه! كنت أفضل...» ـ جلست هادئة لبعض الوقت ـ «... لكنت أفضل ألا يكون لدي أي رجل... ليس بعد...»

لم يتحرك آرن ، ولكنه قال :

«هل تفضلين أن تكرسي نفسك للدير إذن ، كما سيحدث لأولفهيلد ، وتبقين عذراء طوال حياتك ؟»

ضغطت كريستين يديها المثنيتين في حجرها . اعترتها رجفة غريبة عذبة ، وبرعدة مفاجئة بدت أنها تفهم كم ستكون أختها موضع شفقة... امتلأت عيناها بدموع الأسى على أولفهيلد .

قال آرن بصوت خفيض : «كريستين!»

في تلك اللحظة وصل زعيق حاد من أولفهيلد . كان عكازها قد علق بين الأحجار فسقطت أرضاً . هرع آرن وكريستين إليها ، ورفعها آرن إلى ذراعي أختها . كانت قد جرحت فمها ، وتدفق الكثير من الدم من الجرح .

جلست كريستين معها عند باب دكان الحدادة ، وجلب آرن بعض الماء في وعاء خشبي . راحا يغسلان ويمسحان وجهها معاً . كانت ركبتاها

قد تأذتا أيضاً . انحنت كريستين بحنان على الساقين الصغيرتين النحيلتين .

سرعان ما خف نحيب أولفهيلد ، إلا أنها راحت تبكي بصمت ومرارة كما يفعل الأطفال المعتادون على تحمل الألم . ضمت كريستين رأس أولفهيلد إلى صدرها وهدهدتها برقة .

ثم بدأ الجرس يرن لأجل صلاة المساء في كنيسة أولاف .

تحدث آرن إلى كريستين ، ولكنها جلست منحنية فو ق أختها وكأنها لا تسمعه ولا تلحظ وجوده ، لذلك حدث أخيراً أن أصبح خائفاً وسأل إن كان هناك خطر من الحادث . هزت كريستين رأسها ، ولكنها لم تنظر إليه .

وسرعان ما نهضت ومضت نحو المزرعة ، وهي تحمل أولفهيلد بين ذراعيها . تبعهما آرن صامتاً ومنزعجاً : بدت كريستين غارقة في أفكارها ، وكان وجهها جدياً وقاسياً . وبينما راحت تمشي ، كان الجرس مستمراً في الرنين عبر المروج والوادي . كان لا يزال يرن وهي تدخل المنزل .

وضعت أولفهيلد في السرير الذي تتشارك فيه الأختان منذ أن كبرت كريستين بحيث لم يعد ممكناً أن تنام قرب أبيها وأمها . خلعت حذاءها ونامت قرب الصغيرة : تمددت وأصغت إلى صوت الجرس لوقت طويل بعد أن صمت ونامت الطفلة .

خطر لها أنه مع بداية رنين الجرس ، وبينما كانت تجلس مع وجه أولفهيلد الدامي بين يديها ، أنه ربما كان في هذا إشارة لها . لو ذهبت إلى الدير بدلاً من أختها ، لو أنها تنذر نفسها لخدمة الرب ومريم العذراء ، أفلا يمكن أن يعطي الرب الطفلة الصحة والقوة مجدداً ؟

فكرت بكلمة الأخ إدفين : أنه في هذه الأيام توهب فقط المشوهات والمعاقات وأولئك اللواتي لا يمكن إيجاد أزواج مناسبين لهن إلى الرب من قبل آبائهن وأمهاتهن . كانت تعرف أن أباها وأمها شخصان ورعان ـ و لكن

لم تسمع منهما قط أي شيء عدا أن عليها أن تتزوج ـ ولكن حين فهما أن أولفهيلد ستبقى سقيمة طوال حياتها ، فقد خططا مباشرة لذهابها إلى الدير...

و هي لم تكن راغبة في ذلك ـ كانت تكافح ضد فكرة أن الرب سيقوم بمعجزة لأولفهيلد لو أصبحت هي راهبة . تعلقت بعبارة سيرا آيريك بأنه في هذه الأيام لا يحدث الكثير من المعجزات . ومع ذلك أحست هذا المساء أن الأخ إدفين كان على حق حين قال إنه لو كان لدى الإنسان ما يكفي من الإيمان ، فإن إيمانه قد يصنع المعجزات . ولكنها لم تكن راغبة في أن يكون لها مثل ذلك الإيمان هي نفسها ، لم تكن تحب الرب وأمه والقديسين إلى هذا الحد الكبير ، ولم تكن ترغب حتى في أن تحبهم إلى ذلك الحد : كانت تحب الدنيا وتتوق للدنيا .

ضغطت كريستين شفتيها على شعر أولفهيلد الناعم الحريري . نامت الطفلة نوماً عميقاً ، وجلست الأخت الكبرى قلقة ، ولكنها سرعان ما اضطجعت مجدداً . كان قلبها ينزف حسرة وخجلاً ، ولكنها عرفت أنها لم ترغب في الإيمان بالرموز والأعاجيب ، لأنها لن تتخلى عن إرثها من الصحة والجمال والحب .

لذلك حاولت تهدئة نفسها بالفكرة التي مفادها أن أباها وأمها لن يكونا راغبين في أن يكون عليها أن تفعل مثل هذا الأمر . ولا هما سيعتقدان أنه سيكون أمراً مفيداً . ثم هي أصبحت مخطوبة مسبقاً ، وكانت على ثقة من أنهما لن يتخلّيا عن سايمون الذي كانا متعلقين به جداً . لقد شعرت أن افتخارهما الشديد بهذا الصهر هو خيانة لنفسها . وفجأة فكرت بكره في وجه سايمون المستدير الأحمر وعينيه الصغيرتين الضاحكتين ـ مشيته المرحة ـ كان يقفز كالكرة ، وقد خطر هذا لها على الفور . تذكرت حديثه المازح الذي كان يجعلها تشعر بالارتباك والحمق . لم يكن هناك مجد كبير في

الحصول عليه والانتقال إلى «فورمو» معه . وكانت تفضل بالأحرى أن ترسل إلى دير . ولكن آه! العالم وراء الجبال ، قصر الملك واللوردات والفرسان الذين تحدثت عنهم ليدي آشيلد... ورجل وسيم بعينين حزينتين سيلحق بها داخلاً وخارجاً ولايتعب أبداً . فكرت بآرن ذلك اليوم الصيفي حين اضطجع على جانبه ونام وشعره البني اللامع منتشر بين نباتات الخلنج... كانت قد أحبته آنئذ كأخ . ما كان أمراً مستحسناً منه أن يكلمها كما فعل ، حين كان يعرف أنهما ما كان ممكناً لهما أن يكونا الواحد للآخر...

وصلت رسالة من لاوغربرو بأن أمها ستبيت هناك تلك الليلة . نهضت كريستين لتخلع ملابسها وتذهب لترتاح . بدأت بفك شرائط ثوبها... ثم ارتدت حذاءها مجدداً ، ورمت بعباءتها من حولها وخرجت .

كانت سماء الليل تمتد صافية وخضراء فوق قمم الجبال . لقد اقترب موعد بزوغ القمر ، ومن حيث كان الآن مختفياً وراء الجبل ، فقد جعل بعض الغيوم الصغيرة تشع في حوافها السفلى كالفضة . بدأت السماء تشتد التماعاً مثل المعدن تحت قطرات الطل المتجمعة .

ركضت بين الحواجز ، وصلت إلى الطريق ثم صعدت المنحدر نحو الكنيسة . كانت الكنيسة منتصبة هناك ، كأنما هي نائمة ، معتمة ومغلقة ، ولكنها صعدت إلى الصليب الذي كان قد نصب ليكون علامة على المكان حيث استراح ذات مرة القديس أولاف وهو هارب من أعدائه .

ركعت كريستين على الحجر ووضعت يديها المثنيتين فوق قاعدة الصليب : «أيها الصليب المقدس ، أيها الأقوى بين الصواري ، والأجمل بين الأشجار ، يا جسراً للمرضى إلى شواطئ العافية الجميلة...»

مع عبارات الصلاة ، بدا كأن توقها قد انتشر وراح يتضاءل بالتدريج كما الدوائر في بحيرة . الأفكار الفريدة التي أقلقتها راحت تتلاشى الواحدة

بعد الأخرى ، فأصبح ذهنها أهدأ وأرق وحل حزن لطيف غامض مكان كربتها .

بقيت راكعة هناك وتشربت كل أصوات الليل . تنهدت الريح على نحو غريب ، وكان صوت اندفاع الماء في النهر يصل من وراء الغابة القريبة من الكنيسة ، والنهر الصغير يجري قريباً عبر الطريق...ورأت نصف رؤية ، كل ما حولها ، القريب والبعيد ، في العتمة وسمعت تدفق جداول صغيرة من الماء الجاري والمتقطر . التمع النهر بلون أبيض في الأسفل هناك في الوادي . زحف القمر صاعداً من وراء شق صغير في الجبال... التمعت الأوراق والأحجار الندية بضعف ، وكان الخشب الذي طلي بالقار مجدداً في برج جرس الكنيسة يلتمع بلون كامد وداكن قرب بوابة الكنيسة . ثم اختبأ القمر مرة أخرى حيث برزت حافة الجبل على نحو أعلى ، وكان المزيد من الغيوم البيضاء اللامعة يعوم في السماء .

سمعت حصاناً قادماً ببطء من بقعة اعلى من الطريق ، وأصوات رجال يتحدثون بصوت خفيض ومستوٍ . لم تكن تخشى الناس القريبين من المنزل هنا حيث كانت تعرف كل شخص... لذلك أحست بالأمان تماماً .

اندفعت كلاب أبيها نحوها ، والتفتت وعادت مندفعة إلى الغابة ، ثم عادت وتقافزت عليها مجدداً . صرخ أبوها محيّياً وهو يخرج من بين أشجار البتولا . كان يقود غولدسفاينن من رسنه . كان هناك مشبك أو مشبكان من الطيور يتدليان من السرج ، وكان لافرانس يحمل صقراً له غماء فوق رسغه . كان معه رجل طويل منحن في رداء راهب ، وحتى قبل أن ترى كريستين وجهه عرفت أنه كان الأخ إدفين . ذهبت لتقابلهما دون أن يزيد عجبها عمّا لو كان ذلك حلماً... وقد ابتسمت فحسب حين سألها لافرانس إن كانت تعرف ضيفهم .

كان لافرانس قد قابله مصادفة عند جسر روست ، وقد دعاه ليقضي الليل . ولكن الأخ إدفين أصر على أن ينام في مبنى ملحق : «فأنا أصبحت قذراً جداً إلى حد أنه لا يمكن أن تضعوني في الأسرّة الجيدة» .

ورغم كل ما قاله لافرانس ورغم توسله ، إلاّ أن الراهب أصر على موقفه . بل أنه أصر في البداية على أن يقدم له الطعام في ساحة المنزل . إلا أنهم استطاعوا أخيراً إدخاله إلى القاعة معهم ، وأوقدت كريستين النار في الموقد الذي في الزاوية ووضعت شمعات على اللوح ، بينما جلبت إحدى الخادمات اللحم والشراب .

جلس الراهب على مقعد الشحاذين قرب الباب ، ورفض تناول أي طعام عدا العصيدة الباردة والماء . كما رفض عرض لافرانس بأن يستحم في حمام أعد خصيصاً له وأن تغسل ملابسه .

تململ الأخ إدفين وحك نفسه وضحك وجهه النحيل العجوز .

قال : «كلا ، كلا . هذه الأشياء تخز جلدي الفخور على نحو أفضل من السياط أو كلمات «الوصي» . كنت جالساً تحت صخرة هنا بين الجبال في هذا الصيف... فقد منحوني الإذن للخروج إلى البرية للصوم والصلاة ، وهناك كنت جالساً أتأمل : لقد كنت كناسك مقدس بالفعل . ولكن الناس الفقراء الموجودين بعيداً في ستاندال كانوا يأتونني بالطعام ، وظنوا أنهم يرون حقاً راهباً ورعاً نظيف العيش . سألوني : أيها الأخ إدفين ، لو كان هناك رهبان كثيرون مثلك ، لأصبحنا رجالاً أفضل في وقت سريع بما فيه الكفاية . ولكن حين نرى القساوسة والأساقفة والرهبان يعض واحدهم الآخر ويتشاجرون مثل الخنانيص في معلف... حسناً ، قلت لهم إن حديثهم ذاك يخالف تعاليم الدين المسيحي ، ولكني أحببت أن أسمعهم ، وقد غنيت وصليت حتى رن الجبل مجدداً . والآن هل سيكون أمراً صحياً أن أشعر بالقمل يلدغني ويتقاتل فوق

جلدي وأن أسمع الزوجات الطيبات ، اللواتي يرعين بيوتاً نظيفة ومرتبة ، يصرخن : «ذلك الخنزير الراهب يمكنه أن يبقى خارج الحظيرة طالما الفصل هو الصيف ، أنا متجه شمالاً الآن إلى نيداروس لأجل عيد القديس أولاف ، وسيكون في صالحي أن أميز أن الناس ليسوا مسرورين جداً بالاقتراب مني...»

استيقظت أولفهيلد فذهب لافرانس ورفعها ولفها بعباءته :

«ها هي الطفلة التي تحدثت عنها أيها الأب العزيز . ضع يدك عليها وصلّ لله لأجلها كما صليت للصبي هناك بعيداً في الشمال في ميلدال والذي سمعنا أنه استرد عافيته...»

رفع الراهب ذقن أولفهيلد برقة ونظر إلى وجهها . ثم رفع إحدى يديها وقبلها .

«بل الأجدر بك وبزوجتك يا لافرانس بيورغولفسون أن تصليا بالأحرى حتى لا تتعرضا للإغراء فتحاولان توجيه إرادة الرب حول هذه الطفلة توجيهاً آخر . إن ربنا يسوع نفسه سيقودها بكل تأكيد إلى دار السلام... أستطيع أن أرى ذلك في عينيك يا أولفهيلد المباركة ، فأنت لديك شفعاؤك في دارنا الثانية» .

«لقد شفي الصبي في ميلدال ، كما سمعت» ، قال لافرانس بصوت خفيض .

«كان الطفل الوحيد لأرملة فقيرة ، ولم يكن هناك سوى الأبرشية لتطعمه وتكسيه حين تموت أمه . ومع ذلك فإن المرأة صلت للرب بأن يمنحها قلباً جريئاً حتى تؤمن بأن الرب لن يقرر إلاّ ما هو الأفضل للغلام . وكل ما فعلته هو أني شاركت في صلاتها تلك» .

«من الصعب على أمها وعليّ أن نقنع بهذا» ، أجاب لافرانس بحزن . «طالما أنها جميلة وطيبة إلى هذا الحد» .

سأل الراهب : «هل رأيت الطفلة في ليدستاد ، إلى الجنوب في ديل ؛ أتفضل أن تكون طفلتك مثلها ؟»

ارتعد لافرانس وضم الطفلة إليه .

قال الأخ إدفين مجدداً : «ألا تعتقد أننا كلنا في عيني الرب مجرد أطفال ؟ ومع ذلك لا نعتقد أننا مخطئون إلى ذلك الحد في هذه الدنيا» .

مضى نحو صورة مريم العذراء فوق الجدار ، وركع الجميع بينما تلا هو صلاة المساء . بدا لهم أن الأخ إدفين قد منحهم سلوى طيبة .

ولكن رغم ذلك ، وبعد أن غادر الغرفة إلى مكان راحته ، فإن أستريد ، رئيسة الخادمات ، كنست بعناية كل تلك الأجزاء من الأرضية حيث وقف الراهب ورمت بالكناسة فوراً إلى النار .

●

في صباح اليوم التالي استيقظت كريستين باكراً ، أخذت عصيدة الحليب وكعك القمح في طبق كبير من خشب البتولا المجزع باللهب ـ فقد كانت تعرف أن الراهب لا يلمس اللحم ـ وحملته بنفسها إليه . ولكن لم يكن هناك سوى عدد قليل من الناس في المنازل .

كان الأخ إدفين واقفاً فوق جسر حظيرة البقر ، مستعداً للانطلاق في طريقه مع عصاه وحقيبته . وقد شكر كريستين بابتسامة على جهودها وجلس على العشب وراح يأكل ، بينما جلست كريستين عند قدميه .

وصل كلبها الأبيض الصغير وهو يجري ، والأجراس الصغيرة تصلصل على رقبته . وضعته في حجرها ، ففرقع الأخ إدفين بأصابعه تجاهه وراح يرمي بقطع من كعك القمح في فمه ، ويثني عليه كثيراً .

قال : «هذه سلالة جلبتها الملكة «يوفيميا» إلى هذا البلد . تعيشون

عيشة جيدة هنا في يوروندغارد الآن ، من حيث الأمور الصغيرة والكبيرة » .

احمر وجه كريستين فرحاً . لقد سبق لها وعرفت أن الكلب كان من سلالة جيدة ، وكانت فخورة بامتلاكه . لم يكن لدى أي شخص آخر في الأبرشية كلب حضن . ولكنها لم تكن تعرف أنه من السلالة نفسها التي لكلاب الملكة المدلّلة .

«لقد أرسله إليَّ سايمون أندرسون ، ثم ضمته إليها ، وراح يلعق وجهها . اسمه كورتلين » .

كانت قد فكرت في التحدث إلى الراهب حول مشكلتها ، وأن ترجو منه المشورة . ولكن لم يعد لديها رغبة في أن تترك عقلها يتأمل في أفكار الأمسية الماضية . كان الأخ إدفين متأكداً من أن الرب سيحول كل الأمورإلى الأفضل فيما يخص أولفهيلد . وكان أمراً جيداً لسايمون أن يرسل لها مثل هذه الهدية حتى قبل تثبيت خطوبتهما . لن تفكر بآرن : فهو لم يتصرف جيداً معها كما كان يتوجب عليه ، هكذا فكرت .

تناول الأخ إدفين عصاه وحقيبته ، وطلب من كريستين أن تودّع من في البيت... فهو لن يبقى حتى يستيقظ الجميع بل سيمضي والنهار لا يزال بارداً . رافقته حتى ما وراء الكنيسة وإلى مسافة صغيرة في الغابة .

حين ودعا الواحد الآخر تمنى لها سلاماً من الرب وباركها . قالت كريستين راجية وهي واقفة ويده في يدها : «أعطني وعداً ، كالوعد الذي أعطيته لأولفهيلد أيها الأب العزيز » .

حك الراهب قدمه الحافية ، التي ملأها النقرس بالعقد ، بالعشب الرطب :

« إذن سأطلب إليك يا ابنتي أن تحفظي في قلبك كيف أن الرب يهتم بصالح الناس هنا في «ديل» . لا يسقط هنا سوى القليل من المطر ، ولكنه

أعطاكم الماء من الجبال ، ويرطب الندى المرج والحقل كل ليلة . اشكري الرب على عطاياه الطيبة التي منحكم إياها ، ولا تتذمري إذا بدا أنك تفتقدين أي شيء تظنين أنه كان يليق بك الحصول عليه إضافياً . لك شعر جميل أصفر ، لذلك لا تتذمري لأنه ليس مجعداً . ألم تسمعي بالزوجة العجوز التي جلست وبكت لأنه ليس لديها سوى قضمة واحدة من لحم الخنزير تعطيها إلى أولادها السبعة الصغار في احتفال عيد الميلاد ؟ في الوقت الملائم مرّ القديس أولاف راكباً ، ومدّ يده فوق اللحم وصلّى للرب حتى يمنح الغربان الصغيرة ما يملأ بطونها . ولكن حين رأت المرأة جثة الخنزير الكاملة فوق المائدة ، بكت لأنه لم تكن لديها قدور وأطباق كافية!»

عدت كريستين عائدة نحو البيت وكورتلين يرقص عند كاحليها ، ويعض على حواشي ثوبها ، وينبح ويرن كل أجراسه الفضية الصغيرة .

٦

مكث آرن في المنزل في فينسبريكن في الأيام الأخيرة قبل الانطلاق إلى هامار . كانت أمه وأخواته يجهزن له ملابسه .

في اليوم السابق على ذهابه جنوباً ، أتى آرن إلى يوروندغارد لأجل الوداع . وقد اغتنم الفرصة ليهمس لكريستين : هل لها أن تقابله على الطريق جنوب لاوغربرو في مساء اليوم التالي ؟

قال : « سأكون سعيداً جداً لو أتيح لكلينا أن نكون وحدنا في المرة الأخيرة التي سنلتقي فيها . هل طلبي هذا أمر جلل ؟ » ثم قال : « على أي حال ، فقد تربينا معاً مثل أخ وأخت » ، وذلك حين ترددت كريستين قبل الرد عليه .

لذلك وعدته بالقدوم إذا استطاعت أن تنسلّ من البيت .

هطل الثلج في صباح اليوم التالي ، ولكن خلال النهار بدأ المطر بالهطول ، وسرعان ما أضحت الطرقات والحقول بحراً من الوحل الرمادي . كانت أكاليل من الضباب معلقة أو تنجرف على امتداد حواف الجبال المنخفضة . بين الحين والآخر كانت تهبط إلى مستوى أدنى وتتجمع في لفائف بيضاء على امتداد جذور الجبال . ثم تطبق غيوم المطر الكثيفة مجدداً .

وصل سيرا آيريك لمساعدة لافرانس في تنظيم بعض الصكوك . نزلا إلى غرفة الموقد ، ففي مثل هذا الطقس كانت هذه الغرفة ألطف من القاعة الكبرى ، حيث الموقد يملأ الغرفة بالدخان . كانت راغنفريد في لاوغربرو حيث كانت رامبورغ تتعافى بعد إصابتها بالحمى منذ أول الخريف .

وهكذا لم يكن صعباً على كريستين أن تنسلّ دون أن يراها أحد ، ولكنها لم تجرؤ على أخذ حصان ، لذلك ذهبت مشياً على الأقدام . كانت الطريق مستنقعاً من الوحل الثلجي والأوراق الذابلة . كانت هناك رائحة موت محزنة وتعفن في الهواء البارد القارس . وبين الحين والآخر كانت تهب عصفة هواء تجعل المطر يضرب وجهها . رفعت قلنسوتها جيداً فوق رأسها ، وبينما راحت تمسك بالعباءة جيداً بكلتا يديها ، مضت نحو الأمام . كانت خائفة قليلاً : فقد بدا هدير النهر شديد العمق في الهواء الثقيل ، وكانت الغيوم تسير داكنة ومهلهلة فوق قمم الجبال . بين الحين والآخر كانت تتوقف لتصغي إلى صوت آرن قادماً .

بعد حين سمعت صوت حوافر حصان تغوص في الوحل على الطريق من خلفها ، وتوقفت حينها حيث كانت ، لأنها كانت بقعة منعزلة نوعاً ما وفكرت في أنه مكان جيد لهما ليودّعا الواحد الآخر في هدوء . وعلى الفور تقريباً رأت الفارس وقفز آرن من على حصانه وقاده وهو قادم ليقابلها .

قال : «لطيف منك أن تأتي في هذا الطقس الرديء» .

«كان الأمر أسوأ بالنسبة إليك حيث أنك قطعت كل هذه المسافة . ولماذا حددت الموعد متأخراً إلى هذا الحد ؟»

«لقد أمرني يون بأن أمكث الليل في لوبتسغارد» ، أجاب آرن . «ظننت أنه من الأسهل عليك أن تقابليني في هذا الوقت من النهار» .

وقفا صامتين برهة . فكرت كريستين في أنها لم تر مطلقاً من قبل كم كان آرن وسيماً . كان يضع قبعة فولاذية صقيلة وتحتها قبعة صوفية بنية كانت تحيط جيداً بوجهه وتنتشر حتى كتفيه . تحتها كان وجهه النحيل يظهر لامعاً ووسيماً . كان يرتدي سترة جلدية طويلة ضيقة دون كمين مبقعة بالصدأ وقد ترك الدرع الذي كان قد ارتدي فوقها آثاره عليها ـ كان آرن قد أخذها عن أبيه ـ ولكنها كانت تلائم جيداً جسده الرشيق الخفيف القوي ، وكان يحمل سيفاً إلى جانبه ورمحاً في يده... أما أسلحته الأخرى فكانت معلقة في سرجه . كان مكتمل النمو الآن ويتصرف برجولة .

وضعت يدها عل كتفه وقالت :

« أتذكر يا آرن أنك سألتني ذات مرة إن كنت أعتبرك رجلاً جيداً بقدر سايمون أندرسون ؟ الآن سأقول لك أمراً واحداً ، قبل أن نفترق . أنت تبدو لي أفضل منه مظهراً وقامة بكثير ، كما هو يعتبر أفضل منك من حيث النسب الرفيع والثروة من قبل أولئك الذين يركزون اهتمامهم على مثل هذه الأشياء » .

« لم تقولين لي ذلك ؟ » سأل آرن مبهور الأنفاس .

« لأن الأخ إدفين طلب مني أن أشكر الرب من كل قلبي على عطاياه الطيبة ، وألا أكون مثل المرأة التي حين أضاف القديس أولاف اللحم إلى ما لديها من لحم بكت لأنه لم يكن لديها قدور تضعه فيها... لذلك ليس عليك الآن أن تحزن لأنّ الرب لم يهبك من الثروات ما وهبك من العطايا البدنية... »

« هل عنيت ذلك ؟ » قال آرن . ثم حين بقيت صامتة قال :

« تساءلت إن كنت قد عنيت أنك تفضلين بالأحرى الزواج مني على الزواج من ذاك الآخر... »

« سأفعل حقاً » ، قالت بصوت خفيض . « ...أعرفك على نحو أفضل » .

رمى آرن بذراعيه من حولها حتى أن قدميها ارتفعتا عن الأرض . قبّل وجهها مرات كثيرة ، ثم أنزلها :

«فليساعدنا الرب يا كريستين ، لكم أنت طفلة!» .

وقفت ودلت رأسها ، ولكنها تركت يديها فوق كتفيه . أمسك برسغيها بشدة :

«أرى كيف هي الأمور معك يا حبيبتي : أنت لا تعرفين إلا القليل كم أنا قلبي منفطر على خسارتك . يا كريستين ، تعرفين أننا ترعرعنا معاً كتفاحتين على غصن واحد . لقد أحببتك منذ زمن طويل قبل أن أبدأ بفهم أنه في أحد الأيام سيأتي شخص آخر ويختطفك مني . وكما عانى الرب الموت من أجلنا جميعاً... لا أعرف كيف سأكون سعيداً مرة أخرى في هذه الدنيا بعد هذا اليوم...»

بكت كريستين بمرارة ورفعت وجهها ، حتى يقبلها .

« لاتتحدّث على هذا النحو يا آرن » ، رجته ثم ربتت على كتفه .

« كريستين » ، قال آرن بصوت خفيض ثم أخذها بين ذراعيه مجدداً ؟

«ألا تظنين أنك لو رجوت أباك ـ فلافرانس رجل طيب جداً ، وهو لن يجبرك ضد إرادتك ـ لو رجوتهم أن يمهلوك بضع سنوات ، فلا يعرف أحد أي ثروة قد تهبط عليّ... فكلانا لا يزال شاباً...»

«أوه ، أخشى أن عليّ أن أفعل في البيت ما يرغبون فيه ،» وبكت .

والآن بكى آرن أيضاً .

«أنت لا تعرفين يا كريستين كم أنت عزيزة عليّ» . خبأ وجهه في كتفها . «لو عرفت ولو اهتممت بي ، لكنت ذهبت إلى لافرانس ورجوته بشدة...»

نشجت : «لا أستطيع فعل ذلك . ما كنت لأستطيع أن أحب رجلاً إلى

حد أن أعصي أبي وأمي لأجله» . تلمست بيديها وجهه تحت القلنسوة والقبعة الفولاذية الثقيلة . « لاتبك هكذا يا آرن ، يا أعز صديق...»

«عليك أن تأخذي هذه في الأقل» ، قال لها بعد حين ، وأعطاها دبوس زينة صغيراً . وفكري بي أحياناً ، لأني لن أنساك ولن أنسى أساي...»

كان الظلام قد حل حين تلفظت كريستين وآرن بآخر كلمات الوداع . وقفت ولاحقته بنظرها حين ابتعد أخيراً . كان هناك شريط من النور الأصفر يلتمع عبر شق في الغيوم ، وقد انعكس في آثار الأقدام ، حيث سارا ووقفا في الوحل على الطريق... بدا هذا كله بارداً وحزيناً جداً ، كما فكرت . أخرجت منديلها الكتاني وجففت وجهها الدامع ، ثم التفتت ومضت إلى البيت .

كانت مبللة ومقرورة ، وراحت تمشي بسرعة . بعد حين سمعت شخصاً يقترب على امتداد الدرب خلفها . شعرت بالخوف قليلاً . حتى في مثل هذه الليلة فقد يكون هناك أناس غرباء يسافرون على الطريق ، وكانت لا تزال أمامها فسحة منعزلة من الطريق . كان ركام أسود كبير من الحجارة يبرز عالياً من جهة ومن الجهة الأخرى كانت الأرض شديدة الانحدار وهناك غابة من أشجار التنوب تمتد على طول الطريق حتى النهر ذي اللون الرصاصي في قعر «ديل» . كانت سعيدة حين هتف لها الرجل الذي خلفها باسمها . فوقفت ساكنة وانتظرت .

كان القادم الجديد رجلاً طويلاً نحيلاً في معطف ذي أكمام خفيفة . وحين اقترب منها رأت أنه كان يرتدي ملابس كاهن ويحمل حقيبة فارغة على ظهره ، والآن ميزته على أنه بنتاين بريستسون كما كانوا يدعونه... إنه ابن ابنة سيرا آيريك . لاحظت فوراً أنه كان ثملاً .

قال ضاحكاً بعد أن حيّا أحدهما الآخر : «أجل واحد يذهب وواحد

يأتي . لقد قابلت آرن أوف بريكن قبل برهة... أرى أنك تبكين . يمكنك أن تبتسمي قليلاً أيضاً الآن طالما عدت أنا إلى بيتي... لقد كنا صديقين أيضاً منذ أن كنا طفلين ، أليس كذلك ؟ »

قالت كريستين بصراحة : « إنه لتبادل سيء في اعتقادي ، أن يحلوك محله في الأبرشية » . ما كانت تحب بنتاين هذا أبداً . « لذلك أخشى أن الكثيرين هم من رأيي . إن جدك هنا كان سعيداً جداً لوجودك في أوسلو تحقق بداية جيدة جداً » .

قال بنتاين بضحكة مجلجلة : « أوه ، أجل . إذن فهي تلك بداية جيدة لي ، أليس ذلك ما ترينه ؟ كنت كخنزير في حقل قمح يا كريستين... والنهاية هي نفسها ، فقد كنت أُطارَدُ بالهراوات والصيحات والصراخ . أجل . أجل! أجل! أجل! لم يكن ذاك أمراً مهماً ، فسعادة جدي تتأتى من نسله . ولكن لم أنت مسرعة إلى هذا الحد ؟ »

« أنا بردانة » ، قالت كريستين بفظاظة .

قال الكاهن : « ليس أكثر مني . فليس عليَّ من الثياب سوى ما ترينه هنا... لقد اضطررت إلى بيع عباءتي لقاء الطعام والجعة في هامار الصغيرة . والآن ، لا شك أنه ما زالت لديك بعض الحرارة في جسدك من وداعك لآرن... أعتقد أن عليك أن تدعيني أدخل تحت فرائك معك... » ثم أمسك بعباءتها وجذبهاإلى ما فوق كتفيه وأمسك بها من خصرها بذراعه الرطبة .

دهشت كريستين إلى أقصى حد من جرأته حتى أنها لم تستجمع رشدها إلا بعد لحظة ... ثم ناضلت لتخلص نفسها منه ، ولكنه كان ممسكاً بعباءتها ، وكانت مربوطة بمشبك فضي قوي ، وتمكن بنتاين من تطويقها بذراعيه مرة أخرى ، وحاول تقبيلها ، وفمه يكاد يلمس ذقنها . حاولت أن تضربه ، ولكنه كان يثبتها بالجزء الأعلى من ذراعه .

هسهست وهي تناضل : «أظنك فقدت عقلك . اتتجرأ فتضع يديك عليّ وكأني... ستدفع غالياً ثمن هذا غداً ، أيها الجبان...»

« كلا ، غداً لن تتصرفي بحماقة إلى هذا الحد » ، قال بنتاين ، وهو يضع ساقه أمامها حتى تسقط في الوحل ، ثم راح يضغط بيد واحدة على فمها .

ومع ذلك لم تفكر بالصراخ . والآن خطر لها لأول مرة ما كان يريده منها ، ولكن الغضب جاءها عنيفاً أهوج حتى أنها لم تفكر بالخوف مطلقاً : كشرت كحيوان يتماسك مع آخر وقاتلت الرجل بعنف وهو يحاول تثبيتها أرضاً ، بينما كان ماء الثلج البارد الجليدي يتشرب ملابسها حتى بشرتها المتألمة .

قال بنتاين : «غداً سيكون لديك من العقل ما يكفي لتمسكي عليك لسانك... وإن لم تستطيعي إخفاء الموضوع ، تستطيعين إلقاء اللوم على آرن... سيصدقون ذلك حالما...»

عندها بالضبط وصل أحد أصابعه إلى فمها فعضته على الفور بكل قوتها ، حتى صرخ بنتاين من الألم وأرخى قبضته . حررت كريستين إحدى يديها بسرعة البرق وأمسكت وجهه بوساطتها ، ثم ضغطت بإبهامها بكل قوتها على مقلة إحدى عينيه : زمجر ونهض على ركبتيه ، انزلقت من قبضته كقطة ورمت بنفسها عليه حتى سقط على ظهره ، ثم التفتت واندفعت على طول الطريق والوحل يتطاير عليها مع كل قفزة .

عدت وعدت دون أن تنظر إلى الخلف . سمعت بنتاين يلاحقها ، ثم ركضت حتى راح قلبها يدق بعنف في حلقها ، بينما راحت تئنّ بصوت خفيض ولكنها حاولت أن تبقي عينيها نحو الأمام... أو أنها لن تصل أبداً إلى لاوغروبرو ؟ وأخيراً أضحت على الطريق الذي يمر عبر الحقول . رأت مجموعة منازل على منحدر التل ، وفي اللحظة نفسها ظنت أنها لن تجرؤ على

الدخول إلى هناك ، حيث كانت أمها ، وذلك بالحالة التي كانت عليها الآن ، وقد غطاها الوحل والورق الذابل من الرأس إلى القدم ، وملابسها ممزقة إلى خرق .

لاحظت أن بنتاين كان يلاحقها عن كثب . وعند ذلك انحنت والتقطت حجرين . رمته بهما حين وصل إلى قربها بما فيه الكفاية . أصابه أحدهما بقوة كبيرة حتى أنه أسقطه على الأرض ثم عدت مجدداً ولم تتوقف حتى وصلت الجسر ووقفت فوقه .

وقفت وأمسكت بحاجز الجسر ، وهي ترتجف ، فنزلت عتمة أمام عينيها ، وخشيت من الإغماء... ولكنها فكرت حينئذ ببنتاين ، وماذا لو وصل ووجدها . تابعت السير وقد هزها الغضب والعار رغم أن ساقيها ما كانتا لتحملانها إلاّ بالكاد ، وأحست بآلام في ظهرها وذراعيها . انهمرت دموعها ساخنة كالنار .

تمنت أن يكون بنتاين قد قتل بالحجر الذي رمته به . وتمنت لو عادت وأجهزت عليه . تحسست خنجرها ، ولكن تبين لها أنها قد فقدته .

ثم داهمتها مجدداً الفكرة بأن عليها ألاّ تُرى في البيت في حالتها الحاضرة . لذلك خطر لها أن تذهب إلى روموندغارد . وهناك ستشتكي لسيرا آيريك .

ولكن الكاهن لم يكن قد عاد بعد من يورونذغارد . في المطبخ وجدت غونهيلد . كانت المرأة وحيدة . وحكت لها كريستين ما فعله بها ابنها . ولكنها لم تذكر لها أنها خرجت لتقابل آرن . حين رأت أن غونهيلد ظنت أنها كانت في لاوغاربرو ، فقد تركتها في ظنها .

لم تقل غونهيلد إلاّ القليل ، ولكنها بكت كثيراً وهي تغسل الوحل عن ملابس كريستين وتخيط لها المزق الأسوأ . وكانت الفتاة مهزوزة جداً حتى

أنها لم تكترث بالنظرات الخفية التي راحت غونهيلد ترميها بها بين الحين والآخر .

حين مضت كريستين ، أخذت غونهيلد عباءتها وخرجت معها ، ولكنها اتخذت طريق الاسطبلات . سألتها كريستين عن وجهتها .

« طبعاً ستأذنين لي بالركوب لأفتش عن ابني » ، أجابت المرأة . «سأرى إن كنت قتلته بذلك الحجر الذي رميته به أو كيف هي حاله » .

لم تجد كريستين ما تجيب به على هذا ، لذا لم تقل لها سوى أن على غونهيلد أن تحرص على خروج بنتاين من الأبرشية بأسرع وقت ممكن وأن يبقى بعيداً عن مرمى بصرها ، « ... أو سأحدث لافرانس بما حدث ، وتستطيعين أن تخمني ، كما أعتقد ، ما الذي سيحدث عند ذلك» .

•

و بالفعل مضى بنتاين جنوباً بعد ما لا يزيد على أسبوع من الحادث . كان يحمل رسائل من سيرا آيريك إلى أسقف هامار يرجو فيها الأسقف أن يجد له عملاً أو يقدم له يد المساعدة على نحو آخر .

٧

في أحد الأيام خلال موسم عيد الميلاد وصل سايمون أندرسون إلى يورونـدغارد على جواده . كان ضيفاً غير متوقع . وقد التمس العفو للقدوم هكذا ، دون دعوة ووحده ، دون أهله . ولكن السير آنـدرس كان في السويد لشأن من شؤون الملك . كان هو نفسه في البيت في دايفرين لفترة ، ولكن لم يكن هناك سوى أخواته الصغيرات وأمه التي كانت طريحة الفراش . لذلك كانت معه فسحة من الوقت وأحس بشوق إلى زيارتهم هنا .

شكرته راغنفريد ولافرانس للقيام بمثل هذه الرحلة الطويلة في عزّ الشتاء . فقد كان إعجابهما يزداد بسايمون كلما رأياه . لقد عرف كل ما اتفق عليه بين أندرس ولافرانس ، وأنه من الثابت الآن أن نخب خطبته هو وكريستين سيتم احتساؤه قبل بداية الصوم الكبير إن عاد السير أندرس إلى البيت قبل ذلك التاريخ ، وإن لم يحدث ذلك فبعد عيد الفصح مباشرة .

كانت كريستين هادئة وكاسفة البال لدى وجودها مع خطيبها . لم تكن تجد الكثير من الأمور لتحدثه عنها . في إحدى الأمسيات كان الجميع

جالسين يشربون ، فسألها الخروج معه قليلاً إلى الخارج . ثم وبينما هما واقفان في الشرفة أمام القاعة العليا ، وضع ذراعه حول خصرها وقبلها . بعد ذلك راح يكرر هذا الأمر كلما كانا وحدهما . ولم يبعث هذا السرور في نفسها ، إلاّ أنها سمحت له بالقيام بذلك بما أنها كانت تعرف أن الخطبة كانت أمراً لا بدّ حاصل . فكرت بزفافها الآن فقط كشيء ما عليها أن تقوم به وليس كشيء تتمناه . وعلى أي حال فقد أحبت سايمون بما فيه الكفاية... وخاصة حين كان يحادث الآخرين ولا يلمسها أو يحادثها .

كانت تعيسة جداً خلال هذا الخريف كله . ولو أنها كانت تقول لنفسها دائماً إن بنتاين لم يستطع أن يؤذيها إلاّ أنها رغم ذلك راحت تشعر بأنها ملوثة لحق بها العار .

لم يعد هناك شيء كعهده في السابق ، بما أن رجلاً قد تجرأ وحاول فرض إرادته عليها . كانت تتمدد ليلاً مسهدة وتروح تحترق من شعورها بالخجل ولا تستطيع التوقف عن التفكير في ذلك . أحست بجسد بنتاين قريباً منها حين تعاركا ، وأحست بأنفاسه الحارة التي تفوح منها رائحة الجعة... ولم تستطع مغالبة التفكير بما كان من شأنه أن يحدث... كانت تفكر ، والرجفة تعتري جسدها كله ، بما قاله لها : كيف أن آرن سيلام على ذلك إن لم يكن ممكناً إخفاء الأمر . ثم كان ذهنها يندفع متتبعاً ما كان ممكناً أن يتبع مثل تلك الكارثة لو وقعت ، وعندها سيعرف الناس أنها ذهبت لتلتقي بآرن... وماذا لو صدق أبوها وأمها مثل هذا الأمر عن آرن... وماذا عن آرن نفسه... كانت تراه كما رأته آخر مرة ، وأحست كأنها سقطت محطمة أمامه لمجرد التفكير في أنها كان يمكن أن تجذبه معها إلى تلك الحالة من البؤس والعار . ثم راحت ترى أحلاماً قبيحة . لقد سمعت في الكنيسة وفي الحكايات المقدسة عن الشهوات الجسدية وإغواءات الجسد ، ولكنها لم

تكن تعني لها شيئاً . والآن أصبح الأمر حقيقة لها ، وإن لها وللبشرية كلها جسداً شهوانياً يتعلق بالروح وينهش فيها بقيود قاسية .

ثم كانت تفكر كيف كان يمكن لها أن تقتل أو تعمي بنتاين . كان العزاء الوحيد الذي استطاعت أن تجده... أن تجلس نفسها مع أحلام الانتقام ضد الرجل الأسود الكريه الذي وقف دائماً في طريق أفكارها . ولكن هذا لم يساعدها فترة طويلة . كانت تضطجع قرب أولفهيلد في الليالي وتبكي بدموع مرة عند التفكير في كل هذا الذي حصل لها بالقوة الغاشمة . لم يفشل بنتاين تماماً . لقد جرح عذرية روحها .

•

في أول يوم عمل بعد عيد الميلاد كانت كل النساء في يوروندغارد منشغلات في المطبخ . كانت راغنفريد وكريستين هناك أيضاً ، معظم النهار . في وقت متأخر من المساء ، بينما كانت بعض النساء ينظفن بعد أعمال الخبز ، وأخريات يحضرن العشاء ، دخلت فتاة الملبنة مندفعة تصيح وتفرك يديها :

«يا يسوع ، يا يسوع... هل سبق أن سمع أحد مثل هذا الأمر الرهيب... إنهم يجلبون آرن غيردسون ميتاً على مزلجة... فليساعد الرب غيرد و إنغا في هذه المأساة...»

دخل رجل كان يسكن في كوخ قريب من الطريق مع هلفدان . كان هذان هما من شاهد التابوت .

تجمعت النساء من حولهما . خارج الحلقة وقفت كريستين شاحبة ترتجف . بكى هلفدان خادم لافرانس الشخصي والذي كان يعرف آرن منذ طفولته ، بكى بصوت مرتفع وهو يروي الحكاية :

كان بنتاين بريستسون هو من قتل آرن . في ليلة رأس السنة تجمع رجال منزل الأسقف يشربون في قاعة الرجال ، ودخل بنتاين... كان قد منح منصب كاتب الآن مع كاهن عيد القربان . لم يكن الرجال يريدونه بينهم أولاً ، ولكنه ذكّر آرن بأنهما كلاهما من الأبرشية نفسها ، وتركه آرن يجلس إلى القرب منه ، وراحا يشربان معاً . ولكنهما سرعان ما تشاجرا وتقاتلا ، وكان آرن قد هاجمه بعنف شديد حتى أن بنتاين اختطف سكيناً من المائدة وطعنه في نحره ثم أكثر من مرة في صدره . لقد مات آرن على الفور تقريباً .

لقد حزن الأسقف كثيراً على هذا الحادث المؤسف ومن كل قلبه ، فقد اعتنى هو نفسه في تحضير الجثمان ، وجعل جماعته تنقل الجثمان إلى البيت تلك المسافة الطويلة . وقد وضع بنتاين في الحديد وطرده من الكنيسة ، وإن لم يكن قد شُنق بعد فسيُشنق قريباً .

اضطر هلفدان إلى إعادة قص الحكاية مرات كثيرة كلما دخل أناس جدد . وصل لافرانس وسايمون إلى المطبخ أيضاً ، فلاحظا كل هذه الجلبة والحركة في أنحاء المكان . انزعج لافرانس كثيراً وأمر بتجهيز جواده ، فركب إلى بريكن على الفور . وبينما كان يستعد للانطلاق سقطت عيناه على وجه كريستين الشاحب .

سألها : « ربما تودين الذهاب معي ؟ » ترددت كريستين قليلاً . ارتعدت... ثم أومأت برأسها فقد كانت غير قادرة على التلفظ بكلمة واحدة .

سألت راغنفريد : « أليس البرد شديداً عليها ؟ لا شك أنهم سيسهرون على الجثمان غداً ، وعندها سنذهب كلنا معاً... »

نظر لافرانس إلى زوجته . لاحظ وجه سايمون أيضاً . ثم ذهب ووضع ذراعه حول كتفي كريستين .

« إنها أخته بالرضاع ، وعليك أن تتذكري ذلك» . قال : « ربما تود مساعدة إنغا في تكفين الجثمان » .

ورغم أن قلب كريستين كان قد شل من اليأس والخوف ، فقد أحست بتوهج الامتنان لأبيها على كلماته .

عندما قالت راغنفريد إنه لو كانت كريستين ستذهب ، فعليهم أن يتناولوا عصيدة المساء قبل الانطلاق . ثم تمنت عليهم أيضاً أن يرسلوا الهدايا إلى إنغا من قبلهم... قميص كتاني جديد ، شموع وخبز طازج . ثم طلبت منهم أن يقولوا إنها ستحضر بنفسها وتساعد في تحضير الدفن .

كان هناك القليل من الأكل إنما الكثير من الكلام في الغرفة بينما الطعام على المائدة . وقد راح الواحد يذكر الآخر بالمحنة التي أنزلها الله على غيرد وإنغا . فمزرعتهم كانت يباباً بسبب الانزلاقات الصخرية والفيضانات . وأكثر من واحد من أولادهم الأكبر سناً قد مات ، حيث أن أخوة وأخوات آرن كانوا لا يزالون صغاراً . كانوا محظوظين منذ بضع سنوات وحتى الآن لأن الأسقف عين غيرد في فينسبريكن كوكيل له ، والأطفال الذين تبقوا لديهم كانوا وسيمين ومليئين بالوعد . ولكن أم آرن كانت تحبه أكثر من كل البقية .

كما أشفقوا على سيرا آيريك أيضاً . لقد كان الكاهن محبوباً ومحترماً جداً ، وكان أهل الأبرشية فخورين به ؛ إذ كان عالماً وحاذقاً في منصبه ، وعلى أي حال فإنه خلال السنوات التي قضاها في كنيستهم ما كان يترك أبداً يوماً مقدساً أو قداساً أو صلاة تمر إلاّ وأدى واجبه تجاهها . في أيام شبابه كان جندياً تحت أمرة الكونت ألف أوف تورنبرغ ، ولكن لسوء حظه فقد قتل رجلاً من منبت نبيل جداً ، لذا التجأ إلى أسقف أوسلو ، وحين رأى هذا ميل آيريك للتعلم من الكتب ، فقد دربه ككاهن . ولو لم يكن له أعداء حتى

الآن بسبب حادثة القتل تلك في الزمن البعيد ، فقد كان من المرجح أن سيرا آيريك ما كان ليبقى هنا في هذا المنصب الوضيع . لا شك أنه كان طماعاً ، وكان يحب جمع المال لنفسه وللكنيسة ، ولكن ألم تكن كنيسته مجهزة على نحو فاخر بالأطباق والأردية والكتب ؟ وكان لديه هؤلاء الأولاد : ولم يكن يأتيه سوى الأسى والانزعاج من أسرته . في تلك الأبرشيات البعيدة لم يكن الناس يعتقدون أنه لا يوجد سبب يجعل الكهنة يعيشون كالرهبان ، إذ يجب في الأقل أن تكون لديهم نساء يساعدونهم في مزارعهم ، وقد يحتاجون أيضاً إلى امرأة تعتني بشؤونهم ، بالنظر إلى الرحلات الطويلة والمتعبة التي يقومون بها حول الأبرشيات ، وفي كل أنواع الطقس . وعلاوة على ذلك لم يكن الناس قد نسوا بعد أنه لم يمض وقت طويل على ذلك الزمن الذي كان فيه الكهنة في النرويج رجالاً متزوجين . لذلك لم يلم أحد سيرا آيريك كثيراً لأنه كان لديه ثلاثة أولاد من المرأة التي كانت تعتني بمنزله ، بينما كان لا يزال شاباً . ولكن في هذا المساء قالوا إن الأمر ليبدو بالفعل وكأن إرادة الرب شاءت أن تعاقب آيريك لحياته المتحررة ، فقد جلب عليه أولاده وأحفاده الكثير من الشر له . وقد ظن البعض بوجود سبب معقول أيضاً بأن على الكاهن أن يكون دون زوجة أو أولاد... فبعد هذا كان يخشى من أن الكثير من المرارة والعدائية سيظهر بين الكاهن والناس في فينسبريكن ، الذين كانوا حتى الآن أفضل الأصدقاء .

كان سايمون أندرسون يعرف الكثير عن أفعال بنتاين في أوسلو ، وكان يحكي عنها . كان بنتاين كاتباً لكاهن كنيسة العذراء المقدسة واشتهر على أنه فتى ذو بديهة حاضرة . وكانت هناك نساء كثيرات أحببنه جيداً ، فقد كانت له عينان جوالتان ولسان ذرب . البعض منهن اعتقدن أنه رجل وسيم : وهؤلاء كن النسوة اللواتي حسبن أن زواجهن من أقرانهن كان صفقة

خاسرة . ثم كانت هناك العذارى الشابات : ذلك النوع الذي كان يحب أن يكون الرجال متحررين معهن نوعاً ما . كان سايمون يضحك... أجل ، هل فهموا ؟ حسناً ، كان بنتاين شديد المكر ، فلم يكن يمضي إلى حد بعيد مع ذلك النوع من النساء . كان يحادثهن فقط ، وهكذا حصل على شهرة العيش النظيف . ولكن ما حدث أن الملك هاكون ، كما كانوا يعرفون ، كان رجلاً طيباً وورعاً في نفسه ، وكان يسعده أن يحفظ النظام بين رجاله ، وكان يريدهم أن يتمتعوا بمشية لائقة وحديث ملائم : وخاصة الشبان منهم . أما الآخرون فقد يكونون أكثر مما يستطيع تحمله . وقد حصل أنه مهما كانت الدعابات التي يمارسها الشبان أو يساهمون فيها كالشراب والقمار واحتساء الجعة وما شابه ــ فقد كان كاهن بلاط الملك يسمع بها ، وكان على الطائشين أن يعترفوا وأن يدفعوا ضريبة ويعانون تقريعاً شديداً . حسناً ، لقد تم طرد اثنين أو ثلاثة من أكثر الشبان مجوناً . ولكن حدث أخيراً أن انفضح الأمر ، فقد كان هذا الثعلب ، بنتاين الكاتب يرتاد ـ دون معرفة أحد ـ حانات الجعة وحتى الأماكن الأسوأ . وكان يصغي إلى اعترافات الخادمات ويمنحهن الغفران...

جلست كريستين إلى جانب أمها . حاولت أن تأكل حتى لا يلاحظ أحد حالها ، رغم أن يدها كانت ترتجف حتى أنها كانت تهرق عصيدة الحليب عند كل مرة تغرفها فيها بالملعقة ، وأحست بلسانها سميكاً جداً وجافاً في حلقها بحيث لم تستطع أن تبتلع لقم الخبز . ولكن حين بدا سايمون يحكي عن بنتاين ، كان عليها التخلي عن الادعاء بأنها تأكل . تمسكت بالمقعد الذي تحتها . وصل بها الرعب والكره... إلى حد أنها أحست بالغثيان والدوخة . كان هو من أراد أن... بنتاين وآرن ، بنتاين وآرن... انتظرتهم حتى انتهوا وقد نفد صبرها . تاقت إلى رؤية آرن ، وجه

آرن الوسيم ، أن ترمي بنفسها إلى القرب منه وتتفجّع عليه وتنسى كل شيء آخر .

و بينما راحت أمها تساعدها على ارتداء ملابسها الصوفية ، قبلت ابنتها على وجنتها . لم تكن كريستين معتادة إلا بالكاد على مثل تعابير التحبب هذه من أمها ، ولكن هذا سلاها كثيراً الآن ، فوضعت رأسها على كتف راغنفريد لحظة ، إلا أنها لم تستطع البكاء .

حين خرجوا إلى الساحة ، رأت أن هناك آخرين ذاهبين معها : هالفدان ويون من لاغربرو ، وسايمون ومرافقه . وقد أصيبت بغصة ، دون أن تعرف السبب ، لأن هذين الغريبين سيرافقانهم .

كان المساء شديد البرودة ، والثلج يطقطق تحت الأقدام . في السماء السوداء كانت النجوم شديدة الازدحام ملتمعة مثل الجليد . وبعد أن قطعوا مسافة صغيرة ، سمعوا صرخات وعجيجاً وأصوات حوافر هوجاء من المنبسطات إلى الجنوب : على مسافة من الطريق وصلت مجموعة من الفرسان تشق الأرض من الخلف واجتاحتهم مع صليل المعادن تاركة خلفها بخار رائحة لحم الجياد المغطى بالجليد ، والتي وصلتهم حتى في مكان وقوفهم جانباً في الثلج العميق . حيّا هالفدان المجموعة الجامحة : كانوا شباناً من المزارع في جنوب الأبرشية وهم لايزالون يحتفلون بموسم عيد الميلاد وقد خرجوا يجربون جيادهم . كان البعض منهم أشد سُكراً من أن يفهم شيئاً فاستمر في طريقه هادراً معربداً بأعلى صوته يضرب على ترسه . ولكن فهمت قلة منهم الأخبار التي صرخ بها هالفدان نحوهم . انسحبوا من المجموعة وصمتوا ، وانضموا إلى مجموعة لافرانس وراحوا يتحدثون همساً مع أولئك الذين في المؤخرة .

وأخيراً وصلوا إلى مكان يطلون منه على فينسبريكن ، على الجبل الذي

يقع إلى ماوراء نهر «أسيل» . كانت هناك أنوار في المنازل : في وسط الساحة كانت مشاعل جذور الصنوبر قد زرعت في كومة من الثلج ، وكانت تتوهج حمراء فوق المنحدرات البيضاء ، ولكن المنازل السوداء بدت وكأنها ملطخة بدم متخثر . كانت واحدة من أخوات آرن الصغيرات تقف في الخارج وهي تضرب الأرض بقدميها . كانت تعانق يديها تحت معطفها . قبلت كريستين الطفلة الباكية نصف المتجمدة . كان قلبها ثقيلاً كالصخر وبدا وكأن الرصاص كان يثقل أعضاءها ، وهي تصعد الدرج إلى العلية حيث وضعوا جثمانه .

●

قابلهم صوت غناء ووهج الكثير من الشموع في المدخل . في منتصف الغرفة كان التابوت الذي جلب فيه إلى البيت ، مغطى بشرشف . كانت بعض الألواح قد وضعت على جحوش خشبية ووضع التابوت فوقها . عند رأس النعش كان كاهن شاب قد وقف حاملاً كتاباً بين يديه ، وهو يرتل . وكان أصحاب الحداد يركعون في أرجاء الغرفة ووجوههم مخبأة في عباءاتهم الثقيلة .

أشعل لافرانس شمعته من واحدة من تلك التي كانت مشتعلة ، ووضعها بثبات فوق أحد ألواح النعش وركع . حاولت كريستين أن تفعل أمراً مشابهاً ، ولكنها لم تستطع جعل شمعتها تقف منتصبة . لذلك أخذها منها سايمون وساعدها . مع استمرار الكاهن في تراتيله ، بقي الجميع راكعين على ركبهم وهم يرددون كلماته همساً ، وأنفاسهم معلقة كالبخار حول أفواههم في هواء الغرفة البارد القارس .

حين أغلق الكاهن كتابه ونهض الناس ـ كان كثيرون قد سبق وتجمعوا

في حجرة الموت ـ مضى لافرانس نحو إنغا . حدقت إلى كريستين ، ولم يبد عليها أنها سمعت ما قاله لافرانس . وقفت حاملة الهدايا التي سلمها إليها ، وكأنها لا تعرف أنها تحمل شيئاً في يدها .

قالت بصوت غريب مختنق : « هل أتيت أنت أيضاً يا كريستين ؟ ربما تودين أن تري ابني ، طالما عاد إليّ » .

دفعت ببعض الشموع بعيداً وأمسكت بذراع كريستين بيد مرتجفة ، وبالأخرى أزاحت المنديل عن وجه الميت .

كان أصفر رمادياً كالطين ، وكان للشفتين لون الرصاص . كانتا قد افترقتا قليلاً ، فظهرت من بينهما أسنان بيضاء صغيرة مستوية كما في ابتسامة ساخرة . تحت الأهداب الطويلة كان توهج العينين الزجاجيتين ، وبعض البقع المزرقة تحت الصدغين ، وهي آثار ضربات أو بقع موت .

سألتها إنغا كما من قبل : « أتودين أن تقبليه ؟ » وانحنت كريستين إلى الأمام بناء على أمرها وضغطت بشفتيها على وجنة الشاب الميت . كانت رطبة كالندى ، وحسبت أنها تستطيع أن تشعر برائحة تفسخ ، فالجثة قد بدأت تتفسخ من حرارة الشموع المحيطة بها .

وقفت كريستين ساكنة ويداها على التابوت ، فهي لم تستطع أن تقف . جذبت إنغا الكفن جانباً حتى الجرح البليغ فوق عظم الترقوة . ثم التفتت نحو الناس وقالت بصوت مرتجف :

« إنهم يكذبون ، كما أرى ، أولئك الذين يقولون إن جراح الميت تنزف حين يُلمس من قبل أولئك الذين سببوا موته . إنه أبرد الآن ، ولدي ، وأقل وسامة مما كان حين ذهبت لتقابليه على الطريق هناك . لا تكترثين الآن كثيراً بتقبيله ، كما أرى ، ولكني سمعت أنك لم تأنفي من قبلته آنذاك » .

قال لافرانس وهو يتقدم : «يا إنغا ، هل فقدت رشدك ؟ هل تخرفين ؟»

«أوه حسناً ، أنتم جميعاً رفيعو القدر جداً هناك في يورونـدغارد ، أنت غني جداً يا لافرانس بيورغولفسون ، بحيث لا يفكر ابني بمغازلة ابنتك بشرف... وكريستين أيضاً ، لقد ظنت نفسها أفضل منه بكثير . ولكنها تنازلت ولحقت به على الطريق العام ليلاً وعبثت معه في الأجمات في ليلة سفره : اسألها بنفسك وسوف نرى إن كانت ستتجرأ على إنكار ذلك هنا ، بينما آرن ممدّد هنا ميتاً... وكل ذلك بسبب خفتها...»

لم يسأل لافرانس ، بل التفت إلى غيرد .

«اضبط زوجتك يا رجل... ألا ترى أنها ضيعت رشدها...»

ولكن كريستين رفعت وجهها الشاحب ونظرت بيأس فيما حولها :

«لقد ذهبت وقابلت آرن في آخر ليلة لأنه رجاني أن أفعل ذلك . ولكن لم يجر أي شيء غير ملائم بيننا» . ثم ، وحين بدا أنها استردت نفسها وفهمت كل شيء ، صاحت : «لا أعرف ما تعنينه يا إنغا... هل تريدين الإساءة إلى سمعة آرن وهو ممدد هنا... إنه لم يغوني قط ولا حاول أن يقودني إلى الانحراف» .

ولكن إنغا ضحكت بصوت مرتفع :

«كلا ، ليس آرن! ولكن بنتاين الكاهن... لم يدعك تعبثين معه هكذا... اسأل غونهيلد يا لافرانس ، تلك التي نظفت التراب عن ظهر ابنتك . واسأل كل رجل كان في قاعة رجال الأسقف في ليلة رأس السنة ، حين هزأ بنتاين من آرن لأنه تركها تذهب في سبيلها ، وتركه واقفاً هناك كالأحمق . لقد سمحت لبنتاين باصطحابها مشياً إلى البيت تحت عباءتها ، وكانت ستلعب معه اللعبة نفسها...»

أمسكها لافرانس من كتفها ، ووضع يده على فمها :

«أبعدها يا غيرد ، من المعيب أن تتلفظي بمثل هذه الكلمات قرب جثمان هذا الشاب... ولكن لو تمدد كل أولادك ميتين هنا ، ما كنت لأقف وأسمع منك كذباً على أولادي . أنت يا غيرد يجب أن ترد على ما قالته هذه المرأة المجنونة... »

أمسك غيرد بزوجته وحاول أن يأخذها بعيداً ، ولكنه قال للافرانس :

« إنه أمر صحيح . لقد كانا يتكلمان عن كريستين ، آرن وبنتاين ، حين فقد ابني حياته . وربما لم تسمع أيضاً بذلك ، ولكن جرى حديث في الأبرشية هنا ، في هذا الخريف أيضاً... »

ضرب سايمون بسيفه على خزانة الملابس التي كانت إلى جانبه :

« كلا ، أيها الناس الطيبون ، والآن عليكم أن تجدوا شخصاً آخر تتحدثون عنه في حجرة الموت هذه غير خطيبتي... أيها الكاهن ، ألا تستطيع أن تضبط هؤلاء الناس وتحافظ على النظام هنا... ؟ »

فتح الكاهن ـ لاحظت كريستين الآن أنه كان الابن الأصغر لآل أولفسفولدن وكان في البيت الآن لأجل موسم عيد الميلاد ـ كتابه ووقف أمام النعش . ولكن لافرانس صاح بأن هؤلاء الذين مسوا سمعته ، وليكونوا من يكونون ، سيكون عليهم أن يتراجعوا عما قالوه . وهناك صرخت إنغا :

«أجل ، خذ حياتي إذن يا لافرانس ، بما أنها أخذت كل راحتي وفرحتي... واجعل زفافها مع ابن الفارس هذا . ولكن هل يعرف كل الناس أنها تزوجت من بنتاين على الطريق العام... هنا... » ، ثم رمت بالشرشف الذي قدمه لها لافرانس عبر النعش نحو كريستين : «لا حاجة لي بكتان راغنفريد لأضع فيه « آرني » في القبر... اصنعي منه غطاء رأس ، أو احفظيه لتقمطي به الطفل الذي حملت به على جانب الطريق... وانزلي وساعدي غونهيلد في عويلها على الرجل الذي شُنق... »

أمسك لافرانس وغيرد والكاهن بإنغا . حاول سايمون أن يرفع كريستين ، التي كانت قد تمددت فوق النعش . ولكنها رمت بذراعه بعيداً وبعنف ، وجلست على ركبتيها وصاحت بصوت مرتفع :

«فليساعدني الرب المخلّص ، هذا كذب! »ثم مدت يداً واحدة فوق أقرب شمعة على النعش .

بدا وكأن اللهب انثنى وتموج نحو الجانب ، أحست كريستين بالأعين كلها مثبتة عليها ، ثم شعرت أن زمناً طويلاً مرّ عليها . ثم بدأت على الفور تحس بألم حارق في كفها ، وبعد ذلك وبصرخة ثاقبة سقطت على الأرض .

ظنت أنه أُغْمِيَ عليها ، ولكنها كانت واعية بأن سايمون والكاهن أنهضاها . صرخت إنغا بشيء ما . رأت وجه أبيها الذي اعتراه الرعب ، وسمعت الكاهن يصرخ بأنه لا يجب على أحد أن يأخذ هذه المحنة بالاعتبار - لا يدعو المرء الرب ليكون شاهداً بهذا الأسلوب - ثم حملها سايمون من الغرفة ونزل بها الدرج . ركض خادم سايمون إلى الإسطبل وسرعان ما كانت كريستين جالسة ، وهي لا تزال نصف غائبة عن الوعي ، أمام سايمون على سرجه ، ملفوفة بعباءته ، وكان هذا ذاهباً باتجاه يوروندغارد بأسرع ما يستطيع حصانه .

كانوا قريبين من يوروندغارد حين أدركهم لافرانس . أما بقية الجماعة فوصلت هادرة على امتداد الطريق بعيداً إلى الخلف .

قال سايمون : «لا تذكري شيئاً لأمك» وذلك وهو ينزلها عند باب المنزل . «لقد سمعنا الكثير من الكلام المجنون الليلة . لا عجب أن تفقدي رشدك أنت أيضاً في النهاية» .

•

كانت راغنفريد مضطجعة وهي لا تزال مستيقظة حين دخلوا ، وسألت كيف كانت الأمور في حجرة السهر على جثمان الميت . وقد اضطلع سايمون بمهمة الإجابة على كل شيء . أجل ، كان هناك الكثير من الشموع والكثير من الناس . أجل ، وكان هناك كاهن هو تورمود من أولفسفولدن ـ لقد سمع أن سيرا آيريك قد ركب إلى هافار هذا المساء ، لذلك لن تكون هناك مشكلة حول الدفن .

قالت راغنفريد : «يجب أن يجري قداس للفتى . كان الله في عون إنغا ، لا بدّ أنه تلك المرأة الصالحة الفاضلة منهكة حتى الألم» .

عزف لافرانس اللحن نفسه الذي عزفه سايمون ، وخلال وقت قصير قال سايمون إن على الجميع أن يرتاحوا «فكريستين مرهقة وحزينة» .

•

بعد ذلك وحين نامت راغنفريد ، ألقى لافرانس على نفسه بعض الملابس القليلة وذهب وجلس على حافة سرير ابنته . وجد كريستين في الظلام وقال برقة شديدة :

«و الآن عليك أن تحكي لي يا طفلتي ما هو صادق وما هو كاذب في كل هذا الحديث الذي تنشره إنغا»

وبينما راحت تبكي ، حكت له كريستين كل ما جرى في المساء الذي انطلق فيه آرن إلى هامار . قال لافرانس القليل . زحفت كريستين نحوه في سريرها ورمت بذراعيها من حول عنقه وقالت برقة :

«إنها غلطتي أن آرن قد مات : صحيح ما قالته إنغا» .

«لقد رجاك آرن نفسه أن تذهبي لملاقاته» قال لافرانس ، وهو يجذب الغطاء على كتفي ابنته العاريتين . «أعتقد أنه كان أمراً غير حكيم من قبلي

أن أدعكما أنتما الإثنين تخرجان سوية ، ولكني ظننت الشاب أوعى من ذلك... لن ألومكما أنتما الاثنين : أعرف أن هذه الأمور صعب عليك تحملها . ومع ذلك لم أعتقد قط أن ابنتي يمكن أن تلوك سمعتها الألسن في أبرشيتنا بالذات... وسيكون الأمر صعباً على أمك حين تسمع هذه الأنباء... ولكن أن تذهبي إلى غونهيلد لتخبريها بما جرى وليس إليّ ، فقد كان أمراً لا يدل على ذكاء... لا أفهم كيف استطعت أن تتصرفي بكل هذه الحماقة...»

«لا أحتمل البقاء هنا في «ديل» بعد الآن» ، قالت كريستين باكية . «لا يوجد شخص أتجرأ أن أنظر في وجهه... مع كل ما جلبته عليهم... الناس في رومونداغارد وفي فينسبريكن...»

«أجل سيكون عليهما كليهما : غيرد وسيرا آيريك أن يدفنا هذه الأكاذيب حولك وحول آرن . أما فيما يخص البقية ، فإن سايمون أندرسون يستطيع الدفاع عنك على أفضل نحو في هذا الخصوص» . قال لافرانس ثم ربت عليها في الظلام . «ألا تعتقدين أنه عالج المسألة جيداً وبحكمة... ؟»

«يا أبي...» والتصقت به كريستين ورجته على نحو مثير للشفقة وبحماسة : «ارسلني إلى الدير يا أبي . أجل ، اصغ إليّ... لقد فكرت في هذا منذ زمن طويل . ربما ستشفى أولفهيلد لو ذهبت بدلاً منها . تعرف الحذاء المغطى بالخرز الذي خطته لها في الخريف... لقد وخزت أصابعي حتى آلمتني بشدة ، ونزفت يداي من الخيط الذهبي... ومع ذلك جلست وخطت به ، لأني كنت أظن أنه لأمر شرير ألاّ أحب أختي إلى درجة ألا أصبح راهبة لأجلها... لقد سألني آرن مرة لم لا أصبح راهبة . ولو قلت نعم ، لما كان كل هذا سيحدث» .

هز لافرانس رأسه . أمرها :

«اضطجعي الآن . أنت نفسك لا تعرفين ما تقولينه يا طفلتي المسكينة... والآن عليك أن تحاولي النوم» .

•

و لكن كريستين اضطجعت وأحست بالألم في يدها المحترقة ، واضطرم اليأس والمرارة على مصيرها في قلبها . ما كان يمكن أن يحدث لها ما هو أسوأ من هذا لو كانت أكثر النساء خطايا . سيصدق الجميع... لا لا ، تستطيع ، لا تستطيع تَحَمُّلُ البقاء هنا في «ديل» . برز أمامها رعب بعد رعب... ماذا سيحدث حين تعرف أمها بذلك... والآن أصبح هناك ثأر دموي بينهم وبين كاهن أبرشيتهم ... بين كل أولئك الذين كانوا أصدقاء من حولها طوال حياتها . ولكن أسوأ خوف وأكثره تحطيماً لها كان يعتريها حين تفكر في سايمون وكيف أخذها وحملها مبتعداً ودافع عنها وتصرف وكأنها ملك له... لقد أصبح أبوها وأمها على الهامش بالنسبة إليه وكأنه سبق لها وأصبحت تنتمي إليه أكثر من أن تنتمي إليهما...

ثم فكرت بوجه آرن في التابوت ، بارداً وقاسياً . تذكرت آخر مرة زارت فيها الكنيسة ، وكيف رأت وهي تغادرها ، قبراً مفتوحاً ينتظر رجلاً ميتاً . كانت كتل التراب المحفورة تقبع على الثلج قاسية وباردة ورمادية كالحديد... لقد أوصلت آرن إلى هذا...

وفوراً تذكرت إحدى أمسيات الصيف قبل سنوات عديدة . كانت تقف على شرفة العلية في فينسبريكن ، الغرفة نفسها التي أهينت فيها هذه الليلة . كان آرن يلعب بالكرة مع بعض الصبيان في الساحة في الأسفل ، وقد رميت الكرة نحوها في الشرفة . وقد خبأتها وراء ظهرها ورفضت تسليمها حين صعد آرن ليجلبها . ثم حاول أن ينتزعها منها بالقوة... لقد تعاركا لأجلها في

الشرفة وفي الغرفة بين الخزائن ، وتضاربا بالأكياس الجلدية ، التي كانت معلقة هناك مليئة بالملابس ، وكان رأساهما يتصادمان وهما يضربان بالأكياس خلال اللهو المرح . لقد ضحكا وتعاركا لأجل الكرة...

ثم أن الحقيقة بدت لها واضحة أخيراً . لقد مات ورحل ، ولن ترى ثانية وجهه الوسيم الجريء ولن تشعر بلمسة يديه الدافئتين الحيتين . لقد كانت طفولية وقاسية جداً لأنها لم تأبه مطلقاً بما كان يعنيه له فقدانها... بكت بدموع مرة وأحست أنها تستحق ما حدث لها من تعاسة . ثم عادت ففكرت في كل ما كان لا يزال مخبأ لها ، فبكت مجدداً ، فقد بدا العقاب بالنسبة لها على أي حال عقاباً شديداً جداً...

•

كان سايمون هو من حكى لراغنفريد ما حدث في حجرة الجثمان في بريكن في الليلة السابقة . ولم يبالغ في وصف ما جرى . ولكن كريستين كانت شديدة الانذهال من الأسى والأرق حتى أنها أحست بغضب أخرق ضده لأنه تحدث وكأن الأمر لم يكن مروعاً على أي حال . وعلاوة على ذلك فقد أثار حنقها إلى حد مؤلم أن أباها وأمها تركا سايمون يتصرف وكأنه سيد المنزل .

«و أنت يا سايمون... لا شك أنك لا تصدق شيئاً من هذا ؟» سألت راغنفريد بقلب ملؤه الخشية .

أجاب سايمون : «لا . ولا أعتقد أن هناك من يصدقه... إنهم يعرفونكم ويعرفونها ويعرفون بنتاين ذاك . ولكن أي حادث صغير يجعل هؤلا الناس في هذه الأبرشيات البعيدة يضخمونه ، فكيف إن كانت هناك طرفة سمينة . إن علينا أن نعلمهم أن سمعة كريستين العطرة ليست زاداً

لحديث مثل هؤلاء المهرجين . ولكن من المؤسف أنها تركت نفسها تشعر بالخوف من هذه الغلطة في سلوكهم حتى أنها لم تتجرأ على أن تأتي إليكم أو إلى سيرا آيريك لتحكي له ما جرى : أعتقد أن كاهن الماخور هذا كان مستعداً للقسم بأنه لم يكن يعني شيئاً أسوأ من المزاح البريء ، لو أنك يا لافرانس تكلمت معه » .

قال والدا كريستين كلاهما إن سايمون كان على حق في هذا ، ولكنها صرخت وهي تضرب الأرض بقدمها :

« و لكنه رماني أرضاً ، أقول لكم ، ولم أعرف أنا نفسي ما فعله أو لم يفعله... كنت قد فقدت صوابي . لا أتذكر شيئاً... كل ما أعرفه قد يكون كما قالت إنغا... لم أكن في حال جيدة ولا سعيدة في أي يوم منذ... »

صرخت راغنفريد وصفقت بيديها . أجفل لافرانس... طأطأ سايمون بوجهه . نظر إليها بحدة ، ثم ذهب إليها ورفع ذقنها بيده . ثم ضحك :

« فليباركك الله يا كريستين ... كنت تذكرت جيداً لو كان قد سبب لك أي أذى . لا عجب أنها كانت حزينة ومريضة منذ ذلك المساء الحزين الذي عانت فيه مثل ذلك الرعب القبيح... هي التي لم تعرف قط سوى الحنان واللطف من قبل » ، هكذا قال هو للآخرين . « و أي شخص عدا صاحب العقل الشرير ، سيظن طوعاً بما هو خبيث وليس صالحاً ، يستطيع أن يرى من عينيها أنها عذراء وليست ثيباً » .

نظرت كريستين إلى عيني خطيبها الصغيرتين الثابتتين . رفعت يديها نصف رفعة ، كأنما لترميهما حول عنقه ، حين تابع يقول :

« ليس عليك أن تظني يا كريستين أنك لن تنسي هذا . ليس في ذهني أن نستقر في « فورمو » حالما نتزوج ، حتى لا تغادري « ديل » . ليس لدى أي امرئ لون الشعر أو العقل نفسه في المطر ونور الشمس ، قال الملك

سفير العجوز ، وذلك حين وضعوا اللوم على ساقيه المصنوعتين من العيدان[١٠] لأنه كان أكثر غطرسة بسبب حظه الطيب... »

ابتسم لافرانس وراغنفريد... كان أمراً ساراً أن يسمعا الشاب يحكي بأسلوب أسقف عجوز حكيم . تابع سايمون قائلاً :

« لن يكون ملائماً لي أن أحاول تعليمك أنت يا من ستكون حماي ، ولكني سأتجرأ كثيراً ربما لو قلت إننا ، أخوتي وأخواتي وأنا ، قد تربينا على نحو أشد صرامة . لم يكن يسمح لنا بالتجول بهذه الحرية مع خدم المنزل كما هي كريستين معتادة أن تفعل حسب ما رأيت . غالباً ما كانت أمي تقول إنه لو لعب المرء مع أطفال أصحاب الأكواخ من المزارعين ، فإنه من المحتمل أن تصيبه قملة أو قملتان في شعره في النهاية... وهناك مغزى ما لهذا القول » .

صمت لافرانس وراغنفريد ، ولكن كريستين أشاحت بوجهها ، وقد تلاشت الرغبة التي كانت قد اعترتها قبل لحظة بأن تعانق سايمون .

عند الظهر أخذ لافرانس وسايمون أدوات التزلج ومضيا ليتفحصا بعض الأشراك على حواف الجبل . كان الطقس جميلاً في الخارج ، مشمساً والبرد ليس قارساً . كان كلا الرجلين سعيداً في الهروب من كل الحزن والبكاء في البيت ، وهكذا مضيا بعيداً ، إلى ما بين القمم البعيدة الجرداء .

جلسا في الشمس تحت صخرة ناتئة وشربا وأكلا . لم يذكر لافرانس آرن إلا قليلاً : لقد كان يحب ذلك الشاب كثيراً . وتدخل سايمون ليمدح الشاب المتوفي ، وقال إنه يظن أنه ليس من الغريب أن تحزن كريستين على أخيها بالرضاعة . ثم قال لافرانس : ربما لا يجب عليهم أن يضغطوا عليها كثيراً ، ولكن يجب أن تمنح بعض الوقت لتعود إلى رشدها قبل أن يحتسوا جعة نخب الخطبة . لقد قالت إنها ترغب نوعاً ما في الذهاب إلى الدير لفترة من الزمن .

انتصب سايمون فجأة في جلسته وأطلق صفرة طويلة .

سأله لافرانس : «ألا تعجبك الفكرة ؟»

«كلا ، ولكن أجل ، أجل» . قال الآخر بسرعة . «ربما تكون أفضل طريقة ، يا حماي العزيز . أرسلها إلى «الأخوات» في أوسلو لمدة سنة... هناك ستتعلم كيف يحادث الناس بعضهم البعض في هذه الدنيا . أعرف القليل عن أولئك النسوة اللواتي هناك» ، كما قال ضاحكاً : «إنهن لن يرمين أنفسهن أرضاً ويمتن حزناً لو مزق شابان مجنونان أشلاء بعضهما لأجلهن . ولا يعني ذلك أني أفضل واحدة مثلهن كزوجة... ولكني أعتقد أن كريستين لن يضرها أن تتعرف بأشخاص جدد» .

وضع لافرانس بقية الطعام في الحقيبة ، وقال دون أن ينظر إلى الشاب : «أعتقد أنك تحب كريستين» .

ضحك سايمون قليلاً ولم ينظر إلى لافرانس .

«فلتكن واثقاً من أني أعرف قدرها حق المعرفة ، وقدرك أيضاً» ، هكذا قال بسرعة وبخجل ، وهو ينهض ويتناول أدوات تزلج . «ليست هناك فتاة أخرى قابلتها وأتمنى لو أتزوجها بهذه السرعة...»

•

قبل عيد الفصح بقليل ، وحين كان لا يزال هناك ثلج كاف للهبوط نحو «ديل»بعربة الجليد وكان الثلج ما يزال على «ميوسن» ، سافرت كريستين جنوباً للمرة الثانية . وصل سايمون ليصحبها ، لذا سافرت الآن في مزلجة ، وقد تلفّعت بالفراء مع أبيها وخطيبها إلى جانبها . وقد لحق بهم رجال أبيها ، ومزالج تحمل ملابسها وهداياها من الأطعمة والفراء لرئيسة الدير وللأخوات في دير «نونسيتر» .

القسم الثاني

طوق الزهور

١

كان زورق كنيسة هاسموند بيورغولفسون واقفاً قرب نقطة «هوفيدو»[١١] في صباح أحد أيام الأحد في نهاية نيسان (أبريل) ، بينما كانت الأجراس ترن في الكنيسة/ الدير وكان الجواب عليها يأتي عبر الخليج بدقات الأجراس من البلدة ، وهي أعلى أحياناً وأخفض أخرى مع اشتداد النسيم أو سكونه .

كانت غيوم خفيفة محزّزة تطفو فوق السماء العالية الزرقاء الفاتحة ، والشمس تلتمع على التموجات المتراقصة للماء . كان الجو ربيعياً على امتداد الشاطئ ، والحقول منبسطة مجردة من الثلج . وكان للنور فوق أجمات الأشجار وميض أصفر والظلال زرقاء . ولكن في أحراج الصنوبر هناك فوق المنحدرات العالية التي كانت تؤطر الأراضي المستوطنة في «آكرسبيغد» ، كانت هناك لمحات من الثلج ؛ وعلى الجبال الزرقاء البعيدة إلى الغرب ، وراء الزقاق البحري ، كانت لا تزال هناك ومضات من اللون الأبيض .

كانت كريستين واقفة في مقدمة الزورق مع أبيها ومع غيريد زوجة أسموند . حدقت إلى البلدة ذات الكنائس فاتحة اللون والأبنية الحجرية التي

كانت تعلو فوق سرب من المنازل الخشبية ذات اللون البني/ الرمادي ورؤوس الأشجار العارية . راحت الريح تجعد الجزء السفلي من عباءتها وتجذب شعرها تحت القلنسوة .

في اليوم السابق ، كانوا قد أخرجوا القطعان لتسرح في سكوغ ، وانتابها توق شديد إلى أن تكون في يوروندغارد . سيمر وقت طويل قبل أن يتمكنوا من تسريح القطعان هناك ، وقد تاقت بشفقة رقيقة إلى الأبقار النحيلة التي أنهكها الشتاء في الطرق الجانبية المعتمة . سيكون عليهم الانتظار والمعاناة لفترة أخرى طويلة بعد . كانت مشتاقة لأمها ولأولفهيلد ، التي اعتادت أن تنام بين ذراعيها كل ليلة طوال هذه السنوات ، ورامبورغ الصغيرة ؛ وكان شوقها عظيماً . كانت في شوق إلى كل الناس في المنزل ، إلى الأحصنة والكلاب ، إلى كورتلين الذي أصبح يخص أولفهيلد في غياب كريستين ، إلى صقور أبيها وهي جاثمة على مجاثمها وأغميتها على رؤوسها . رأت القفازات المصنوعة من جلد الحصان المعلقة إلى القرب من الصقور والتي تُرتدى حين تحمل على قبضة اليد ، وكذلك العصي القرمزية التي يتم هرشها بها .

بدا وكأن كل كرب الشتاء الماضي قد ابتعد عنها ، ولم تر سوى بيتها كما اعتادت أن تراه . كانوا قد أخبروها أيضاً ، أنه لم يكن هناك من يفكر بها على نحو شرير في الأبرشية : فالسيرا آيريك لم يصدق تلك الحكاية . كان غاضباً وحزيناً لما فعله بنتاين . كان بنتاين قد هرب من هامار . ويقال إنه وصل إلى السويد . لذا لم تكن الأمور سيئة إلى ذلك الحد بينهم وبين جيرانهم كما كانت تخشى .

في الرحلة هبوطاً إلى أوسلو ، كانوا قد حلوا ضيوفاً في بيت سايمون ، وهاهي تتعرف على أمه وأخواته : كان السير أندرس لا يزال في السويد . لم

تشعر بالراحة هناك ، وكان كرهها لسكان دايفرين أقوى الآن حين لم تجد أي أساس صالح له . طوال طريقها إلى هناك ، كانت تقول في نفسها إنه ليس لديهم سبب يدعوهم إلى التكبّر أو إلى الشعور بأنهم أفضل من أهلها : لم يكن هناك من يعرف شيئاً عن «رايدار دار» ذي الساق الخشبية ، قبل أن يزوجه الملك «سفير» من أرملة بارون دايفرين[١٢] . ولكن عجباً! لم يكونوا متكبرين مطلقاً . وحين حكى سايمون نفسه في إحدى الأمسيات عن جده قال : «لقد اكتشفت الآن وعلى نحو موثوق أنه كان صانع أمشاط ، لذلك يبدو الأمر وكأننا ننتمي إلى أسرة ملكية... تقريباً يا كريستين» . قالت أمه : «احفظ لسانك يا فتى!» ولكنهم ضحكوا جميعاً . وقد أثار الأمر حنقها على نحو غريب حين فكرت بأبيها . كان يضحك كثيراً ، لو أعطاه سايمون أتفه سبب ممكن لذلك : خطر لها على نحو غامض أنه ربما كان والدها راغباً في المزيد من الضحك في حياته . ولكن لم يرق لها أن يحب سايمون إلى هذا الحد .

كانوا جميعاً في سكوغ في عيد الفصح . لقد وجدت أن خالها كان سيداً قاسياً في معاملته لمزارعيه وخدمه : قابلت واحداً منهم ثم آخر ، وقد سألاها عن أمها وتحدثا بحب عن لافرانس . كان وضعهم أفضل حين كان لافرانس يعيش هنا . كانت أم آسموند ، زوجة أب لافرانس ، تعيش في الضيعة في منزل وحدها . لم تكن مسنة جداً ، ولكنها مريضة وصحتها متراجعة . كان لافرانس لا يذكرها إلا نادراً في البيت . ومرة حين سألته كريستين إن كان لديه زوجة أب ، أجاب أبوها : «لم تفعل لي الكثير ، لا الجيد منه ولا السيئ» .

تلمست كريستين يد أبيها وضغط هو على يدها .

«سرعان ما ستكونين سعيدة يا ابنتي ، مع الأخوات الطيبات...

وسيكون لديك أشياء أخرى تفكرين بها إلى جانب توقك لتكوني في البيت معنا .

•

أبحروا قريباً جداً من البلدة حتى أن رائحة القار والسمك المملح وصلت إليهم من أرصفة التحميل . سمّت غيريد كل الكنائس وأحياء التجار والساحات التي تبدأ من حافة البحر : لم تتذكر كريستين شيئاً من تلك المرة التي كانت فيها هنا من قبل عدا الأبراج الضخمة الثقيلة لكنيسة القديس هالفارد . أبحروا غرباً عبر البلدة كلها وتوقفوا عند رصيف الدير .

سارت كريستين بين أبيها وعمها عبر مجموعة من المخازن ، ثم وصلوا إلى طريق عبر الحقول . كان سايمون وراءهم يقود غيريد من يدها . بقي الخدم في الخلف ليساعدوا بعض الرجال من الدير في تحميل الأمتعة على عربة .

كان دير «نونسيتر» وكل حي «لايران» يقع ضمن حدود مراعي البلدة ، ولكن كان هناك عدد قليل من المنازل هنا وقد تناثرت على طول الطريق . كانت القبرات تغرد فوق رؤوسهم في السماء ذات اللون الأزرق الفاتح ، وتناثرت الأزهار الصفراء الصغيرة لنبات حشيشة السعال بكثافة فوق المنحدرات الطينية الكامدة ، ولكن على امتداد الحواجز كانت جذور الأعشاب خضراء .

حين مروا عبر البوابة ووصلوا الدير ، كانت الراهبات كافة يمشين ، اثنتين اثنتين نحوهم من الكنيسة ، بينما كان الغناء والموسيقى يصلان إليهم عبر الباب المفتوح .

راحت كريستين تراقب بارتباك النساء العديدات في الملابس السود

والأخْمِرَةِ البيض من حول وجوههن . انحنت انحناءة خفيفة وانحنى الرجال وقد أمسكوا بقبعاتهم قريبة من صدورهم . خلف الراهبات جاء سرب من الفتيات ـ بعضهن لا يزال في سن الطفولة ـ في أردية من النسيج الصوفي الخشن غير المصبوغ ، وخصورهن مربوطة بأحزمة مبرومة من اللونين الأسود والأبيض ، وشعورهن مضفورة بشدة بعيداً عن وجوههن بأشرطة من الأسود والأبيض أيضاً . ودون تفكير ، اكتسى وجه كريستين نظرة جريئة ومستقيمة خلال مرور الفتيات ، فقد أحست بالخجل ، وكانت تخشى أن يظنوها ريفية وخجولة .

كان الدير بديعاً إلى حد أنها أصيبت بالانبهار . فقد كانت كل الأبنية حول الساحة الداخلية من الحجر الرمادي . على الجانب الشمالي من الجدار الرئيس للكنيسة يرتفع عالياً فوق الأبنية الأخرى . كانت له طبقتان من السقوف والأبراج عند الناحية الغربية . والساحة نفسها كانت مفروشة بالبلاط الحجري ، وحول المكان كله كان ممر مغطى ، سقفه محمول على أعمدة منحوتة على نحو جميل . في وسط الساحة انتصب تمثال حجري لـ «ماتر ميزركوردياي» وهي تنشر عباءتها على بعض الأشكال الراكعة .

ثم وصلت أخت/ خادمة وطلبت منهم أن يرافقوها إلى بهو الأم الرئيسة . كانت الليدي «غروا غوتورمسداتر» امرأة عجوزاً طويلة قوية البنية . كان يمكن لها أن تكون جميلة لولا شعر كثير من حول فمها . كان صوتها عميقاً كصوت رجل . ولكن أسلوبها كان لطيفاً ودوداً ؛ وقد ذكّرت لافرانس بأنها كانت تعرف أباه وأمه ، وسألته عن حال زوجته وطفلتيه الأخريين . ثم تحدثت أخيراً إلى كريستين بتودد :

«لقد سمعت أنباء طيبة عنك ، وتبدين حكيمة وجيدة التربية... وأنا

على ثقة أنك لن تسببي لنا أي إحراج . لقد سمعت أنك مخطوبة لهذا الشاب الصالح كريم الأصل سايمون أندرسون ، الذي أراه هنا... ويبدو لنا أن أباك وزوجك المستقبلي قد فعلا الصواب إذ أذنا لك أن تعيشي هنا لفترة معنا في منزل مريم العذراء ، حتى تتعلمي الطاعة والخدمة قبل أن يطلب منك أن تسودي وتأمري . والآن هل لي أن أطلب منك أن تضعي في قلبك هذه النصيحة : أن تتعلمي إيجاد المتعة في الصلاة وعبادة الرب ، وأن تعوّدي نفسك في كل أفعالك على تذكّر الخالق ، وأم الرب الحنون ، وكل القديسين الذين منحونا أفضل العبر في القوة والاستقامة والإخلاص وكل الفضائل التي عليك أن تظهريها في توجيه أهلك وأملاكك وتربية أولادك . وسوف تتعلمين في هذا المنزل أيضاً أن تحافظي على الوقت ، فهنا لكل ساعة استخدامها ومهمتها أيضاً . الكثير من العذارى والنساء يحببن كثيراً الاضطجاع في السرير إلى وقت متأخر من الصباح ، والجلوس إلى مائدة في المساء تجري عليها الأحاديث الكسولة ، ومع ذلك لا يبدو أنك واحدة من هؤلاء . ولكن ستتعلمين الكثير في السنة التي ستقضينها هنا حتى تكسبي دنياك وآخرتك» .

انحنت كريستين وقبلت يدها . بعد ذلك أمرت الليدي غروا كريستين أن تذهب مع راهبة عجوز بدينة إلى حد هائل ، وقد دعتها بالأخت بوتنتيا ، وذلك إلى غرفة طعام الراهبات . أما الرجلان وغيريد فطلبت منهم أن يتناولوا طعام الغداء معها في بناء آخر .

كانت غرفة طعام الراهبات غرفة كبيرة حسنة لها أرضية حجرية ونوافذ مدببة ذات ألواح زجاجية . وكان هناك باب يؤدي إلى غرفة أخرى ، حيث استطاعت كريستين أن ترى أنه لا بد من وجود نوافذ زجاجية أيضاً ، فالشمس كانت ترسل بنورها إلى الداخل .

كان قد سبق للأخوات أن جلسن إلى المائدة ينتظرن طعامهن : الراهبات الأكبر سناً فوق مقعد حجري طويل مغطى بالوسائد على امتداد الجدار تحت النوافذ . أما الأخوات الأصغر سناً والعذارى حاسرات الرؤوس في الملابس الصوفية الخشنة ذات اللون الفاتح فكن يجلسن فوق مقعد خشبي على الجانب الخارجي من اللوح . في الغرفة التالية كانت مائدة خشبية قد مدت أيضاً . وكانت هذه للنزلاء[١٢] وللخدم . كان هناك قليل من الرجال المسنين بينهم . وهؤلاء الناس لم يكونوا يرتدون ملابس الدير ، ولكن على أي حال كانوا يرتدون ملابس داكنة محتشمة .

قادت الأخت بوتنتيا كريستين إلى مكان للجلوس على المقعد الخارجي ، ولكن مضت وجلست قرب كرسي الأم الرئيسة العالي في نهاية اللوح... كان الكرسي العالي فارغاً اليوم .

نهض الجميع ، الذين في هذه الغرفة وفي الغرفة الجانبية ، بينما تلت الأخوات الصلاة . بعد ذلك دخلت راهبة وسيمة شابة ووقفت عند مقرأة وضعت في الباب بين الغرفتين . وبينما كانت الأخوات الخادمات في الغرفة الأكبر ، واثنتان من الراهبات الأصغر في الغرفة الجانبية ، يحملن الطعام والشراب ، قرأت الراهبة بصوت مرتفع وعذب ، ودون توقف أو تعثر في كلمة واحدة ، حكاية القديسة ثيودورا والقديس ديدايموس .

في البداية كانت كريستين تفكر في الانتباه إلى سلوكها على المائدة ، فقد رأت كل الأخوات والفتيات الشابات يتصرفن بلباقة ويأكلن بمنتهى الكياسة وكأنهن جالسات إلى أرقى وليمة . كان هناك الكثير من أفضل أنواع الطعام والشراب ، ولكن كان كل شخص يخدم نفسه بتواضع ، ولا يترك سوى رؤوس البنان تنغمس في الأطباق . لم يرق أحد المرق سواء على الأغطية أو على ملابسه ، وكان الجميع يقطعون اللحم قطعاً صغيرة حتى لا

يلوثوا أفواههم ، ويأكلون بالكثير من الحرص على عدم إصدار أي صوت يمكن أن يسمع .

شعرت كريستين بالمرارة في جوفها خوفاً من ألا تبدو حسنة التصرف كالآخرين . كانت تشعر بالارتباك ، أيضاً ، في ثوبها الزاهي في وسط كل هؤلاء النسوة في الأسود والأبيض : كانت تتخيل أن الجميع كن ينظرن إليها . لذا حين اضطرت إلى أكل قطعة كبيرة من صدر الخروف ، كانت تمسكها من العظمة بأصبعين بينما راحت تقطع شرائح منها باليد اليمنى ، وتحاول أن تمسك السكين بشدة وأناقة...فجأة انزلق اللحم من أصابعها وطارت قطعة الخبز واللحم إلى غطاء المائدة وسقطت السكين مقرقعة على البلاط الحجري .

بدا الصوت مخيفاً في الغرفة الهادئة . احمر وجه كريستين كالنار وكانت ستنحني لالتقاط السكين ، ولكن إحدى الأخوات/ الخادمات اقتربت بهدوء في صندلها ولملمت الأشياء .

ولكن كريستين لم تعد تستطيع الأكل . لقد وجدت أيضاً أنها كانت قد جرحت أصبعها ، وكانت تخشى أن تنزف فوق غطاء المائدة . لذلك جلست ويدها ملفوفة في زاوية تنورتها ، وفكرت كيف أنها ستلطخ الثوب الأزرق الذي لبسته لأجل الرحلة إلى أوسلو ، ولم تجرؤ على رفع عينيها عن حجرها .

و على أي حال ، وخلال برهة من الوقت بدأت تصغي أكثر إلى ما كانت الراهبة تقرأه . حين وجد الحاكم أنه لم يستطع أن يهزّ ثبات الفتاة المسماة ثيودورا ـ ما كانت لتقدم القرابين إلى الآلهة المزيفة ولا لتقبل أن تتزوج ـ فقد أمرهم بأن يأخذوها إلى ماخور . ولكن وبينما هي في الطريق إلى هناك ، فقد حضّها على التفكير بأهلها أحرار المولد وأبيها وأمها المحترمين ، والذين

سيقع عليهم الآن عار دائم ، ثم وعد بأن يتركها تعيش في سلام وتبقى عذراء ، إن كانت ترضى فحسب أن تخدم الآلهة الوثنية التي يدعونها «ديانا» .

فأجابت ثيودورا دون وجل : «الطهارة أشبه بمصباح ، أما حب الله فهو الشعلة . لو كنت سأعمل في خدمة امرأة شيطانة تسمونها «ديانا» ، فإن طهارتي لن تعود لها قيمة أكثر من قيمة مصباح صدئ دون نار أو زيت . أنتم تسمونني حرة بالولادة ، ولكننا كلنا نولد أرقاء لأن آباءنا الأوائل باعونا للشيطان . لقد اشترى المسيح حريتي ، وأنا مضطرة لخدمته هو ، لذلك لا أستطيع الزواج من أعدائه . وهو سيحمي يمامته ، ولكن حتى لو سمح لكم بتحطيم جسدي ـ أي معبد روحه القدس ـ فإن هذا لن يشعرني بالعار ، هذا إذا لم أوافق على أن أسلم ما هو ملك للرب إلى أيدي أعدائه بالخيانة» .

بدأ قلب كريستين بالخفقان ، فقد ذكرها هذا على نحو ما بلقائها مع بنتاين ـ وقد ذعرت من فكرة أن تكون هذه على الأرجح خطيئتها ـ فهي لم تفكر ولو برهة بالرب ولا صلّت له ليساعدها . والآن كانت الأخت سيسيليا لا تزال تقرأ عن القديس ديدايموس . كان فارساً مسيحياً ، ولكنه كان حتى ذلك الحين قد كتم إيمانه عن الجميع عدا قلة من أصدقائه . وقد مضى الآن إلى المنزل [الماخور] الذي وضعت فيه الفتاة ، وأعطى المال إلى المرأة التي تملك المنزل وهكذا كان أول شخص يدخل على ثيودورا . هربت إلى زاوية الغرفة كأرنب فزع ، ولكن ديدايموس حيّاها كأخت وكعروس للرب ، وقال إنه قادم لينقذها . ثم كلمها لفترة من الزمن قائلاً : أليس من الواجب أن يضحي الأخ بحياته لأجل شرف أخته ؟ وأخيراً فعلت ما أمرها به ، فتبادلت ملابسها معه ، ولبست درع ديدايموس . وقد أنزل القبعة حتى غطت عينيها

وجعل العباءة تغطي ذقنها ، ثم أمرها بالخروج ووجهها مغطى مثل شاب خجل لأنه شوهد في مثل ذلك المكان .

فكرت كريستين بآرن ، ولم تستطع إلا بالكاد أن تمسك دموعها . حدقت مباشرة أمامها بعينين مبللتين بينما راحت الراهبة تقرأ حتى النهاية... كيف اقتيد ديدايموس إلى مكان الإعدام وكيف أتت ثيودورا مسرعة من الجبال ورمت بنفسها على قدمي الجلاد ورجته أن يقتلها بدلاً منه . والآن راح القديس والعذراء يتنافسان على من يكسب التاج أولاً . وقد قطع رأساهما معاً في اليوم نفسه . وكان ذاك هو اليوم الثامن والعشرون من نيسان (أبريل) من سنة (٤٠٣) ميلادية في أنطاكية ، كما كتب القديس أمبروسيوس .

حين نهضت من على المائدة ، جاءت الأخت بوتنتيا وربتت على خد كريستين بلطف : «أجل أنت تحنين لأمك ، أعتقد ذلك» . وعند سماعها هذا بدأت دموع كريستين بالانهمار . ولكن الراهبة تظاهرت بأنها لم تر الدموع ، وقادت كريستين إلى المكان الذي كانت ستسكن فيه .

كان ذلك في واحد من الأبنية الحجرية قرب الرواق المشيد حول فناء الدير . كانت غرفة كبيرة ذات نوافذ زجاجية ومدفأة ضخمة في الجدار القصير عند الطرف البعيد . على امتداد الجدار الرئيسي كانت ستة أسرة ، وعلى الجدار الآخر كل خزائن الفتيات .

تمنت كريستين أن يدعوها تنام مع واحدة من الفتيات الصغيرات ، ولكن الأخت بوتنتيا نادت على فتاة ناضجة بدينة ذات شعر فاتح : «هاهي إنجبيورغ فيليبوسداتر» التي ستكون رفيقتك في السرير...عليكما الآن أن تتعلما كيف تتعرفان الواحدة على الأخرى . قالت هذا وخرجت .

أخذت إنجبيورغ كريستين من يدها على الفور وبدأت تتكلم . لم تكن

طويلة جداً ، ولكن بدينة جداً ، وخاصة في الوجه : كانت وجنتاها ممتلئتين جداً حتى بدت عيناها صغيرتين تماماً . ولكن بشرتها كانت صافية ، حمراء وبيضاء ، وشعرها أصفر كالذهب ، ومجعداً جداً حتى أن ضفائرها الكثيفة كانت تتثنى وتلتوي الواحدة مع الأخرى مثل أطواق الحبل والخصلات الصغيرة كانت تنزلق باستمرار من تحت شبكة شعرها .

بدأت على الفور تستفسر من كريستين عن أمور كثيرة ، ولكن دون أن تنتظر جواباً . وبدلاً من ذلك كانت تتحدث عن نفسها ، وعن كل أقاربها من كل الفروع ـ لم يكونوا كلهم إلاّ من علية القوم ومن الأغنياء جداً . كانت مخطوبة أيضاً إلى رجل غني وعظيم ، هو «آينار آينارسون أوف أغانياس» ، ولكنه كان عجوزاً جداً ، وقد ترمّل مرتين . كان هذا هو أكبر سبب يبعث الحزن في نفسها كما قالت . ومع ذلك لم تستطع كريستين أن تلاحظ أنها تأسى أسى عميقاً لذلك . ثم تحدثت قليلاً عن «سايمون دار» : كان أمراً يدعو إلى العجب كم أنها تفحصته عن كثب خلال تلك البرهة القصيرة حين كانوا يمرون عبر الأروقة حول فناء الكنيسة . ثم عبرت عن رغبتها في مشاهدة صندوق كريستين ـ ولكنها فتحت أولاً صندوقها وأخرجت كل ملابسها . وبينما كانتا تنقبان في صندوقيهما ، دخلت الأخت سيسيليا ـ وقد أنبتهما وقالت إن هذا لم يكن أسلوباً ملائماً لتمضية يوم الأحد . وقد أثار هذا حزن كريستين مجدداً : لم تكن معتادة على أن يوبخها أحد عدا أمها التي كان توبيخها يختلف عن توبيخ صادر عن شخص غريب .

لم تخجل إنجبيورغ . بعد أن صعدتا إلى السرير في المساء ، راحت هذه تثرثر حتى نامت كريستين . نامت أختان/ خادمتان أكبر سناً في إحدى زوايا الغرفة . كان عليهما أن تراقبا الفتيات حتى لا يخلعن قمصانهن

خلال الليل ـ فقد كان أمراً منافياً للنظام أن تخلع الفتيات كامل ملابسهن ـ وكذلك لضمان إيقاظهن في الوقت الملائم لحضور صلاة الصباح في الكنيسة . ولكنهما لم تزعجا نفسيهما بأي شيء آخر لحفظ النظام في حجرة النوم ، وتظاهرتا كأنهما لا تسمعان حين كانت الفتيات مضطجعات وهن يثرثرن ، أو يأكلن الأطعمة اللذيذة التي كن يخبئنها في صناديقهن .

حين أيقظت كريستين في صباح اليوم التالي ، كان قد سبق لإنجبيورغ أن أصبحت في منتصف حكاية طويلة على نحو مسبق ، لذلك تساءلت كريستين تقريباً إن كانت الأخرى قد بقيت تتحدث طوال الليل .

٢

كان التجار الأجانب المقيمون في أوسلو خلال الصيف ويتاجرون فيها ، يأتون إلى البلدة في الربيع مع عيد الصليب الذي هو قبل عشرة أيام من معرض هالفاردس ـ ويك[١٤] . وإلى هذا المعرض كان الناس يفدون من كل الأبرشيات التي بين ميوسن والمستنقعات السويدية ، حتى أن البلدة كانت تعجّ بالناس في الأسابيع الأولى من أيار . كان ذاك هو أفضل الأيام للشراء من الغرباء ، قبل أن يكونوا قد باعوا الكثير من حاجياتهم .

كانت الأخت بوتنتيا حريصة على التسوق للدير ، وقد وعدت إنجبيورغ وكريستين بأنهما ستصحبانها إلى البلدة في اليوم السابق على «هلغارد ـ ويك» . ولكن حوالي منتصف النهار وصل بعض أقارب الأخت بوتنتيا إلى الدير لزيارتها ، لذلك لم تستطع الذهاب في ذلك اليوم . ثم رجت إنجبيورغ وتوسلت حتى سمحت لهما أخيراً بالذهاب وحدهما : رغم أن هذا كان مخالفاً للأنظمة . وقد أرسل فلاح عجوز من نزلاء الدير معهما كمرافق : كان اسمه هاكون .

كان قد مضى على كريستين ثلاثة أسابيع في الدير حتى الآن ، وخلال ذلك الوقت كله لم تكن قد غادرت أرض الدير وحدائقه . كانت

تتساءل كيف هو الربيع في الخارج . كانت الغابات الصغيرة في الحقول البعيدة خضراء فاتحة ، وكانت شقائق النعمان الغابية تنمو كثيفة كالبساط حول جذوع الأشجار فاتحة اللون . أما غيوم الطقس الجميل البيضاء فكانت تأتي مبحرة فوق الجزر في الزقاق البحري ، والماء يبدو صافياً وأزرق ، لا تجعده على نحو خفيف هنا وهناك سوى بعض عَصَفاتٍ من الريح .

تقافزت إنجبيورغ ، وقطفت أطواقاً من أوراق الشجر وراحت تشمها ، ثم راحت تتلصص على الناس الذين كانت تقابلهم ، حتى عنّفها هاكون ـ هل كانت تلك تصرفات ملائمة لفتاة كريمة الأصل وفي ثياب الدير أيضاً ؟ ـ كانت الفتاتان تمشيان من خلفه ، يداً بيد ، بهدوء ولباقة . ولكن إنجبيورغ استخدمت عينيها ولسانها على أي حال : كان هاكون أصم نوعاً ما . وكانت كريستين أيضاً ترتدي الزي الخاص بالمبتدئات : ثوب من الصوف الخشن المحبوك غير المصبوغ بلون رمادي فاتح ، وحزام صوفي وشريط للرأس ، وعباءة بسيطة زرقاء داكنة فوق هذا كله ، مع قلنسوة مقلوبة للأعلى حتى يكون الشعر المضفور مخفياً كله . سار هاكون أمامهما وهو يحمل عصا غليظة ذات قبضة نحاسية . كان يرتدي ثوباً طويلاً أسود وقد علّق على صدره تمثالاً رصاصياً للحمل [الذي يرمز للمسيح] وصورة للقديس كريستوفر على قبعته . كان شعره ولحيته البيضاوان ممشطين على نحو جيد حتى أنهما كانا يلتمعان كالفضة تحت نور الشمس .

الجزء العلوي من البلدة بين نونسبك وقصر الأسقف كان حياً هادئاً . لم يكن هنا أي دكاكين أو حانات . كان معظم المنازل ينتمي لعلية القوم من الأبرشيات المجاورة . وكانت هذه المنازل تدير للشارع جملونات خشبية خالية من النوافذ . ولكن في هذا اليوم كانت حشود من الناس تتجول في

الطرقات حتى في هذا المكان ، وقد وقف الخدم يتسكعون حول بوابات الساحة يثرثرون مع العابرين .

حين وصلوا قرب قصر الأسقف ، كان هناك ازدحام هائل عند المكان أمام كنيسة هلفارد ودير أولاف : لقد نصبت أكشاك على المنحدرات العشبية ، وكان هناك عارضون يجعلون كلاباً مدربة تقفز عبر أطواق براميل . ولكن هاكون لم يسمح للفتاتين بالدخول إلى الكنيسة . قال إنه سيكون من الأفضل أن تُرى في يوم عيد كبير .

و حين سارا عبر المساحة المفتوحة قرب كنيسة القديس كليمنت ، أمسك بهما هاكون كلاً من يدها ، فهنا كان أكبر حشد من الناس القادمين من السفن أو من الحارات بين ساحات التجار(١٥) . كانت الفتاتان متجهتين نحو ساحة ميكل ، حيث يمارس الإسكافيون حرفتهم . فقد وجدت إنجبيورغ الملابس التي جلبتها كريستين من المنزل على أنها جيدة وجميلة ، ولكنها قالت إن الأحذية التي جلبتها معها من «ديل» لم تكن ملائمة لارتداء الأفضل . وحين رأت كريستين الأحذية من الدول الأجنبية التي كانت في صندوق إنجبيورغ ، أحست أنها لا تستطيع أن ترتاح حتى تشتري مثلها .

كانت ساحة ميكل واحدة من أكبر الساحات في أوسلو . وكانت تمتد من أرصفة السفن حتى حارة ساوتر ، مع أكثر من أربعين منزلاً حول باحتيها الكبيرتين . والآن كانت أكشاك قد نُصبت ، ولها أسقف من النسيج الصوفي الخشن ، في الساحات أيضاً . وفوق سقوف هذه الخيم كان يبرز تمثال القديس كريسبينوس . وضمن الساحات كان حشد كبير من الناس يبيع ويشتري ، ونساء يجرين بين المطابخ بقدور ودلاء ، وأطفال بين أقدام الكبار يعيقون طريقهم ، وأحصنة تقاد إلى داخل وخارج الإسطبلات ، وخدم يحملون رزماً من وإلى المستودعات . ومن شرفات العلّيات في الأعلى ،

حيث كانت تباع أغلى البضائع ، كان الإسكافيون ومتدربوهم يصرخون باتجاه الفتاتين ويدلون بأحذية صغيرة ملونة بألوان زاهية أو مذهبة أمامهم .

و لكن إنجبيورغ شقت طريقها نحو العلية حيث كان ديدرك الإسكافي جالساً . كان ألمانياً ، ولكن زوجته كانت نرويجية ويمتلك منزلاً في ساحة ميكل .

كان الرجل العجوز واقفاً يقايض رجلاً نبيلاً يرتدي عباءة سفر ، وقد وضع سيفاً في حزامه . ولكن إنجبيورغ مضت نحو الأمام دون خجل وانحنت وقالت :

«سيدي الصالح ، هل لك أن تسمح لنا بالكلام مع ديدرك أولاً ؟ علينا العودة إلى ديرنا قبل صلاة الغروب ، وربما لا تكون أنت في مثل هذه العجلة ؟»

انحنى السيد النبيل وتنحّى جانباً . وكز ديدرك إنجبيورغ بمرفقه وسألها ضاحكاً ما إذا كن يرقصن كثيراً في الدير إلى درجة أنه سبق لها وأبلت كل الأحذية التي اشترتها منه في العام السابق . وقد وكزته إنجبيورغ ثانية وقالت إنها لم تلبسها بعد ، والشكر للسماء ، ولكن هذه فتاة أخرى ، ثم جذبت كريستين إلى الأمام . ثم أحضر ديدرك وغلامه صندوقاً إلى الشرفة . ثم أخرجا منه أحذية كان كل زوج منها أجمل من الآخر . جعلا كريستين تجلس على صندوق حتى تستطيع أن تجربها... كانت هناك أحذية بيضاء وبنية وحمراء وخضراء وزرقاء ، أحذية ذات كعب خشبي مدهون وأحذية دون كعب ، أحذية لها إبزيم وأحذية ذات شرائط حرير ، وأحذية من جلد لها لونان أو ثلاثة . شعرت كريستين بأنها سيسرها أن تحصل عليها جميعاً . ولكن أسعارها كانت عالية جداً حتى أصيبت بالفزع : ليس هناك زوج واحد منها يكلف أقل من ثمن بقرة في البيت . كان أبوها قد

أعطاها كيس نقود فيه مارك من الفضة نقوداً معدودة[١٦] وذلك وهو يغادرها ، وكان ذلك كمصروف جيب ، وكانت كريستين تعتبر هذا المبلغ ثروة طائلة . ولكنها سرعان ما اكتشفت أن إنجبيورغ لم تعتقد أنه مبلغ كبير يذهب المرء للتسوق به .

و كان على إنجبيورغ أيضاً أن تجرب بعض الأحذية أيضاً فقط للاستمتاع بذلك . فهذا لا يكلف مالاً ، كما قال ديدرك ضاحكاً . وقد اشترت فعلاً زوجاً أخضر اللون كأوراق الشجر له كعب أحمر... قالت إنها يجب أن تحصل عليه ديناً ، حيث أن ديدرك يعرفها ويعرف أهلها .

فكرت كريستين أن ديدرك بالفعل لم يحبب ما حدث ، وأنه قد غضب أيضاً لأن الرجل النبيل الطويل في عباءة السفر قد غادر العلية : فقد أُنفق الكثير من الوقت في تجريب الأحذية . لذلك اختارت لنفسها زوجاً من الأحذية دون كعب من الجلد الأزرق الأرجواني ، المزين بالفضة وبالأحجار الحمراء الوردية . ولكن لم تعجبها الشرائط الحرير الخضراء عليه . قال ديدرك إنه يمكن له تغييرها ، واصطحب الفتاتين إلى غرفة في مؤخرة العلية . هناك كانت لديه صناديق مليئة بالشرائط الحرير والأبازيم الفضية الصغيرة ـ كان أمراً ضد القانون أن يتاجر الإسكافيون بهذه المواد ـ وكانت الشرائط في معظمها عريضة جداً والأبازيم أكبر من أن تستخدم للأحذية .

شعرتا أن عليهما أن تشتريا شيئاً من المواد الصغيرة ، وحين شربتا قدحاً من النبيذ الحلو مع ديدرك ، حزم لهما المشتريات في قطعة قماش صوفية خشنة ، فقد كان الوقت قد تأخر ، وأصبح كيس كريستين أخف بكثير .

حين خرجوا إلى «أوستر سترايته» مجدداً كان نور الشمس قد أضحى ذهبياً ، وبسبب حركة السير في البلدة ، فإن الغبار كان معلقاً فوق الشارع

في سديم لامع . كان المساء دافئاً وجميلاً ، وكان الناس ينزلون من « آيكابرغ » وأذرعهم مليئة بالغصون الخضراء الجديدة التي يزينون بها بيوتهم لأجل العيد . والآن خطرت نزوة لإنجبيورغ فاقترحت أن تذهبا إلى « جسر غيايتا » : ففي وقت المعرض يكون هناك عادة الكثير من القصف واللهو في الحقول على الجانب الآخر من النهر ، فهناك المهرجون والعازفون ، بل أن إنجبيورغ سمعت أن هناك حمولة سفينة كاملة من الحيوانات الغريبة التي تعرض في أقفاص عند الشاطئ .

كان هاكون قد تناول إبريقاً أو اثنين من الجعة الألمانية في «ساحة ميكل» ، وقد أصبح الآن طيعاً ولطيف المزاج . لذلك حين أخذته الفتاتان من ذراعيه ورجتاه بعذوبة ، فقد استسلم أخيراً ومضى الثلاثة نحو « آيكابيرغ » .

ما وراء النهر لم يكن هناك سوى القليل من المساكن المتناثرة على المنحدرات الخضراء بين النهر وحافة الجبل الشاهقة . مرّوا متجاوزين «دير مينوريت » وغار قلب كريستين في صدرها خجلاً حين تذكرت كيف كانت تنوي أن تتبرع بمعظم ما معها من فضة لصالح روح آرن . ولكن لم تكن تنوي التحدث عن ذلك إلى كاهن «دير نونسيتر» . كانت تخشى من أن تطرح عليها الأسئلة . لقد فكرت في أن تخرج إلى «الأخوة حفاة الأقدام » لتكتشف إن كان الأخ إدفين في الدير الآن . كانت راغبة في مقابلته مجدداً ، ولكنها لم تكن تعرف ما هي أنسب طريقة للتحدث مع أحد الرهبان وأن تحكي له عن رغبتها . والآن لم يتبقّ معها سوى القليل من المال ولم تكن تعرف إن كانت قادرة به على شراء قداس : ربما سيكون عليها أن ترضى بتقديم شمعة ثخينة .

وفجأة سمعوا صرخة هائلة من حناجر عديدة هناك عند الشاطئ : بدا

وكأن عاصفة كانت تجتاح حشد البشر هناك . والآن كانت الكتلة كلها تندفع نحوهم والجميع يصرخون ويزعقون . بدا الجميع كالمجانين من الرعب ، وصرخ بعض الراكضين إلى هاكون والفتاتين أن هناك نمورا طليقة...

انطلقوا عائدين عدواً باتجاه الجسر ، وسمعوا الناس يصرخون الواحد للآخر بأن قفصاً قد وقع وأن نمرين أصبحا طليقين ـ وتحدث البعض عن ثعبان أيضاً . وكلما اقتربوا من الجسر أصبح الازدحام أسوأ . أسقطت امرأة كانت أمامهم طفلاً صغيراً من ذراعيها ـ وقف هاكون مفرشخاً فوق الطفل ليحميه ـ وسرعان ما رأتاه من بعيد والطفل بين ذراعيه ، ثم فقدتا أثره .

عند الجسر الضيق كان ضغط الحشر شديداً إلى حد أن الفتاتين دُفعتا إلى حقل . شاهدتا أشخاصاً يركضون إلى ضفة النهر ، وكان شبان يقفزون فيه ويسبحون ، أما الأشخاص الأكبر سناً فقفزوا إلى زوارق كانت متوقفة هناك ، وكانت هذه محملة بثلاثة أضعاف حمولتها .

حاولت كريستين أن تجعل إنجبيورغ تسمع ، صاحت بأن عليهما الركض إلى «دير مينوريت» ، فقد كانتا قادرتين على مشاهدة «الرهبان الرماديين» خارجين منه عدواً ، محاولين تجميع الناس الفزعين . لم تكن كريستين خائفة كالفتاة الأخرى ـ فهما لم تريا شيئاً من الوحوش البرية ـ ولكن إنجبيورغ كانت قد فقدت تماماً رشدها . والآن ، كان هناك هدير جديد بين الحشد الذي دفع إلى الخلف بوساطة مجموعة كاملة من الرجال من المساكن القريبة ، الذين سلّحوا أنفسهم وشقّوا طريقهم فاستولوا على الجسر ؛ كان البعض منهم راكباً والبعض الآخر راجلاً ، وقد زعقت إنجبيورغ وعدت نحو الغابات . ما كانت كريستين لتظن أن هذه الفتاة قادرة على

العدو بهذه السرعة ، لقد ذكرتها بخنزير مطارد . وقد عدت خلفها حتى لا تفترقان هما أيضاً .

كانتا قد توغلتا في الغابة قبل أن تستطيع كريستين إيقاف إنجبيورغ وذلك عند ممر صغير بدا أنه يؤدي نحو الطريق إلى «ترايلابورغ» . وقفتا ساكنتين فترة لاسترداد أنفاسهما . كانت إنجبيورغ تشنف وتبكي ، وقالت إنها لن تجرؤ على العودة وحدها عبر البلدة ثم في طريق العودة كله إلى الدير .

.و كانتا كريستين من هذا الرأي أيضاً ، فالشوارع في حالة فوضى . فكرت في أن عليهما أن تحاولا إيجاد منزل يمكن لهما فيه أن تجدا شاباً تستأجرانه ليوصلهما إلى الدير . كانت إنجبيورغ تظن أن هناك درباً للخيل إلى ترايلابورغ وهو طريق مختصر ، وعلى امتداده توجد بعض المنازل التي تعرفها . لذلك تبعتا الدرب نزولاً بعيداً عن البلدة .

و بما أنهما كانتا خائفتين وقلقتين ، فقد بدا لهما أنهما ابتعدتا كثيراً قبل أن تصلا إلى مزرعة في حقل . في ساحة المزرعة وجدتا عصبة من الرجال جالسين يشربون على منضدة تحت أشجار الدردار ، بينما كانت هناك امرأة تأتي وتذهب ، حاملة لهم الأقداح الكبيرة ذات الغطاء . نظرت باستغراب وبحدة إلى الفتاتين في ملابس الدير ، ولم يبد على أي من الرجال أنه ينوي الذهاب معهما حين ذكرت كريستين حاجتهما . وأخيراً نهض شابان وقالا إنهما سيوصلان الفتاتين إلى دير نونسيتر ، إن كانت كريستين ستمنحهما دوكاتاً من الفضة .

عرفت من لغتهم أنهم ليسوا نرويجيين ، ولكنها فكرت في أنهم يبدون كأشخاص شرفاء . كان مبلغاً وقحاً ذلك المبلغ الذي طلباه ، كما فكرت ، ولكن إنجبيورغ كانت قد فقدت السيطرة على نفسها لشدة الخوف ولم تكن

تدري كيف ستذهبان وحدهما إلى الدير في مثل تلك الساعة المتأخرة ، لذلك وافقت على الصفقة .

ما إن اقتربوا من ممر الغابة حتى دنا منهما الرجلان وبدآ بالحديث . لم يرق ذلك لكريستين ، ولكنها لم تظهر لهما أنها خائفة . لذلك ردت على أسئلتهما بهدوء ، وحكت عن النمور وسألت الرجلين عن بلدهما الأصلي . راحت تتطلع فيما حولها وتظاهرت وكأنها كانت تتوقع في أي لحظة مقابلة الخدم الذين كانوا معهما . تحدثت وكأنه كان هناك عصبة كاملة منهم . وخلال السير راح حديث الرجلين يصبح أقل ، وهي لم تكن تفهم على أي حال كثيراً من حديثهما .

بعد فترة أدركت أنهم لم يكونوا ماضين في الطريق نفسه الذي قطعته مع إنجبيورغ ـ لم يكن ذاك هو الدرب نفسه . كان هذا متجهاً نحو الشمال وقد اعتبرت أنهم مضوا بعيداً جداً فيه .

في أعماقها أحست بخوف لم تجرؤ على التفكير فيه ـ ولكن وجود إنجبيورغ معها شجعها على نحو غريب ، فالفتاة كانت حمقاء إلى درجة أن كريستين عرفت أن عليها وحدها أن تجد طريق النجاة لهما كلتيهما . من تحت عباءتها استطاعت خلسة أن تجذب الصليب الحامل للذخيرة المقدسة الذي أعطاها إياه أبوها . أمسكته بيدها وهي تصلي بحرارة في قلبها أن يقابلوا شخصاً ما في أقرب وقت ، وقد جهدت بشتى الطرق لتجمع كل شجاعتها دون أن تبدي أي إشارة .

بعد هذا مباشرة رأت أن الممر كان يؤدي إلى طريق وكانت هناك فسحة في الغابة . كانت البلدة والخليج يقعان إلى الأسفل بعيداً . كان الرجلان قد أضلاهما ، سواء عن عمد أو عن جهل بالطريق : كانوا على حافة جبل مرتفع وإلى الشمال بعيداً عن « جسر غيايتا » الذي كانت تستطيع

رؤيته إلى الأسفل . كان الطريق الذي وصلوا إليه الآن يؤدي على ما يبدو إلى هناك .

لذلك توقفت هناك وأخرجت كيس نقودها وتظاهرت بعدّ عشرة قروش فضية في يدها .

قالت : «و الآن أيها الرجلان الطيبان ، لم نعد في حاجة لكما لتدلانا على الطريق . فنحن نعرف طريقنا من هنا . شكراً لجهودكما وها هو الأجر الذي اتفقنا عليه . فليكن الرب معكما أيها الصديقان الطيبان» .

نظر الرجلان الواحد إلى الآخر بمنتهى الحماقة ، حتى كادت كريستين تبتسم . ثم قال أحدهما بابتسامة قبيحة إن الطريق إلى الجسر في الأسفل كان منعزلاً جداً . لم يكن من الحكمة أن تذهبا وحدهما .

أجابت كريستين : «ليس هناك بالتأكيد من هو تافه أو أحمق إلى حد أن يخطر له إيقاف فتاتين في ملابس الدير . سيسرنا أن نتابع طريقنا وحدنا الآن» ، ثم مدّت يدها بالنقود .

أمسك الرجل بها من رسغها ودفع بوجهه قريباً من وجهها وقال شيئاً قريباً من كلمتي «قبلة» و«كيس» ، ففهمت كريستين أنه سيدعهما تذهبان في سلام لو أعطتهما قبلة وكيس نقودها .

تذكرت وجه بنتاين قريباً من وجهها على هذا النحو ، واعتراها خوف هائل لحظة حتى أنها أحست بالضعف والغثيان . ولكنها ضغطت شفتيها معاً ونادت من كل قلبها الرب ومريم العذراء : في اللحظة نفسها ظنت أنها سمعت وقع حوافر على الممر القادم من الشمال .

ضربت الرجل في وجهه بكيسها فترنح ، ثم دفعته في صدره بكل قوتها حتى سقط بعيداً عن الممر نحو الغابة . أما الألماني الآخر فأمسكها من الخلف وانتزع الكيس من يدها وسلسلتها من عنقها حتى أنها انقطعت :

كادت تسقط أرضاً ولكنها أمسكت بالرجل وحاولت أن تنتزع صليبها منه . ناضل حتى يتحرر منها ـ كان اللصان قد سمعا الآن بأن هناك أشخاصاً قادمين ـ زعقت إنجبيورغ بكل قوتها ، ووصل الفرسان من الممر منطلقين بأقصى سرعة . انطلقوا خارجين من الدغل ـ ثلاثة منهم ـ وهرعت إنجبيورغ وهي تصرخ لتقابلهم حين نزلوا عن جيادهم . ميزت كريستين أحدهم على أنه الرجل النبيل الذي كان في علية ديدرك . امتشق سيفه وأمسك بالألماني الذي كانت تعاركه من مؤخر عنقه ، وضربه بصفح سيفه . لحق تابعاه بالرجل الآخر وأمسكا به وضرباه حتى شفي غليلهما .

استندت كريستين إلى وجه الصخرة . كان جسدها كله يرتجف الآن ، ولكن ما شعرت به كان أعجوبة بأن صلاتها قد جلبت هذا العون العاجل جداً . ثم رأت إنجبيورغ التي كانت قد أنزلت قلنسوتها وعلقت عباءتها فوق كتفيها وكانت على وشك أن تجلب ضفائرها الثقيلة اللامعة أمام صدرها . لدى رؤيتها هذا المشهد ، تخلت عن كريستين قوتها وكان عليها أن تتمسك بإحدى الأشجار لتبقى على قدميها ، فقد كان الأمر أشبه بأن نقي عظامها كان قد استحال ماء . أحست بالضعف . وهكذا راحت ترتجف وتضحك وتبكي .

تقدم الرجل النبيل ووضع يده بحذر على كتفها وقال بصوت لطيف ورقيق :

«لقد كنت خائفة كما أرى أكثر مما كنت تظهرين . والآن عليك أن تتماسكي ـ لقد تصرفت بشجاعة كبيرة وأنت تحت الخطر...»

كل ما استطاعت كريستين أن تفعله هو أن تنظر إليه وتومئ برأسها . كانت له عينان جميلتان لامعتان في وجه ضيق أسمر شاحب وشعر أسود كالفحم قصير مقصوص فوق الجبين وخلف الأذنين .

رتبت إنجبيورغ شعرها الآن ، ثم أتت وشكرت الرجل الغريب بكلمات لطيفة كثيرة . وقف هناك ويده على كتف كريستين بينما راح يرد على رفيقتها .

قال لرجليه اللذين كانا لا يزالان واقفين ممسكين بالألمانيين : «علينا أن نصطحب هذين الطيرين معنا» . كان هذان من سفينة من روستوك كما قالا . علينا أن نأخذهما إلى المدينة حتى يوضعا في الحفرة السوداء . ولكن علينا أولاً أن نوصل هاتين الفتاتين إلى الدير . تستطيعان أن تجدا بعض السيور الجلدية على ما أعتقد . أوثقوهما بها...»

سأل أحد الرجلين : «أتعني الفتاتين يا إرلند ؟» كانا تابعين شابين وقويين مجهزين وكانا في معنويات عالية بعد العراك .

عبس سيدهما وكاد يجيب بحدة ، ولكن كريستين وضعت يدها على كمه :

«دعهما يرحلان في سبيلهما يا سيدي العزيز!» وارتجفت قليلاً . «سنكره أنا وأختي أن يجري الحديث عن هذه المسألة» .

نظر إليها الغريب ، عض شفته وطأطأ رأسه ، وكأنه فهمها . ثم ضرب كل واحد من الأسيرين على قذاله بصفح السيف مما جعلهما يقعان أرضاً . «اهربا» قال وهو يرفسهما ، ثم نهض كلاهما متعثرين وركضا بأسرع ما فيهما من قوة . التفت إلى الفتاتين وسألهما إن كانتا ستتكرمان بالركوب .

سمحت إنجبيورغ لنفسها بأن ترفع إلى سرج إرلند ، ولكن سرعان ما تبين أنها لا تستطيع المحافظة على مكانها ، فانزلقت مجدداً وعلى الفور . نظرت إلى كريستين بشك ، فقالت هذه إنها معتادة على الركوب على سروج الرجال .

أمسك بها من تحت ركبتها ورفعها . انتابتها رعشة عذبة ومفرحة إذ

شعرت كم أمسك بها بعناية بعيداً عنه ، كأنه يخشى أن يقترب منها : في البيت ما كان هناك من يأبه أبداً كم كان يمسكها بقوة حين يساعدها على الركوب . أحست بأنها قد عوملت على نحو مشرف ورائع وارتفعت معنوياتها .

و قد قدم الفارس ـ كما سمته إنجبيورغ ، رغم أنه كان يلبس مهمازاً فضياً ـ قدم يده إليها ، وقفز رجلاه إلى حصانيهما . ارتأت إنجبيورغ أن يدوروا من حول البلدة شمالاً تحت «راينبرغ» و«ماتستوكه» وليس عبر الشوارع . أولاً ، قدمت هي سبباً بأن السير إرلند وتابعيه كانا مسلحين تسليحاً كاملاً ، أليس كذلك ؟ فأجاب الفارس برصانة بأن الحظر على حمل الأسلحة لم يكن شديد الصرامة في أي وقت من الأوقات في الأقل فيما يخص المسافرين ـ وكان الجميع الآن في البلدة قد خرجوا لاصطياد الوحوش . ثم قالت إنها كانت تخاف النمور . أدركت كريستين جيداً أن إنجبيورغ كانت ترمي إلى قطع أطول الطرق وأكثرها عزلة حتى تكون قادرة على محادثة إرلند لأطول فترة ممكنة .

قالت : «هذه هي المرة الثانية في هذا المساء التي نعيقك فيها يا سيدي» ، فأجاب إرلند بجدية :

«لا بأس ، أنا ذاهب إلى غيردارود فحسب هذه الليلة ، والليل كله مضاء بالنور» .

أعجبت كريستين بجديته وعدم مزاحه ، إذ كان يحادثها وكأنها ندّ له أو حتى أكثر من ندّ له . وقد فكرت بسايمون . لم تكن قد قابلت شباناً آخرين من منشأ راق . ولكن كان هذا صحيحاً فالرجل يبدو أكبر سناً من سايمون .

ساروا نزولاً في الوادي تحت تلال «راينبرغ» ثم على امتداد الوادي . كان الممر ضيقاً وراحت الشجيرات الصغيرة تؤرجح أغصاناً رطبة ذات رائحة

ثقيلة عليها : كان الجو أعتم هنا في الأسفل ، والهواء بارد والأوراق شديدة النداوة على امتداد ممر الوادي .

مضوا ببطء وراحت حوافر الجياد تسمع مكتومة على الممر الرطب الذي نمت فوقه الأعشاب . راحت تهتز بلطف في السرج من خلفها ، سمعت إنجبيورغ تثرثر ، وكذلك صوت الغريب العميق الهادئ .

كان يقول القليل ، ويجيب كأن ذهنه شارد . بدا الأمر تقريباً وكأن مزاجه كان كمزاجها ، كما فكرت ـ أحست أنها ناعسة على نحو غريب ـ ، ومع ذلك فإنها تشعر بالأمان والرضا الآن لأن كل ما حدث أثناء النهار مضى بخير .

كان الخروج من الغابة إلى المنحدرات الخضراء تحت تلال مارتستوك أشبه بالاستيقاظ من النوم . كانت الشمس قد غربت والبلدة والخليج يقبعان تحتهم في نور واضح شاحب ـ فوق سلاسل «آكر» كان شريط أصفر فاتح يحيط بالسماء الزرقاء الشاحبة . في صمت المساء ، كانت الأصوات تصل إليهم من بعيد ، وهم خارجون من الأعماق الباردة للغابة ـ كانت عجلات عربة نقل تصرّ في مكان ما على الطريق ، والكلاب في المزارع تنبح الواحد على الآخر عبر الوادي . من الغابات خلفهم كانت الطيور تغرّد وتغنّي ، والشمس قد غربت الآن .

كان الهواء مترعاً بالدخان من الحرائق على أراض قيد الإخلاء ، وخارجاً في حقل هناك كان اللهب الأحمر لنا موقدة في العراء . أمام اللهب الأحمر الكبير كان وضوح الليل نوعاً من العتمة .

كانوا يمضون بين حواجز الحقول التابعة لأحد الأديرة ، حين تحدث الشخص الغريب معها مجدداً . لقد سألها ما الذي تفضله : أهو الذهاب معها إلى البوابة وطلب مخاطبة الليدي غروا ، ليحكي لها كيف حدث هذا الشيء . ولكن

إنجبيورغ فضلت أن تتسلّلا عبر الكنيسة . ثم ربما قد تنزلقان إلى الدير دون أن يعرف أحد ما الذي كانتا تفعلانه في ذلك المكان البعيد مع الغياب فترة طويلة : ربما كانت زيارة أقرباء الأخت بوتنتيا ستجعلها تنساهما .

كان المكان المفتوح أمام الباب الغربي للكنيسة فارغاً وهادئاً ، ولم يخطر لكريستين أن تتساءل عن سبب ذلك ، رغم أنه كان من المعتاد وجود الكثير من الحركة هناك في المساء ، حيث كان الأشخاص من الحي المجاور يأتون إلى كنيسة الراهبات ، ومن المنازل القريبة حيث يسكن الخدم والعامة . ودّعتا إرلند هناك . وقفت كريستين وربتت على جواده . كان أسود ، وله رأس وسيم وعينان لطيفتان ـ فكرت في أنه يشبه « مورفين » ، الحصان الذي كانت تركبه في البيت وهي طفلة .

« ما اسم حصانك يا سيدي ؟ » سألته بينما راح الحصان يلتفت برأسه بعيداً عنها ويتشمّم صدر سيده .

قال وهو ينظر إليها من فوق عنق الحصان : « بايارد . أنت تسألين عن اسم حصاني ولكن ليس عن اسمي ؟ »

« سيسرني أن أعرف اسمك يا سيدي » ، أجابت ، ثم أحنت رأسها قليلاً .

قال : « اسمي إرلند نيكولاوسون » .

« إذن يا إرلند نيكولاوسون ، شكراً على خدماتك الطيبة هذه الليلة » . قالت كريستين ثم قدمت له يدها .

و فجأة احمرت خجلاً ، وسحبت يدها نصف سحبة من يده .

سألت : « هل الليدي آشيلد فاوتسداتر أوف دوفر قريبتك ؟ »

وقد احمر خجلاً هو أيضاً ممّا أثار استغرابها ، وأسقط يدها فجأة وأجاب :

«إنها خالتي . وأنا إرلند نيكولاوسون أوف هوسابي» . نظر إليها نظرة غريبة جداً حتى أصبحت أكثر خجلاً ، ولكنها سيطرت على نفسها وقالت : «الحق أنه كان عليّ أن أشكرك بكلمات أفضل ، يا إرلند نيكولاوسون ، ولكني لا أعرف ما أقوله لك» .

انحنى أمامها ، وأحست الآن أن عليها أن تودعه ، رغم أنها كانت راغبة في التحدث معه لمدة أطول . عند باب الكنيسة التفتت ، وحين رأت أن إرلند كان لا يزال واقفاً قرب جواده ، فقد لوحت بيدها له مودعة .

•

كان الدير في حالة من الهرج والمرج ، والكل في رعب شديد . كان هاكون قد أرسل رسالة إلى الدير مع أحد الفرسان ، بينما راح يبحث بنفسه عن الفتاتين في البلدة . وقد أرسل أشخاص من الدير لمساعدته . كانت الراهبات قد سمعن أن الوحوش البرية قد قتلت والتهمت طفلين في المدينة . وكان هذا كذباً بكل تأكيد ، وكان النمر ـ وهو واحد فقط ـ قد جرى الإمساك به قبل صلاة الغروب من قبل بعض الرجال من قصر الملك .

•

وقفت كريستين برأسها المطأطئة وبقيت صامتة ، بينما راحت الأم الرئيسة والأخت بوتنتيا تصبان جام غضبهما على الفتاتين . أحست وكأن شيئاً ما كان نائماً فيها . بكت إنجبيورغ وبدأت تقدم الاعتذارات : لقد خرجتا بإذن من الأخت بوتنتيا ، ومعهما مرافقة ملائمة ، وطبعاً لا يقع عليهما اللوم بسبب ما جرى هناك .

و لكن الليدي غروا قالت إن عليهما البقاء في الكنيسة حتى منتصف

الليل ، وأن عليهما أن تفكرا بأمور الروح ، وتشكرا الرب الذي أنقذ حياتهما وشرفهما . قالت : «لقد أراكما الله بوضوح حقيقة هذه الدنيا . وحوش برية وخدم الشيطان يهددون أطفاله هناك عند كل خطوة ، ولا مجال للخلاص إلاّ إذا تشبثتما بالرب بالصلاة والتضرّع» .

أعطت كل واحدة منهما شمعة وأمرتهما أن تذهبا إلى الأخت سيليسيا باردسداتر ، التي غالباً ما تكون وحدها في الكنيسة تصلي الليل بطوله .

وضعت كريستين شمعتها على مذبح القديس لورنس ، وركعت على كرسي الصلاة . ثبتت نظرتها على الشعلة بينما راحت تتلو صلاة «أبانا الذي» و«آفيه ماريا» [السلام عليك يا مريم] بصوت خفيض . بدا وميض الشمعة وكأنه يحيط بها شيئاً فشيئاً ثم يحجب كل شيء خارجها وخارج النور . أحست بقلبها ينفتح ويتدفق بالحمد والشكر والحب للرب وأمه الرؤوم : لقد اقتربا منها كثيراً . كانت قد عرفت دائماً أنهما يريانها ، ولكنها أحست الليلة أن الأمر كذلك . رأت العالم كما في رؤيا . غرفة مظلمة كبيرة سقط فيها شعاع شمس . كانت ذرات الغبار تتراقص داخلة وخارجة بين العتمة والنور ، وأحست الآن أنها قد انزلقت أخيراً إلى داخل شعاع الشمس .

أحست أنه سيسرها أن تبقى إلى الأبد في هذه الكنيسة المظلمة الهادئة ـ مع بقع صغيرة قليلة من النور مثل النجوم الذهبية في الليل ، الرائحة العذبة القديمة للبخور ، والرائحة الدافئة للشمع المحترق . وهي مرتاحة ضمن نجمتها الخاصة .

كأنما كانت هناك متعة عظيمة ما وانقضت وذلك حين وصلت الأخت سيليسيا دون صوت ولمست كتفها . خرجت النساء الثلاث من الباب الجنوبي الصغير إلى ممرّ الدير وهن ينحنين أمام المذبح .

كانت إنجبيورغ شديدة النعاس حتى أنها ذهبت إلى السرير دون كلمة . كانت كريستين سعيدة ـ لقد كانت كارهة أن يقاطع أحد أفكارها الحلوة . وكانت سعيدة أيضاً أنه كان عليهما أن تبقيا دون حراك ليلاً ، فقد كانت إنجبيورغ بدينة جداً ودافئة جداً .

بقيت مستيقظة فترة طويلة ، ولكن التدفق العميق للعذوبة الذي أحست به وهو يتسامى بها وهي تركع في الكنيسة لن يعود مجدداً . ومع ذلك أحست بدفئه لا يزال فيها . حمدت الرب من كل قلبها ، وفكرت أنها أحست بروحها تتقوى بينما راحت تصلي لأجل أبيها وأمها وأختيها وروح آرن غيردسون .

فكرت بأبيها : كانت تفتقده كثيراً وكذلك كل ما كانت عليه الحال بينهما قبل أن يدخل «سايمون دار» حياتهما . وهنا انبثق من داخلها حنان جديد تجاهه ـ كان هناك نوع من التذوق المسبق لحنان الأم ورعايتها وذلك في حبها لأبيها في هذه الليلة . لقد أحست على نحو غامض أن هناك الكثير في الحياة من الأمور التي فاتته . تذكرت الكنيسة السوداء الخشبية في غيردارود ـ لقد شاهدت هناك في آخر عيد فصح قبور إخوتها الثلاثة الصغار وجدتها لأبيها ، كريستين سيغوردسداتر ، التي ماتت حين ولدته .

ما العلاقة بين إرلند نيكولاوسون وغيردارود : لم تستطع التفكير .

لم تكن تدري أنها فكرت به كثيراً في ذلك المساء ، ولكن طوال الوقت كانت فكرة وجهه الداكن الضيق وصوته الهادئ معلقة في مكان ما في الغسق خارج توهج النور الذي كان يحيط بروحها .

حين استيقظت في صباح اليوم التالي ، كانت الشمس تشع بنورها إلى داخل مهجع النوم ، وحكت لها إنجبيورغ كيف أن الليدي غروا نفسها قد

أمرت الخادمات ألا يوقظنها لأجل صلاة الصباح . لقد قالت إنه حينما تستيقظان ، يجب أن تذهبا إلى المطبخ وتتناولا بعض الطعام . أحست كريستين بالدفء من السعادة تجاه لطف الأم الرئيسة : بدا وكأن العالم كله كان طيباً معها .

٣

اختارت نقابة المزارعين[١٧] في «آكر» القديسة مارغريت كحامية لها ، هذا ويبدأ المزارعون احتفالهم كل عام في العشرين من تموز ، يوم قداس القديسة مارغريت . في ذلك اليوم يتجمع أعضاء النقابة من ذكور وإناث مع أطفالهم وضيوفهم وخدمهم في كنيسة آكر ويحضرون القداس عند مذبح القديسة مارغريت هناك . بعد ذلك يسلكون طريقهم إلى قاعة النقابة القريبة من «مستشفى هوففين» : وهناك كانوا يقيمون مأدبة شراب تستمر خمسة أيام .

ولكن بما أن كنيسة آكر ومستشفى هوففين ينتميان إلى دير نونسيتر ، وبما أن كثيراً من مزارعي آكر كانوا من مستأجري أراضي الدير ، فقد جرت العادة أن تقوم الأم الرئيسة وبعض الأخوات الأكبر سناً بتشريف النقابة بالقدوم إلى الاحتفال في اليوم الأول . أما أولئك الفتيات الموجودات في الدير فقط للدراسة ، ولن يرتدين الوشاح ، فكان عليهن أن يرافقنهن ويرقصن في المساء . لذلك كن يرتدين في هذا العيد ملابسهن الخاصة وليس ملابس الدير .

بالتالي حصل هرج ومرج في غرف نوم المبتدئات في مساء قداس

القديسة مارغريت . كانت الفتيات اللواتي سيذهبن إلى وليمة النقابة ينبشن صناديقهن ويحضّرن زينتهن ، بينما كانت الأخريات الأقل حظاً يتجولن بمزاج عكر ويتفرجن . كان بعضهن قد وضعن أباريق صغيرة في المدفأة ويغلين الماء لجعل بشراتهن بيضاء وطرية . الأخريات كن يغلين شيئاً يضعنه على شعورهن ، ثم يفرقن شعورهن في جدائل ويضفرنها بشدة بشرائط مستديرة من الجلد ، ويعطيهن هذا غدائر مجعدة متموجة .

أخرجت إنجبيورغ كل الزينة التي لديها ، ولكنها لم تستطع التفكير فيما عليها أن تلبسه... فليكن ما يكون ، لن ترتدي أفضل ما لديها ، الثوب المخملي الأخضر ، الذي كان ثميناً جداً وجيداً جداً على مثل هذا الحفل الفلاحي . ولكن أختاً ضئيلة نحيلة لن تكون معهن ـ كان اسمها هيلغا ، وكانت منذورة للدير من قبل أبيها وأمها وهي طفلة بعد ـ أخذت كريستين جانباً وهمست لها أن إنجبيورغ سترتدي الثوب الأخضر وحريرها الوردي أيضاً .

قالت هيلغا : « كنت دائماً طيبة معي يا كريستين . ولا يليق بي أن أتدخل في مثل هذه الأمور ، ولكني سأقول لك على أي حال . لقد رأيت وسمعت إنجبيورغ منذ ذلك الحين تحادث ذلك الفارس الذي أوصلك إلى الدير في ذلك المساء في الربيع : لقد تحادثا في الكنيسة معاً ، وقد انتظرها في الخارج حين ذهبت إلى « إنغون » إلى منزل العامة ، ولكنه يسأل عنك أنت ، وقد وعدته إنجبيورغ بأن تحضرك معها . ولكني أراهن أنك لم تسمعي شيئاً عن هذا من قبل! »

قالت كريستين : « الصحيح أن إنجبيورغ لم تذكر شيئاً من هذا » . ثم بوّزت فمها حتى لا ترى الأخرى الابتسامة التي كانت ستظهر عليه . هكذا هو إذن أسلوب إنجبيورغ . « ربما هي تعرف أني لست من النوع الذي

يذهب إلى المواعيد الغرامية مع رجال غرباء من حول زوايا المنازل وخلف السياج » . هكذا قالت باعتزاز .

قالت هيلغا وقد أحست بالإهانة : «إذن كان عليّ أن أوفر على نفسي مشقة جلب الأنباء إليك وكان حرياً بي ألاّ أذكر شيئاً أمامك» . ثم افترقتا .

ولكن طوال المساء كانت كريستين مصممة على ألاّ تبتسم إذا ما نظر أي شخص إليها .

•

في صباح اليوم التالي ظلت إنجبيورغ تتسكع في ملابسها العادية حتى عرفت كريستين أنها كانت لا تنوي أن تلبس قبل أن تصبح هي جاهزة .

لم تقل كريستين شيئاً ، ولكنها ضحكت وهي تمضي إلى صندوقها وتخرج شلحتها الحرير الصفراء الذهبية . لم تكن قد ارتدتها سابقاً وقد أعطتها إحساساً ناعماً وبارداً وهي تلبسها على جسدها . كانت مطرزة على نحو جميل بالحرير الفضي والأزرق والبني ، حول العنق والصدر ، بقدر ما يمكن رؤيته فوق الفستان ذي القصة الخفيضة . كانت لها أكمام ملائمة أيضاً . ثم ارتدت جواربها الطويلة الكتانية وربطت حذاءها الأزرق الأرجواني الصغير الذي أنقذه هاكون لحسن الحظ في يوم الهرج والاضطراب ذاك . وقد حدقت إليها إنجبيورغ ، ولكن كريستين قالت ضاحكة : «لقد علمني أبي دائماً إلاّ أظهر الاحتقار لأولئك الذين هم دوننا مرتبة... ولكنك أرقى من أن تزيّني نفسك في أفضل ملابسك لأجل هؤلاء المزارعين المستأجرين الفقراء والفلاحين... »

لبست إنجبيورغ ، وقد احمرت كالتوت ، جلبابها الصوفي فوق ردفيها البيضاوين وارتدت بسرعة الشلحة الحرير الوردية . أنزلت كريستين من فوق رأسها أفضل فستان مخملي عندها : كان أزرق بنفسجي اللون ، وله قصة

عميقة عند الصدر ، مع أكمام طويلة مشقوقة تتدفق حتى الأرض تقريباً . ثم ربطت حزاماً مذهباً حول خصرها ، ورمت رداءها الرمادي السنجابي فوق كتفيها . ثم نشرت كتل شعرها الأصفر من فوق كتفيها وظهرها ، وثبتت الشريط الذهبي المزين بأزهار صغيرة على جبينها .

لاحظت أن هيلغا واقفة تراقبهما . ثم أخذت من صدرها مشبكاً فضياً ضخماً . كان موجوداً على عباءتها في الليلة التي قابلها بها بنتاين على الطريق العام ، ولم تكترث بلبسه منذ ذلك الحين . ثم مضت إلى هيلغا ، وقالت بصوت خفيض :

«أعرف أنها كانت رغبتك في إظهار النية الطيبة في الليلة الماضية . لا تحسبيني غير ممتنّة» ، وبذلك أعطتها المشبك .

كانت إنجبيورغ مشهداً جميلاً أيضاً حين وقفت بكامل زينتها في فستانها الأخضر ، مع عباءة من الحرير الأحمر فوق كتفيها وشعرها الفاتح المجعد يتماوج من خلفها . لقد أنهتا الصراع على من سترتدي أفضل من الأخرى ، كما فكرت كريستين ، وضحكت .

•

كان الصباح بارداً ونضراً بالندى حين انطلق الموكب من دير نونسيتر والتف في طريقه غرباً نحو «فريزيا» . كان تحضير العلف قد اقترب من نهايته هنا في الأراضي المنخفضة ، ولكن على امتداد الأسيجة نما السنبل البري والكروسفوت الأصفر في كتل ؛ وفي الحقول كانت نباتات الشعير في سنابلها وقد أحنت رؤوسها في موجات فضية شاحبة يشوبها لون وردي . هنا وهناك ، حيث كان الممر ضيقاً ويسير عبر الحقول ، كان القمح يصل إلى ركب الناس .

سار هاكون في المقدمة ، وهو يحمل علم الدير مع صورة مريم العذراء على قماشة حرير زرقاء . من بعده سار الخدم والعامة ، ثم وصلت الليدي غروا وأربع من الأخوات العجائز على جياد ، بينما كانت وراءهن الفتيات راجلات . كانت ملابس العيد ذات الألوان المتعددة تلوح وتلمع في نور الشمس . بعض نساء العامة وقليل من الخدم المسلحين كانوا خلف القافلة .

راحوا يغنون وهم ماضون عبر الحقول الوضيئة ، ووقف الناس الذين كانوا يقابلونهم عند الطرق الجانبية جانباً وحيوهم باحترام . في كل أنحاء الحقول كانوا قادرين على مشاهدة مجموعات من الرجال قادمين سيراً على الأقدام أو راكبين ، فقد كان الناس يقتربون من الكنيسة من كل منزل ومزرعة . وسرعان ما سمعوا خلفهم صوت التراتيل التي تغني بأصوات الرجال العميقة وبرز علم دير «هوفيدو» فوق رابية صغيرة : كان الحرير الأحمر يلمع تحت الشمس ، وهو يتأرجح وينحني حسب خطوات الحامل .

كان الصوت المعدني القوي للأجراس يرن عالياً عبر صهيل وصياح الجياد بينما راح الموكب يصعد آخر منحدر يؤدي إلى الكنيسة . لم يسبق لكريستين أن رأت كل هذا العدد من الجياد مرة واحدة : بحر مضطرم هائج من ظهور الخيل حول المرج أمام باب الكنيسة . فوق المرج الأخضر وقف وجلس أشخاص يرتدون جميعاً أفضل ملابسهم : ولكن الجميع نهضوا احتراماً حين مرّت راية العذراء من نونسيتر بينهم ، فانحنى الجميع أمام الليدي غروا .

بدا وكأن الناس الذين أتوا كانوا أكثر مما تستوعبه الكنيسة ، ولكن بالنسبة لأولئك القادمين من الدير ، فقد حفظت لهم أماكن في المقدمة أمام المذبح . مباشرة من خلفهم كان الرهبان البندكتيون من هوفيدو يدخلون

ويصعدون إلى مكان الجوقة : وفجأة انفجر الغناء من حناجر الرجال والأولاد وملأ الكنيسة .

ما إن بدأ القداس ، وحين وقف الجميع للصلاة ، أبصرت كريستين إرلند نيكولاوسون . كان طويلاً ، وقد برز رأسه فوق رؤوس من حوله . رأت وجهه من الجانب . كان له جبين عال حاد وضيق ، وأنف كبير مستقيم : وكان يبرز بشكل مثلث من وجهه . كان نحيلاً على نحو غريب عند المنخرين الدقيقين المرتعشين : كان فيه شيء ما ذكّر كريستين بالجواد الفحل القلق شديد الحساسية . لم يكن وجهه وسيماً بقدر ما ظنته : كانت الخطوط الطويلة التي تجري إلى فمه الصغير الضعيف إنما جيد التشكيل تعطيه لمسة من عدم الفرح : ولكن أجل ، لقد كان وسيماً .

التفت برأسه وشاهدها . لم تعرف كم مضى من الوقت وهما واقفان هكذا وكل واحد يتطلع إلى عينَيْ الآخر . ومنذ ذلك الحين ما عادت تفكر بشيء آخر عدا نهاية القداس . انتظرت وهي منصبة الاهتمام على ما سيحصل .

كان هناك ازدحام واحتشاد والناس تخرج من الكنيسة المزدحمة . بقيت إنجبيورغ خلف كريستين حتى أصبحتا في مؤخرة الحشد . لقد كسبتا نقطة ـ كانتا بعيدتين عن الراهبات اللواتي خرجن أولاً ـ فكانت الفتاتان بين آخر من وصل إلى صندوق الصدقات ثم إلى خارج الكنيسة .

وقف إرلند في الخارج ، قرب الباب تماماً ، قرب الكاهن من غيردارود مع رجل بدين أحمر الوجه ، رائع في لباس من المخمل الأزرق . كان إرلند نفسه مرتدياً ملابس حرير ذات لون داكن : معطف طويل بني اللون مشجر بالأسود ، وعباءة سوداء طبعت عليها صقور صفراء صغيرة محبوكة فيها .

و قد حيا أحدهم الآخر ثم عبروا المرج معاً إلى حيث كانت أحصنة

الرجال وقد ربطت إلى أوتاد . وبينما راحوا يتكلمون حول الطقس الجميل والقداس الكبير والحشد الضخم من الناس المجتمعين ، فإن الفارس البدين أحمر الوجه الذي كان يرتدي مهمازاً ذهبياً واسمه «سير مونان باردسون» ، أخذ إنجبيورغ من يدها . كان واضحاً أنه قد أُخذ بالفتاة تماماً . انسحب إرلند وكريستين إلى الخلف : كانا صامتين وهما يمشيان .

صدرت من مرج الكنيسة ضجة كبرى بينما راح الناس يركبون مطاياهم ويغادرون : كانت الجياد تتصادم ، والناس تصرخ ـ بعضهم غاضب وبعضهم يضحك . جلس الكثيرون أزواجاً فوق الجياد : كان الرجال يردفون زوجاتهم خلفهم أو أطفالهم أمامهم على السرج . راح الشبان يقفزون إلى جانب رفاقهم فوق متون الجياد . كانا قادرين على مشاهدة رايات الكنيسة والراهبات والكهنة وقد هبطوا الجبل .

مرّ السير مونان على حصانه ، وقد جلست إنجبيورغ أمامه وذراعه من حولها . ناديا كلاهما ولوّحا ثم قال إرلند :

«خادماي كلاهما معي ـ يمكنهما ركوب حصان واحد وأنت ستركبين على هافتور ، هذا إن رغبت بذلك ؟»

احمرّ وجه كريستين وهي تجيب : «لقد سبق لنا وتأخرنا كثيراً عن الآخرين... لا أرى خادميك في الجوار...» ثم انفجرت ضاحكة ، وابتسم إرلند .

قفز إلى السرج وساعدها على الجلوس خلفه . في البيت غالباً ما كانت كريستين تجلس جلسة جانبية خلف أبيها بعد أن كبرت كثيراً لتركب الحصان منفرجة الساقين . ومع ذلك فقد شعرت بالخجل وعدم الأمان وهي تضع يدها فوق كتف إرلند . ووضعت الأخرى فوق ظهر الحصان لتثبت نفسها . لقد سارا ببطء نحو الجسر .

خلال فترة فكرت كريستين في أن عليها أن تتكلم ، بما أنه كان صامتاً ، لذلك قالت :

« لم نكن نتوقع أن نقابلك هنا يا سيدي » .

« ألم تتوقعي مقابلتي ؟ » سأل إرلند وهو يلتفت برأسه . « ألم تحمل لك إنجبيورغ فيليبوسداتر تحياتي إذن ؟ »

قالت كريستين : « لا ، لم أسمع شيئاً عن أي تحية . لم تذكرك لي ولا مرة واحدة منذ أن أنقذتنا في أيار الماضي » ، هكذا قالت بمكر . لم تكن آسفة لكشف زيف إنجبيورغ .

لم ينظر إرلند إلى الخلف ثانية ، ولكنها استطاعت أن تلاحظ أنه كان يبتسم حين سألها مجدداً :

« و لكن الفتاة السمراء ضئيلة الجسم ـ المبتدئة ـ لا أتذكر اسمها... لقد دفعت لها أجرها حتى توصل تحياتي » .

احمرت كريستين خجلاً ، ولكنها اضطرت إلى الضحك أيضاً وقالت : « أجل ، عليَّ أن أقول إن هيلغا استحقت أجرها » .

حرك إرلند رأسه قليلاً ؛ وقد لمس عنقه يدها تقريباً . حركت كريستين يدها فوراً بعيداً عن كتفه . وقد فكرت على نحو قلق في أنها قد تكون تصرفت على نحو أجرأ مما هو ملائم ، وقد رأت أنها قد جاءت إلى هذا الاحتفال بعد أن حدّد رجل موعداً للقائها على نحو ما .

و سرعان ما سألها إرلند :

« هل ترقصين الليلة معي يا كريستين ؟ »

أجابت الفتاة : « لا أدري يا سيدي » .

سألها : « أتعتقدين أن هذا ليس ملائماً على الأرجح ؟ » ، وحين لم تجبه ، قال ثانية : « قد لا يكون الأمر كذلك . ولكنني فكرت الآن أنك قد

تعتبرين أنه ليس أمراً سيئاً على الأرجح أن تمسكي بيدي هذه الليلة خلال الرقص ، فأنا لم أرقص منذ ثماني سنوات» .

سألته كريستين : «و كيف ذلك يا سيدي ؟ هل أنت متزوج ؟» ثم خطر لها أنه لو كان متزوجاً وواعدها على هذا النحو لما كان ذلك لائقاً منه . لذلك حاولت أن تصلح حديثها قائلة : «ربما فقدت خطيبتك أو زوجتك ؟»

التفت إرلند بسرعة ونظر إليها بعينين غريبتين :

«ألم تخبرك الليدي آشيلد... ؟ لم خجلت إلى هذا الحد حين سمعت اسمي ذلك المساء ؟» سألها بعد قليل .

احمر وجه كريستين مجدداً ، ولكنها لم تجب . ثم سألها إرلند مجدداً :

«سيسرني أن أعرف ما قالته لك خالتي ؟»

قالت كريستين بسرعة : «لا شيء سوى مديحك . قالت إنك وسيم جداً وعالي المقام ، كما قالت إنك وأسرتها من مقام عال جداً بالمقارنة معنا : أسرتي وأنا» .

سأل إرلند : «أما زالت تتحدث على هذا النحو ، وتعيش تلك الحياة التي تحياها ؟» ثم ضحك بمرارة . «أجل ، أجل ، إن كان هذا يسرّي عنها... ألم تقل عني شيئاً آخر ؟»

«وما كان عليها أن تقوله ؟» سألت كريستين . لم تكن تعرف لم أصبحت حزينة على نحو غريب .

«أوه ، كان يمكنها أن تقول...» ، تحدث بلهجة خفيضة ، وهو ينظر أرضاً . «كان يمكنها أن تقول إني كنت محروماً من قبل الكنيسة ، وكان عليّ أن أدفع الثمن غالياً لقاء السلام والتكفير...»

صمتت كريستين فترة طويلة . ثم قالت برقة :

«هناك الكثير من الرجال لا يسيطرون على مصائرهم . هكذا سمعت . لم أر الكثير من هذا العالم ، ولكني لن أصدق يا إرلند إنه قد حصل ما حصل لأنك قمت بعمل غير مشرف» .

«فليكافئك الرب على هذه الكلمات يا كريستين» ، قال إرلند ، ثم أحنى رأسه وقبل رسغها بقوة شديدة حتى أن الحصان قفز من تحتهما . وحين سيطر عليه إرلند مجدداً ، قال بحرارة : «ارقصي معي الليلة إذن يا كريستين . وبعد ذلك سأحكي لك عما حدث لي ـ سأحكي لك كل شيء ـ ولكن هل سنكون الليلة سعيدين معاً ؟»

أجابت كريستين : «أجل» ، ثم عاودا السير في صمت .

و لكن قبل أن يمر وقت طويل بدأ إرلند يسأل عن الليدي آشيلد ، وحكت له كريستين كل شيء تعرفه عنها . وقد مدحتها كثيراً .

«إذن ليست كل الأبواب موصدة أمام بيورن وآشيلد ؟» سأل إرلند .

قالت كريستين إنهما يُذكران دائماً وأن أباها وكثيرين معه يعتبرون معظم الحكايات حول هذين على أنها حكاية كاذبة .

سأل إرلند وهو يضحك بخبث : «و ما رأيك بقريبي مونان ياردسون ؟»

قالت كريستين : «لم أنظر إليه كثيراً وأعتقد أيضاً أنه ليس وسيماً» .

«ألا تعرفين أنه ابنها ؟» سأل إرلند .

قالت كريستين باستغراب كبير : «ابن ليدي آشيلد!»

«أجل ، لم ينل أولادها حسن مظهر أمهم ، رغم أنهم اكتسبوا أشياء أخرى» ، قال إرلند .

«لم يسبق أن عرفت اسم زوجها الأول» ، قالت كريستين . «كانا أخوين تزوجا أختين» قال إرلند . «بارد ونيكولاوس مونانسون» . كان أبي هو الأكبر ، وأمي زوجته الثانية ، ولكنه لم يرزق بأولاد من الأولى . أما

«بارد» الذي تزوجته آشيلد ، فلم يكن شاباً أيضاً ، ولا هما عاشا حياة سعيدة معاً على ما أعتقد . أجل ، كنت طفلاً صغيراً حين حدث هذا كله ، وقد أخفوا عني كل ما استطاعوا إخفاءه... ولكنها هربت من البلاد مع السير بيورن وتزوجته رغم إرادة أقربائها... بعد وفاة بارد . ثم تجاهل الناس الزفاف : لقد ادعوا أن بيورن كان قد دخل فراشها وزوجها الأول ما يزال حياً ، وأنهما تآمرا معاً على قتل عمي . من الواضح أنهم لم يستطيعوا إثبات ذلك عليهما ، بما أنهم اضطروا لتركهما مرتبطين برابط الزواج . ولكن من أجل التعويض ، كان عليهما أن يتخليا عن أملاكهما : كان بيورن قد قتل ابن أختهما أيضاً ، أي ابن آشيلد خالتي ، كما أعني...»

دق قلب كريستين بشدة . في البيت كان أبوها وأمها يحرصان حرصاً شديداً على ألا يصل أي حديث قذر إلى آذان بناتهما أو الصغار من السكان - ومع ذلك جرت أمور في أبرشيتهم وسمعت كريستين بها - فقد كان أحد الرجال قد عاش في حالة زنا مع امرأة متزوجة . كان ذلك دعارة ، وواحدة من أسوأ الخطايا . وقد قيل إنهما خططا لقتل الزوج ، وإن ذلك كان سبباً في الخروج على القانون والحرمان الكنسي . قال لافرانس إنه لا توجد امرأة مضطرة للبقاء مع زوجها رغماً عنها ، لو كانت له علاقة مع زوجة رجل آخر . أما الطفل الذي يولد من علاقة زنا فلا يمكن إصلاح وضعه ، حتى لو أصبح أبوه وأمه حرين للزواج لاحقاً . يمكن للرجل أن يجعل طفلاً ما واحداً من أفراد أسرته وأن يورثه لو أنه ولد لامرأة لعوب أو شحاذة جوالة ، ولكن ليس الطفل الذي ولد من حالة زنا ، ليس حتى إن كانت أمه زوجة فارس . فكرت بكرهها للسير بيورن ، بوجهه المبيّض وجسمه البدين إنما المنكمش . لم تستطع أن تفكر كيف أن الليدي آشيلد يمكن أن تكون طيبة ومستسلمة في كل الأوقات للرجل الذي قادها إلى مثل هذا العار . كيف يمكن لمثل هذه

المرأة الراقية أن تدع رجلاً مثله يخدعها .حتى لم يكن جيداً معها . كان يتركها تتعب وتشقى بأعمال المزرعة . لم يكن بيورن يفعل أي شيء عدا شرب الجعة . ومع ذلك كانت آشيلد لطيفة ورقيقة دائماً حين كانت تتحدث مع زوجها . تساءلت كريستين إن كان أبوها يعرف كل هذا ، بما أنه دعا السير بيورن لزيارته في بيته . والآن راحت تفكر أيضاً في أنه بدا أمراً غريباً أن يفكر إرلند في أنه من الملائم أن يحكي لها مثل هذه الحكايا عن أقربائه المقربين . ولكن ربما كان يظنها عارفة بذلك على نحو مسبق .

قال إرلند بعد وهلة : «أود كثيراً زيارة ، خالتي آشيلد ، في يوم ما... حين أسافر شمالاً . هل ما يزال وسيماً ، قريبي بيورن ؟ »

«لا ، يبدو كالقش الذي وضع طوال الشتاء في الحقول» ، قالت كريستين .

«أجل ، أجل ، الزمان يترك آثاره على الرجل ، كما أعتقد » ، قال إرلند بالابتسامة المرة نفسها . «لم يسبق لي أن رأيت رجلاً بتلك الوسامة - لقد مضت عشرون عاماً ، وكنت ما أزال صبياً بعدها - ولكني لم أشاهد قط رجلاً بوسامته...»

بعد قليل وصلوا إلى المستشفى . كانت مكاناً رائعاً وجميلاً ، مع الكثير من الأبنية الحجرية والخشبية : أبنية للمرضى ، أبنية للصدقات ، نزل للمسافرين ، معبد ومنزل للكاهن . كان هناك هرج ومرج في الساحة ، فقد كان الطعام يحضر في مطبخ المستشفى لأجل وليمة النقابة ، كما كان المرضى والفقراء أيضاً الذين يقطنون المكان سيأكلون أفضل الطعام اليوم .

كان مقرّ النقابة إلى ما وراء حديقة المستشفى ، واتخذ الناس طريقهم عبر حديقة الأعشاب ، فقد كانت هذه ذات شهرة واسعة . كانت الليدي غروا قد جلبت نباتات لم يكن أحد في النرويج قد سمع بها ، وعلاوة على

ذلك ، فإن كل النباتات التي اعتاد الناس الآخرون أن يزرعوها في الحدائق ، كانت تزدهر على نحو أفضل في مشاتلها ، وذلك من كل أنواع الزهور وأعشاب تطييب الطعام والأعشاب الطبية . كانت امرأة عالمة في مثل هذه القضايا كافة ، وكانت قد ترجمت بنفسها إلى اللغة النرويجية كل أعشاب مدرسة سالرنيتان... كانت الليدي غروا قد زادت من لطفها في معاملتها لكريستين منذ أن عرفت أن الفتاة تعرف شيئاً ما عن الأعشاب ، وترغب في تعلم المزيد عنها .

و هكذا راحت كريستين تسمّي لإرلند ما كان ينمو في الأحواض على كلا جانبي الممر المعشب الذي كانا يمشيان فيه . في شمس الظهيرة كانت رائحة دافئة وعطرة تفوح من نبات أرز الدجاج والثوم والورود والشيح والمنثور الأصفر . وراء حديقة الأعشاب المحرومة من الظل التي تسفعها الشمس بدت بساتين الفاكهة باردة ومغرية : كان الكرز الأحمر يلمع بين قمم الأشجار المورقة الداكنة ، وأشجار التفاح قد أدلت أغصانها المثقلة بالفاكهة الخضراء .

من حول الحديقة كان سياج من شجيرات العليق . وكان لا يزال عليها بعض الأزهار... وقد بدت شبيهة بأشجار العليق الأخرى ، ولكن في الشمس كانت للأوراق رائحة النبيذ والتفاح . كان الناس يقطفون خصلاً منها ليزينوا بها أنفسهم وهم ماضون في طريقهم . وقطفت كريستين أيضاً بعض الأزهار وعلقتها على صدغيها ، مثبتة إياها تحت شريط شعرها الذهبي . وأبقت واحدة في يدها... بعد فترة أخذها منها إرلند دون أن يقول شيئاً . كان يحملها بيده خلال تجوالهما ، ثم ثبتها بالدبوس على صدره : بدا مضطرباً وخجولاً وهو يفعل ذلك ، وكان شديد الارتباك حتى أنه وخز أصابعه حتى أدماها .

كانت موائد عريضة قد مُدّت في علية مقر النقابة ، واثنتان عند الأسوار الرئيسية ، للرجال والنساء ، ولوحان خشبيان أصغر حجماً على الأرض ، حيث جلس الأطفال والشباب جنباً إلى جنب .

عند مائدة النساء كانت الليدي غروا تجلس على كرسي مرتفع ، كما جلست الراهبات ورئيسة النساء المتزوجات على المقعد الداخلي على طول الجدار ، أما النساء العازبات فجلسن على المقاعد الخارجية ، والفتيات من دير نونسيتر عند النهاية العلوية . عرفت كريستين أن إرلند كان يراقبها ، ولكنها لم تجرؤ على الالتفات ولو مرة واحدة ، ولا حين نهضوا أو حين جلسوا . ولكن حين نهضوا أخيراً لسماع الكاهن يقرأ أسماء أعضاء النقابة المتوفين من ذكور وإناث ، اختلست نظرة سريعة إلى مائدة الرجال . وقد لمحته حيث كان يقف قرب الجدار ، خلف الشموع المحترقة على اللوح الخشبي . كان ينظر إليها .

دامت الوجبة فترة طويلة ، وذلك مع احتساء كل تلك الأنخاب على شرف الرب ومريم العذراء والقديسة مارغريت والقديس أولاف والقديس هالفارد والصلوات والأغنيات بين ذلك كله .

رأت كريستين عبر الباب المفتوح أن الشمس قد غربت . كانت أصوات عزف الكمان والغناء تصلهم عبر المرج في الخارج ، وكان الشبان والشابات قد سبق لهم وغادروا الموائد حين قالت الليدي غروا لفتيات الدير إنه يمكنهن الذهاب الآن واللهو لبعض الوقت إن شئن ذلك .

كانت ثلاث محارق حمراء مشتعلة في المرج . ومن حولها كانت تتحرك السلاسل ذات الألوان المتعددة من الراقصين . جلس العازفون إلى جانب على خزائن مكومة وراحوا يعزفون على كماناتهم... كانوا يعزفون ويغنون لحناً مختلفاً في كل حلقة من الحلقات . كان هناك الكثير من الناس

لكل رقصة واحدة . كان الظلام قد خيّم تقريباً : شمالاً وقف الجبل المغطى بالأحراج أسود كالفحم أمام سماء خضراء مصفرّة .

تحت شرفة العلية جلس أشخاص وهم يشربون . قفز بعض الرجال نحو الأمام ، ما أن هبطت ست من فتيات نونسيتر على الدرج . طار مونان باردسون ليلاقي إنجبيورغ ومضى معها ، أما كريستين فقد أمسكت من الرسغ : كان ذلك إرلند ، فقد أصبحت تعرف يده سلفاً . وقد ضغط يدها في يده حتى احتك خاتماهما وسبّبا رضوضاً في اللحم .

سحبها معه إلى المشعلة الأكثر بعداً . كان كثير من الأطفال يرقصون هناك . أعطت كريستين يدها لفتى في الثانية عشرة وكان إرلند يمسك بيد فتاة صغيرة نصف ناضجة إلى جانبه .

لم يكن هناك من يغني في الحلقة آنئذ : كانوا يتأرجحون وحسب على لحن الكمان الذي كانوا يدورون من حوله . ثم صرخ أحدهم بأن « سيفورد » الدانماركي سيغني لهم أغنية رقصة جديدة . خطا رجل طويل أشقر الشعر له قبضتان ضخمتان أمام السلسلة وراح ينشد :

« يمضي الرقص جميلاً في مونكولم
على رمال فضية
هناك يرقص إيفار سير ألفسون
و يمسك بيد الملكة...
ألا تعرفون إيفار سير ألفسون ؟ »

لم يعرف عازفو الكمان اللحن ، فراحوا يطنطنون على أوتارهم قليلاً ، وغنى الدانماركي وحده : كان له صوت قوي مليء بالألحان :

«حاذري يا ملكة الدانماركيين
في المعرض الصيفي ذاك
هل سيخرجونك من السويد إلى الدانمارك هنا ؟

قادوك خارج السويد
إلى الدانمارك هناك
و كل ذلك بتاج من الذهب الأحمر
و الكثير من الدموع .

كل ذلك بتاج من الذهب الأحمر
و عيون مليئة بالدمع
... حاذري يا ملكة الدانماركيين
أ كنت لي أولاً ؟»

راح عازفو الكمان يعزفون مجدداً ، وهمْهمَ الراقصون اللحن الجديد الذي تعلموه وانضموا إلى اللازمة الغنائية :

«و هل أنت يا إيفار سير ألفسون
رجل أقسم اليمين لي ،
فهل ستعلّق غداً
على شجرة المشنقة ؟
و لكن كان إيفار سير ألفسون
رجلاً لا يخاف البتة

قفز إلى ...
مرتدياً ملابس العمل .

لقد بعثك الله يا ملكة الدانمارك
لذا أتمنى لك ليالي كثيرة سعيدة
كما في السماء العالية
الكثير من النجوم الوضاءة
لقد بعثك الله يا ملك الدانمارك
لذا أتمنى لك سنوات شؤم كثيرة
بقدر ما هناك شعر على الظبية
ألا تعرفون إيفار سير ألفسون ؟ »

كان الليل قد توغل ، والنيران مجرد أكوام من الجمر الذي يتحول إلى أسود أكثر فأكثر . وقفت كريستين وإرلند يداً بيد تحت الأشجار عند سياج الحديقة . من خلفهما كانت ضجة المحتفلين قد خفتت : كان بضعة شباب لا يزالون يقفزون من حول الأكوام المتوهجة يغنون بصوت خفيض ، ولكن عازفي الكمان كانوا قد مضوا إلى مكان راحتهم وكان معظم الناس قد رحلوا . راحت زوجة أو اثنتان تبحثان عن زوجيهما اللذين كانا في مكان ما في الخارج وقد أفقدتهما الجعة رشدهما .

«أين تظن أني وضعت عباءتي ؟ » همست كريستين . وضع إرلند ذراعه حول خصرها ولفّ معطفه حولهما كليهما . وهكذا مضيا إلى حديقة الأعشاب وقد التصق أحدهما بالآخر .

قابلهما هناك عبير متلبّث من روائح النهار الدافئة المعطرة ، وقد خفّت

وترطّبت ببرودة الندى ، كان الليل شديد العتمة ، والسماء ملبدة بالغيوم ، والغيوم الرمادية المظلمة قريبة من قمم الأشجار . ولكنهما استطاعا أن يعرفا بوجود أناس آخرين في الحديقة . ومرة شدّ إرلند الفتاة إليه وسألها همساً : «هل أنت غير خائفة يا كريستين ؟ »

في ذهنها التقطت لمحة ضعيفة من العالم خارج هذا الليل... وقد عرفت أن هذا كان جنوناً . ولكن طغى عليها عجز مبارك . فاتكأت على الرجل على نحو أقرب وهمست برقة... دون أن تعرف ما قالته .

وصلا إلى نهاية الممر . كان سور حجري يفصلهما عن الغابات . ساعدها إرلند على الصعود . وحين قفزت هابطة إلى الجانب الآخر ، أمسك بها ورفعها بين ذراعيه لحظة قبل أن يضعها فوق العشب .

وقفت بوجه مرفوع لتتلقى قبلته . أمسك برأسها بين يديه : كان شعوراً عذباً جداً أن تشعر بأصابعه تغرق في شعرها : أحست أن عليها أن ترد له قبلته ، وهكذا أمسكت برأسه وحاولت أن تقبّله كما قبّلها .

حين وضع يديه على صدرها ، أحست كأنه انتزع قلبها من صدرها . كشف ثنايا الحرير قليلاً جداً وقبّل ما بينهما : أرسل ذلك وميضاً في أعماق روحها .

همس إرلند : «لا أستطيع إيذاءك أبداً . ليس عليك أبداً أن تذرفي دمعة واحدة بسبب خطأ مني . لم يسبق لي أن حلمت بفتاة طيبة شأنك يا كريستين... »

جذبها إلى العشب تحت الشجيرات . جلسا وظهراهما إلى السور . لم تقل كريستين شيئاً ، ولكنه حين توقف عن مداعبتها ، رفعت يدها ولمست رأسه .

و سألها إرلند بعد فترة : «ألست متعبة يا عزيزتي ؟ » وحين استكانت

كريستين لصدره ، مدّ ذراعيه من حولها وهمس : «نامي ، نامي يا كريستين ، هنا بين ذراعيّ...»

انزلقت أعمق فأعمق في العتمة والدفء والسعادة على صدره .

•

حين استفاقت ، كانت ممدّدة في العشب ووجنتها على الحرير البني الناعم فوق ركبتيه . كان إرلند جالساً كما من قبل وظهره إلى السور الحجري ووجهه يبدو رمادياً في الغسق الرمادي ، ولكن عينيه الواسعتين المفتوحتين كانتا صافيتين على نحو رائع وجميلتين . رأت أنه قد لفّ معطفه كله من حولها : كانت قدماها دافئتين ومرتاحتين جداً ببطانة الفرو من حولهما .

قال وهو يبتسم ابتسامة خفيفة : «لقد نمت في حجري الآن . فليباركك الله يا كريستين... لقد نمت آمنة كطفلة بين ذراعي أمها...»

سألت كريستين : «ألم تنم أنت يا سير إرلند ؟» فابتسم لعينيها المفتوحتين النضرتين :

«ربما ستحل تلك الليلة التي نضطجع فيها أنت وأنا لننام معاً... لا أعرف ما سوف تفكرين به حين تكونين قد وزنت كل الأمور . لقد سهرت عليك وأنت نائمة هذه الليلة... لا يزال هناك الكثير بيننا نحن الاثنين حتى لكأنه كان هناك أكثر من مجرد سيف مسلول بينك وبيني . قولي لي هل سأبقى عزيزاً عليك بعد أن تمر هذه الليلة ؟»

«ستبقى عزيزاً عليّ يا سير إرلند» ، قالت كريستين . «ستظل عزيزاً عليّ طالما أردت أنت... وبعد ذلك لن أحب أحداً غيرك» .

قال إرلند ببطء : «إذن فليتخلّ الرب عني إن كنت سأعانق بذراعي أي

فتاة أو امرأة قبل أن أجعلك لي بالقانون وبالشرف . قولي لي هذا أيضاً » ، هكذا رجاها . قالت كريستين :

« فليتخلّ الرب عني إن كنت سأعانق رجلاً آخر بين ذراعي طالما عشت على هذه الأرض » .

قال إرلند بعد قليل : « يجب أن نمضي الآن قبل أن يستيقظ الناس » .

مرّا على امتداد السور بين الشجيرات .

سأل إرلند : « هل فكرت بما علينا أن نفعله لاحقا فيما يتعلق بهذا الأمر ؟ »

أجابت كريستين : « عليك أنت أن تقول ما علينا فعله يا إرلند » .

سألها بعد فترة : « يقولون في غيردارود إن أباك شخص رقيق وورع . أتظنين أنه سيكون كارهاً أن يتراجع عن اتفاقه مع أندرس دار ؟ »

قالت كريستين : « قال أبي مراراً إنه لن يرغمنا أبداً ، نحن بناته ، على شيء . الأمر الرئيسي هو أن أراضينا وأراضي سايمون قريبة جداً من بعضها البعض . ولكني أعتقد أن أبي لن يوافق على أن أخسر كل سعادتي في هذا العالم لأجل ذلك » . ثم تحرك خوف في داخلها من أن الأمر قد لا يكون بسيطاً إلى هذا الحد... ولكنها كتمته .

قال إرلند : « إذن ربما سيكون الأمر أقل صعوبة مما فكرت به في الليل . فليساعدني الرب يا كريستين... أحياناً أعتقد أني لا أستطيع فقدانك الآن... ما لم أحظ بك الآن ، لن أعرف السعادة ثانية » .

•

افترقا بين الأشجار ، وفي نور الفجر شقّت كريستين طريقها إلى حجرة الضيوف حيث كانت تنام نساء دير نونسيتر . كانت الأسرّة مليئة كلها ،

ولكنها رمت بعباءة فوق بعض القش على الأرض واضطجعت بكامل ملابسها .

حين استيقظت كان النهار قد تقدم ، وكانت إنجبيورغ فيليببوسداتر تجلس على مقعد إلى القرب منها ، تخيط حافة فرو تمزقت من عباءتها . كان فمها كالعادة مليئاً بالكلام .

سألتها : «هل كنت مع إرلند نيكلاوسون طوال الليل ؟ الأفضل لك أن تحاذري من هذا الشاب يا كريستين...كيف تظنين أن سايمون أندرسون سيفكر في الأمر لو أصبحت من صديقاته المقربات ؟ »

وجدت كريستين حوضاً لغسل الأيدي وراحت تغتسل .

« و ماذا عن خطيبك... هل تظنين أنه سيعجب برقصك مع مونان القصير البدين الليلة الماضية ؟ لا شك أن علينا أن نرقص معه ذاك الذي يختارنا في مثل هذه الليلة من المرح... وقد منحتنا الليدي غروا الإذن » .

تأففت إنجبيورغ قائلة :

« آينار آينارسون والسير مونان صديقان... وعلاوة على ذلك فإنه متزوج وعجوز . كما أنه قبيح وهذا مما يزيد الأمر سوءاً... ولكنه جدير بأن يُحب وله أساليب جذابة... أترين ما أعطانيه كذكرى عن الليلة الماضية » ، وهنا رفعت مشبكاً ذهبياً رأته كريستين في قبعة مونان في اليوم السابق . « ولكن إرلند هذا...صحيح أنه قد رُفع عنه التحريم في عيد الفصح من العام الماضي ، إلا أنهم يقولون إن « إلين أورماسداتر » كانت معه في « هوسابي » منذ... يقول السير مونان إن إرلند هرب إلى « السيرا يون » في غيردارود ، وهو يعتبر السبب في ذلك عدم قدرته على الوثوق من أنه لن يعود إلى الخطيئة لو قابلها ثانية... »

عبرت كريستين نحو الباب... كان وجهها شاحباً .

قالت إنجبيورغ : «ألم تكوني عارفة بذلك ؟ أنه أغوى امرأة لتهجر زوجها في مكان ما في هالوغالاند في الشمال...و أنه أبقاها معه في ضيعته رغم أمر الملك وتحريم الأسقف... لقد رزقا بولدين... ثم اضطر للهرب إلى السويد ، كما اضطر أن يدفع كتعويض مقداراً كبيراً من أراضيه ومتاعه . يقول السير مونان إنه سيكون رجلاً فقيراً في النهاية ما لم يصلح أساليبه قبل ذلك» .

قالت كريستين بوجه ثابت : «لا تظني أني لا أعرف كل هذا ، ولكن من المعلوم أن القضية قد انتهت الآن» .

«أجل ، ولكن السير مونان يقول إن كثيراً من النهايات قد جرت لحكايتهما من قبل» ، قالت إنجبيورغ متألمة . «ولكن كل هذه الأمور لا تعني لك شيئاً... فأنت ستتزوجين من سايمون دار . ولكن السير إرلند نيكولاوسون رجل وسيم لا شك في ذلك» .

كان على جماعة دير نونسيتر أن تنطلق نحو الدير في ذلك اليوم نفسه بعد صلاة العصر . كانت كريستين قد وعدت إرلند بأن تلقاه عند السور حيث جلسا في الليلة الماضية ، لو استطاعت أن تجد وسيلة لذلك .

كان مضطجعاً في العشب ووجهه إلى الأرض ورأسه بين يديه . وما أن رآها حتى قفز ناهضاً ومدّ يديه كلتيهما ، وهي على وشك القفز من السور .

أخذت كريستين بيديه ، ووقف الاثنان فترة قصيرة واليد باليد ثم قالت كريستين :

«لم حكيت لي البارحة عن السير بيورن والليدي آشيلد ؟»

قال إرلند : «أستطيع أن أرى أنك تعرفين الحكاية كلها» . ثم أفلت يديها فجأة . «ما رأيك فيّ الآن يا كريستين ؟»

تابع يقول بقوة : «كنت في الثامنة عشرة آنذاك . لقد مضت عشر

سنوات منذ أن أرسلني الملك ، قريبي ، مع تلك البعثة إلى فارغيهوس[١٨] ، وقد مكثنا الشتاء في ستايغن... كانت زوجة للاغماندي المسمى سيغورد ساكسولفسون... أشفقت عليها ، فقد كان هو عجوزاً وقبيحاً إلى حد لا يُصدق . لا أعرف كيف جرى الأمر...أجل ولكني أحببتها أيضاً . لقد طلبت من سيغورد أن يطلب أي تعويض يشاء ويسرني أن أكون قد عاملته بعدل... إنه إنسان طيب وشجاع من نواح كثيرة... ولكنه أصرّ على اللجوء إلى القانون . أصرّ على أن تنفذ الأمور حسب النظام... لقد وسمتُ بالدعارة مع زوجة الرجل الذي حللتُ ضيفاً عليه ، أتفهمين...

«ثم سمع أبي بالأمر ، وبعده الملك هاكون... وقد طردني من بلاطه . وإن كنت تودين معرفة كل شيء ، فلم يعد هناك أي شيء بيني وبين «إلين» الآن عدا الطفلين ، وهي لا تهتم بهما كثيراً . إنهما في أوستردال في مزرعة أملكها هناك . لقد وهبت تلك المزرعة إلى «أورم» ، ابني ، ولكنها رفضت البقاء مع الطفلين . لا شك أنها تظن أن سيغورد لن يعيش إلى الأبد... ولكني لا أعرف ما تفكر فيه .

«لقد أعادها سيغورد إليه... ولكنها تقول إنها كالكلبة والجارية في بيته... لذلك ضربت موعداً معي في نيداروس . كان الأمر أفضل قليلاً لي مع أبي في هوسابي . لقد بعت كل ما استطعت وضع يدي عليه ، وهربت معها إلى هولندا... وقف الكونت ياكوب إلى جانبي كصديق . هل كنت أستطيع أن أفعل خلاف ذلك ؟ كانت حاملاً بطفلي . أعرف أن رجالاً كثيرين عاشوا هكذا مع زوجة رجل آخر وقد تخلوا عنها بكل رخص... لو كان غنياً بالطبع . ولكن الأمر كان على هذه الحال مع الملك هاكون ، إذ أنه يكون أقسى ما يكون على أقربائه . كنا قد ابتعدنا الواحد عن الآخر مدة سنة ، ولكن أبي مات ثم عادت هي إليّ . ثم حدثت مشكلات أخرى . أنكر عليّ مزارعيّ

المستأجرون دفع الإيجار ورفضوا التحدث إلى وكيلي لأني كنت خاضعاً لتحريم الكنيسة... وأنا من جانبي تعاملت معهم بقسوة ، لذلك رفعوا ضدي دعوى بتهمة السرقة . ولكن لم أكن أملك مالاً أدفعه كمصروف للمنزل علاوة على ذلك . وتستطيعين أن تري أني كنت شاباً إلى حد لا أستطيع معه التعامل مع هذه المشاكل بحكمة ، ورفض أقربائي مساعدتي - باستثناء مونان - فقد فعل كل ما سمحت له زوجته بفعله...

«أجل ، والآن تعرفين الأمر يا كريستين : لقد فقدت الكثير من الأراضي والمتاع والشرف . هذا صحيح . سيكون أفضل لك أن تتشبّثي بسايمون أندرسون» .

وضعت كريستين ذراعيها حول عنقه .

«سنلتزم بما أقسمنا عليه الواحد أمام الآخر في الليلة الماضية يا إرلند... إن كنت من رأيي» .

قربها إرلند منه وقبّلها وقال :

«سترين أيضاً ، ثقي بي ، أن كل أموري ستتغير الآن... ليس في العالم كله من لديه السلطة عليَّ الآن سواك . أوه ، كانت أفكاري كثيرة في الليلة الماضية ، وأنت نائمة في حجري ، يا أجمل الجميلات . لا يمكن للشيطان أن تكون له سلطة على أي رجل إلى حد يجعلني كرجل أسبّب لك الهم والعزاء... أنت يا حياتي العزيزة جداً...»

٤

خلال فترة إقامته في سكوغ كان لافرانس بيورغولفسون يقدم الهدايا إلى كنيسة غيردارود ، حتى تتلى القداسات على روح أبيه وأمه في ذكرى وفاتهما كل سنة . كان يوم بيورغولف كيتيلسون هو الثالث عشر من آب (أغسطس) ، وقد اتفق لافرانس مع أخيه في هذا العام على أن يقوم آسموند بإحضار كريستين إلى سكوغ حتى تحضر القداس .

خشيت أن يحدث عائق ما فلا يستطيع عمها أن يفي بوعده : فكرت في أنها لاحظت أن آسموند لم يكن يهتم بها كثيراً . ولكن في اليوم السابق على القداس ، جاء آسموند بيورغولفسون إلى الدير لإحضار ابنة أخيه . قيل لكريستين أن ترتدي ملابس عادية بسيطة وداكنة . فقد كان هناك كلام يقال من قبل أخوات دير نونسيتر عن أنها تخرج كثيراً خارج أسوار الدير . لذلك أمر الأسقف بأنّ على الفتيات اللواتي لن يرتدين الحجاب ألاّ يرتدين ملابس تشبه ملابس الدير حين يخرجن لزيارة أقربائهن : وهكذا لن يكون هناك خطأ في أن يحسبن من المبتدئات أو الراهبات .

كان قلب كريستين مترعاً بالسعادة وهي تسير راكبة على امتداد الطريق إلى جانب عمها ، وأصبح آسموند أكثر وداً ومرحاً معها حين رأى أن

الفتاة ليست مربوطة اللسان إلى ذلك الحدعلى أي حال . وخلاف ذلك فإن آسموند كان مزاجياً وكاسف البال نوعاً ما . قال إن الأمر بدا وكأن هناك دعوة إلى حمل السلاح ستُعلن في الخريف ، وأن الملك سيقود جيشاً إلى السويد للانتقام من مقتل زوج ابنته وزوج ابنة أخته . كانت كريستين قد سمعت بمقتل الدوقين السويديين ، ورأت في ذلك عملاً شريراً جداً ، ولكن كل مسائل الدولة بدت بعيدة عنها . ما كان هناك من يتكلم كثيراً عن مثل هذه الأمور في «ديل»... تذكرت أيضاً أن أباها كان قد ذهب ليحارب ضد الدوق آيريك في راغنهيلداهولم وكونونغاهيلا . ثم حكى لها آسموند عن كل ما حصل وجرى بين الملك والدوقين . لم تفهم كريستين سوى القليل من هذا ، ولكنها أصغت جيداً إلى عمها وهو يحكي لها عن تدبير وفك خطوبة بنات الملك . لقد أشعرها بالراحة أن تفكر أن الأمر ليس في كل مكان كما هو في الريف عندهم ، حيث تكون الخطبة التي تم تثبيتها شفهياً ملزمة كالزواج . ثم تشجعت وحكت مغامرتها في المساء السابق على ليلة «هالفارد ويك» وسألت عمها إن كان يعرف إرلند أوف هوسابي . دافع آسموند عن إرلند ، وقال إنه كان يسير أموره دون حكمة ، ولكن أباه والملك هما الملومان بالدرجة الرئيسية إذ تصرفا وكأن الشاب الصغير هو الشيطان نفسه وذلك لمجرد أنه وقع في تلك المحنة . كان الملك شديد الورع في مثل هذه الأمور ، وسير نيكولاوس كان غاضباً لأن إرلند فقد الكثير من الأراضي الجيدة ، لذلك راحا يهدران بالكلام عن الدعارة والجحيم... «ولا شك أن هناك شيئاً من التهور في كل فتى» ، كما قال آسموند بيورغولفسون . «و كانت المرأة جميلة جداً . ولكن ليس عليك أن تهتمي بشأن إرلند الآن ، لذلك لا تكترثي كثيراً بأفعاله» .

●

لم يحضر إرلند القداس ، كما وعد كريستين ، وفكرت هي في هذا أكثر مما فكرت في كلمات الرب . لم تشعر بالأسف على حدوث ذلك...فقد كان لديها مجرد ذلك الشعور الجديد بأنها منفصلة عن كل الروابط التي أحست أنها كانت تلزمها من قبل .

حاولت أن تسري عن نفسها : لا شك أن إرلند اعتبر أنه من الحكمة ألا يعرف أي شخص مسؤول عنها بصداقتهما في الوقت الحالي . استطاعت هي أن تفهم بنفسها أنه كان أمراً حكيماً . ولكن قلبها كان يتوق إليه ، وقد بكت حين ذهبت لترتاح في العلية حيث كانت ستنام مع بنات آسموند الصغيرات .

في اليوم التالي ، ذهبت إلى الغابة مع أصغر أطفال عمها ، وهي فتاة في السادسة من عمرها . وحين وصلت إلى المراعي بين الغابات في مكان بعيد قليلاً ، وصل إرلند وهو يجري خلفهما . عرفت كريستين أنه هو حتى قبل أن ترى من القادم .

قال : «لقد جلست هنا على التل أتجسس على الساحة طوال اليوم . وقد خطر لي أنك ستجدين فرصة للخروج...»

«هل تظن أني خرجت لملاقاتك إذن ؟» قالت كريستين ضاحكة . «ألا تخشى أن تدخل غابات عمي بالكلبين والقوس ؟»

قال إرلند : «لقد منحني عمك الأذن بتمضية الوقت في الصيد هنا . أما الكلبان فهما لآسموند : وقد وجداني هذا الصباح» . صرف الكلبين ثم رفع الفتاة الصغيرة بين ذراعيه .

«أتعرفينني يا راغنديد ؟ ولكن لا تذكري أنك حادثتني وسوف تحصلين على هذا» .... ثم أخرج حفنة من الزبيب وأعطاها للطفلة . «لقد جلبتها لك» ، قال لكريستين . «هل تظنين أن هذه الطفلة تستطيع أن تحفظ لسانها ؟»

سارا بسرعة وضحكا معاً . كان إرلند يرتدي جاكيتة بنية قصيرة ضيقة وقبعة حرير حمراء صغيرة جذبها فوق شعره الأسود : بدا شاباً جداً . ضحك ولعب مع الطفلة . ولكنه كان يأخذ يد كريستين أحياناً ويضغط عليها حتى تؤلمها .

تحدث عن إشاعات الحرب وكان سعيداً . قال بقوة : «سيكون من الأسهل عليّ أن أعود فأكسب صداقة الملك ، ثم ستكون الأمور كلها سهلة» .

جلسوا أخيراً في مرج بين الغابات . كانت الطفلة في حضن إرلند . وجلست كريستين إلى جواره . تحت غطاء العشب لعب بأصابعها . ضغط في يدها ثلاثة خواتم مربوطة بخيط :

همس : «بالمناسبة سيكون لديك منها ما يغطي كل أصابعك...»

قال حين افترقا : «سأنتظرك هنا في هذا الحقل كل يوم في حوالي هذه الساعة ، طالما أنت في سكوغ . وعليك أن تحضري إن استطعت» .

في اليوم التالي انطلق آسموند بيورغفولفسون مع زوجته وأطفاله إلى ضيعة قرب غيريد في هادلاند . كانوا خائفين من حديث الحرب . وكان الناس في نواحي أوسلو لا يزالون خائفين منذ أن أغار الدوق آيريك على ذلك الريف منذ بضع سنوات . كانت أم آسموند العجوز شديدة الخوف ، وقد طلب إليها أن تنشد المأوى في نونسيتر : وعلاوة على ذلك كانت أضعف من أن تسافر مع الآخرين . لذلك كانت كريستين ستبقى في سكوغ مع المرأة العجوز ـ كانت تناديها بجدتي ـ حتى عاد آسموند من هادلاند .

حوالي منتصف النهار ، حين كان الناس في المزرعة يرتاحون ، مضت كريستين إلى العلية حيث تنام عادة . كانت قد أحضرت بعض الملابس معها في حقيبة من جلد الغنم ، والآن بدلت ثيابها وهي تهمهم لنفسها في هذه الأثناء .

كان أبوها قد أعطاها ثوباً من قماش قطني سميك مستورد من الشرق ، لونه أزرق سماوي مع طبعات متقاربة من الزهور الحمراء ، فلبسته . ثم سرحت شعرها بالفرشاة والمشط وربطته إلى الخلف بعيداً عن وجهها بشريط حرير أحمر ، ولفت حزاماً حريراً أحمر حول خصرها بشدة ، ولبست خواتم إرلند على أصابعها . في كل هذه الأثناء كانت تفكر فيما إذا كان سيراها جميلة .

كان الكلبان اللذان رافقا إرلند في الغابة ينامان في العلية خلال الليل : نادت عليهما للذهاب معها . انسلت من حول المنازل وسارت في الممر نفسه كما في اليوم السابق عبر المراعي الجبلية .

كان الحقل في وسط الغابة يقبع وحيداً وصامتاً في شمس الظهيرة المحرقة . كانت غابات الصنوبر التي تحيط بالمكان من كل الجوانب تعطي رائحة حارة قوية . كانت الشمس تلسع ، وتبدو السماء الزرقاء قريبة على نحو غريب بل هي فوق قمم الأشجار مباشرة .

جلست كريستين في الظل عند أطراف الغابة . لم تكن غاضبة لأن إرلند لم يكن هناك . كانت على ثقة من أنه سيحضر ، وقد منحها الجلوس هناك وحدها قليلاً وأن تصل قبله شعوراً غريباً بالسعادة .

أصغت إلى الطنين الخفيف للحياة الدقيقة فوق العشب الأصفر المسفوع ، وجذبت بضع زهور جافة لها رائحة البهار والتي استطاعت الوصول إليها دون أن تحرك أكثر من يدها ، ثم لفتها بين أصابعها وشمتها... جلست بعينين مفتوحتين غارقتين في نوع من الوسن .

لم تتحرك حين سمعت حصاناً في الغابات . همر الكلبان وانتصب شعر عنقيهما... ثم قفزا فوق المرج وهما ينبحان ويلوحان بذنبيهما . قفز إرلند عن حصانه عند حافة الغابة ، وتركه يذهب بصفعة على كشحه ، ثم عدا نحوها والكلبان يتقافزان من حوله . أمسك بخطميهما بيديه ووصل إليها وهو

يقود الحيوانين الرماديين بلون الأيل والأشبه بذئبين . ابتسمت كريستين ومدّت يدها دون أن تنهض .

•

مرة ، وبينما كانت تنظر إلى الرأس الداكن الذي استكان إلى حجرها ، بين يديها ، ومض شيء من الماضي في ذهنها . لقد انتصب أمامها ، واضحاً إنما بعيد ، كما يبدأ بيت بعيد على منحدر جبل بالظهور أمام العينين فجأة ، من تحت غيوم سوداء ، حين يضربه شعاع شمس في يوم عاصف . وكأنما نبع من قلبها كل الحنان الذي التمسه منها مرة آرن غيردسون ، بينما هي لم تكن تفهم كلماته . وبعاطفة خجول ، جذبت الرجل إليها ووضعت رأسه على صدرها وقبلته كأنما هي تخشى أن يؤخذ منها . وحين رأت أن رأسه على ذراعها أحست كأنها كانت تمسك بطفل... أخفت عينيه بإحدى يديها وأمطرته بالقبل على فمه وخده .

كان نور الشمس قد غاب عن المرج : اللون الرصاصي فوق قمم الأشجار قد أصبح داكناً ، وانتشر فوق السماء كلها . التمعت ومضات صغيرة نحاسية مثل الدخان المشوب بالنار وذلك ضمن الغيوم . اقترب بايارد منهما وصهل بصوت مرتفع مرة واحدة ، ثم وقف ساكناً ، محدقاً أمامه . وسرعان ما وصلت الومضة الأولى من البرق ، وتبعها الرعد قريباً ، ليس بعيداً .

نهض إرلند وأمسك بالحصان . كانت هناك حظيرة قديمة عند نهاية المرج الدنيا . ذهبا إلى هناك ، وربط هو بايارد إلى خشبة داخل الباب . عند مؤخرة الحظيرة كان هناك بعض القش . نشر إرلند عباءة وجلسا والكلبان عند أقدامهما .

والآن هطل المطر مثل الحبال أمام الباب . هسهس في الأشجار وساط الأرض... وسرعان ما كان عليهما أن ينتقلا إلى مكان أبعد في الداخل ، بعيداً عن الدلف من السقف . وفي كل مرة كانت تبرق فيها وترعد كان إرلند يهمس :

«ألست خائفة يا كريستين... ؟»

وكانت تهمس : «قليلاً...» ، ثم تقترب منه أكثر .

•

لم يعرفا كم جلسا هناك ـ سرعان ما انقضت العاصفة ـ وأصبح صوت الرعد بعيداً ، ولكن الشمس التمعت على العشب الرطب خارج الباب ، وراحت النقط المتلألئة تسقط على نحو أقل فأقل من السقف . أصبحت رائحة القش الحلوة في الحظيرة أقوى .

قالت كريستين : «عليّ أن أمضي الآن» . فأجابها إرلند : «أجل ، يبدو الأمر كذلك» . أمسك بقدمها بيده : «ستصابين بالبلل... عليك أن تركبي وسأمشي أنا... إلى خارج الغابة...» ثم نظر إليها نظرة غريبة .

ارتجفت كريستين . ربما كان السبب لأن قلبها راح يدق بقوة كما فكرت ... كانت يداها باردتين ونديتين . وحين قبّلها بقوة حاولت بضعف أن تبعده عنها . رفع إرلند وجهه للحظة... فكرت برجل أعطي الطعام مرة في الدير فقبل الطعام الذي قدم له . عادت لتستلقي على القش...

•

جلست في مكانها حين رفع إرلند رأسه من ذراعيها . رفع نفسه فجأة واستند على مرفقه .

«لا تنظري هكذا... يا كريستين!»

أرسل صوته غصة مفاجئةً في روح كريستين ـ لم يكن سعيداً ـ كان هو بائساً أيضاً...!

«كريستين، كريستين! أتظنين أني تحايلت عليك لأدخلك إلى الغابات وذلك لأمتلكك بالقوة...؟» سأل بعد قليل.

ربتت على شعره ولم تنظر إليه.

«ليس بالقوة على ما أعتقد... كنت ستتركني أذهب كما جئت، لو طلبت إليك ذلك...» قالت بصوت خفيض.

«لا أعرف»، أجاب ثم دفن وجهه في حجرها.

سألها بقوة: «أتعتقدين أني سأخونك؟ يا كريستين... أقسم لك بإيماني المسيحي، فليتخلّ الله عني في آخر ساعة لي، إن لم أكن مخلصاً لك حتى يوم وفاتي...»

لم تستطع قول أي شيء. بل تابعت الربت على شعره مجدداً.

سألته أخيراً: «لقد حان وقت ذهابي إلى البيت، أليس كذلك؟» ثم بدت كمن ينتظر في رعب مميت جوابه.

أجابها بكسل: «ربما هذا صحيح». نهض بسرعة ومضى إلى الحصان وبدأ يفك رسنه.

ثم نهضت هي أيضاً. وببطء وتعب وألم ساحق خطرت لها الفكرة: لم تعرف ما كانت تأمل منه أن يفعل...أن يضعها على الحصان، ربما، ويحملها بعيداً معه، حتى يوفّر عليها الذهاب للعيش بين أناس آخرين. وكأن جسدها كله كان يتألم من العجب... أن هذا الأمر الشرير كان هو مايُذكر في كل الأغاني. وبما أن إرلند قد سبّب لها هذا، فقد شعرت أنها قد أصبحت كلها ملكاً له، فهي لم تعرف كيف ستعيش بعيداً عنه بعد الآن. كان عليها

أن تبتعد عنه الآن ، ولكنها لم تستطع أن تفهم أن الأمر يجب أن يكون كذلك .

مضى عبر الغابات سيراً على قدميه ، وهو يقود الحصان . كان يمسك بيدها في يده ، ولكنهما لم يجدا ما يقولانه .

حين وصلا إلى مسافة يستطيعان منها مشاهدة المنازل في سكوغ ، ودّعها :

« كريستين... لا تكوني حزينة إلى هذا الحد... سيأتي ذلك اليوم قبل أن تدركي ذلك ، أعني حين ستصبحين زوجتي... »

و لكن قلبها غاص في مكانه حين تكلم .

سألته وجلة : « هل عليك أن ترحل إذن ؟ »

« حالما تغادرين سكوغ » ، قال وقد أضحى صوته أكثر تفاؤلاً الآن .

« و إذا ما جرت حرب ، سأتحدث إلى مونان...لقد حثّني منذ زمن طويل على الزواج... سيذهب معي ويخاطب أباك نيابة عني » .

أحنت كريستين رأسها... عند كل كلمة قالها ، أحست أن الزمن الذي كان أمامها قد أصبح أطول وأقسى على التفكير فيه ـ الدير ويوروندغارد ـ فبدأت تطفو فوق نهر حلمها بعيداً عن كل هذا .

سألها إرلند : « هل تنامين وحيدة الآن في العلية بما أن أقرباءك قد رحلوا ؟ إذن سأحضر وأكلمك هذه الليلة... هل ستسمحين لي بالدخول ؟ »

قالت كريستين بصوت خفيض : « أجل » . وهكذا افترقا .

•

جلست بقية النهار مع زوجة جدّها ، وبعد العشاء اصطحبت السيدة العجوز إلى سريرها .ثم صعدت إلى العلية ، حيث كانت تنام . كانت هناك

نافذة صغيرة في الغرفة . جلست كريستين على صندوق النفائس التي كانت تحتها... لم تكن ترغب في الذهاب إلى السرير .

كان عليها أن تنتظر طويلاً . كان الظلام قد خيّم في الخارج حين سمعت صوت أقدام على الشرفة . قرع على الباب وعباءته تغطي براجمه ، ونهضت كريستين ، ورفعت المزلاج وأدخلت إرلند .

لاحظت مدى سعادته حين رمت بذراعيها من حول عنقه وتشبثت به .

قال : «خشيت أن تكوني غاضبة مني» .

ثم قال لاحقاً : «عليك ألاّ تحزني لخطيئتنا . ليست هذه بالخطيئة المميتة . قانون الرب ليس كقانون هذا البلد... إن «غونولف» أخي شرح هذه المسألة لي ذات مرة : لو تعاهد اثنان على الإخلاص إلى الأبد ، ثم اضطجعا معاً بعد ذلك ، عندها سيكونان قد تزوجا أمام الرب ولا يحق لهما أن يتخليا عن هذا العهد دون أن يكونا قد ارتكبا خطيئة كبرى . أستطيع أن أقول لك الكلمات باللاتينية حين أتذكرها... لقد حفظتها ذات مرة...»

تساءلت كريستين قليلاً عن السبب الذي جعل أخا إرلند يقول ذلك... ولكنها رمت بعيداً عنها الخوف الكريه بأنه قد يقال ذاك عن إرلند و... أخرى... وحاولت أن تجد السلوان في كلماته .

جلسا معاً على صندوق النفائس ، وقد وضع ذراعه من حولها ، وأحست كريستين الآن أن الأمور بخير وأنها آمنة : كانت البقعة الوحيدة التي تستطيع فيها أن تشعر بالأمان والحماية الآن هي إلى القرب منه .

أحياناً كان إرلند يتكلم كثيراً وببهجة : ثم يصمت مجدداً لفترة طويلة ، وهو جالس يداعبها . ودون معرفة ذلك ، جمعت كريستين من كل ما قاله أشياء جعلته أوسم وأعزّ عليها في نظرها ، وراحت تخفف اللوم عنه في كل ما هو غير لائق مما عرفته عنه .

كان والد إرلند ، السير نيكولاوس ، عجوزاً جداً حين رزق بولديه ، لذلك لم يكن لديه من الصبر والقوة ما يكفي ليربي ولديه بنفسه . وقد ترعرع الولدان كلاهما في منزل السير بارد بيترسون في هستنايس . لم يكن لإرلند أخوات أو أخ سوى غونولف . كان أصغر بسنة واحدة منه وهو كاهن في كنيسة المسيح في نيداروس . «إنه أغلى عليّ من كل البشرية ، عداك» .

سألته كريستين إن كان غونولف يشبهه ، ولكن إرلند ضحك وقال إنهما غير متشابهين من حيث العقل والجسد . والآن كان غونولف في بلاد أجنبية للدراسة... وهو غائب منذ ثلاث سنوات ، ولكنه أرسل رسالتين إلى البيت ، وكانت الأخيرة قبل عام ، وذلك حين فكر في أن يذهب من سانت جينيفييف في باريس إلى روما . «سيكون سعيداً غونولف ، حين يأتي إلى البيت ويجدني متزوجاً» ، قال إرلند .

ثم تحدث عن الإرث الكبير الذي حصل عليه من أبيه وأمه : رأت كريستين أنه لا يعرف وضع أملاكه الآن إلا بالكاد . كانت تفهم نوعاً ما بالأملاك من خلال معاملات أبيها بها... لقد تعامل إرلند مع أراضيه عكس ذلك ، إذ باع وبعثر وأضاع ورهن ، وخاصة في السنوات الأخيرة ، وهو يناضل ليحرر نفسه من عشيقته ، مفكراً أنه لو فعل ذلك ، فإن حياته الخاطئة قد تُنسى وأن أقرباءه سيقفون في صفه مرة أخرى . لقد فكر في أنه قد يصبح ذات مرة «الأمين»[١٩] على نصف أوركدولا كما كان أبوه من قبله .

قال : «و الآن لا أعرف إلا بالكاد كيف ستكون النهاية . ربما سأجلس أخيراً في مزرعة جبلية شأن بيورن غونارسون وأحمل الروث على ظهري كما فعل الأقنان قديماً ، لأنه ليس لدي حصان» .

قالت كريستين ضاحكة : «ليكن الرب في عونك . عندها عليّ أن

أذهب إليك بكل تأكيد ، أعتقد أني أعرف عن أساليب الزراعة والريف أكثر منك» .

«بالكاد أستطيع أن أفكر فيك على أنك تحملين سلة من الروث» ، قال وهو يضحك أيضاً .

«لا ، ولكني رأيت كيف ينشرون الروث وكيف يبذرون القمح ، كل عام في البيت . كان من عادة أبي أن يحرث بنفسه الحقول الأقرب إلى المزرعة ، وكان يسمح لي بأن أبذر أول قطعة من الأرض حتى أجلب الحظ الجيد» . أرسلت الفكرة ألماً في قلبها ، لذلك قالت بسرعة : «ويجب أن تكون لديك امرأة لتخبز وتخمر قليلاً من الجعة وتغسل قميصك الوحيد وتحلب... وعليك أن تستأجر بقرة أو اثنتين من المُزارع الغني المجاور...»

«أيها الرب شكراً أني أسمعك تضحكين مرة أخرى!» قال إرلند ثم أمسك بها وارتمت بين ذراعيه كطفلة .

•

في كل ليلة من الليالي الست التي مرت قبل عودة آسموند بيورغولفسون إلى البيت ، كان إرلند في العلية مع كريستين .

في الليلة الأخيرة بدا تعيساً بقدر ما كانت كريستين . قال مرات كثيرة إن عليهما ألاّ يفترقا الواحد عن الآخر ولو يوماً واحداً أكثر من المطلوب . وأخيراً قال بصوت خفيض جداً :

«و الآن لو ساءت الأمور جداً بحيث لا أستطيع العودة إلى أوسلو قبل الشتاء ـ وإذا ما حدث أنك احتجت إلى مساعدة أصدقاء ـ فلا تخشي أن تطلبي مساعدة «سيرا يون» هنا في غيرداروود . نحن صديقان منذ الطفولة وحتى الآن . كما يمكنك أن تثقي أيضاً بمونان باردسون» .

كل ما استطاعت أن تفعله هو أن تومئ برأسها . عرفت أنه كان يتحدث عما كانت تفكر فيه في كل يوم ، ولكن إرلند لم يعد يذكره . لذلك لم تقل هي أي شيء أيضاً ، ولم تكشف كم كان قلبها حزيناً هي أيضاً .

في الليالي الأخرى كان يتركها حين يتأخر الليل ، ولكن في هذه الليلة الأخيرة رجاها بشدة أن ينام قربها لساعة واحدة . كانت كريستين خائفة ، ولكن إرلند قال بتعال : « كوني واثقة أنهم لو وجدوني هنا في السرير ، فأنا قادر تماماً على الإجابة عن نفسي » . وكانت هي نفسها ترغب في أن يكون إلى جانبها فترة أخرى ، ولم تكن لديها القوة الكافية لترفض له أي طلب .

و لكنها خشيت أن يناما فترة طويلة جداً . لذلك جلست طوال الليل متكئة على رأس السرير ، فيغلبها النعاس قليلاً أحياناً ، وهي لا تكاد تعرف متى كان يداعبها ومتى كانت تحلم بأنه يفعل ذلك . كانت إحدى يديها على صدره ، حيث كانت قادرة على الإحساس بخفقان قلبه ، وكان وجهها ملتفتاً إلى النافذة حتى ترى الفجر .

و أخيراً اضطرت إلى إيقاظه . رمت عليها بعض الملابس وخرجت إلى الشرفة معه . تسلق من فوق الدرابزون على الجانب المواجه لمنزل آخر قريب . الآن ابتعد عن مرمى بصرها... كانت الزاوية تخفيه عنها . دخلت كريستين مجدداً وزحفت إلى سريرها . ثم انهارت وراحت تبكي لأول مرة منذ أن جعلها إرلند ملكه الخاص .

٥

في دير نونسيتر مرت الأيام كما في السابق . كانت كريستين تمضي وقتها بين حجرة النوم والكنيسة ، وغرفة الحياكة ، والمكتبة وغرفة الطعام . كانت الراهبات وجماعة الدير يجمعون الأعشاب الطبية والفاكهة من حديقة الأعشاب والبستان . جاء «عيد الصليب المقدس» في الخريف مع موكبه الاحتفالي ، ثم جاء الصوم قبل «عيد الملاك ميكائيل» . تساءلت كريستين : لم يبد أن أحداً كان يلاحظ أي تغيير فيها . ولكنها كانت بين أغراب ، وكانت إنجبيورغ فيليبوسداتر ، التي كانت قربها ليلاً ونهاراً ، قادرة تماماً على الثرثرة عنهما كلتيهما .

لذلك لم يلاحظ أحد أن أفكارها كانت بعيدة جداً عن كل ما هو حولها . عشيقة إرلند : كانت تقول لنفسها إنها عشيقة إرلند الآن . وقد بدا الآن وكأن ذلك كله كان حلماً ـ في مساء يوم قداس القديسة مارغريت ، تلك الساعة في الحظيرة ، الليالي في السرير في سكوغ ـ إما أنها حلمت بها أو أن كل ما حولها هو حلم . ولكن لا بدّ أن تستيقظ في يوم من الأيام ، ولا بدّ أن يخرج كل شيء إلى العلن في يوم من الأيام . ولم تفكر لحظة واحدة في أي شيء آخر عدا أنها تحمل طفل إرلند في جوفها .

ولكن ماذا سيحدث لها حين سيصبح هذا كله مفضوحاً ؟ لم تستطع أن تفكر جيداً في هذا الأمر . هل ستوضع في الحفرة السوداء ، أو ترسل إلى البيت ؟ لقد رأت صوراً باهتة لأبيها وأمها البعيدين . ثم أغلقت عينيها ، وشعرت بالدوخة والغثيان ، وراحت تنحني في الخيال تحت العاصفة القادمة وحاولت أن تقوّي نفسها لتتحمّلها ، بما أنها فكرت أن ذلك يجب أن ينتهي بدفعها إلى الأبد إلى ذراعي إرلند : المكان الوحيد الذي تشعر الآن أنه بيتها .

هكذا كان هناك أمل بقدر ما كان هناك رعب في ذلك الانتظار المتوتر . كانت بائسة : ولكنها أحست أن حبها لإرلند كان كزهرة زرعت فيها : وأنه رغماً عن تعاستها ، فقد كانت هذه الزهرة تنمو وتصبح أنضر وأكبر كل يوم . في تلك الليلة الأخيرة حين نام إلى جانبها ، أحست ، بغبطة فاترة خاطفة ، وأن بانتظارها فرحة وسعادة في ذراعيه لم تعرفهما قط من قبل... أحست بالاستثارة الآن حين فكرت فيها ؛ جاءها ذلك كأنفاس دافئة معطرة من حدائق سخّنتها الشمس .طفل على جانب الطريق : كانت إنغا قد رمت الكلمة في وجهها : فتحت ذراعيها له وضمته إلى صدرها . الطفل على جانب الطريق هو الاسم الذي يعطونه للطفل الذي يولد سراً في الغابات أو الحقول . أحست بأشعة الشمس ورائحة الصنوبر في مرعى الغابة . وكل رجفة جديدة زاحفة ، وكل دقة نبض مفاجئة في جسدها كانت تفهمها على أنها تذكير لها من الجنين أنها خرجت الآن إلى ممرات جديدة : ولم تكن هذه صعبة جداً على الاتباع حتى النهاية في الوقت الحاضر ، فقد كانت على ثقة أنها ستؤدي حتماً إلى إرلند في النهاية .

جلست بين إنجبيورغ والأخت أستريد وراحت تخيط في البساط

الموشى الكبير الذي نقشت عليه صور للفرسان والطيور بين ورق الشجر المعترش . وبينما راحت تخيط تذكرت كيف أن عليها أن تهرب حين يكون الحين قد آن ، ولا يمكن بعد إخفاؤه . رأت نفسها تمشي على امتداد الطريق العامة ، في ملابس امرأة فقيرة . وكل ما تملكه من ذهب وفضة ستحمله في رزمة في يدها . ستشتري لنفسها المأوى في مزرعة في مكان ناء من الريف . ستتظاهر بأنها خادمة ، وستحمل نير حمل دلاء المياه في عنقها ، وتعمل في حظيرة البقر ، وتخبز وتغسل ، وستكون ملعونة لأنها لن تفشي اسم والد الطفل . ثم سيأتي إرلند ويجدها .

أحياناً كانت تحلم بأنه سيصل متأخراً جداً . كانت تضطجع بيضاء كالثلج وجميلة في سرير فلاح فقير . سينحني إرلند وهو يدخل من الباب . سيكون مرتدياً تلك العباءة السوداء الطويلة التي اعتاد أن يلبسها حين كان يأتيها ليلاً في سكوغ . ستقوده المرأة إلى حيث كانت هي مضطجعة ، فيركع ويأخذ بيديها الباردتين ، وعيناه حزينتان كالموت : أتضطجعين هنا يا متعتي الوحيدة... ؟ ثم سيخرج وقد أحنى ظهره الأسى حاملاً ابنه الصغير مضموماً إلى صدره ، في ثنايا عباءته . لا ، لم تكن تفكر براحة بأن تجري الأمور على هذا النحو . لم تكن تريد أن تموت ، لا يجب أن يعاني إرلند مثل هذا الأسى... ولكن قلبها كان مثقلاً جداً حتى أن مثل هذه الأحلام كانت مفيدة لها...

ثم وللحظة كان يقف أمامها بارداً وواضحاً كالثلج : الطفل الذي ليس حلماً ، والذي يجب أن يُواجه . عليها أن تجيب في يوم من الأيام على ما فعلته... وبدا وكأن قلبها كاد يتوقف من الذعر .

•

ولكن بعد مرور فترة قصيرة ، بدأت تفكر بأن مسألة حملها لم تكن أمراً مؤكداً جداً على أي حال . لم تفهم هي نفسها لم كانت غير سعيدة : لكأنها قد رقدت وبكت تحت غطاء دافئ ، وكان عليها الآن أن تنهض في البرد . مرّ شهر واحد ، ثم شهران ، والآن كانت على ثقة أنها نجت من تلك المحنة . وبما أنها كانت فارغة وروحها باردة ، فقد شعرت بأنها أتعس من قبل . في قلبها بزغت مرارة صغيرة تجاه إرلند . كانت أيام الأحد الأربعة السابقة على ميلاد المسيح قد اقتربت ، ولكنها لم تسمع عنه أو منه شيئاً . لم تكن تعرف مكانه .

والآن شعرت أنها لم تعد تستطيع احتمال هذا الخوف والشك : كأنما كان بينهما رباط وانقطع . وكانت خائفة بالفعل : هل يا ترى لن تراه أبداً مرة أخرى ؟ كل ما كانت مرتبطة به على نحو آمن في مرة من المرات ، قد افترقت عنه الآن : والرابطة الجديدة التي كانت تربطها بحبيبها كانت ضعيفة . لم تفكر مطلقاً أنه سيخونها : ولكن كانت هناك أمور كثيرة يمكن أن تحدث... لم تكن تدري كيف تستطيع أن تستمر يوماً بعد يوم وهي تعاني الشك المعذّب خلال زمن الانتظار هذا .

بين الحين والآخر كانت تفكر بأبيها وأمها وأختيها... كانت مشتاقة إليهم ، ولكن كشيء فقدته إلى الأبد .

وأحياناً في الكنيسة ، وفي أماكن أخرى ، كانت تشعر بتوق شديد للمساهمة في كل ما يعنيه هذا ، شراكة البشرية مع الرب . كان ذلك دائماً جزءاً من حياتها . والآن تقف خارجها بخطيئتها غير المعترف بها .

كانت تقول لنفسها إن هذا الضياع عن البيت والأهل والكنيسة لم يكن سوى ضَياع لزمن محدود . على إرلند أن يأخذها من يدها ويعود بها إلى ذلك كله . حين يوافق أبوها على حبهما ستستطيع أن تذهب إليه كما في سالف

الأيام . حين تتزوج هي وإرلند ، يستطيعان أن يعترفا ويتوبا عن خطيئتهما .

بدأت تبحث عن علامات على أن الأشخاص الآخرين ما كانوا أقل خطيئة منهما . راحت تصغي إلى النميمة ، وتلاحظ كل الأشياء الصغيرة من حولها والتي تظهر أنه ولا حتى الأخوات في الدير هنا كنّ ورعات وعازفات عن مشكلات الدنيا تماماً . كانت هذه مجرد أمور صغيرة : تحت حكم الليدي غروا كان دير نونسيتر بالنسبة إلى العالم الخارجي نموذجاً لما يجب أن تكون عليه الأخوية الورعة . كنّ متحمسات في إخلاصهن ونشيطات وحريصات على رعاية الفقراء والمرضى ، أولئك الراهبات . لم تكن عزلتهن عن العالم صارمة جداً ولكن كانت الأخوات يتلقين زيارات من أصدقائهن وأقربائهن في البهو ، وكن يُمنحن الإذن لزيارة هؤلاء في البلدة حين تدعو الحاجة إلى ذلك . ولكن لم تكن هناك راهبة قد أنزلت العار بالدير خلال سنوات حكم الليدي غروا كلها .

إلاّ أنّ كريستين كانت تصيخ السمع جيداً الآن إلى الشجارات الصغيرة بين أسوار الدير : مشاجرات وأحقاد صغيرة وغرور . عدا رعاية المرضى ، لم تكن أي من الأخوات تساعد في الأعمال المنزلية الشاقة : كن جميعاً معتبرات على أنهن نساء متعلمات وماهرات في مهنة ما . كانت كل واحدة تحاول أن تبزّ الأخرى ، وكانت الأخوات اللواتي لا ميل لهن لعلم أو للمهن الأنبل ، يفقدن شجاعتهن ويتسكعن خلال الساعات وكأنهن نصف مستيقظات فحسب .

كانت الليدي غروا نفسها حكيمة وعالمة . كانت تبقي عيناً يقظة على أسلوب بناتها الروحيات في الحياة واجتهادهن ، ولكنها ما كانت تزعج نفسها إلاّ قليلاً فيما يخص صحتهن الروحية . كانت لطيفة وودودة مع كريستين في كل الأوقات ، وقد بدا أنها تحبها أكثر من الفتيات الأخريات ،

ولكن سبب ذلك كله كان كفاءة كريستين في دراسة الكتب وفي شغل الإبرة ، ولكونها مجتهدة وقليلة الكلام . لم تكن الليدي غروا تبحث عن جواب لدى أي من الأخوات . ولكن من ناحية أخرى ، كانت سعيدة بالتحدث مع الرجال . كانوا يأتون ويذهبون في بهوها : مزارعون مستأجرون ووكلاء مزارع الدير . رهبان واعظون من عند الأسقف وقهرمانات الضيع في هوفيدو الذين كانت في وضع مقاضاة معهم . كانت مشغولة جداً بالإشراف على عقارات وأملاك الدير الهائلة ، ومسك الحسابات ، وإرسال الملابس الكنسية ، وشراء الكتب التي ستنسخ وترسل مجدداً . ما كان يمكن لأكثر الرجال شراً في التفكير أن يجد ما هو غير ملائم في أسلوب حياة الليدي غروا . ولكنها لم تكن تحب سوى أن تتحدث عن الأمور التي نادراً ما تعرف النساء عنها شيئاً .

بدا رئيس دير الرهبان ،الذي يسكن في منزل لوحده إلى شمال الكنيسة ، وكأنه لا إرادة له سوى كونه ريشة كتابة للأم الرئيسة أو سوطها . كانت الأخت بوتنتيا تعتني بمعظم الأشياء ضمن المنزل ؛ وكانت تفكر كثيراً في حفظ النظام كما رأت في الدير الألماني رفيع الشهرة حيث أمضت فترتها كمبتدئة . كانت تسمى سيغريد راغنفالدتسداتر من قبل ، ولكنها اتخذت اسماً جديداً حين لبست خمار نظام الرهبنة ، فقد كانت تلك هي العادة في الدول الأخرى . وكانت هي أيضاً من فكر في السماح للفتيات اللواتي كن موجودات في نونسيتر كتلميذات ، ولفترة قصيرة فقط ، بارتداء ملابس المبتدئات .

لم تكن الأخت سيسيليا باردسداتر شأن الراهبات الأخريات . كانت تتجول بهدوء ، بعينين مسبلتين ، وتجيب دائماً بلطف وتواضع ، وكانت خادمة للجميع ، وتقوم بمحض اختيارها بأشق الأعمال وتصوم أكثر من

المطلوب ـ بقدر ما تسمح لها الليدي غروا ـ وكانت تركع ساعة كاملة في الكنيسة بعد صلاة المساء أو تذهب إلى هناك قبل صلاة الصباح .

و لكن حدث في إحدى الأمسيات ، وبعد أن كانت طوال النهار عند النهر مع خادمتين لغسل الملابس ، أن انفجرت فجأة في بكاء عال عند مائدة العشاء . رمت بنفسها على الأرض الحجرية ، وزحفت بين الأخوات على يديها وركبتيها ، وضربت على صدرها ، وبوجنتين محترقتين ودموع سيالة ، راحت ترجو من الجميع أن يغفروا لها . كانت أسوأ خاطئة بينهن جميعاً : كانت قاسية كالحجر من شدة غرورها طوال أيامها كلها ، كان الغرور وليس الوداعة أو الحمد لموت المسيح الافتدائي هو الذي يدعمها حين تتعرض للإغراء في هذه الدنيا ، وقد هربت إلى هناك ليس لأنها أحبت روح رجل ، ولكن لأنها أحبت خيلاءها . لقد خدمت أخواتها كنوع من الخيلاء ،والزهو الذي شربته من فنجان مائها ، وادعاء الصلاح الذي فرشته على خبزها اليومي الجاف ، بينما كانت الأخوات الأخريات يشربن جعتهن ويأكلن شرائح الخبز مع الزبدة .

لم تفهم كريستين أي شيء من كل هذا إلاّ أنه حتى سيسيليا باردسداتر لم تكن ورعة في أعماقها . شمعة غير مضاءة معلقة من السقف وقد اتسخت من السخام وأعشاب العنكبوت : هكذا شبّهت طهارتها غير المحبة .

مضت ليدي غروا بنفسها وأنهضت المرأة الباكية . ثم قالت بصرامة إنه بسبب هذه الفوضى ستنال سيسيليا عقاباً هو أن تنتقل من عنبر نوم الأخوات إلى سرير الأم الرئيسة نفسه ، وأن تبقى مضطجعة فيه حتى تشفى من هذه الحمى .

«و بعد ذلك يا أخت سيسيليا ستجلسين في مقعدي لمدة أسبوع ،

وسوف نأخذ مشورتك في الأمور الروحانية وسوف نمنحك شرفاً كبيراً لحياتك الورعة ، حتى تنالي حاجتك من ثناء البشرية الخاطئة . وهكذا ستحكمين إن كان الأمر يستحق كل هذا الكفاح ، وبعد ذلك ستختارين ما إذا كنت ستعيشين ملتزمة بالأنظمة ، كما نفعل نحن الأخريات ، أو تبقين على ممارسة تمارين لا يطلبها أحد منك . ثم تستطيعين أن تتأملي فيما إذا كنت تستطيعين أن تفعلي ـ لوجه الله ولمرضاته ـ تلك الأمور التي تقولين إنك فعلتها حتى نحترمك نحن » .

و هذا ما جرى . مكثت الأخت سيسيليا في غرفة الأم الرئيسة مدة أربعة عشر يوماً . كانت مصابة بحمى شديدة ، واعتنت بها الليدي غروا بنفسها . وحين نهضت من الفراش مجدداً ، كان عليها أن تجلس لمدة أسبوع إلى جانب الأم الرئيسة في الكرسي العالي في الكنيسة كما في الدير ، بينما راح الجميع يخدمها : كانت تبكي طوال الوقت وكأنها كانت تضرب بالسياط . ولكنها كانت أهدأ وأسعد بكثير لاحقاً . عادت إلى ديدنها السابق ، ولكنها كانت تحمر خجلاً كعروس لو نظر إليها أي شخص ، سواء كانت تمسح الأرض أو تسير وحدها في الكنيسة .

•

على أي حال أثارت قضية الأخت سيسيليا هذه في كريستين توقاً شديداً إلى السلام والتكفير مع كل ما كان يجعلها تشعر أنها منبوذة . فكرت بالأخ إدفين ، وتشجعت في أحد الأيام ورجت الليدي غروا أن تسمح لها بالخروج إلى « الأخوة حفاة الأقدام » لزيارة صديق تعرفه هناك .

لاحظت أن الليدي غروا امتعضت من ذلك . فلم تكن العلاقات ودية جداً بين الرهبان الفرنسيسكان والأديرة الأخرى في الأسقفية . ولم تكن الأم

الرئيسة أكثر سروراً حين سمعت اسم صديق كريستين . قالت إن الأخ إدفين كان رجلاً متقلباً بين رجال الله : كان كثير التجوال في البلد ويطلب الإذن للقيام بزيارات استعطاء إلى أسقفيات غريبة . كانت عامة الناس في أماكن كثيرة تعتبره رجلاً مقدساً ، ولكن لم يبد عليه أنه يفهم أن أول واجب من واجبات الفرنسيسكاني هو طاعة رؤسائه . لقد أحلّ قطاع طرق وخارجين على القانون من خطاياهم وعمّد أولادهم ورتّل لهم في جنازاتهم دون أن يطلب الإذن بذلك ... ومع ذلك ، فلا شك أنه ارتكب الخطيئة نتيجة للجهل كما للنكاية ، وقد تحمل بصبر وتواضع العقوبات التي فرضت عليه بسبب هذه الأفعال . كما أنه عومل برحمة لأنه ماهر في صنعته... ولكنه حتى في ممارسته لهذه الصنعة ، قد تشاجر مع زملائه فيها ، وقد رفض معلمو الرسم لدى أسقف برغن أن يذهب ليعمل لديهم في الأسقفية هناك .

تجرأت كريستين لتسأل عن بلده الأصلي ، هذا الراهب صاحب الاسم غير النرويجي . كانت الليدي غروا في مزاج طيب للحديث ، فحكت لها كيف أنه ولد هنا في أوسلو ، ولكن أباه كان إنكليزياً اسمه ريتشارد بليتماستر الذي تزوج من ابنة مزارع من «سكوغهايم هندريد» وسكن في البلدة : كان اثنان من أخوة إدفين صانعي أسلحة ودروع مشهورين في أوسلو . ولكن هذا الابن الأكبر لبليتماستر كان ذا روح قلقة طوال حياته . صحيح أنه أحس بالدعوة إلى حياة الأديرة منذ طفولته إذ أنه انضم إلى الرهبان البندكتيين في هوفيدو منذ أن أصبح في السن الملائمة . وقد أرسلوه إلى دير في فرنسا للتدريب ، إذ كانت مواهبه جيدة . وبينما كان لا يزال هناك استطاع أن يحصل على إذن لينتقل من النظام البندكتي إلى الفرنسيسكاني . وحين بدأ الرهبان العنيدون ببناء كنيستهم شرقاً في الحقول رغم أوامر الأسقف ، كان الأخ إدفين واحداً من أسوأهم وأعندهم... بل

إنه كاد يقتل بمطرقته أحد الرجال الذين أرسلهم الأسقف لإيقاف العمل .

كان قد مرّ زمن طويل منذ أن تحادث أحدهم مع كريستين مثل هذه المدة الطويلة مرة واحدة ، لذا قالت الليدي غروا إنه يمكنها الآن أن تذهب . انحنت الفتاة وقبلت يد الأم الرئيسة ، بحماسة ووقار ، وبينما كانت تفعل ذلك امتلأت عيناها بالدموع . وحين رأت الليدي غروا أنها كانت تبكي ، ظنت أن السبب في ذلك كان الحزن ، لذلك قالت لها : ربما تسمح لها في يوم من الأيام أن تذهب لمشاهدة الأخ إدفين على أي حال .

و بعد أيام قليلة قيل لها إن جماعة من الدير كانت ستذهب في مهمة إلى قصر الملك ، وأنهم يستطيعون أن يصطحبوها معهم لتزور «الأخوة» في الحقول .

كان الأخ إدفين في ديره . لم تكن كريستين تظن أنها قد تكون سعيدة إلى هذا الحد في أن ترى أي شخص آخر باستثناء إرلند . جلس الرجل العجوز وربت على يدها بينما راحا يتحدثان معاً كإشارة إلى شكرها على زيارته . لا ، لم يكن قد زار ذلك الجزء من البلد الذي تنتمي إليه منذ الليلة التي قضاها في يوروندغارد ، ولكنه سمع أنها كانت ستتزوج ، وتمنى لها حظاً طيباً . ثم رجته كريستين أن يذهب إلى الكنيسة معها .

كان عليهما الخروج من الدير والذهاب والالتفاف نحو الباب الرئيسي . لم يتجرأ الأخ إدفين على اصطحابها عبر الباحة . بدا شديد الإحباط ، وخائفاً من ارتكاب أي فعل قد يعتبر مُسيئاً . لقد أصبح عجوزاً جداً ، كما فكرت كريستين .

و حين وضعت على المذبح قربانها إلى الراهب المشرف على الصلاة الذي كان في الكنيسة ، سألت إدفين إن كان سيقبل اعترافها ، فشعر بخوف

شديد . لم يجرؤ بل قال إنه محظور عليه الاستماع إلى الاعتراف حظراً نهائياً .

قال : «ربما سمعت ذلك . لقد حدث أني شعرت أني لا أستطيع أن أنكر على أولئك البائسين الفقراء العطايا التي منحها لي الرب بكرمه . ولكنه صحيح أيضاً أنه كان يتوجب عليَّ أن أدعوهم إلى نشدان الغفران في المكان الصحيح... أجل ، أجل... وأنت يا كريستين من واجبك أن تعترفي لمقدّم ديرك» .

«كلا ، لأن هذا شيء لا أستطيع الاعتراف به لمقدم الدير» ، قالت كريستين .

«أتعتقدين أنك ستستفيدين إطلاقاً من الاعتراف لي بما تريدين إخفاءه عن أب الاعتراف الأصلي ؟» قال الراهب على نحو أشد صرامة .

«إذا لم تكن تستطيع الاستماع إلى اعترافي ، فسوف تسمح لي في الأقل بأن أحدثك وأطلب مشورتك حول ما هو جاثم على روحي» .

نظر الراهب فيما حوله . كانت الكنيسة خالية عند تلك اللحظة . ثم جلس على صندوق في وسط الزاوية : «عليك أن تتذكري أني لا أستطيع أن أمنحك الغفران ، ولكني سأمنحك المشورة ، وأبقى صامتاً وكأنك قلت لي ذلك في الاعتراف» .

وقفت كريستين أمامه وقالت :

«الأمر وما فيه أني لا أستطيع أن أكون زوجة لسايمون دار» .

«إذن تعرفين جيداً أني لا أستطيع إعطاءك مشورة خلافاً لما يعطيك إياه مقدم ديرك . الرب لا يمنح السعادة للأولاد غير المطيعين ، وأبوك كان يسعى دائماً إلى مصلحتك ، وأنت تعرفين ذلك جيداً جداً» ، قال الأخ إدفين .

«لا أعرف ما ستكون مشورتك حين تسمعني حتى النهاية» ، أجابت كريستين . «الأمر بيننا كما يلي الآن : سايمون أفضل بكثير من أن ينهش الغصن العاري الذي سبق لرجل آخر أن قطف برعمه» .

نظرت إلى الراهب مباشرة في الوجه . ولكن حين واجهت عينيه ولاحظت كيف تغير الوجه اليابس المغضن ، وأضحى مترعاً بالأسى والرعب : بدا وكأن شيئاً ما قد انقصف في داخلها ، وبدأت الدموع تترقرق في عينيها ، وكانت سترمي بنفسها على ركبتيه . ولكن إدفين أوقفها بسرعة :

« كلا ، كلا ، اجلسي هنا على الصندوق إلى جانبي... لا أستطيع تقبل اعترافك» . ثم انتحى جانباً وأفسح لها مكاناً .

تابعت البكاء . ربت على شعرها وقال بلطف :

«أتتذكرين ذلك الصباح يا كريستين حين رأيتك لأول مرة هناك على الدرج في كنيسة هامار... ؟ لقد سمعت حكاية ذات مرة ، حين كنت في البلاد الأجنبية ، عن راهب لم يستطع أن يصدق أن الرب يحبنا جميعاً نحن الخاطئين البائسين... ثم وصل ملاك ولمس عينيه ، ونظر فرأى حجراً في قعر البحر ، وتحت الحجر كان يعيش مخلوق أعمى وأبيض وعار ؛ وقد حدق إليه حتى أصبح يحبه ، فقد كان شديد الهشاشة والضعف . حين رأيتك جالسة هناك ، صغيرة وضعيفة إلى ذلك الحد ، ضمن ذلك البناء الحجري الهائل ، تذكرت أن الرب يجب أن يحب أمثالك . جميلة ونقية كنت ، ومع ذلك كنت في حاجة إلى من يساعدك ويحميك . أعتقد أني رأيت الكنيسة كلها ، وأنت فيها ، قابعة في تجويف قبضة الرب» .

قالت كريستين بصوت خفيض :

«لقد تعاقدنا بأغلى المواثيق ، وقد سمعت أنه في عيون الرب أن مثل

هذا الميثاق يقدس ارتباطنا كما لو أن آباءنا وأمهاتنا قد منحونا الواحد إلى الآخر » .

أجاب الراهب بحزن : « أرى جيداً يا كريستين أن شخصاً لا يعرف المسألة بالكامل قد حدثك عن القانون الشرعي . لا تستطيعين أن تلزمي نفسك بالقسم مع هذا الرجل دون أن تمارسي الخطيئة ضد أبيك وأمك : لقد وكلهما الله بك قبل أن تقابليه . ثم أليس أمراً مسبباً للحزن والعار لأهله أيضاً لو علموا أنه قد غرر بابنة رجل حمل ترسه بشرف في كل الأوقات... وهي ابنة مخطوبة لرجل آخر أيضاً ؟ أفهم من كلامك أنك لا تعتبرين أنك ارتكبت إثماً كبيراً... ومع ذلك لا تجرئين على الاعتراف بهذا الأمر إلى كاهنك المختص . وهكذا تعتقدين أنك متزوجة في النتيجة من ذلك الرجل ، مع أنك لم تلبسي على رأسك قبعة الرأس الكتانية الخاصة بالزواج ، ولا تزالين تسيرين وشعرك مسدل بين العذراوات الشابات اللواتي لم يعد بإمكانك أن تكوني زميلة لهن بعد الآن : ففي الوقت الحاضر تتركز كل أفكارك على أمور أخرى غير الشيء الذي في أذهانهن ؟ »

قالت كريستين متعبة : « لا أعرف ما في أذهانهن . صحيح أن كل أفكاري هي مع الرجل الذي أتوق إليه ، ولولا أبي وأمي لكنت سأربط شعري هذا اليوم ، ولن آبه إلا قليلاً لو سميت بالمرأة السائبة إن كنت سأسمى امرأته » .

« أتعرفين أنه لو كان هذا الرجل صادقاً في معاملته معك ، فإنك قد تسمين يوماً ما زوجته بكل شرف ؟ » سألها الأخ إدفين .

ثم حكت كريستين عن كل ذلك الذي حدث بين إرلند نيكولاوسون وبينها . وبينما راحت تتكلم ، لم يبد عليها حتى أنها تتذكر أنها شكت مطلقاً بنتيجة ذلك كله .

بدأت مجدداً : «ألا ترى أيها الأخ إدفين أننا لا نستطيع مساعدة أنفسنا . فليساعدنا الله ، لو كنت سأقابله خارج هذا المكان ، حين أبتعد عنك ، وطلب مني أن أذهب معه ، لذهبت معه . وأعرف جيداً أيضاً أني رأيت الآن أنه سيكون هناك أناس آخرون قد ارتكبوا الإثم كما فعلنا نحن... حين كنت فتاة صغيرة في البيت لم أستطع أن أستوعب كيف يمكن لأي شيء أن تكون له تلك السلطة على أرواح الناس بحيث يستطيعون نسيان الخوف من الخطيئة . ولكني قد تعلمت الكثير الآن : إن كانت الآثام التي يرتكبها الناس بسبب الشهوة والغضب لا يمكن التكفير عنها ، إذن لا بد أن الجنة مكان فارغ . ويقولون عنك إنك قد ضربت رجلاً مرة في لحظة غضب» .

قال الراهب : «هذا صحيح . وأشكر رحمة الرب وحدها لأني لا أدعى بالقاتل . حدث هذا قبل سنوات كثيرة... كنت شاباً آنذاك ، وأظن أني لم أستطع تحمل الإثم الذي كان الأسقف سيحمله لنا نحن الرهبان الفقراء . لقد أعطانا الملك هاكون ـ كان لا يزال دوقاً في ذلك الحين ـ أرضاً لبناء منزل لنا ، ولكننا كنا فقراء جداً حتى اضطررنا لبناء كنيستنا بأنفسنا ، مع عدد قليل من العمال الذين ساعدونا لقاء مكافأة من السماء وليس لقاء ما كنا قادرين على دفعه . ربما كان الغرور الآثم لدينا نحن الرهبان الشحاذين هو الذي دفعنا إلى بناء كنيستنا على نحو جميل وضخم ـ إلا أننا كنا سعيدين كالأطفال في الحقول ، وكنا نغني أغاني المديح بينما كنا نقطع ونبني ونكدّ . كان الأخ رانولف ـ رحمه الله ـ معلم بناء ، وكان نحات حجارة ماهر . كلا ، أعتقد أن الرجل قد منحه الرب نفسه المهارة في كل أنواع المعرفة والفنون . كنت نحات ألواح حجرية في تلك الأيام . كنت قد أنهيت للتو تمثالاً للقديسة كلارا التي كانت الملائكة تحملها إلى كنيسة القديس فرانسيس في فجر يوم عيد الميلاد ـ كان لوحاً جميلاً جداً ، وكلنا استمتع

به جداً ـ ثم حطم الكفار الجهنميون الجدران وسقط حجر وحطم ألواحي ـ ضربت رجلاً بمطرقتي ، ولم أستطع كبح جماح غضبي...

«أجل ، أنت تبتسمين الآن يا كريستيني . ولكن ألا ترين أن وضعك ليس جيداً الآن بما أنك تفضلين الآن حكايات كهذه عن عيوب الناس الآخرين أكثر من الحكايات عن حياة وأفعال الناس الصالحين الذين قد يكونون مثالاً جيداً لك... ؟

«ليست مسألة سهلة أن أمنحك المشورة» ، قال حين حان وقت رحيلها . «فلو كنت ستفعلين ما هو صحيح ، لجلبت الأسى إلى أبيك وأمك والعار لكل أقربائك . ولكن عليك أن تحرري نفسك من العهد الذي منحته لسايمون أندرسون ـ ثم عليك أن تنتظري بصبر المصير الذي كتبه الله عليك ، وقومي في قلبك بما تقدرين عليه من التعويض ـ ولا تتركي إرلند هذا يغويك على ارتكاب الخطيئة مجدداً ، ولكن عليك أن تناشديه أن يطلب التكفير من أقربائك ومن الرب .

«من خطيئتك لا أستطيع تحريرك» ، قال الأخ إدفين وهما يفترقان ، «و لكني سأصلي لأجلك من كل قلبي... »

وضع يديه النحيلتين العجوزين على رأسها وصلّى ، كنوع من الوداع ، حتى يباركها الرب ويمنحها السلام .

٦

لاحقاً ، كان هناك الكثير ممّا قاله الأخ إدفين لها ولم تستطع كريستين تذكره . ولكنها غادرته بذهن واضح وهادئ على نحو غريب .

حتى الآن كانت قد كافحت خوفاً سرياً غير واضح ، وحاولت أن تتخلص منه . كانت تقول لنفسها إنها لم تأثم بعمق . والآن أحست أن إدفين قد أراها ببساطة وبوضوح أنها قد أثمت بالفعل ، وأن إثمها كان كذا وكذا ، وعليها أن تلزم نفسها وتحاول أن تتحمله على نحو متواضع وملائم . حاولت أن تفكر بإرلند دون نفاد صبر : إما لأنه لم يرسل لها رسالة بنفسه ، أو لأن عليها أن ترغب في ملاطفته . وستكون مخلصة له ومفعمة بالحب له .

فكرت بأبيها وأمها ، وعاهدت نفسها على أنها ستعوضهما عن كل حبهما ، ما أن يتجاوزا الأسى الذي ستنزله عليهما بأن تقطع الصلة بجماعة دايفرين . وتقريباً كانت تفكر في أغلب الأحيان بكلمات الأخ إدفين عن كيف أن عليها ألا تنشد السلوان في البحث عن أخطاء الآخرين . شعرت أنها قد أصبحت متواضعة ولطيفة ، والآن رأت فوراً كم كان من السهل عليها أن تكسب صداقة الناس . ثم أحست بالراحة من فكرة أنه لم يكن من الصعب

جداً الوصول إلى تفاهم مع الناس ؛ وهكذا بدا لها أن الأمر لن يكون صعباً جداً عليها وعلى إرلند بكل تأكيد .

وحتى ذلك اليوم الذي منحت فيه إرلند العهد ، كانت تناضل بحماسة للقيام بما هو صحيح وصالح ، ولكنها فعلت ذلك كله بناء على أوامر الآخرين . والآن راحت تشعر أنها قد نضجت من فتاة لتصبح امرأة . ولم يكن ذلك عائداً للمداعبات الحارة السرية التي تبادلتها مع إرلند ، وليس أنها قد تخلت عن رعاية أبيها وأصبحت خاضعة لإرادة إرلند . فقد حمّلها إدفين عبء مسؤولية حياتها ، بل وحياة إرلند أيضاً . وكانت راغبة في تحملها جيداً وبشجاعة . وهكذا أمضت وقتها بين الراهبات في فترة أعياد الميلاد ، وخلال الطقوس الجميلة والمتعة والسلام اللذين تجلبهما الأعياد ، ورغم أنها شعرت بنفسها على أنها غير جديرة ، إلا أنها وجدت الراحة في التفكير في أنها سرعان ما سوف تستعيد نشاطها مجدداً .

•

ولكن في اليوم الثاني من السنة الجديدة ، وصل السير أندرس دار وزوجته وأولاده الخمسة كلهم ، دون سابق إنذار ، إلى الدير . كانوا قد وصلوا لقضاء الأيام الأخيرة من فترة عيد الميلاد مع أصدقائهم وأقربائهم في البلدة ، وقد طلبوا الإذن لكريستين لتمكث معهم في سكنهم فترة قصيرة .

قالت الليدي أنغيرد : «لقد فكرت يا ابنتي أنك لن تكرهي مشاهدة بعض الوجوه الجديدة فترة من الزمن» .

كانت جماعة دايفرين تقيم في منزل فخم في حي[١٥] قريب من قصر الأسقف ، كان ملكاً لابن عم السير أندرس . كانت هناك قاعة كبيرة ينام فيها الخدم ، وعليّة جميلة ذات مدفأة من الحجر وثلاثة أسرة جيدة ، في

أحدها ينام السير أندرس والليدي أنغيرد وابنهما الأصغر ، غودموند ، الذي كان مجرد طفل . وفي الآخر كانت تنام كريستين وابنتا الليدي : آستريد وسيغريد ، وفي الثالث سايمون وأخوه الأكبر غيرد أندرسون .

كان أولاد السير أندرس كافةوسيمين ، وكان سايمون أقلهم وسامة ، ولكن حتى هو أيضاً كان يعتبر بهيّ الطلعة . وقد لاحظت كريستين أكثر مما حدث في العام الماضي حين كانت في دايفرين أن كلاً من الأب والأم والأخوة والأخوات الأربع كافة يصغون في أغلب الأحيان إلى سايمون ، ويفعلون ما يأمر به . كانوا جميعاً يحبون بعضهم البعض بإخلاص ، ولكنهم متفقون دون ضغينة أو حسد ، على أن يكون سايمون متقدماً عليهم جميعاً .

كان هؤلاء القوم يعيشون حياة مرحة خالية من الهموم . راحوا يزورون الكنائس ويقدمون القرابين كل يوم ويجتمعون بأصدقائهم ويشربون في صحبتهم كل مساء ، بينما كان الشباب يُمنحون الإذن للعب والرقص . وقد أبدى الجميع تجاه كريستين أعظم اللطف والكياسة ، ولم يلحظ أحد كم كانت سعادتها قليلة .

في إحدى الأمسيات ، حين أطفئ النورَ في العلية ، وذهب كل إلى سريره ، كان من عادة سايمون أن ينهض ويذهب إلى حيث كانت تضطجع الفتيات . كان يجلس فترة على حافة السرير . كان حديثه في أغلبه موجهاً لأختيه ، ولكن في العتمة كان يترك يده ترتاح على صدر كريستين ، بينما كانت تضطجع هناك محمومة من شدة غضبها .

والآن حين أصبح إحساسها بمثل هذه الأمور أكثر حدة ، فقد فهمت جيداً أن هناك كثيراً من الأمور التي كان فيها سايمون أكثر غروراً وخجلاً من أن يخاطبها بها بما أنه رأى أنها لم تكن راغبة في سماع مثل هذا الحديث منه . وقد أحست بالمرارة والغضب تجاهه ، فقد بدا لها وكأنه يسره أن

يكون رجلاً أفضل من ذاك الرجل الذي جعلها ملكاً له... حتى لو لم يكن سايمون يدري بوجود مثل هذا الرجل .

ولكن في إحدى الليالي وبينما كانوا يرقصون في دار أخرى ، بقيت آستريد وسيغريد لتناما هناك مع زميلة لهما في اللعب . وحين ذهبت جماعة دايفرين لترتاح في عليتها ، جاء سايمون إلى سرير كريستين وصعد إليه . وضع نفسه فوق الغطاء الفرائي .

رفعت كريستين الغطاء حتى ذقنها وصالبت ذراعيها بشدة فوق صدرها . وبعد قليل حاول سايمون أن يضع يده على صدرها . أحست بالتطريز الحريري على سوار قميصه وعرفت أنه لم يخلع أياً من ملابسه .

«أنت خجولة في الظلام كما أنت في النور يا كريستين» ، قال سايمون ضاحكاً . «طبعاً تستطيعين أن تتركي لي يداً واحدة لأمسكها» ، قال ذلك وأعطته كريستين رؤوس أناملها .

«ألا تظنين أن لدينا ما نتحدث عنه وذلك حين يحدث أن نبقى وحدنا ؟» هذا ما قاله ، وفكرت كريستين أنه حان الآن موعد كلامها معه . لذلك أجابت بـ«نعم» . ولكنها لم تستطع التلفظ بكلمة واحدة .

رجاها ثانية : «هل أستطيع النزول تحت الفراء ؟ الجو بارد في الغرفة الآن...» ثم انزلق بين غطاء السرير والبطانية الصوفية التي كانت تتغطى بها . لف ذراعاً حول رأس السرير على نحو لا يلمسها معه . وهكذا مكثا بعض الوقت .

سرعان ما قال سايمون بضحكة مستسلمة : «لست سهلة جداً على المغازلة . والآن أتعهد لك بأني لن أقبّلك إذا كنت لا تريدينني أن أفعل . ولكنك تستطيعين التحدث إليّ في الأقل» .

بلّلت كريستين شفتيها برأس لسانها ولكنها بقيت صامتة .

«عجباً ، لكأنك تقبعين هناك ترتجفين!» ، تابع سايمون كلامه . «بالتأكيد لا يمكن أن يكون لديك شيء ما ضدي يا كريستين ؟»

أحست أنها لا تستطيع الكذب على سايمون ، لذلك قالت : «لا»... ولكن لا شيء آخر . بقي سايمون فترة أخرى . حاول أن يجعلها تكلمه . ولكنه ضحك أخيراً وقال :

«أرى جيداً أنك تعتقدين أن عليّ أن أكتفي بسماع أنه ليس لديك أي شيء ضدي -لهذه الليلة- وأن أكون سعيداً علاوة على ذلك . إنه لأمر محفوف بالمخاطرة أن تكوني شديدة الاعتزاز بنفسك ، ولكن عليك أن تمنحيني قبلة واحدة ؛ وعندها سأذهب في حال سبيلي ولن أزعجك بعد الآن...»

أخذ القبلة ، ثم جلس ووضع قدميه على الأرض . عندها فكرت كريستين في أن عليها أن تقول له ما كان عليها قوله... ولكنه كان قد سبق له وابتعد نحو سريره ، وسمعته يخلع ملابسه .

•

في اليوم التالي لم تكن الليدي أنغيرد ودودة جداً مع كريستين كما كان دأبها . لاحظت الفتاة أن الليدي قد سمعت شيئاً ما في الليلة الماضية وأنها اعتبرت أن خطيبة ابنها لم تتصرف تجاهه كما تظن هي أنه ملائم .

في وقت متأخر من عصر ذلك اليوم تحدث سايمون عن حصان صديق له كان ينوي أن يقايضه بحصان من أحصنته . سأل كريستين إن كانت تود الذهاب معه لمشاهدته . لم يكن لديها مانع ، ومضيا معاً إلى البلدة .

كان الطقس منعشاً وجميلاً . وكان الثلج قد هطل قليلاً خلال الليل ، ولكن الشمس كانت مشرقة الآن ، وكان الجو بارداً حتى أن الثلج كان

يطقطق تحت أقدامهما . أحست كريستين أنه لأمر جيد أن تكون خارجاً وأن تمشي في الهواء البارد . وحين جلب سايمون الحصان ليريها إياه ، كلمته على نحو مرح بما فيه الكفاية ، فقد كانت تعرف شيئاً عن الجياد لكثرة مصاحبتها لأبيها . وكان هذا الحصان جميلاً ، فحلاً رمادياً بلون الفأر له خط أسود على ظهره وعرف مقصوص ، كان جيد الشكل حيوياً ، ولكنه ضئيل الحجم وذو بنية نحيلة .

قالت كريستين : «لن يحتمل بالكاد رجلاً بكامل سلاحه فترة طويلة» .

قال سايمون : «لا ، لن يحتمل بالفعل . ولكني لا أريده لمثل هذا الراكب» .

قاد الحصان نحو حقل المنزل خلف الدار ، وجعله يسير خبباً ويمشي ، ركبه ليجرب خطواته ، وجعل كريستين تمتطيه أيضاً . وهكذا بقيا معاً فترة على الحقل المثلج .

وأخيراً ، وبينما وقفت كريستين تطعم الحصان خبزاً من يدها ، وبينما كان سايمون متكئاً على ظهره بذراعه ، قال على الفور :

«أعتقد يا كريستين أنك وأمي لا تحب إحداكما الأخرى» .

قالت : «لم أقصد أن أكون غير محبة لأمك ، ولكني لا أجد الكثير لأقوله لليدي أنغيرد» .

قال سايمون : «و لا يبدو أنك تجدين الكثير لتقوليه لي أيضاً . لن أفرض نفسي عليك بالقوة يا كريستين قبل أن يحين الأوان... ولكن لا يمكن للأمور أن تستمر كما هي عليه الآن ، حيث لا أستطيع مبادلتك الحديث» .

قالت كريستين : «لست ممّن يتكلمن كثيراً . أعرف نفسي . ولا آمل أن تفكر أنها ستكون خسارة كبيرة إن لم يصل الذي بيننا إلى شيء ما» .

«تعرفين جيداً ما هي أفكاري في هذا الخصوص» ، قال سايمون وهو ينظر إليها .

أصبح وجه كريستين أحمر كالدم . وقد آلمها أنها لم تستطع كره الأسلوب الذي كان يغازلها فيه سايمون دار . قال بعد برهة : «هل هو آرن غيردسون يا كريستين الذي تشعرين أنك لا تستطيعين نسيانه ؟» ولكن كريستين حدقت إليه فحسب . تابع سايمون يقول وصوته لطيف وودّي جداً : «لن ألومك قط على ذلك... فقد نشأتما كأخ وأخت ، ولم يمض بعد عام على ذلك . ولكن كوني على ثقة واطمئني إلى أني أحمل لك كل الخير في قلبي...»

كان وجه كريستين قد شحب كوجوه الموتى . لم يتكلم أحدهما بعد ذلك وهما عائدان عبر البلدة في الغسق . في نهاية الشارع ، تحت السماء الزرقاء-الخضراء ، كان منجل القمر الجديد ونجمة لامعة قرب قرنه .

إنه عام مضى ، فكرت كريستين ، ولا تستطيع أن تتذكر متى فكرت في آرن... أصبحت خائفة : ربما تحولت هي إلى امرأة فاسدة شريرة . ولكن مرّ عام منذ شاهدته على نعشه في غرفة السهر على الميت ، وكانت تظن أنها لن تكون سعيدة مرة أخرى في حياتها... أنّت في داخلها خوفاً من تقلّب قلبها ، وبسبب التحولات السريعة للأمور كلها . إرلند! إرلند! ـ هل يمكنه أن ينساها- ومع ذلك بدا لها أن الأمور قد تكون أسوأ ، إذا ما حدث ونسيته هي في أي وقت من الأوقات .

•

ذهب السير أندرس مع أولاده إلى وليمة عيد الميلاد الفخمة في قصر الملك . شاهدت كريستين كل أبهة ومظاهر الاحتفال المبهرجة . كما دخلوا

إلى القاعة حيث جلس الملك هاكون والليدي إيزابيل بروس ، أرملة الملك آيريك . تقدم السير أندرس وعبّر عن آيات الولاء للملك ، بينما وقف أولاده وكريستين إلى الخلف قليلاً . فكرت في كل ما حكته لها الليدي آشيلد . تذكرت أن الملك كان قريباً لإرلند ، فقد كانت جدتاهما -لأبويهما- أختين ، وكانت هي عشيقة إرلند . لم يكن يحق لها الوقوف هنا ، في الأقل بين هؤلاء الأشخاص الصالحين الشرفاء أولاد السير أندرس .

ثم فجأة رأت إرلند نيكولاوسون... كان قد تقدم نحو الملكة إيزابيل ، ووقف برأس منحنية ويده على صدره ، بينما راحت هي تنطق بكلمات قليلة مخاطبة إياه . كان يرتدي الملابس الحرير البنية اللون التي ارتداها في عيد النقابة . تراجعت كريستين خطوة إلى ما وراء ابنتي السير أندرس .

وحين قادت الليدي أنغيرد لاحقاً ابنتيها نحو الملكة ، لم تعد كريستين قادرة على مشاهدته في أي مكان ، ولكنها لم تتجرأ على رفع عينيها عن الأرض . تساءلت إن كان واقفاً في مكان ما من القاعة ، وفكرت أنها تستطيع أن تشعر بعينيه مسلطتين عليها -و لكنها فكرت أيضاً أن كل الناس كانوا ينظرون إليها وكأنهم يعرفون لا بدّ أنها كانت كاذبة ، وتقف هناك والإكليل الذهبي على شعرها المسدل .

•

لم يكن هو في القاعة حيث كان الشباب يحتفلون ، وحيث رقصوا حين رفعت الموائد . في هذا المساء كان عليها أن تراقص سايمون .

على امتداد واحد من الجدران الأطول كانت مائدة ثابتة ، وإلى هناك كان رجال الملك يحملون الجعة والميد والنبيذ طوال الليل . وفي إحدى المرات وبينما جذبها سايمون إلى هناك وشرب نخبها ، رأت إرلند واقفاً إلى

القرب منهما ، خلف ظهر سايمون . نظر إليها ، وارتجفت يد كريستين حين أخذت الكأس من يد سايمون ورفعتها إلى شفتيها . همس إرلند بقوة للرجل الذي كان في صحبته : رجل طويل وسيم متقدم في العمر وبدين إلى حد ما ، الذي راح يهز رأسه نافد الصبر ويبدو كأنما هو غاضب . وسرعان ما قادها سايمون إلى الرقص مجدداً .

لم تعرف كم دامت هذه الرقصة ، إذ بدت الموسيقى وكأنها لن تنتهي أبداً ، وكل لحظة كانت طويلة ومترعة بالشر بسبب توقها وقلقها . وأخيراً انتهت الرقصة وجذبها سايمون نحو مائدة الشراب مجدداً .

اقترب منه أحد الأصدقاء وقاده بعيداً خطوات قليلة إلى مجموعة من الشبان . ووقف إرلند أمامها .

همس لها : «لدي الكثير أود قوله لك ، ولا أعرف ما أقوله أولاً : بحق المسيح يا كريستين ما يمرضك ؟» سألها بسرعة فقد رأى وجهها يشحب حتى صار بلون الكلس .

لم تكن قادرة على رؤيته بوضوح . شعرت وكأن هناك ماء جارياً بين وجهيهما . تناول كأساً من المائدة وشرب منها ثم ناولها إياها . أحست كريستين بأنها ثقيلة جداً عليها ، وكأن ذراعها قد قطعت عند الكتف . ومهما بذلت من جهد لم تكن قادرة على رفع الكأس إلى فمها .

«هل الأمر هكذا إذن ؟ تستطيعين الشرب مع خطيبك ولكن ليس معي ؟ سألها إرلند بصوت لطيف . ولكن كريستين وضعت الكأس من يدها وسقطت بين ذراعيه . حين استيقظت كانت ممددة على مقعد ورأسها في حجر فتاة غريبة... كان شخص ما واقفاً إلى القرب منها ، وهو يضرب على راحتيها ، وكان هناك ماء على وجهها .

جلست . في مكان ما من الحلقة التي تجمعت حولها رأت وجه إرلند ،

شاحباً ونحيلاً . كان جسدها ضعيفاً وكأن كل عظامها قد ذابت ، وبدا رأسها وكأنه كبير وفارغ . ولكن في مكان ما ضمنه كانت فكرة واحدة واضحة ويائسة تشع : عليها أن تكلم إرلند .

قالت لسايمون دار وكان يقف إلى جوارها :

« كان الجو حاراً جداً بالنسبة إليّ... الكثير من الشموع تحترق هنا... وأنا لست معتادة على شرب كل هذا النبيذ... »

سأل سايمون : « هل أنت أحسن الآن ؟ لقد أخفت الناس . ربما تريدينني أن أصطحبك إلى البيت الآن ؟ »

« علينا أن ننتظر أباك وأمك بكل تأكيد » ، قالت كريستين بهدوء .

« و لكن اجلس هنا : لم أعد أستطيع الرقص » . لمست الوسادة إلى قربها : ثم مدت يدها الأخرى إلى إرلند :

« اجلس هنا يا إرلند نيكولاوسون . لم تسنح لي الفرصة لأحييك تحية كاملة . لقد قالت إنجبيورغ مؤخراً إنها تعتقد أنك نسيتها تماماً » .

لاحظت أنه كان أصعب عليه أن يحافظ على هدوئه منها... وكل ما استطاعت فعله كان أن تحتفظ بالابتسامة الرقيقة التي تتجمع على شفتيها .

« عليك أن تحملي إلى الفتاة شكري لها لأنها لا تزال تفكر بي » ، فأفأ في كلامه . « لقد ظننت أنها نسيتني » .

توقفت كريستين قليلاً . لم تعرف ما تقوله على أن يحسب كلاماً قادماً من إنجبيورغ الطائشة ومع ذلك يمكنه أن يبلغ إرلند المعنى المطلوب . ثم خطرت لها مرارة كل هذه الشهور من الانتظار اليائس ، فقالت : « عزيزي إرلند ، هل يمكنك أن تفكر في أننا نحن الفتيات نستطيع أن ننسى الرجل الذي دافع عن شرفنا بكل تلك الشهامة... »رأت وجهه يتغير وكأنها قد ضربته... وعلى الفور أحست بالأسف . ثم سأل سايمون عمَّ كانا يتحدثان .

حكت له كريستين عن مغامرة إنجبيورغ ومغامرتها معها في غابات آيكابرغ . وقد لاحظت أن سايمون لم تعجبه الحكاية . ثم رجته أن يذهب ويسأل الليدي أنغيرد إن كان ممكناً لهم المغادرة بسرعة إلى البيت . لقد كانت مرهقة فعلاً . وحين ذهب ، نظرت إلى إرلند .

قال بصوت خفيض : «إنه لأمر غريب أن تكوني سريعة البديهة ... لم أصدق هذا منك إلا بالكاد» .

«ألا تظن أنه عليَّ أن أتعلم أن أخفي مشاعري وأن أكون متحفظة ؟» قالت بكآبة .

كان تنفس إرلند ثقيلاً . كان لا يزال شديد الشحوب . همس : «هكذا هي الأمور إذن . ومع ذلك وعدتني أن تلجئي إلى أصدقائي إذا حدث مثل هذا الأمر . الله يعلم كم فكرت بك كل يوم ، خشية أن يقع الأسوأ...»

قالت كريستين : «أعرف جيداً ما تعنيه بالأسوأ . ليس عليك أن تخشى ذلك . كان الأسوأ بالنسبة إليّ أن لا ترسل لي كلمة تحية واحدة...ألا تستطيع أن تفهم أني أعيش هناك بين راهبات... كطائر غريب... ؟» توقفت عن الكلام فقد أحست أن دموعها كانت قادمة .

سألها : «ألهذا أنت بين جماعة دايفرين الآن ؟» ثم طغى عليها حزن هائل فلم تجب .

رأت الليدي أنغيرد وسايمون يدخلان عبر الباب . كانت يد إرلند على ركبته ، قربها ، ولم تستطع أن تمسكها .

قال بحرارة : «يجب أن أكلمك . لم نتبادل كلمة واحدة ممّا علينا قوله» .

«تعال إلى القداس في كنيسة ماريا في عيد الغطاس» ، قالت كريستين وهي تنهض لتقابل الآخرين .

أظهرت الليدي أنغيرد منتهى الحب والرعاية لكريستين في طريقهم إلى البيت ، وساعدتها بنفسها على الصعود إلى السرير . ولم تتكلم مع سايمون حتى اليوم التالي . عندها قال :

« كيف حدث أنك تنقلين الرسائل بين إرلند هذا وإنجبيورغ فيليبوسداتر ؟ ليس ملائماً أن تتدخلي في هذه القضية ، إن كانت هناك علاقات خفية بينهما! »

قالت كريستين : «على الأرجح لا شيء في المسألة . إنها مجرد ثرثارة » .

قال سايمون : «أعتقد أيضاً أنه كان عليك أن تعتبري بما مضى ، وألا تثقي بنفسك ضمن الممرات في الغابة الوحشية وحيدة مع طائر العقعق ذاك » . ولكن كريستين ذكّرته وبحرارة ، أن الخطأ لم يكن خطأهما حين تاهتا وضاعتا . فلم يقل سايمون شيئاً بعد ذلك .

في اليوم التالي أعادها جماعة دايفرين إلى الدير ، قبل أن يغادروا هم إلى بيتهم .

•

ظل إرلند يأتي إلى صلاة المساء في كنيسة الدير كل يوم مدة أسبوع دون أن تحظى كريستين بفرصة تبادل كلمة واحدة معه . أحست –كما فكرت– بما يحس به الصقر وهو جالس مقيد بسلسلة إلى مجثمه وغماؤه فوق عينيه . كانت كل كلمة مرت بينهما في آخر لقاء لهما تجعلها غير سعيدة أيضاً... ما كان يجب أن يكون الأمر على هذه الحال . لم يكن هناك من فائدة في أنِ تقول لنفسها : لقد حدث ذلك على نحو مفاجئ جداً حتى أنهما لم يعرفا ما يقولان إلا بالكاد . ولكن في عصر أحد الأيام في الغسق

وصلت إلى البهو امرأة جميلة بدت كزوجة لرجل من المدينة . سألت عن كريستين لافرانسداتر ، وقالت إنها زوجة تاجر أقمشة وأن زوجها وصل من الدانمارك مؤخراً ومعه بعض العباءات الثمينة . إن آسموند بيورغولفسون يفكر في إهداء واحدة إلى بنت أخيه ، ويجب أن تذهب الفتاة معها لتختار عباءة بنفسها .

منحت كريستين الإذن للذهاب مع المرأة . فكرت أنه من غير المحتمل أن يهديها عمها هدية ثمينة ، وأنه من الغريب أن يرسل امرأة غير معروفة لإحضارها . كانت المرأة قليلة الكلام في البداية ، ولم تكن تقول إلا القليل رداً على أسئلة كريستين ، ولكن حين هبطت إلى البلدة ، قالت فجأة :

«لن أخدعك يا طفلتي الجميلة... سأحكي لك عن كنه هذا الأمر ، وعليك التصرف كما تجدين أنه لائق بك . لم يكن عمك من أرسلني إليك ، إنما رجل... ربما تستطيعين أن تخمني من هو ، وإذا كنت لا تستطيعين ، عندها عليك أن تأتي معي . ليس لي زوج... أتعيّش من فتح منزل للزيارات وبيع الجعة ؛ للشخص الذي لا يأبه بأن يكون خائفاً جداً لا من الخطيئة ولا من الحراس... ولكني لن أعيرك بيتي لتُمارس الخيانة عليك داخل منزلي» .

وقفت كريستين ساكنة ، وقد احمر وجهها خجلاً . كانت متألمة وخجلة على نحو غريب لأجل إرلند . قالت المرأة :

«سأعود إلى الدير معك يا كريستين . ولكن عليك أن تعطيني شيئاً ما مقابل تعبي... لقد وعدني الفارس بمكافأة كبيرة . ولكني كنت جميلة ذات مرة ، وأنا أيضاً ، تعرضت للخيانة . ولن يكون أمراً في غير مكانه أن تذكريني في صلاتك هذه الليلة... أدعى «برينهيلد فلوغا» .

خلعت كريستين خاتماً من أصبعها وأعطته للمرأة :

«لقد أبليت حسناً يا برينهيلد ، ولكن إن كان الرجل هو قريبي إرلند

نيكولاوسون ، عندها لن يكون عليّ أن أخاف شيئاً . وهو يريدني أن أصلح ما بينه وبين عمي . يمكنك أن تريحي بالك . ولكني أشكرك على أي حال لأنك حذرتني » .

التفتت برينهيلد فلوغا لتخفي ابتسامة .

قادت كريستين في الحارات خلف كنيسة « القديس كلمنت » شمالاً نحو النهر . وهنا كانت بعض المنازل الصغيرة القليلة تنتصب على امتداد ضفة النهر . ذهبتا باتجاه أحدها ، على طول ممرّ بين الأسيجة ، وهنا جاء إرلند لمقابلتهما . نظر فيما حوله في كل الاتجاهات ، ثم خلع عباءته ولفها حول كريستين ، وجذب القلنسوة فوق وجه كريستين .

سألها بسرعة وبصوت خفيض : « ما رأيك بهذه الحيلة ؟ أتظنينها خطأً كبيراً أرتكبه ؟... ولكن كان عليّ أن أحادثك » .

« لا يهم كثيراً الآن على ما أعتقد التفكير فيما هو صحيح وما هو خطأ » ، قالت كريستين .

قال إرلند برجاء : « لا تتكلمي على هذا النحو . أنا أتحمل اللوم... كريستين ، في كل نهار وكل ليلة كنت أحن إليك » ، همس لها مقترباً .

سرت قشعريرة في جسدها وهي تواجه عينيه لحظة . أحست وكأن هناك إثماً في داخلها حين نظر إليها ، ذلك أنها فكرت في أي شيء عدا حبها له .

كانت برينهيلد فلوغا قد غادرتهما الآن . سأل إرلند حين وصلا إلى الباحة :

« هل تريدين أن ندخل غرفة المعيشة أو هل نتحدث في العلية ؟ »

« كما تريد » ، أجابت كريستين ، وصعدا إلى العلية . وفي اللحظة التي أوصد بها الباب خلفهما ، كانت بين ذراعيه...

•

لم تعرف كم طال بقاؤها بين ذراعيه حين قال إرلند :

«و الآن علينا أن نقول ما علينا قوله ، يا كريستيني... لا أجرؤ إلاّ بالكاد على إبقائك هنا فترة أطول» .

«أجرؤ على البقاء الليل بطوله لو طلبت مني ذلك» ، همست .

ضغط إرلند بوجنتيه على وجنتيها .

«إذن فلن أكون صديقاً لك . الأمر سيئ بما فيه الكفاية كما هو الآن ، ولكنك لن تخسري سمعتك لأجلي» .

لم تجب كريستين ، ولكن تحرك في داخلها ألم ما . كيف يمكنه أن يتكلم هكذا وهو الذي أغراها بالقدوم إلى هنا إلى منزل برينهيلد فلوغا . لم تعرف السبب ، ولكنها شعرت أنه ليس منزلاً شريفاً . وقد حرص هو على أن تجري الأمور كما جرت ، وكانت واثقة من ذلك .

قال إرلند مجدداً : «لقد فكرت أحياناً أنه في حال عدم توفر طريقة أخرى ، فسوف أحملك بالقوة إلى السويد . لقد رحبت بي الليدي إنجبيورغ بكرم في الخريف وقد كانت متنبهة إلى قرابتنا . ولكني أعاني الآن من آثامي ـ فقد هربت من البلد سابقاً كما تعرفين ـ ولا أريد أن يدعوك الناس بأسماء كالتي دعوا بها تلك الأخرى» .

قالت كريستين بصوت خفيض : «خذني معك إلى بيتك في هوسابي . لا أستطيع احتمال الفراق عنك ، وأن أعيش بين العذارى في الدير . لا شك أن أهلك وأهلي سيصغون إلى صوت العقل ، ويدعوننا نعيش معاً ونتصالح معهم...»

ضمّها إرلند إليه ، وأنّ قائلاً :

«لا أستطيع اصطحابك إلى هوسابي يا كريستين» .

«لماذا ؟» سألت بصوت رقيق .

قال بعد لحظة : «وصلت «إلين» إلى هناك في الخريف» . ثم تابع بحرارة : «لا أستطيع إجبارها على مغادرة المكان ، إلاّ إذا وضعتها على المزلجة بالقوة وقدتها بعيداً عن هناك . وهذا ما لا أستطيعه على ما أظن... فقد جلبت معها ولدينا إلى البيت» .

أحست كريستين بنفسها تتهاوى ، تتهاوى . وبصوت حطمه الخوف قالت :

«حسبتك افترقت عنها» .

أجاب إرلند باختصار : «و هذا ما حسبته أنا أيضاً . ولكن لا بد أنها سمعت في أوستردال ، حيث كانت ، أني أفكر بالزواج . هل رأيت ذلك الرجل الذي كان في صحبتي في وليمة عيد الميلاد... كان ذلك هو أبي الذي رباني ، بارد بيترسون أوف هستنايس . لقد مضيت إليه بعد عودتي من السويد . ذهبت إلى قريبي ، همنغ ألفسون في سالتفيكن أيضاً . وقد حادثتهما كليهما عن رغبتي في الزواج ، وطلبت منهما المساعدة . لا بد أن إلين سمعت بذلك...

«عرضت عليها أن تطلب ما تشاء لنفسها وللطفلين ، ولكن سيغورد زوجها ليس من المحتمل أن يبقى حياً حتى نهاية فصل الشتاء... وبعدها لن ينكر علينا أحد أن نعيش معاً...

«أنام في الإسطبل مع هافتور وأولف ، وإلين تنام في القصر في سريري . وأعتقد أن خدمي يضحكون من وراء ظهري على هذه النكتة النادرة» .

لم تستطع كريستين أن تقول كلمة واحدة . وبعد برهة تكلم إرلند مجدداً :

«اسمعي . في اليوم الذي نعلن فيه خطوبتنا ، سيكون عليها أن تفهم أن

كل ما بيننا قد انقضى... لن تكون لها أي سلطة عليّ بعد ذلك...

«ولكن الأمر شاق على الطفلين . لم أشاهدهما منذ عام -هما طفلان جميلان- ولا أستطيع أن أفعل سوى القليل لأهيئ لهما مصيراً سعيداً . وما كان زواجي من أمهما سيساعدهما كثيراً» .

بدأت الدموع تنهمر فوق وجنتي كريستين . ثم قال إرلند :

«هل سمعت ما قلته للتو عن أني تكلمت مع أقربائي ؟ أجل لقد كانوا سعداء جداً . لأني أنوي الزواج . لقد قلت إني سأتزوج منك وليس من أي امرأة أخرى» .

سألت كريستين أخيراً بحزن : «و هم لم يوافقوا ؟»

قال إرلند بكآبة : «لقد قالوا شيئاً واحداً : إنهم لا يستطيعون ولن يذهبوا معي لمقابلة أبيك ، حتى تكون هذه المسألة بينك وبين سايمون أندرسون قد صُفّيت . إن قضاءك فترة عيد الميلاد مع جماعة دايفرين لم يسهّل الأمر علينا» .

انهارت كريستين تماماً وراحت تبكي بصمت . لقد أحست دائماً أن في حبها هذا شيء من الخطأ والعار ، وقد عرفت الآن أن الغلطة كانت غلطتها .

ارتجفت برداً حين نهضت بعد ذلك بفترة قصيرة ، ولفها إرلند بالعباءتين كلتيهما . كان الظلام مخيماً تماماً في الخارج ، ومضى إرلند معها حتى كنيسة القديس كلمنت . ثم رافقتها برينهيلد بقية الطريق إلى دير نونسيتر .

٧

بعد أسبوع وصلت برينهيلد فلوغا حاملة رسالة بأن العباءة أضحت جاهزة ، وذهبت كريستين معها لتقابل إرلند في العلية كما في المرة الماضية . حين افترقا أعطاها عباءة قائلاً : «حتى يكون لديك ما تعرضينه في الدير» . كانت من المخمل الأزرق محبوكة بحرير أحمر ، وجعلها إرلند تلاحظ أن لها الألوان نفسها التي كانت ترتديها في ذلك اليوم في الغابة . وقد تعجبت كريستين لأن كلامه أسعدها إلى ذلك الحد... ظنت أنه لم يسبق لها أن عرفت مثل هذه السعادة حين قال تلك الكلمات .

ولكن لم يعد الآن ممكناً الاستفادة من هذه الطريقة للاجتماع ، ولم يكن سهلاً إيجاد مبرر جديد . ولكن إرلند كان غالباً ما يأتي عند صلاة الغروب إلى كنيسة الدير ، وأحياناً كانت كريستين تجعل نفسها تقوم بمهمة ما بعد الصلاة إلى منازل العامة . وعندها كانا يتبادلان خلسة بضع كلمات عند السياج تحت عتمة المساء الشتوي .

ثم فكرت كريستين بطلب الإذن من الأخت بوتنتيا لزيارة بعض النساء العجائز العاجزات ، المتعيّشات على الحسنات في الدير ، واللواتي كن يقطنَ في كوخ في أحد الحقول . خلف الكوخ كان مبنى ملحق يحتفظن فيه ببقرة

وقد وعدت كريستين بالاعتناء بها لأجلهن . وبينما تكون هناك كان إرلند يلحق بها إلى هناك وتفتح له هي الباب .

وقد تعجبت قليلاً إذ لاحظت أنه رغم أن إرلند كان سعيداً بلقائها ، إلا أنه كان يعتمل في نفسه أنها كانت قادرة على ابتكار مثل هذه الخطة .

قال لها في إحدى الأمسيات : «لم يكن ذاك يوماً جيداً لك حين تعرفت إليّ . فلقد تعلمت الآن اتباع طرق الخداع » .

«ليس عليك أن تلومني» ، قالت كريستين بحزن .

قال إرلند بسرعة وبنظرة خجولة : «لا ألومك » .

تابعت كريستين : «لم أكن أظن نفسي قادرة على الكذب بهذه السهولة . ولكن يستطيع المرء أن يفعل ما يجب عليه فعله» .

« كلا ، ليس الأمر هكذا في كل الأوقات» ، قال إرلند كما سبق . «أتذكرين الشتاء الماضي حين لم تقدري على أن تقولي لخطيبك إنك لن تتخلّي عنه» .

لم تجب كريستين على هذا بشيء ، ولكنها ربتت على وجهه فحسب .

لم تشعر قط بتلك القوة كم كان إرلند عزيزاً عليها ، كما كان حين يقول مثل هذه الأشياء التي تجعلها تحزن أو تتعجب . كانت سعيدة حين كانت تستطيع أن تلوم نفسها على كل ما هو مخجل وخاطئ في حبهما . ولو وجدت الشجاعة لتكلم سايمون كما كان عليها أن تفعل ، لكانا قد قطعا الآن شوطاً طويلاً من الطريق الذي سيضع كل شيء في مكانه الصحيح . لقد فعل إرلند كل ما استطاع أن يفعله حين تكلم عن زواجهما إلى أقربائه . لقد قالت هذا لنفسها حين أصبحت الأيام في الدير تمر بطيئة وسيئة : كان إرلند قد رغب في جعل الأمور كلها صحيحة وصالحة مجدداً . وبابتسامات رقيقة صغيرة فكرت به وهو يرسم لها صورة لزفافهما : ستركب إلى الكنيسة في

ملابس من الحرير والمخمل ، وستؤخذ إلى فراش الزفاف والتاج الذهبي العالي على شعرها المسدل : شعرك الجميل الجميل ، كما قال ، وهو يداعب ضفائرها بيده .

« ولكن لا يمكن للأمر أن يكون هو نفسه بالنسبة إليك كما لو أني لم أكن ملكك من قبل » ، قالت كريستين مفكرة ، وذلك وهو يتحدث على هذا النحو .

ثم ضمها إليه بجنون :

« هل أستطيع تذكر المرة الأولى التي شربت فيها في موسم عيد الميلاد ، أو المرة الأولى التي رأيت فيها الجبال في البيت تتحول إلى اللون الأخضر بعد رحيل الشتاء ؟ أجل ، حسناً أتذكر تماماً المرة الأولى التي كنتِ فيها ملكاً لي ، وكل مرة منذ ذلك الحين... ولكن أن تكوني ملكاً خاصاً بي هو أشبه بأن أبقي عيد الميلاد وصيد الطيور على الجبال الخضراء إلى الأبد... »

استكانت إليه بسعادة . ليس ذلك أنها فكرت أبداً وللحظة واحدة أن الأمور ستنتهي كما كان إرلند واثقاً إلى أبعد الحدود أنها ستنتهي... فأحست كريستين أنه قبل مرور وقت طويل فإن يوم الدينونة لا بدّ أن يغشاهما . لا يمكن أن تنتهي الأمور إلى حسن الختام بينهما... ولكنها لم تكن خائفة إلى ذلك الحد : كانت تخشى أكثر بكثير بأن إرلند قد يذهب شمالاً قبل أن يبرز ذلك كله إلى النور وأن تُترك هي وراءه بعيدة عنه . كان في القلعة في أكرسنس الآن . لقد عُيّن مونان باردسون هناك خلال وجود الحرس الشخصي في تونسبرغ ، حيث كان الملك ملازماً فراش المرض الخطير . ولكن كان على إرلند أحياناً أن يذهب إلى بيته ليرعى أملاكه . وكونها كانت تخشى من ذهابه إلى هوسابي لأن إلين كانت قابعة هناك تنتظره ، فهي مسألة ما كانت لتعترف بها حتى لنفسها . ولا كانت ستعترف أنها كانت

أقل خشية من ارتكاب الإثم مع إرلند ، من وقوفها وحدها لتقول لسايمون وأبيها ما كان في قلبها .

كانت ستتمنى تقريباً أن ينزل بها العقاب ، وأن يحدث ذلك بسرعة . والآن لم تكن تفكر سوى بإرلند . كانت تتوق إليه في النهار وتحلم به في الليل . لم تستطع أن تشعر بالندم ، ولكنها كانت تجد السلوان في التفكير بأن ذلك اليوم سيأتي حين يكون عليها فيه أن تدفع غالياً ثمن كل ما اختطفاه خلسة . وفي ساعات المساء القصيرة كانت تستطيع التواجد مع إرلند في حظيرة البقر الخاصة بالنساء المتعيشات على الحسنات ، فكانت ترمي بنفسها بين ذراعيه بكل ما تستطيع من عاطفة وكأنها كانت تعرف أنها قد دفعت من روحها على نحو مسبق حتى تكون ملكاً له .

•

ولكن الوقت مضى ، وقد بدا وكأن إرلند قد ينال الحظ الجيد الذي كان قد اعتمد عليه . لم تلاحظ كريستين مطلقاً أن أي شخص في الدير كان لا يثق بها . لقد اكتشفت إنجبيورغ بالفعل أنها كانت تقابل إرلند ، ولكن كريستين لاحظت أن الأخرى لم تكن تحلم بأن ذلك كان أكثر من عبث عابر . لم يكن ليخطر في ذهن إنجبيورغ ، كما لاحظت كريستين ، أنه من الممكن لفتاة من أصل كريم ، ومخطوبة ، أن تتجرأ على فك عرى الخطوبة التي تمت . ومن جديد فإن نوبة رعب قد انتابتها : ربما يكون ذلك أمراً لم يسبق له مثيل ذاك الذي تقوم به . وعند هذه الفكرة كانت تتمنى مجدداً أن يحلّ هذا الاكتشاف وينتهي كل ذلك .

حلّ عيد الفصح . لم تعرف كريستين كيف مرّ الشتاء . كان كل يوم لا ترى فيه إرلند يمر طويلاً كسنة شريرة ، وكانت الأيام الطويلة الشريرة قد

ربطت نفسها معاً متحولة إلى أسابيع لا نهاية لها . ولكن حلّ الربيع الآن وجاء عيد الفصح ، فأحست أنه لم يكن هناك زمن منذ وليمة عيد الميلاد . رجت إرلند ألاّ يأتي إليها حتى يمر «الأسبوع المقدس» كله . وقد سلّم لها بذلك ، كما كان يفعل تجاه كل أمنياتها ، كما فكرت كريستين . كان الذنب ذنبها بقدر ما كان ذنبه فيما يخص أنهما ارتكبا الإثم معاً في عدم الالتزام بالصوم الكبير . ولكنها كانت مصممة على احترام عيد الفصح . ولكن مع ذلك كان عدم رؤيته هو البؤس بالنسبة لها . ربما سيكون عليه الرحيل قريباً . لم يكن هو قد ذكر الرحيل قط ، ولكنها كانت تعرف أن الملك كان يحتضر الآن ، وربما يتسبب هذا في حدوث تغيير في مصير إرلند ، كما فكرت .

•

هكذا جرت الأمور معها ، حين حدث في أول يوم بعد عيد الفصح أن جاءها أمر بالذهاب إلى البهو لترى خطيبها .

وما إن تقدم منها ومد يديه ، حتى أحست بأن هناك ما هو على غير ما يرام : كان وجهه مختلفاً عن المألوف ، ولم تكن عيناه الصغيرتان الرماديتان تضحكان ، ولم تبتسما حتى حين ابتسم هو . ولم تستطع كريستين إلا أن ترى أنه كان يلائمه جيداً أن يكون أقل مرحاً . لقد بدا في صحة جيدة أيضاً مرتدياً ملابس السفر : زياً خارجياً طويلاً أزرق اللون ضيقاً يسمى «كوتهاردي» ، وعباءة كتف بنية مع قلنسوة ، كانت مرمية إلى الخلف الآن . وقد جعل الهواء البارد شعره البني الطويل أكثر تجعيداً .

جلسا وتحادثا بعض الوقت . كان سايمون في فورمو خلال الصوم الكبير ، وكان يذهب إلى يوروندغارد في كل يوم تقريباً . الجميع هناك

بخير . كانت أولفهيلد في حالة حسنة بقدر ما كانوا يأملون لها . وكانت رامبورغ في البيت الآن ، وهي جميلة وحيوية .

قال سايمون : «سينقضي ذلك العام في أحد هذه الأيام... العام الذي عليك قضاؤه هنا في نونسيتر . ومع انقضائه فإنهم هناك في بيتكم سيبدؤون بالتحضير للاحتفال بزواجنا أنت وأنا» .

لم تقل كريستين شيئا ، فتابع سايمون : «لقد قلت للافرانس إني سأحضر إلى أوسلو وأتحدث إليك عن هذا الموضوع» .

نظرت كريستين أرضاً وقالت بصوت خفيض :

«و أنا أيضاً أود أن أكلمك عن هذه القضية يا سايمون... على انفراد» .

أجاب سايمون : «لقد لاحظت بنفسي جيداً أن علينا أن نتكلم على انفراد ، وكنت سأطلب منك الآن أن تطلبي من الليدي غروا الإذن لنخرج معاً إلى الحديقة فترة قصيرة» .

نهضت كريستين بسرعة وانزلقت خارجة من الغرفة دون صوت . وسرعان ما عادت ترافقها إحدى الراهبات تحمل مفتاحاً .

كان هناك باب يؤدي من البهو إلى حديقة الأعشاب يقع إلى أبعد نقطة غربية من أبنية الدير . فتحت الراهبة قفل الباب وخرجا إلى ضباب كثيف جداً حتى أنهما ما كانا قادرين سوى على رؤية بضع خطوات بين الأشجار . كانت أقرب الجذوع سوداء كالفحم ، وكانت الرطوبة تقف كحبات الخرز على كل غصين وغصن . كان القليل من الثلج الجديد يذوب على التراب الرطب ، ولكن تحت الشجيرات كانت بعض نباتات السوسن البيضاء والصفراء قد أخذت تزهر بالفعل ، وكانت رائحة نضرة باردة تفغ من أوراق البنفسج .

قادها سايمون إلى أقرب مقعد . جلس وقد انحنى قليلاً إلى الأمام ،

ومرفقاه مسندان على ركبتيه . ثم رفع بصره إليها بابتسامة صغيرة غريبة ، وقال :

«أعتقد أني أعرف تقريباً ما ستقولينه لي . هناك رجل آخر أعز عليك مني...»

أجابت كريستين بصوت واهن : «الأمر هكذا» .

قال سايمون بلهجة أقسى : «و أعتقد أني أعرف اسمه أيضاً . إنه إرلند نيكولاوسون أوف هوسابي» .

بعد برهة سألت كريستين بصوت خفيض :

«لقد سمعت بالأمر إذن ؟»

كان سايمون بطيئاً في الإجابة :

«ليس عليك أن تحسبيني غبياً إلى درجة لا أستطيع معها أن أرى ما حدث حين كنا معاً في احتفال عيد الميلاد ؟ لم أستطع قول أي شيء عندئذ ، فقد كان أبي وأمي معنا . ولكن هذا ما جعلني أحضر وحدي هذه المرة . لا أعرف إن كان تصرفاً حكيماً من قبلي أن أذكر الموضوع... ولكني فكرت في أن علينا أن نتحدث عن هذه الأمور قبل أن نصبح زوجين .

«... ولكن ما حدث الآن هو أني حين جئت إلى هنا البارحة... قابلت قريبي السيد أويستاين . وقد ذكرك أمامي . قال إنكما مررتما كلاكما عبر ساحة كنيسة القديس كلمنت في إحدى الأمسيات ، وكان معك امرأة تدعى برينهيلد فلوغا . وقد أقسمت له أنه كان مخطئاً لا بدّ! ولو قلت لي إن هذا غير صحيح لصدقتك» .

أجابت كريستين بتحد : «لقد كان ما شاهده الكاهن صحيحاً . لقد أقسمتَ قسماً كاذباً يا سايمون» .

جلس ساكناً لحظة قبل أن يسألها :

«أتعرفين من هي برينهيلد فلوغا هذه يا كريستين ؟»وحين هزت رأسها ، قال : «لقد وضعها مونان باردسون في منزل هنا في البلدة ، حين تزوج… إنها تمارس تجارة غير قانونية بالخمر… وبأمور أخرى… »

سألته كريستين بسخرية : «أتعرفها ؟ »

قال سايمون وقد احمر وجهه : «لم أنذر نفسي لأكون راهباً أو كاهناً ، ولكن أستطيع القول في الأقل إني لم أرتكب خطأ في حق أي عذراء أو زوجة لرجل . ألا ترين أن تلك فعلة ما كان يليق برجل شريف أن يرتكبها ، أي أن يخرجك لتسيري ليلاً مع امرأة كتلك… ؟ »

قالت كريستين وقد احمر وجهها غضباً : «لم يغوني إرلند ، ولا وعدني بشيء . لقد وهبته قلبي دون أن يفعل أي شيء من طرفه ليغريني… من أول مرة رأيته فيها أصبح أعز عليّ من كل الرجال الآخرين » .

جلس سايمون يلعب بخنجره ، ويرمي به من يد إلى أخرى .

قال : «هذه كلمات غريبة أسمعها من فتاة مخطوبة . هناك الكثير من الآمال أمامنا يا كريستين » .

«لن تكون محظوظاً بالزواج مني الآن يا سايمون » .

قال سايمون أندرسون : «أجل ، يعرف الرب كليّ القدرة أن الأمر يبدو هكذا بالفعل » .

قالت كريستين بتواضع وخجل : «إذن أنا أتجرأ على الأمل بأنك ستدعمني حتى ينهي السير أندرسون وأبي هذا الاتفاق المبرم فيما يخصنا » .

قال سايمون : «هل تأملين ذلك حقاً ؟» صمت لحظة . «الرب يعرف إن كنت تفهمين حقاً ما تقولينه» .

قالت كريستين : «بل أفهمه . أعرف أن القانون لا يجبر فتاة على الزواج رغم إرادتها . هذا إذا قدمت طلبها إلى «المجلس »… »

«أعتقد أنه يجب أن يقدم إلى الأسقف» ، قال سايمون بشيء كابتسامة كالحة . «صحيح أنه لا داعي لديّ أن أبحث عن النص القانوني المتعلق بمثل هذه الأمور . أعرف جيداً أنك لا تعتقدين أن ذلك سيؤدي إلى الحصول على الأذن . تعرفين جيداً أيضاً أني لن أجعلك تتمسكين بوعدك لو كان قلبك مصمماً على عدم الالتزام به . ولكن ألا تستطيعين أن تفهمي أن سنتين قد مضتا على الاتفاق على زواجنا ، وأنت لم تتلفظي بكلمة واحدة عن ذلك حتى الآن ، بينما كل شيء جاهز الآن للخطبة والزواج . هل فكرت ماذا سيعني ذلك لو حضرت الآن وطلبت فسخ الاتفاق يا كريستين ؟»

قالت كريستين : «و لكنك لا تريدني أيضاً» .

«أجل ، أريدك» ، أجاب سايمون باقتضاب . «إذا كنت تعتقدين بالعكس ، فعليك أن تفكري بالأمر على نحو أفضل...»

«لقد أقسمنا إرلند نيكولاوسون وأنا بإيماننا المسيحي أنه إن لم نستطع أن نجتمع تحت سقف الزواج ، عندها لن يتزوج أي منا طوال حياته...» ، قالت كريستين مرتجفة .

صمت سايمون فترة . ثم قال بجهد :

«إذن لا أعرف يا كريستين ما الذي عنيته حين قلت إن إرلند لم يغوك ولم يعدك بشيء... لقد أغراك بأن تعاندي رأي أهلك كافة . هل فكرت أي نوع من الأزواج ستنالين لو تزوجت رجلاً اتخذ زوجة رجل آخر عشيقة له... والآن يود أن يتزوج خطيبة رجل آخر... ؟»

«أنت لا تقول هذا إلاّ لتجرحني» .

«أتعتقدين أني أريد أن أجرحك ؟» سأل سايمون بصوت خفيض .

قالت كريستين متلعثمة : «ليس الأمر هنا كما لو أنك... فأنت لم تُسأل

عن رأيك أيضاً يا سايمون... كان أبوك وأبي هما من عقدا الاتفاق . كان الأمر قد اختلف لو اخترتني بنفسك... »

غرز سايمون خنجره في المقعد وتركه هناك منتصباً . بعد قليل سحبه مجدداً وحاول أن يعيده إلى غمده ، ولكن ذلك لم يكن ممكناً لأن رأسه انثنى . ثم جلس وراح يمرّره من يد إلى أخرى كما فعل سابقاً .

قال بلهجة خفيضة وصوت مرتجف : «أنت تعرفين بنفسك أنك تكذبين ، إن كنت تصرين على أني لا أريدك... تعرفين جيداً ما كنت سأتحدث عنه معك -في كثير من المرات- حين قابلتني ، لذلك لا أكون رجلاً لو كنت قادراً على قول ذلك -على أي حال- ليس لو حاولوا أن يسحبوه مني بكماشة حمراء متوهجة...

«أولاً ظننت أنه ذلك الشاب المتوفى . ظننت أن عليّ أن أتركك في سلام فترة -فأنت لم تعرفيني- وقد اعتبرت أنه سيكون من الخطأ أن أزعجك بعد ذلك مباشرة . والآن أرى أنك لم تكوني في حاجة إلى كل ذلك الوقت لتنسي... الآن... الآن... الآن... »

قالت كريستين بهدوء : «لا . أعرف ذلك يا سايمون . لا أستطيع أن أعتبرك صديقاً بعد الآن » .

«صديق......! » ضحك سايمون ضحكة غريبة قصيرة . «هل أنت في حاجة إلى الصداقة الآن إذن ؟ »

احمر وجهها .

قالت بلطف : «أنت رجل ، وأنت في سن ناضجة بما يكفي الآن... تستطيع أن تختار بنفسك المرأة التي ستتزوجها » .

نظر إليها سايمون بحدة . ثم ضحك كما من قبل .

«أفهم ذلك . ستقولين لي إني أنا الذي... أي أنا من سيتحمل اللوم عن

حل الاتفاق ؟إن كنت مصممة على ذلك -إن كانت لديك الإرادة والجرأة على محاولة تنفيذ هدفك- عندها سأفعل ذلك» ، قال هو بصوت خفيض . «في البيت مع كل أفراد أسرتي ، وأمام كل أقربائك... باستثناء واحد . عليك أنت أن تقولي لوالدك الحقيقة ، كاملة كما هي . إن رضيت بذلك فسأحمل رسالتك إليه ، وأوفّر عليك بذلك المشقة إلى الحد الذي أستطيعه ... ولكن لافرانس بيورغولفسون سيعرف أنني لن أتراجع أبداً بإرادتي عن عهد قطعته له» .

أمسكت كريستين بحافة المقعد بكلتي يديها . كان تحمل هذا أقسى عليها من كل شيء آخر قاله سايمون دار . اختلست نظرة منه وهي شاحبة وخائفة .

نهض سايمون .

قال : «الآن علينا الدخول . أعتقد أننا على وشك التجمد كلانا ، والأخت جالسة هناك تنتظر مع المفتاح . سأعطيك أسبوعاً لتفكري في المسألة... لدي عمل في البلدة هنا . سأعود وأكلمك حين أكون مستعداً للذهاب ، ولكنك لن تريني أبداً في هذه الأثناء» .

٨

قالت كريستين لنفسها : الآن في الأقل انقضى الأمر . ولكنها أحست أنها محطمة من الإنهاك وتواقة إلى ذراعي إرلند .

بقيت ساهرة معظم الليل ، وقررت أن تفعل ما لم تجرؤ على التفكير فيه من قبل : سترسل رسالة إلى إرلند . لم يكن أمراً سهلاً أن تجد شخصاً ينفذ مثل هذه المهمة لأجلها . لم تكن الأخوات الخادمات يخرجن وحدهن قط ، كما لم تكن تعرف أن أياً منهن قد تكون راغبة في الذهاب . كان الرجال الذين يقومون بأعمال المزرعة شيوخاً ولكنهم نادراً ما كانوا يقتربون من سكن الراهبات ، باستثناء القدوم للتحدث مع الأم الرئيسة نفسها . كان هناك أولاف فحسب . كان شاباً يافعاً يعمل في الحدائق . وكان ابناً بالتبني لليدي غروا منذ أن وجد كطفل حديث الولادة على درج الكنيسة في صباح أحد الأيام . قال الناس إن واحدة من الأخوات/ الخادمات هي أمه . وكانت ستصبح راهبة . ولكن بعد أن وضعت في الزنزانة المعتمة لمدة ستة أشهر -بسبب عصيانها الخطير ، كما قيل -و كان ذلك حوالي الوقت الذي وجد فيه الطفل- فقد ألبست ملابس الأخوات/ الخادمات وراحت تعمل في المزرعة منذ ذلك الحين . غالباً ما فكرت كريستين بمصير الأخت إنغريد

خلال هذه الشهور ، ولكن لم تتح لها إلا فرص قليلة للتحدث إليها . كانت الثقة بأولاف أمراً مترعاً بالمخاطرة ، فقد كان طفلاً بعد ، وكان من عادة الليدي غروا والراهبات أن يثرثرن ويمزحن معه حين يرينه . ولكن كريستين اعتبرت أن أي مخاطر تخاطر بها الآن لن تهمها كثيراً . وبعد يوم أو يومين ، حين كان أولاف في صباح أحد الأيام ذاهباً إلى البلدة ، أرسلت كريستين رسالة معه إلى أكرسنس ، بأن على إرلند أن يجد وسيلة يستطيعان بها الاجتماع وحدهما .

في عصر ذلك اليوم نفسه جاء خادم إرلند ، أولف ، إلى الحاجز المشبك . قال إنه خادم آسموند بيورغولفسون وأنه يريد أن يرجو نيابة عن سيده ، أن تنزل ابنة أخ آسموند إلى البلدة لوقت قصير ، فليس لدى آسموند الوقت الكافي للوصول إلى نونسيتر . ظنت كريستين أن هذه الخطة ستفشل حتماً ، ولكن حين سألتها الأخت بوتنتيا إن كانت تعرف حامل الرسالة ، قالت : «أجل» . وهكذا مضت مع أولف إلى منزل برينهيلد فلوغا . كان إرلند ينتظرها في العلية : كان قلقاً ومضطرب البال ، وعرفت على الفور أنه كان يخشى ممّا بدا أنه يخافه أكثر من أي شيء آخر .

غالباً ما كان يؤلم روحها أن عليها أن تشعر بمثل هذا الخوف المسكون بالأرواح بأنها قد تكون حاملاً... مع أنهما لا يستطيعان الافتراق . وقد قالت له ذلك بكل مرارة إذ كانت منهكة وقلقة هذا المساء إلى أقصى حد . احمر وجه إرلند ووضع رأسه على كتفها .

قال : «أنت على حق . عليّ أن أحاول أن أتركك بحالك يا كريستين... ولن أعرض سعادتك للخطر . إذا...»

رمت بذراعيها من حوله وضحكت ، ولكنه أمسك بها من خصرها

وأجبرها على الجلوس على مقعد ،فجلست على الجانب الأبعد من اللوح . وحين مدت يدها نحوه ، غطى راحتها بقبل عنيفة .

قال متقداً بالعاطفة : «لقد حاولت أكثر منك . أنت لا تعرفين كم أعتقد أن زواجنا بشرف مهم لكلينا » .

قالت كريستين : « إذن كان عليك ألا تتملكني » .

خبأ إرلند وجهه بيديه .

قال : «أجل ، أتمنى من الرب لو لم أرتكب ذلك الخطأ معك» .

قالت كريستين وهي تضحك بجرأة : «لا أنت ولا أنا نرغب في ذلك . وإن أمكن الغفران لي والمصالحة أخيراً مع أهلي ومع الرب ، عندها لن أشعر كثيراً بالأسف رغم أن عليّ أن أرتدي قلنسوة المرأة حين أتزوج . أجل ، وغالباً يبدو لي أني أستطيع الاستغناء حتى عن السلام ، إن كنت معك فحسب » .

«ستجلبين الشرف معك إلى منزلي مرة أخرى» ، قال إرلند . «لا أن أجرّك أنا إلى حضيض العار» .

هزت كريستين رأسها ثم قالت :

«ستكون سعيداً على ما يبدو حين تسمع أني تكلمت مع سايمون أندرسون ، ولن يجبرني على الالتزام بالاتفاق الذي عقده نيابة عنا أبوانا قبل أن أقابلك» .

و فوراً جن جنون إرلند من الفرح ، وطلب من كريستين أن تحكي له كل شيء . ولكنها لم تحك له عن الكلمات المليئة بالاحتقار التي تلفظ بها سايمون عن إرلند ، رغم أنها قالت إنه لن يتحمل المسؤولية عن ذلك أمام لافرانس .

قال إرلند بعد ذلك بوقت قصير : «هذا منطقي ، فهما يحبان أحدهما

الآخر أبوك وهو ، أليس كذلك ؟ أجل سيحبني أقل كما أعتقد... لافرانس » .

فهمت كريستين هذه الكلمات على أنها إشارة إلى أن إرلند شعر معها أنه لا يزال أمامها طريق شائك تقطعه قبل أن يصلا إلى نهاية رحلتهما . وكانت شاكرة له لأجل ذلك . ولكنه لم يعد إلى هذا الموضوع . كان سعيداً إلى حد لا يوصف ، وقال إنه كان يخشى ألا تتحلى بالشجاعة على مخاطبة سايمون .

قال : « أنت تحبينه نوعاً ما ، كما أستطيع أن ألاحظ » .

سألت كريستين : « هل يعني لك شيئاً... بعد كل الذي جرى بينك وبيني ، أني أستطيع أرى أن سايمون رجل شريف وشجاع ؟ »

قال إرلند : « لو لم تقابليني ، لكنت قد قضيت معه على الأرجح أياماً سعيدة يا كريستين . لم تضحكين ؟ »

« أوه ، لقد تذكرت فحسب ما قالته الليدي آشيلد مرة » ، أجابت كريستين . « كنت طفلة فحسب ، وكان ذلك شيئاً ذكرته حول أيام طيبة تأتي للأشخاص الحكماء ، ولكن أفضل الأيام إطلاقاً هي لأولئك الذين يتجرؤون على أن يكونوا دون حكمة .

« فليبارك الله قريبتي لو علّمتك هذا » ، قال إرلند ثم وضعها على ركبته . « من الغريب يا كريستين أني لم ألاحظ بتاتاً أنك كنت خائفة » .

سألته وهي تلوذ به : « ألم تلاحظ ذلك إطلاقاً ؟ »

أجلسها على حافة السرير وخلع عنها حذاءها ، ولكنه أعادها مجدداً إلى الطاولة .

« أوه يا كريستين... أخيراً يبدو وكأن أياماً مضيئة قد تمر علينا كلينا . أعتقد أني ما كنت سأعاملك كما فعلت » ـ قال وهو يربت ويربت على شعرها- « لو لم يحدث في كل مرة أراك فيها أني أفكر في أنه ليس هناك من

سبب يدعو أهلك إلى منحي مثل هذه الزوجة الجميلة الرائعة... اجلسي هنا واشربي نخبي» ، هكذا رجاها .

بعد لحظة كانت هناك طرقة على الباب... بدت كضربة من مقبض سيف .

«افتح الباب يا إرلند نيكولاوسون إن كنت في الداخل!»

«إنه سايمون دار» ، قالت كريستين بصوت خفيض .

«افتح أيها الرجل باسم الشيطان... إن كنت رجلاً!» صرخ سايمون وهو يضرب على الباب مجدداً .

ذهب إرلند إلى السرير وتناول سيفه من المشجب الذي على الجدار . نظر فيما حوله ، وهو لا يدري ما يفعل : «لا مكان هنا تختبئين فيه...»

قالت كريستين : «لن تكون الأمور أفضل لو اختبأت» . كانت قد نهضت على قدميها . تحدثت بهدوء شديد ، ولكن إرلند لاحظ أنها كانت ترتجف : «عليك أن تفتح» ، قالت باللهجة نفسها . راح سايمون يضرب على الباب بقوة مجدداً .

ذهب إرلند ورفع المزلاج . دخل سايمون . كان يحمل سيفاً مجرداً في يده ، ولكنه أعاده إلى غمده فوراً .

لبرهة من الزمن وقف الثلاثة صامتين . كانت كريستين ترتجف . ولكنها في هذه اللحظة الأولى ، شعرت باستثارة غريبة عذبة -من أعماقها ظهر شيء وهي تشم رائحة المعركة بين رجلين- سحبت نفساً عميقاً . كانت هذه نهاية للأشهر التي لا تنتهي من الانتظار الأبكم والتوق والخوف . دارت بنظرها من هذا الرجل إلى الآخر ، كانا شاحبين وعيونهما لامعة ، ثم تحول التوتر الذي في داخلها إلى يأس بارد لا غور له . كان هناك الاحتقار البارد أكثر من الغضب أو الغيرة في عيني سايمون دار ، ورأت أن إرلند ، خلف

وقفته المتحدية ، كان يحترق من الخجل . وقد خطر لها ، كيف يفكر الرجال الآخرون فيه ، هو الذي سمح لها أن تأتي إليه في مثل هذا المكان ، ورأت أن الأمر بدا وكأنه كان عليه أن يعاني ضربة في الوجه . عرفت أنه كان يتحرق إلى استلال سيفه والانقضاض على سايمون .

صرخت صرخة عالية في خوف : «لم أتيت إلى هنا يا سايمون ؟»

التفت كلا الرجلين إليها .

قال سايمون : «لأعود بك إلى البيت . لا يمكنك أن تبقي في هذا المكان...»

قال إرلند بشراسة : «لم يعد يحق لك أن تلقي بالأوامر على كريستين لافرانسداتر . إنها تخصني الآن...»

قال سايمون بوحشية : «لا أشك في ذلك ، ويا له من سرير عرس جميل جلبتها إليه...» توقف قليلاً وهو يلهث ، ثم سيطر على صوته وتكلم بهدوء : «و لكن الأمر وما فيه أني لا أزال خطيبها... حتى يستطيع أبوها أن يأتي من أجلها . وخلال ذلك أعني أن عليّ أن أحمي بحد سيفي ورأسه ما يمكن حمايته من شرفها... في عيون الآخرين...»

«و ما حاجتك إلى حمايتها . أنا أستطيع...» وهنا احمر وجه إرلند كما الدم تحت عيني سايمون . ثم صرخ غاضباً : «أتعتقد أني سأتحمل تهديدات من غلام مثلك» ، هكذا صرخ وهو يضع يده على مقبض سيفه .

صفّق سايمون بكلتي يديه خلفه .

«لست جباناً حتى أخشى أن تعتبرني خائفاً» ، قال كما في السابق . «سأبارزك يا إرلند نيكولاوسون ، ويمكنك أن تراهن بروحك على ذلك ، إذا لم تقم خلال الوقت الملائم بالتقدم لخطبة يد كريستين من أبيها...»

قال إرلند بغضب وقد اندفع الدم إلى وجهه مجدداً : «لن أفعل ذلك أبداً بناء على أوامرك» .

أجاب سايمون دون تأثر : «كلا ، فلتفعل ذلك لتصحح الخطأ الذي ارتكبته في حق فتاة شابة . سيكون الأمر أفضل على هذا النحو لكريستين» .

صرخت كريستين عالياً ، متألمة لألم إرلند . ضربت الأرض بقدمها :

«هيا اذهب يا سايمون ، اذهب... ما علاقتك بنا ؟»

قال سايمون : «لقد قلت لك للتو ، عليك أن تتحمليني حتى يحررك أبوك ويحررني» .

انهارت كريستين تماماً .

«هيا امض ، امض ، وسألحق بك مباشرة... يا للمسيح! لماذا تعذبني هكذا يا سايمون ؟... أنت تعرف أنك لا تعتبرني جديرة بأن تزعج نفسك لأجلي...»

أجاب سايمون : «لا أفعل هذا لأجلك... يا إرلند ، ألن تقول لها أن تذهب معي ؟»

ارتعش وجه إرلند . لمسها على كتفها :

«عليك الذهاب يا كريستين . سأتحدث أنا وسايمون دار عن هذا في وقت آخر...»

نهضت كريستين مطيعة ، وربطت عباءتها من حولها . كان حذاؤها قرب السرير... تذكرته ، ولكن لم تستطع أن ترتديه تحت نظر سايمون .

•

في الخارج كان الضباب قد حلّ مجدداً . اندفعت كريستين برأس مطأطئ ويدين منقبضتين في طيات عباءتها . كان حلقها يتفجر بالدموع...

لقد تاقت بجنون إلى مكان تستطيع أن تكون فيه وحدها لتبكي وتبكي . كان الأسوأ والأسوأ ما زال بانتظارها . ولكنها اكتشفت شيئاً جديداً هذا المساء وقد راحت تتلوى ألماً بسببه... لقد اكتشفت كيف يكون الإحساس بمشاهدة الرجل الذي منحته نفسها وهو يُذلّ .

كان سايمون عند مرفقها وهي تسرع عبر الحارات ، فوق الأراضي العمومية والأماكن المفتوحة ، حيث اختفت المنازل ولم يكن هناك من شيء يرى عدا الضباب . ومرة ، حين تعثرت بشيء ما ، فقد أمسك بذراعها ومنعها من السقوط .

«لا داعي للركض بهذه السرعة . الناس تحدق إلينا... لكم ترتجفين!» قال ذلك على نحو ألطف .

صمتت كريستين وتابعت المشي .

انزلقت في أوحال الشارع ، فقد كانت قدماها رطبتين من البرد المجلد... كان الجورب الطويل الذي ترتديه من الجلد ، ولكنه رقيق . أحست به يتمزق وبالوحل يتغلغل إلى قدميها العاريتين .

وصلا إلى الجسر فوق نهر الدير ، ومضيا على نحو أبطأ صاعدين المنحدرات على الجانب الآخر . قال سايمون فجأة : «يا كريستين لا يجب أن يعلم أبوك أبداً بهذا» .

سألته كريستين : «و كيف عرفت أني كنت... هناك ؟»

أجاب بعد برهة قصيرة : «جئت لأكلمك . فقيل لي إنه جاء شخص من طرف عمك . بينما أعرف أن آسموند كان في هادلاند . لستما شديدي المكر في اختراع الحكايات... هل سمعت ما قلته الآن ؟»

قالت كريستين : «أجل . أنا من أرسلت رسالة إلى إرلند بأن علينا أن نلتقي في منزل فلوغا . أنا أعرف المرأة...»

«عيب عليك! ولكن ما كان يمكنك أن تعرفي من هي... وهو... هل تسمعينني» ، قال سايمون بقسوة . «إن كان ممكناً إخفاء هذا ، فعليك أن تخفي عن لافرانس ما تخليت عنه . وإذا لم تستطيعي إخفاء ذلك ، إذن فعليك أن تبذلي جهدك لتوفري عليه أسوأ درجات العار» .

قالت كريستين وهي ترتجف : «أنت شديد الحرص على أبي» . حاولت أن تتكلم بتحدٍ ، ولكن صوتها كان جاهزاً للانخراط في البكاء .

سار سايمون إلى الأمام قليلاً . ثم توقف... لمحت وجهه ، وهما واقفان هناك وحدهما معاً في وسط الضباب . لم تكن قد رأته على هذا النحو قط .

قال : «لقد رأيت ذلك جيداً ، في كل مرة كنت فيها في بيتكم ، يا له من فهم قاصر فهمكن هذا للافرانس أنتن نساءه . إنه لا يعرف كيف يسيطر عليكن ، كما يقول تروند غييسلينغ ـ و كأنما كان عليه أن يزعج نفسه بمثل هذا العمل ـ هو الذي ولد ليسيطر على الرجال . لقد صنع كقائد ، أي ، كرجل كان من شأن الرجال أن يتبعوه بكل سرور . ليس هذا زمن الرجال من أمثاله : لقد عرفه أبي في باغهاوس... ولكن ، وكما هي عليه الحال الآن ، فقد عاش حياته هناك في «ديل» ، وكأنه ليس سوى مزارع... لقد تزوج صغيراً... وأمك ذات المزاج الكئيب لم تكن المرأة التي تجعل حياته سعيدة . لديه الكثير من الأصدقاء... ولكن أتظنين أن هناك رجلاً واحداً صديقاً حقيقياً له ؟ لقد سُرق أبناؤه منه... ولكن أنتن بناته اللواتي كان يجب أن يؤسسن نسله من بعده... أنتن اللواتي عليه أن يعيش حتى الآن ليرى هذا اليوم الذي ترك واحدة منكن دون صحة والأخرى دون شرف...»

ضغطت كريستين يديها بشدة فوق قلبها : أحست أن عليها أن تبقيه في مكانه حتى تستطيع أن تكون قوية بالقدر المطلوب .

همست بعد فترة : «لم تقول هذا ؟ لا يمكن أن تكون الرغبة لا تزال لديك بالزواج مني...»

قال سايمون دون ثبات : «لا رغبة لدي . فليساعدني الرب يا كريستين... أفكر فيك وأنت في ذلك المساء في العلية في فينسبريكن... ولكن فليأخذني الشيطان القذر إن كنت سأعيش إلى ذلك اليوم الذي أثق فيه بعيني فتاة مرة أخرى!»

«... عديني بأنك لن تري إرلند قبل أن يصل أبوك» ، قال عندما وقفا قرب البوابة .

أجابت كريستين : «لن أفعل ذلك» .

قال سايمون : «إذن هو من سيقوم بالوعد» .

قالت كريستين بسرعة : «لن أراه» .

قال سايمون وهما يفترقان : «الكلب الصغير الذي أرسلته لك ، يمكنك أن تهديه لأختيك... لقد أصبحتا مولعتين به... هذا إذا كنت تكرهين رؤيته في البيت .

«... سأسافر شمالاً غداً باكراً» ، قال ، ثم أخذ بيدها مودعاً ، بينما راحت الأخت حارسة الباب تنظر إليهما .

مشى سايمون دار هبوطاً باتجاه البلدة . رفع قبضته المشدودة وهو يمشي ، وراح يتحدث بصوت نصف مرتفع ، ويشتم في الضباب . أقسم لنفسه أنه ليس حزيناً عليها... كريستين... كأنما كان قد ظن الأمر ذهباً خالصاً ، وحين فحصه عن كثب ، وجد أنه لا شيء سوى النحاس والقصدير . كانت بيضاء كرقاقة ثلج وهي تركع وتدسّ يدها في النار... كان ذلك في العام الماضي . وفي هذه السنة هاهي تشرب النبيذ مع ماجن منبوذ في علية فلوغا . يا للشيطان ، لا! كان حزيناً على لافرانس بيورغولفسون القابع هناك

في يوروندغارد معتقداً أنه لا يمكن أبداً أن تخونه بنته . والآن كان عليه هو نفسه أن يتحمل نقل الأخبار ، وأن يساعد في الكذب على ذلك الرجل... لأجل هذا فإن قلبه يحترق من الأسف والغضب .

لم تكن كريستين راغبة في الحفاظ على وعدها لسايمون دار ، ولكن كما جرى ، فقد تبادلت كلمات قليلة فقط مع إرلند... في إحدى الأمسيات هناك على الطريق .

لقد وقفت وأمسكت بيده ، وكانت وديعة على نحو غريب ، بينما راح هو يتحدث عما جرى في علية برينهيلد في آخر لقاء لهما . ومع سايمون أندرسون سيتكلم هو مرة أخرى . «لو تبارزنا هناك ، لعرفت البلدة كلها بما جرى» ، قال إرلند بحرارة . «و كان هو يعرف ذلك أيضاً جيداً... سايمون هذا» .

لاحظت كريستين كم كان هذا الأمر يغيظه . وكانت هي قد فكرت أيضاً في ذلك باستمرار : لم يكن هناك مجال لإخفاء الحقيقة ، فقد خرج إرلند من هذه القضية بشرف أقل حتى منها هي . ثم أحست أنهما أصبحا بالفعل جسداً واحداً...أن عليها أن تتحمل مسؤولية كل ما كذب فيهً ، حتى لو كرهت أفعاله ، وأن عليها أن تشعر بأثر ذلك في جسدها كلما حدث وخُدش جلد إرلند فحسب .

•

بعد ثلاثة أسابيع وصل لافرانس بيورغولفسون إلى أوسلو لإحضار ابنته .

كانت كريستين خائفة ، وكان قلبها يؤلمها حين مضت إلى البهو لتقابل أباها . وما أدهشها أولاً هي أنها حين رأته واقفاً هناك يحادث الأخت

بوتنتيا ، لم يكن يبدو عليها أنها تذكرته . ربما كان قد تغيّر قليلاً منذ أن افترقا قبل عام... ولكنها كانت تراه في كل سنوات عمرها في البيت ، على أنه الرجل الشاب القوي المليح الذي كانت فخورة به كأب حين كانت صغيرة . في كل شتاء وكل صيف كان يمر عليهم هناك في البيت ، كان العمر المتقدم يترك عليه آثاره ، بينما كانت هي تتحول إلى امرأة شابة ناضجة... ولكنها لم تكن ترى ذلك . لم تكن ترى أن شعره كانت تخف كثافته هنا وهناك ، وأنه قد اتخذ لوناً أحمر صدئاً عند الصدغين... كما يحدث للشعر الأصفر حين يشيب . كان خداه قد أخذا بالانكماش وأصبحا أطول حتى أن العضلات كانت تنزل في خطوط أقسى نحو فمه . كان لونه الشاب الأبيض والأحمر قد بهت ليصبح لوناً سفعته الشمس والرياح . كان ظهره غير منحنٍ... ولكن لوحي كتفيه كانا قد عرفا الآن انحناء غير معتاد تحت عباءته . كانت خطواته خفيفة وثابتة ، وهو قادم باتجاهها يمد يداً مفتوحة ، ولكنها لم تكن الحركة القديمة النشطة والمرنة . لا شكّ أن كل هذه الأشياء كانت موجودة هناك في العام الماضي ، إلاّ أنها لم تكن قد رأتها فحسب . وربما أضيفت لمسة صغيرة من الحزن جعلتها ترى هذه التغييرات الآن . فانفجرت باكية .

وضع لافرانس ذراعه حول كتفها ووضع يده على خدها .

قال بلطف : «هيا ، هيا ، اهدئي يا طفلتي» .

سألته بصوت خفيض : «أأنت غاضب مني يا أبي ؟»

أجاب : «لا بد أنك تعرفين أني غاضب» . ولكنه تابع الربت على خدّها . «ومع ذلك فأنت تعلمين جيداً أنه ليس عليك أن تخافي مني» ، قال هذا بحزن . «كلا ، الآن عليك أن تهدئي يا كريستين . ألست خجلة من التصرف كالأطفال ؟» فقد كانت تبكي حتى أنها اضطرت للجلوس على

المقعد . «لن نتكلم عن هذه الأمور هنا حيث يخرج الناس ويدخلون» قال لها هذا وجلس إلى جانبها وأخذ يدها . «ألن تسألي عن أمك... وأختيك إذن... ؟»

سألته ابنته : «ما رأي أمي بهذا ؟»

«لا داعي للسؤال عن هذا... ولكننا لن نتكلم الآن» ، قال مجدداً . «و خلاف ذلك هي بخير...» ثم راح يحكي لها عن هذه الحوادث وتلك ممّا جرى في البيت في مزرعتهم ، حتى أضحت كريستين أهدأ فأهدأ تدريجياً .

و لكن بدا لها أن التوتر قد أصبح أسوأ لأن أباها لم يذكر شيئاً حول انتهاكها لعهد الخطوبة . وقد منحها المال لتوزع على فقراء الدير وتقدم الهدايا إلى زميلاتها من التلميذات . كما قدم هو نفسه هدايا ثمينة إلى الدير والأخوات . ولم يعرف أي شخص في نونسيتر أي شيء عدا أن كريستين كانت ستعود إلى بيتها لأجل الخطوبة والزواج . وتناول كلاهما آخر وجبة على مائدة الليدي غروا في غرفة الأم الرئيسة وتحدثت الليدي عن كريستين بعبارات المديح العالي .

ولكن هذا كله انتهى أخيراً . ودعت الأخوات وصديقاتها عند بوابة الدير . قادها لافرانس إلى حصانها ورفعها إلى السرج . كان أمراً غريباً جداً الركوب مع أبيها والرجال من يوروندغارد إلى الجسر ، على امتداد هذا الطريق ، الذي كانت تتسلل منه في الظلام . كما بدا رائعاً أيضاً أن تركب عبر شوارع أوسلو بحرية وشرف . فكرت بقافلة زفافها الرائعة التي تكلم عنها إرلند مراراً : أصبح قلبها ثقيلاً . لو حملها بعيداً معه لكن الأمر أسهل . سيكون هناك وقت طويل أمامها ، سيكون عليها أن تعيش فيه حياة سرية وأخرى مكشوفة أمام الناس . ثم سقطت عيناها على وجه أبيها الجاد الآخذ بالهرم ، وحاولت أن تفكر أن إرلند كان على حق على أي حال .

كان هناك مسافرون آخرون في النزل . عند المساء تعشوا جميعاً معاً في غرفة صغيرة بمدفأة ، حيث كان هناك سريران فقط . كان لافرانس وكريستين سيناماان هناك ، فقد كانا الأعلى مرتبة بين الضيوف . لذلك حين تقدم الليل قليلاً ، تمنى لهما الآخرون ليلة طيبة ثم انصرفوا إلى أماكن نومهم . فكرت كريستين كيف كانت هي من انسلّ إلى عليّة برينهيلد فلوغا إلى ذراعي إرلند... وهاهي عليلة من الأسى والخوف من أنها قد لا تعود لتكون له مجدداً ، ثم فكرت ، لا ، ليس هناك لها مكان بعد الآن بين هؤلاء الآخرين .

كان أبوها جالساً على المقعد البعيد ينظر إليها .

سألت كريستين لتحطم الصمت : «ألن نذهب إلى سكوغ هذه المرة ؟»

أجاب لافرانس : «لا . لقد سئمت ممّا لدى عمّك ليسمعني إياه... لأني لن اجعلك تُكْرَهِيْنَ على أمر» ، أضاف وهي تنظر إليه بتساؤل .

«و الحقيقة هو أني كنت سأجعلك تحافظين على عهدك لولا أن سايمون قال إنه لن يرضى بزوجة غير راغبة فيه» ، قال هو بعد فترة قصيرة .

قالت كريستين بسرعة : « لم يسبق لي إطلاقاً أن منحت عهداً لسايمون . وكنت قد قلت سابقاً إنك لن تجبرني على الزواج بالقوة...»

«ما كان ذلك بالقوة لو كنت سأجعلك تلتزمين بالصفقة التي تعمّمت منذ ذلك الحين وأصبحت معروفة من قبل كل الناس» ، أجاب لافرانس . «في فصلي الشتاء اللذين مضيا حملتما أنتما كلاكما اسم المخطوبين ، ولم تعترضا على ذلك ، ولا أظهرتما عدم الرغبة ، حتى هذا الوقت وقد تحدد موعد زفافكما . وإذا كنت ستحاجيني بأن الأمر تأجل في السنة الماضية ، وهكذا فأنت لم تمنحي عهداً لسايمون ، عندها لن أسمي هذه بالصفقة العادلة» .

وقفت كريستين تحدق إلى النار .

تابع أبوها قائلاً : « لا أعرف ما الذي سيبدو أسوأ ، أن يقال إنك تخليت عن سايمون أو أنه هو من تخلى عنك . لقد أرسل لي السير أندرس رسالة » . وهنا احمر وجه لافرانس وهو يتكلم : « كان غاضباً من الشاب ، وطلب مني أن أطلب أي تعويضات أراها ملائمة . وقد اضطررت إلى قول الحقيقة . لا أعرف ما هو الأفضل... ولو كانت هناك تعويضات لكان علينا نحن أن نقدمها . ونحن موسومون بالعار في كلتا الحالين » .

قالت كريستين بصوت خفيض : « لا أستطيع التفكير في وجود مثل هذا العار العظيم بما أن لنا سايمون وأنا رأي واحد » .

كرر لافرانس : « رأي واحد . لم يخف عني أنه كان تعيساً ، ولكنه قال إنكما بعد أن تبادلتما الحديث ، فقد اعتبر أن الأمر سيكون سيئاً لو أنه جعلك تحافظين على العهد... والآن عليك أن تقولي لي كيف توصلت إلى هذا » .

سألت كريستين : « ألم يقل سايمون شيئاً ؟ »

قال أبوها : « يبدو وكأنه قد فكر في أنك قد منحت حبك إلى رجل آخر . والآن عليك أن تحكي لي ما حدث يا كريستين » .

فكرت كريستين قليلاً .

قالت بصوت خفيض : « الله يعلم أني أرى أن سايمون قد يكون ملائماً لي ، وربما أفضل مني . ولكن من الصحيح أني قد تعرفت إلى رجل آخر . وعندها عرفت أني لن أكون سعيدة لساعة واحدة طوال حياتي إن كنت سأعيش مع سايمون... حتى لو كان لديه كل الذهب الذي في إنكلترا... فسأفضل الرجل الآخر لو لم يكن يمتلك بقرة واحدة » .

قال أبوها : « لا تأملي في أن أمنحك إلى خادم ، على ما أعتقد ؟ »

« إنه من أصل نبيل بقدر أصلي ، بل وأفضل . ولكني قصدت أن أقول

هذا... لديه ما يكفي من الأراضي والمتاع ، ولكني أفضل النوم معه على القش العاري على أن أنام مع رجل آخر في سرير حرير» .

بقي أبوها صامتاً برهة .

«يا كريستين ، لن أرغمك على الزواج من رجل لا ترغبين فيه... رغم أن الرب والقديس أولاف هما وحدهما من يعرف ما الذي تحملينه ضد الرجل الذي خطبته لك . ولكن أن يكون الرجل الذي منحته قلبك رجلاً يليق بي أن أزوجك له فهذه مسألة أخرى . أنت لا تزالين صغيرة السن ، ولست بالحكيمة على نحو كاف بعد... وأن يرغب رجل في امرأة موعودة لرجل آخر... حسناً ، لا أرى في هذا ديدن رجل مستقيم... »

قاطعته كريستين قائلة : «لا يوجد رجل يستطيع أن يتحكم بنفسه في هذا الأمر» .

«بلى ، بل يستطيع . ولكنك عليك أن تفهمي ما يلي : لن أسيء إلى جماعة دايفرين بحيث أوافق على خطبتك إلى رجل آخر في اللحظة التي تتخلين فيها عن سايمون... ولن أقبل أن تكون خطبتك إلى رجل قد يكون أعلى منزلة أو أكثر ثراء... عليك أن تقولي من هو هذا الرجل» ، قال بعد فترة قصيرة .

ضغطت كريستين يديها معاً وتنفست بعمق . ثم قالت ببطء شديد :

«لا أستطيع يا أبي . وسيكون الأمر كما يلي : إن لم أتزوج هذا الرجل ، عندها تستطيع أن ترجعني إلى الدير ولن تخرجني منه ثانية... ولن أعيش طويلاً هناك ، على ما أعتقد . ولكن لن يكون ملائماً أن أذكر اسمه ، قبل أن أعرف إن كان يحمل تجاهي النية الطيبة نفسها كالتي أحملها تجاهه . ليس عليك أن تجبرني على ذكر اسمه قبل أن... قبل أن نتأكد... إن كان... إن كان ينوي أن يخطبني من خلال أقربائه» .

صمت لافرانس مدة طويلة . لم يستطع سوى أن يكون مسروراً في أن ابنته تأخذ المسألة على هذا النحو . قال أخيراً :

«ليكن الأمر هكذا إذن . إنه لأمر منطقي أن تخفي اسمه عني ، إن كنت لا تعرفين المزيد عن نيّاته» .

قال بعد قليل : «والآن إلى الفراش يا كريستين» . ثم اقترب وقبلها .

«لقد سببت الحزن والألم لكثيرين بسبب عنادك هذا يا ابنتي... ولكن عليك أن تعرفي أن مصلحتك تقبع قرب قلبي... وليساعدني الله على أن يكون الأمر على هذا النحو ، إذ أخشى أنك مهما فعلت... فإنه [الرب] و«أمه الكريمة» سيمدان إلينا يد العون بكل تأكيد ، حتى تنتهي هذه القضية إلى أفضل نتيجة... هيا اذهبي وحاولي النوم جيداً الآن» .

بعد أن اضطجع في فراشه فكر لافرانس في أنه سمع صوت بكاء ضعيف قادم من السرير الذي إلى جوار الجدار الآخر ، حيث كانت ابنته تنام . لم يجرؤ على القول لها إنه يخشى أن يعود الكلام القديم الذي حُكي عنها وعن آرن وبنتاين إلى الظهور مجدداً الآن ، ولكن كان يثقل عليه أنه ما كان يستطيع أن يفعل الكثير لإنقاذ سمعة ابنته من أن تلطخ من وراء ظهره . وكان أسوأ ما في الأمر أن عليه أن يعتبر أن كثيراً من الشر قد حصل بسبب طيشها .

القسم الثالث

لافرانس بيورغولفسون

١

عادت كريستين إلى البيت والربيع في أوجه . كان نهر «لاغن» يندفع حول منحناه عبر الضيعة والحقول ؛ بتيار يلتمع ويتوهج بومضات من الفضة من خلال الأوراق الرقيقة لأجمات أشجار جار الماء . وكأنما كان لومضات النور صوتاً خاصاً بها قد انضم إلى أغنية النهر ، لأنه حين هبط غسق المساء ، بدا الماء وكأنه يمضي بهدير أخفت . ولكن في النهار كما في الليل كان الهواء فوق يورروندغارد مليئاً بالصوت الهادر ، حتى فكرت كريستين أنها تستطيع الإحساس بأن أخشاب المنازل نفسها كانت ترتجف مثل صندوق موسيقى القيثارة .

التمعت خيوط صغيرة من الماء عالياً فوق جوانب الجبل الذي انتصب ملفوفاً بسديم أزرق يوماً بعد يوم . كانت الحرارة تتلبث ثم ترتجف في الحقول . وكانت التربة البنية للحقول المحروثة مختفية تقريباً تحت رماح القمح والمروج مغطاة بطبقة سميكة من العشب ، وقد راحت تلتمع كالحرير حيث تمر أنفاس الريح . هبت من البساتين ومروج الهضاب روائح حلوة . وما أن غربت الشمس ، حتى اندفع من كل الأرجاء النفس القوي البارد الحامض للنسغ والنباتات... لكأن الأرض قد أطلقت تنهيدة طويلة

مخفّفة . فكرت كريستين وهي ترتجف باللحظة التي حررتها فيها ذراعا إرلند . في كل مساء كانت تضطجع مريضة من الشوق ، وفي الصباحات كانت تستيقظ مبللة بعرقها ومتعبة من أحلامها .

كان الأمر الذي يتجاوز فهمها هو كيف أن الناس في بيتها قد استطاعوا الامتناع عن ذكر أي كلمة حول الشيء الوحيد الذي كان يعتلج في أفكارها . ولكن الأسبوع مضى إثر الأسبوع ، ولم يُذكر شيء عن سايمون أو عن عهدها الذي نكثته ، ولم يسألها أحد عما كان يعتمل في قلبها . كان أبوها يقضي معظم أوقاته خارجاً في الغابات ، فالآن كان أوان فلاحة الربيع وبذر البذور بيديه : كان يذهب ليشرف على حرّاقي القار العاملين لديه ، وكان يصطحب الصقور وكلاب الصيد معه ، وكان يغيب أياماً كثيرة دفعة واحدة . وحين كان يمكث في البيت ، كان يتحدث إلى بناته بلطف كما كانت عادته دائماً ، ولكن كأنما لم يكن لديه الكثير ليقوله لها ، ولم يسألها أن تصطحبه قط حين كان يغادر .

كانت كريستين خائفة من الذهاب إلى البيت خشية تقريع أمها ، ولكن راغنفريد لم تذكر كلمة واحدة ، مما جعل الأمور تبدو أسوأ لها .

•

في كل عام حين يولم لأصدقائه في قداس القديس يوحنا ، كان من عادة لافرانس بيورغولفسون أن يمنح الفقراء في أبرشيته اللحم والطعام المتنوع اللذين تم توفيرهما في بيته خلال الأسبوع الأخير من الصوم . كان أولئك الذين يسكنون أقرب ما يكون إلى يورروندغارد يأتون من تلقاء أنفسهم للحصول على الحسنات . هؤلاء الفقراء كانوا دائماً موضع ترحيب وإكرام ، وكان لافرانس وضيوفه وكل خدم بيته يتجمعون من حولهم . فقد

كان بعضهم رجالاً مسنين يحفظون عن ظهر قلب كثيراً من القصص البطولية والقصائد الغنائية . كانوا يجلسون في غرفة المدفأة ويقضون الوقت بشرب الجعة والكلام الودي . وفي المساء كانوا يرقصون في الساحة .

في هذه السنة كانت عشية عيد القديس يوحنا غائمة وباردة . ولكن لم يأسف أحد لذلك ، فالمزارعون في «ديل» قد بدأوا بالخوف من الجفاف . لم يكن المطر قد هطل منذ ليلة «سانت هالفارد ويك» ، ولم يكن هناك سوى ثلج قليل في الجبال . ولا يتذكر الناس أنهم رأوا النهر شديد الانخفاض إلى هذا الحد في منتصف الصيف منذ ثلاثة عشر عاماً .

و هكذا كان لافرانس وضيوفه في حالة معنوية جيدة حين هبطوا ليحيوا طالبي الصدقة في غرفة المدفأة . جلس الفقراء من حول المائدة يتناولون عصيدة الحليب ويغسلونها بالجعة القوية المسكرة . وقفت كريستين قرب المائدة وراحت تخدم المسنين والمرضى .

حيّا لافرانس ضيوفه الفقراء وسألهم إن كانوا راضين بزادهم . ثم تجوّل ليرحب بالمتسولين العجائز الذين أحضروا في ذلك اليوم خصيصاً إلى يوروندغارد . كان اسم الرجل هو هاكون وهو ممن حاربوا تحت إمرة الملك هاكون العجوز ، وكان مع الملك حين حارب لآخر مرة في اسكوتلاندة . كان أفقر الفقراء الآن ، وأعمى تقريباً . وقد عرض عليه مزارعو «ديل» الإقامة في كوخ يخصه وحده ، ولكنه اختار بالأحرى أن يُنقل كمتسول من مزرعة إلى أخرى ، ففي كل مكان كان الناس يرحبون به كضيف محترم ، بما أنه رأى الكثير في هذه الدنيا ، ولديه مخزون هائل من المعرفة .

وقف لافرانس إلى جانب ويده على كتف أخيه . فقد كان آسموند بيورغولفسون قد وصل إلى يوروندغارد في زيارة وقد سأل هاكون إن كان الطعام يعجبه .

«الجعة جيدة يا لافرانس بيورغولفسون» ، قال هاكون . «ولكن أعتقد أن امرأة ساقطة قد طهت لنا العصيدة اليوم» . بينما كانت تعانق أحد الرجال احترقت العصيدة ، هكذا يقول المثل . وهذه العصيدة شائطة» .

قال لافرانس : «هذا أمر سيئ فعلاً أن أقدم لكم عصيدة شائطة . ولكني أعتقد جيداً أن المثل القديم لا يقول الحقيقة دائماً ، فابنتي نفسها هي من طهت العصيدة لكم» . و ضحك وأمر كريستين وتورديس أن تسرعا بجلب قصعات اللحم .

انسلت كريستين خارجاً بسرعة واتجهت نحو المطبخ . كان قلبها يدق بقوة إذ كانت قد لمحت وجه آسموند حين تكلم هاكون .

في ذلك المساء رأت أباها وأخاه يتمشيان ويتحادثان معاً في الساحة فترة طويلة وحتى وقت متأخر . كانت مصابة بالدوار من الخوف ؟ ولم يكن الأمر أفضل في اليوم التالي ، حين لاحظت أن أباها كان صامتاً متكدراً . ولكنه لم ينبس ببنت شفة .

كما أنه لم يقل شيئاً بعد رحيل أخيه . إلا أن كريستين لاحظت جيداً أنه كان أقل كلاماً مع هاكون ممّا كان ديدنه ، وحين انقضى دورهم في إيواء المحارب العجوز ، لم يعط لافرانس أي أمارة تدل على الرغبة في إبقائه فترة أطول ، بل تركه ينتقل إلى المزرعة التالية .

•

أما بالنسبة إلى البقية فقد كان يحق للافرانس بيورغولفسون أن يكون مزاجياً وكئيباً هذا الصيف ، فقد كانت كل الدلائل تشير إلى أن هذه السنة لم تكن سنة خير في الريف . وكان المزارعون يعقدون الاجتماعات للتشاور حول ما سيفعلونه لمواجهة الشتاء المقبل . ومع مرور أواخر الصيف ، تبين

لمعظمهم أن عليهم أن ينحروا قسماً كبيراً من قطعانهم أو أن يقودوها جنوباً للبيع ولشراء القمح لإطعام أسرهم خلال فصل الشتاء . لم يكن العام الفائت جيداً للقمح لذا كان مخزونهم من القمح القديم قليلاً .

في صباح أحد أيام أوائل الخريف ، خرجت راغنفريد مع بناتها الثلاث لترى بعض الكتان الذي تركته على حقل تبييض الغسيل . امتدحت كريستين حياكة أمها إلى حد كبير . ثم ربتت الأم على شعر رامبورغ الصغيرة وقالت :

«علينا أن نوفر هذه لصندوق عرسك أيتها الصغيرة» .

قالت أولفهيلد : « ألن يكون لي صندوق عرس حين أذهب إلى دير الراهبات يا أمي ؟ »

قالت راغنفريد : «تعرفين جيداً أن دوطتك لن تكون أقل من دوطة أختيك . ولكنهما لن تكونا في حاجة إلى ما سوف تحتاجينه أنت . كما أنك تعرفين جيداً كذلك أنك ستبقين مع أبيك ومعي طالما نحن على قيد الحياة ، إن شئت ذلك» .

قالت كريستين بصوت مضطرب : «و حين تأتين إلى دير الراهبات ، يا أولفهيلد فسوف أكون قد سبقتك إلى هناك كراهبة بسنوات كثيرة» .

نظرت إلى أمها ، ولكن راغنفريد صمتت .

قالت أولفهيلد : «لو كنتُ فتاة تستطيع الزواج ، لما كنت لأتخلى عن سايمون . إنه لطيف جداً ، وكان حزيناً جداً حين ودعنا جميعاً» .

قالت راغنفريد : «تعرفين أن أباك أمرنا ألاّ نتكلم عن هذا الموضوع» . و لكن كريستين انتهكت الحظر متحدية :

«أجل . حسناً أعتقد أن فراقكم كان أقسى عليه من فراقي» .

قالت أمها بغضب :

«و أعتقد أن عزة نفسه قد منعته من إظهار حزنه أمامك... لم تعاملي

سايمون أندرسون جيداً وبعدل يا ابنتي . ومع ذلك فإنه رجانا ألا نستخدم التهديدات ولا السباب معك... »

قالت كريستين كما من قبل : « كلا ، لقد ظهر ربما أنه قد شتمني بنفسه إلى حد كاف حتى أنه لم تعد هناك حاجة لأي شخص آخر أن يحكي لي كم كان هو شريراً . ولكني لم ألاحظ أن سايمون كان شديد الاهتمام بي حين رأى أني أحب رجلاً آخر أكثر منه » .

قالت راغنفريد للفتاتين الأصغر سناً : « اذهبا إلى البيت أيتها الطفلتان » . ثم جلست على جذع شجرة كان ملقياً على المرج ، وجذبت كريستين إليها .

قالت لها : « تعرفين بكل تأكيد أنه ليس من اللائق والمشرف أن يتحدث الخاطب كثيراً عن الحب مع خطيبته ، ولا أن يجالسها على انفراد كثيراً ، ولا أن يغازلها بحرارة زائدة عن اللزوم... »

قالت كريستين : « أوه ، أتساءل كثيراً إن كان الشبان والشابات الذين يحبون بعضهم البعض يضعون في أذهانهم أن يحترموا ما يعتبره كبار السن ملائماً ، ولا ينسون مثل هذه الأمور كلها بين الحين والآخر » .

قالت أمها : « حاذري يا كريستين كي لا تنسي هذه الأمور » . ثم جلست صامتة فترة قصيرة : « ما أراه جيداً الآن يا ابنتي هو أن أباك يخشى أن تكوني قد وهبت قلبك لرجل لا يستطيع هو أبداً أن يزوجك له وهو سعيد » .

سألت كريستين بعد فترة : « ما الذي قاله عمي ؟ »

أجابت الأم : « لا شيء ، ولكنه ذكر أن إرلند أوف هوسابي يحمل اسماً أفضل مقاماً من سمعة صاحبه . أجل ، لقد تحدث هو [إرلند] إلى آسموند ، على ما يبدو ، ليقول كلاماً طيباً عنه أمام لافرانس . ولم يكن أبوك مسروراً إطلاقاً بأن يسمع ذلك» .

ولكن كريستين جلست تشع سعادة . لقد تحدث إرلند مع عمها . وكانت هي مكدرة البال لأنه لم يرسل أي إشارة!

ثم تكلمت أمها مجدداً :

« و لكن هناك أمر آخر : إن آسموند قال شيئاً عن إشاعة تدور في أوسلو ، وتفيد بأن الناس رأوا إرلند هذا يتسكع في الدروب حول الدير وأنك قد خرجت وكلمته عند السياج هناك » .

سألتها كريستين : « و ماذا إذن ؟ »

« لقد نصحنا آسموند ، كما ترين أن نقبل هذا العرض » ، قالت راغنفريد . « ولكن لم يسبق لي أن رأيت لافرانس غاضباً إلى هذا الحد . قال إن الخاطب الذي يحاول التقرب من ابنته بتلك الوسيلة يجب أن يجده معترضاً طريقه وسيفه في يده . لقد تعاملنا مع أهل دايفرين على نحو مسيء للشرف . ولكن أن يقوم إرلند ذاك بإغوائك للتسكع على الطرقات في العتمة معه ، بينما أنت تقيمين في دير للراهبات المقدسات ، فقد كان ذلك كله دليلاً جيداً على أنه من الأفضل لك أن تخسري مثل هذا الزوج » .

عصرت كريستين يديها معاً في حضنها... كان لون وجهها يغادره ثم يعود . وضعت أمها ذراعاً حول خصرها... ولكن الفتاة انزوت مبتعدة عنها ، وقد فقدت رشدها من انفعالها ، وصاحت :

« دعيني في حالي يا أمي! هل تريدين أن تقيسي خصري ربما لتري إن كان قد أصبح أكبر من السابق... »

في اللحظة التالية كانت قد نهضت وقد رفعت يدها إلى خدها : نظرت إلى عيني أمها اللامعتين وقد أصابتها الحيرة . لم يسبق لأحد أن صفعها منذ أن كانت طفلة صغيرة .

« اجلسي ، قالت راغنفريد . « اجلسي » ، قالت لها ثانية ، فأطاعتها

الفتاة . جلست الأم صامتة فترة ، وحين تكلمت كان صوتها يرتجف :

«لقد رأيت كل ذلك جيداً يا كريستين... لم يسبق لك أن أحببتِني حباً جماً ، وربما كان السبب ظنك بأني لا أحبك كثيراً... بقدر ما يحبك أبوك . لقد انتظرت الفرصة... ظننت أنه حين يأتي دورك لترزقي بطفل ، ستفهمين بكل تأكيد...

«حين كنت أرضعك ، حتى في ذلك الحين ، كان يحدث في كل مرة يقترب فيها لافرانس منا نحن الاثنتين ، أن تتركي ثديي وتمدّي يدك إليه وتضحكي حتى يجري حليبي فيغمر شفتيك . كان لافرانس يظن ذلك تسلية لطيفة... والله يعلم أني كنت سعيدة جداً لأجله . كنت سعيدة جداً أيضاً لأجلك ، أن أباك كان يضحك ويصبح مرحاً كلما رآك . لقد ظننت أنه من المؤسف لك ، أنت أيتها الصغيرة ، أني لم أكن قادرة على التخلص من كل ذلك البكاء . كنت دائماً أفكر فيما لو كنت سأفقدك أنت أيضاً ، بدل أن أفكر في التمتع بوجودك . ولكن الرب وأمه المقدسة يعرفان أني لم أحبكِ أقل ممّا أحبك لافرانس» .

كانت الدموع تجري على وجنتي راغنفريد ، ولكنّ وجهها كان هادئاً تماماً الآن ، وكذلك صوتها :

«الرب يعلم أني لم أحسده أو أحسدك على الحب الذي كان بينكما . لقد فكرت في أنني لم أمنحه سوى القليل من الفرح في السنوات التي عشناها معاً . كنت سعيدة أنه كان يجد سعادته فيك . كما فكرت أن أبي إيفار كان أباً كهذا لي أنا أيضاً...

«هناك أمور كثيرة يا كريستين يجب أن تعلّمها الأم لابنتها حتى تحذر منها . ولكني ظننت أنه لم تكن هناك سوى حاجة قليلة لأفعل ذلك معك أنت التي كنت ترافقين أباك طوال هذه السنوات... عليك أن تعرفي ما هو الصواب

وما هو الشرف . تلك الكلمة التي تلفظت بها للتو... أتظنين أني أستطيع أن أصدق أنك تجرؤين على أن تسبّبي للافرانس كل ذلك الأسى... ؟

«سأقول هذا لك... رغبتي هي أن تتمكني من أن تكسبي زوجاً لك رجلاً يستطيع أن يحبك جيداً . ولكن مهما حدث فإن عليك أن تتصرفي بحكمة... لا تجعلي لافرانس يفكر أنك قد اخترت شخصاً محباً للمتاعب ، شخصاً لا يحترم خلوة النساء ولا شرفهن . فهو لن يتركك تتزوجين شخصاً كهذا ، حتى لو كان ذلك لإنقاذك من عار مفضوح . بل يفضل أن يدع السيف يقضي بينه وبين الرجل الذي شوه حياتك... »

وهنا نهضت الأم وابتعدت عنها .

٢

في مجلس هاوغا الذي انعقد في يوم قداس بارثولوميو ، أي في الرابع والعشرين من آب (أغسطس) ، نُودِيَ بابن ابنة (حفيد) الملك هاكون ذي الذكرى الطيبة ملكاً . وبين الرجال الذين أرسلوا إلى هناك من مقاطعة غودبراندسدال الشمالية كان لافرانس بيورغولفسون . كان يسمى برجل الملك منذ شبابه ، ولكن في كل هذه السنوات كان نادراً ما يقترب من «المنزل الملكي» ، وكانت السمعة الطيبة التي اكتسبها في الحرب ضد الدوق آيريك أمراً لم يحسن هو استغلاله . كما أنه لم يكن كثير الرغبة في الذهاب في هذه الرحلة إلى البيعة ، ولكنه ما كان يستطيع أن يرفض الدعوة . وعلاوة على ذلك ، كان هو والرجال البارزون من الوادي العلوي مكلفون بمحاولة شراء القمح في الجنوب وإرساله بالسفينة إلى رومسدال .

كان الناس من الأبرشيات المجاورة في حالة ذعر الآن ، وخائفين من الشتاء القادم . كما اعتبر المزارعون تنصيب طفل ملكاً مرة أخرى في النرويج أمارة غير حسنة . تذكر العجائز ذلك الزمن حين مات الملك ماغنوس وكان أبناؤه مجرد أطفال صغار ، وقال سيرا آيريك باللاتينية :

«لا راحة للجرذان ليلاً حين يكون القط الذي في البيت قطيطة» .

أدارت راغنفريد إيفارسداتر كل الأمور في الضيعة في غياب زوجها ، وكان أمراً جيداً لكل من كريستين ولها أن يكون رأساهما وأيديهما مليئة بشؤون المنزل وأعماله . في كل أنحاء الأبرشية كان الناس مشغولين بتجميع الطحالب من الجبال وقشر اللحاء عن الأشجار ، فقد كان محصول التبن ضئيلاً ، ولم يكن هناك تبن يذكر . وحتى أوراق الشجر التي جمعت بعد عشية عيد القديس يوحنا كانت صفراء خالية من النسغ . في عيد يوم الصليب المقدس ، حين حمل سيرا آيريك الصليب وجال في الحقول ، كان هناك الكثير من الناس في الموكب ممّن بكوا وصلوا بصوت مرتفع للرب ليرحم الناس والحيوانات العجماء .

•

بعد أسبوع من عيد الصليب ، وصل لافرانس بيورغولفسون إلى البيت من المجلس .

كان قد فات موعد نوم سكان البيت ، ولكنَ راغنفريد كانت ساهرة لا تزال في غرفة الحياكة . كان لديها الكثير من المشاغل خلال النهار الآن ، حتى أنها غالباً ما كانت تعمل حتى وقت متأخر في الليل وهي تحوك وتخيط . كانت راغنفريد تحب المنزل كثيراً أيضاً . كانت له شهرة كونه أقدم منزل في المزرعة وكان يسمى «منزل الرابية» ، ويقول الناس إنه موجود منذ الأيام الوثنية القديمة . كانت كريستين والفتاة المسماة أستريد هناك مع راغنفريد تغزلان عند المدفأة .

كن جالسات هناك وهن ناعسات صامتات ، حين سمعن صوت وقع حوافر حصان واحد... وصل رجل راكباً على حصان يعدو إلى داخل المزرعة .

مضت أستريد إلى الغرفة الخارجية لتنظر إلى الخارج : و خلال لحظات عادت مجدداً يتبعها لافرانس بيورغولفسون .

لاحظت كل من زوجته وابنته أنه كان قد شرب أكثر من المعتاد . كان يترنح في مشيته ويتمسك بعمود فتحة الدخان بينما أخذت راغنفريد منه عباءته وقبعته المبللتين اللتين يقطر منهما الماء وفكت له حزام سيفه .

قالت خائفة : «ما الذي فعلته بهالفدان وكولباين ؟ هل تركتهما خلفك على الطريق ؟ »

« لا ، تركتهما خلفي في لوبتسغارد » ، قال بضحكة قصيرة . « كنت مصمماً على العودة إلى المنزل ثانية... ما كان ممكناً لي أن أرتاح حتى أصل إلى البيت... مضى الرجال إلى الفراش في لوبتسغارد ، ولكنني ركبت غولدسفاينن وعدوت به إلى البيت... »

«عليك أن تحضري لي بعض الطعام يا أستريد » ، قال للخادمة . «اجلبيه إلى هنا ، أيتها الفتاة . ثم ليس عليك أن تمضي بعيداً في هذا المطر . ولكن أسرعي لأني لم أتناول طعاماً منذ الصباح الباكر » .

سألته زوجته مستغربة : «ألم تتناول طعاماً في لوبتسغارد إذن ؟ »

جلس لافرانس وهو يتأرجح على المقعد من هذا الجانب إلى الآخر ، ويضحك قليلاً .

« كان هناك طعام... بكل تأكيد... ولكن لم تكن لي شهية له حين كنت هناك . شربت قليلاً مع سيغورد... ولكن... فكرت أن عليّ أن أعود إلى البيت فوراً على الانتظار حتى الغد... »

عادت أستريد وهي تحمل الطعام والجعة . وجلبت معها أيضاً حذاء جافاً لسيدها .

تلمّس لافرانس إبزيم مهمازه ليفكه ، ولكنه كاد يسقط على وجهه .

قال :«تعالي يا كريستين يا ابنتي إلى هنا وساعدي أباك . أعرف أنك ستفعلين ذلك من قلب محب ، أجل قلب محب... اليوم» .

ركضت كريستين لتلبي أمره . ثم أخذ رأسها بين يديه ورفع لها وجهها :

«هناك شيء واحد أعتقد أني أعرفه يا ابنتي... لا أتمنى سوى صالحك . لن أسبب لك الحزن أبداً ، إلا إذا رأيت أني بذلك قد أنقذك من أحزان كثيرة قادمة . أنت لا تزالين شابة جداً بعد يا كريستين . لقد بلغت السابعة عشرة فحسب هذا العام... بعد ثلاثة أيام من قداس هالفارد... السابعة عشر فحسب...»

كانت كريستين قد أنهت عملها الآن . كانت شاحبة بعض الشيء وهي تنهض من على ركبتيها لتجلس مجدداً على كرسيها قرب المدفأة .

بدأ ذهن لافرانس يصفو أكثر فأكثر بينما راح يأكل حتى شبع . أجاب على أسئلة زوجته والخادمة حول مجلس هاوغا . أجل كان اجتماعاً جميلاً . لقد استطاعوا شراء القمح وبعض الدقيق والشعير المنبّت بالنقع في الماء ، وقد اشتروا جزءاً في أوسلو والجزء الآخر في تونسبرغ . كانت البضاعة من خارج البلاد ؛ ربما تكون أفضل وقد تكون أسوأ أيضاً . أجل لقد قابل الكثيرين من الأقرباء والأصدقاء ، وهم يرسلون تحياتهم إلى البيت معه... ولكن الأجوبة بدأت تتقطع الواحد بعد الآخر ، وهو جالس هناك .

«لقد تحادثت مع السير أندرس غودموندسون ،» قال حين خرجت أستريد . «سيتزوج سايمون الأرملة الشابة من مانفيك . لقد أقيمت مأدبة الخطوبة .و سيجري الزفاف في دايفرين في عيد قداس القديس أندرو . لقد اختار هذا التاريخ بنفسه ذلك الشاب . لقد ابتعدت عن السير أندرس في تونسبرغ ، ولكنه لاحقني... وذلك ليحكي لي أنه يعرف بكل تأكيد أن

سايمون رأى الليدي هالفريد لأول مرة في هذا الصيف . كان يخشى أن أفكر بأن سايمون كان يفكر بالزواج من أرملة ثرية حين فسخ اتفاقه معنا » .
توقف لافرانس قليلاً وضحك بكدر . « أتفهمان أن ذلك الرجل الصالح الفاضل كان يخشى كثيراً من أن نظن هذا الظن بابنه ؟ » .

تنفست كريستين على نحو أشد حرية . فكرت أن هذا لا بدّ هو ما كان يزعج أباها إلى ذلك الحد المؤلم . ربما كان يأمل طوال هذه الفترة أن الأمر سيمر مرور الكرام على أي حال ، أي زواجها من سايمون أندرسون . أولاً كانت خائفة لئلا يكون أبوها قد سمع أنباء عن أفعالها هناك في أوسلو .

نهضت وتمنت لهما ليلة طيبة ، ولكن أباها أمرها أن تستمر في السهر فترة قصيرة أخرى .

قال لافرانس : « ما زال لديّ أمر واحد عليّ أن أقوله . كان يمكنني أن أصمت أمامك فيما يخص هذا الأمر... ولكن الأفضل أن تعرفيه . هذا هو الأمر يا كريستين : الرجل الذي اختاره لك قلبك ، عليك أن تبذلي جهدك لتنسيه » .

كانت كريستين واقفة وذراعاها مدلاتان ورأسها مطأطئ . رفعت نظرها الآن إلى وجه أبيها . حركت شفتيها ولكن لم يصدر أي صوت يمكن سماعه .

أشاح لافرانس بنظره عن عيني ابنته . وضرب بيده على جنبه .

« أعتقد أنك تعرفين جيداً أني ما كنت سأعارض ذلك لو كنت قادراً بأي وسيلة على الاعتقاد بأنه سيكون لصالحك » .

قالت كريستين بصوت واضح : « ما هي الأنباء التي قيلت لك خلال رحلتك يا أبي ؟ »

أجاب لافرانس : « لقد أتى إلي إرلند نيكولاوسون وقريبه السير مونان

باردسون في تونسبرغ . وطلب مونان يدك لإرلند ، وقد أجبته بلا» .

وقفت كريستين برهة وهي تتنفس بصعوبة :

سألت : «لم لا تريد أن تمنح يدي إلى إرلند نيكولاوسون ؟»

قال لافرانس : «لا أعرف مدى معرفتك بالشخص الذي تريدينه زوجاً لك . وإذا كنت لا تستطيعين أن تحزري السبب بنفسك ، فلن يكون أمراً ساراً لك أن تسمعي ذلك من شفتيّ» .

سألت كريستين كما في السابق : «هل لأنه اعتبر خارجاً على القانون وصدر حرمان بحقه من الكنيسة ؟»

«أتعرفين السبب في طرد الملك هاكون لقريبه لحّاً من بلاطه... وكيف صدر الحرمان بحقه من الكنيسة لتحديه أوامر الأسقف... وأنه حين هرب من البلاد لم يكن يفعل ذلك وحده ؟»

قالت كريستين : «أجل» . بدأ صوتها يضطرب . «أعرف أيضاً أنه كان في الثامنة عشرة حين عرفها لأول مرة : أعني عشيقته» .

أجاب لافرانس : «لم أكن أكبر سناً منه حين تزوجت . حين كنا صغاراً كنا نعتقد أن الرجل في الثامنة عشرة من العمر مسؤول عن نفسه ويحرص على مصلحة الآخرين ومصلحته» .

وقفت كريستين صامتة .

قال لافرانس بعد فترة وجيزة : «لقد أسميتها عشيقة ، تلك المرأة التي عاش معها عشر سنوات ، وأنجبت له أطفالاً . لن أكون سعيداً في ذلك اليوم الذي أرسل فيه ابنتي من بيتها مع زوج كان يساكن علناًعشيقة سنة ثم يغيب عنها سنة ، قبل أن يتزوج . ولكنك تعرفين أنها لم تكن حياة خليعة فحسب بل كانت تلك حياة زنا» .

تكلمت كريستين بصوت خفيض :

«لم يكن حكمك على الليدي آشيلد والسير بيورن قاسياً إلى هذا الحد » .

أجاب لافرانس : «و لكني لا أستطيع القول إني سأكون سعيداً بأن نصاهر أقرباءهما » .

قالت كريستين : «يا أبي ، هل كنت خالياً إلى هذا الحد من كل الخطايا طوال حياتك ، حتى تحكم على إرلند بكل هذه القسوة... ؟ »

قال لافرانس بصرامة : «الرب يعرف أني لا أحكم على أي رجل بأنه صاحب خطايا أكثر مني أمام الرب . ولكن الأمر ليس الاعتقاد فحسب بأن عليّ أن أزوج ابنتي لأي رجل يطلب يدها ، وذلك فقط لأننا كلنا في حاجة إلى غفران الرب» .

قالت كريستين بحماسة : «أنت تعرف أني لم أعن ذلك . يا أبي... يا أمي... لقد كنتما شابين صغيرين أنتما أيضاً... ألا تذكران شبابكما إلى الحد الذي تعرفان فيه أنه من الصعب أن يمنع المرء نفسه عن الخطيئة التي تأتي من الحب... ؟ »

احمر وجه لافرانس كالدم :

«لا » ، قال باقتضاب فظ .

صرخت كريستين بجنون : «إذن فأنت لا تعرف ما تفعله لو كنت ستفرّق بين إرلند نيكولاوسون وبيني » .

جلس لافرانس مجدداً على المقعد .

عاد ليقول : «أنت في السابعة عشرة فحسب يا كريستين . وربما تكونان أنت وهو... أعني ربما قد أصبحتما عزيزين الواحد على قلب الآخر أكثر ممّا ظننت . ولكنه ليس بالشاب الصغير إلى ذلك الحد بل كان عليه أن يعرف... لو كان رجلاً صالحاً ، لما كان سيتقرّب بكلام الحب من طفلة

صغيرة غير ناضجة مثلك... أما أنك كنت موعودة لرجل آخر فإنها مسألة لم يأبه لها كثيراً .

« و لكني لن أزوّج ابنتي ، على أي حال ، من رجل أنجب طفلين من زوجة رجل آخر . أتعرفين أن لديه أطفالاً ؟

« أنت صغيرة جداً على فهم أن مثل هذا الخطأ يولّد العداء لدى الأقارب... وحقداً لا نهاية له . لا يستطيع الرجل التخلّي عن أولاده ، ولا يستطيع أن يؤديهم حقهم... لن يجد إلا بالكاد الوسيلة ليربي ابنه بين الناس الصالحين ، أو أن يجعل ابنته تتزوج من شخص ليس من مجرد خادم أو فلاح . لن يكون هذان الطفلان من لحم ودم إن لم يكرهاك وأطفالك كرهاً مميتاً...

« ألا ترين يا كريستين... مثل هذه الخطايا... قد يغفر الرب مثل هذه الخطايا بسهولة بالمقارنة مع الكثيرين... ولكنها تحطم القربى على نحو لا يمكن معه تصحيح الأمر مجدداً . لقد فكرت في بيورن والليدي آشيلد أيضاً... هاهو ابنها مونان . كان متوهجاً من كثرة الذهب الذي يرتديه... وهو يحضر « مجلس مستشاري الملك » . هو وأخوته حصلوا على ميراث أمهم ، وهو لم يأت مرة واحدة ليزور أمه التي تعيش في الفقر طيلة هذه السنوات . أجل ، وقد كان هذا الرجل هو من اختاره عاشقك ليكون الناطق باسمه .

« لا ، أقول لا . لن تدخلي في علاقة مع تلك الأسرة ما دام رأسي فوق الأرض » .

دفنت كريستين وجهها في يديها وراحت تبكي :

« إذن سأصلي للرب ليلاً ونهاراً ، ليلاً ونهاراً ، حتى تغير رأيك ، وقد يأخذني الرب بعيداً عن هذه الأرض » .

قال أبوها ، والألم في صوته :

«لا داعي للمزيد من الكلام عن هذا الموضوع في هذه الليلة . أنت لا تصدقين ذلك الآن ، ربما ، ولكن عليّ أن أوجه حياتك حتى أستطيع أن آمل بتحمل المسؤولية عنها من الآن فصاعداً . اذهبي وارتاحي الآن يا طفلتي » .

مدّ يده إليها ، ولكنها رفضت أن تراها ، وخرجت باكية من الغرفة .

•

استمر الأب والأم بالجلوس . ثم قال لافرانس لزوجته :

«هل لك أن تجلبي لي جرعة من الجعة ؟... لا ، اجلبي قليلاً من النبيذ . أنا متعب » .

فعلت راغنفريد ما طلبه منها . وحين عادت بكأس النبيذ الطويلة ، كان زوجها جالساً ووجهه مدفون في يديه . رفع نظره إليها ومرّر يده على غطاء رأسها وكميها :

«زوجتي المسكينة ، لقد بلّلك المطر... هيا اشربي نخبي يا راغنفريد » .

بالكاد لمست الكأس بشفتيها .

قال لافرانس بقوة : «كلا ، بل اشربي معي » . و حاول أن يجلسها على ركبتيه . وفعلت المرأة ما يريده دون رغبة . قال لافرانس : «ستؤيدينني في هذا الأمر يا زوجتي ، أليس كذلك ؟ طبعاً سيكون من الأفضل لكريستين نفسها أن تفهم من البداية أن عليها أن تطرد ذلك الرجل من أفكارها » .

قالت الأم : «سيكون ذلك صعباً على الطفلة » .

قال لافرانس : «أجل ، أرى ذلك جيداً » .

جلسا صامتين فترة ، ثم سألت راغنفريد :

« كيف يبدو إرلند أوف هوسابي ذاك ؟ »

أجاب لافرانس ببطء : « أوه ، مظهره وسيم بما فيه الكفاية ، على نحو ما . ولكنه لا يبدو كرجل ملائم إلاّ ليخدع النساء » .

صمتا مجدداً . ثم قال لافرانس :

« الميراث الضخم الذي وصله من السير نيكولاوس... أعتقد أنه تصرف به على نحو جعله يتناقص بشدة . ليس من أجل صهر كهذا كافحت وناضلت لأصنع لبناتي حياة مضمونة » .

راحت الأم تذرع أرض الغرفة جيئة وذهاباً بقلق واضح . مضى لافرانس يقول :

«لم يعجبني إطلاقاً أنه حاول أن يغوي كولباين بالفضة... ليحمل رسالة سرية إلى كريستين » .

سألته راغنفريد : « و هل عرفت ما في الرسالة ؟ »

قال لافرانس باقتضاب : « لا ، لم أفعل ذلك باختياري . لقد أعدتها إلى السير مونان وقلت له رأيي بمثل هذه الأفعال . كان إرلند قد وضع ختمه عليها أيضاً... لا أعرف ما يمكن أن يقوله رجل عن مثل هذه الحيل الصبيانية . لقد أراد السير مونان أن أرى شكل الختم ، وأنه كان ختم الملك سكول الخاص ، والذي ورثه إرلند عن أبيه . وأعتقد أن فكرته كانت هي أن عليّ أن أفكر في الشرف العظيم الذي يمنحونه لي بطلب يد ابنتي . ولكني أظن أن السير مونان ما كان سيشدد على هذه القضية نيابة عن إرلند لولا أن سطوة وشرف آل هوسابي اللذين أحرزهما سير نيكولاوس وسير بارد في أيامهما... لولا أنهما آخذان بالهبوط إلى قعر الوادي على يدي ذلك الرجل... لا يمكن لإرلند بعد اليوم أن يتطلع إلى زواج مكافئ لمرتبته التي كانت له عند مولده » .

توقفت راغنفريد قبل زوجها :

«لا أعرف الآن يا زوجي إن كنت على حق في هذه القضية . أولاً يجب أن يقال إنه في زمان كزماننا هذا ، فإن الكثير من الرجال من حولنا هنا من أصحاب الأملاك الكبيرة قد اضطروا إلى القبول بسلطة وشرف أدنى ممّا كان لآبائهم من قبلهم . وأنت نفسك تعرف جيداً أنه لأسهل على الرجل الآن أن يكسب ثروة من أرض أو تجارة ممّا كان عليه الحال في العالم القديم... »

قاطعها لافرانس نافد الصبر : « أعرف ، أعرف . كما أنه يليق بالرجل أن يدير بحرص الميراث الذي ورثه... »

و لكن زوجته تابعت قائلة :

« كما يجب أن يقال ما يلي : لا أرى أن كريستين لا تليق بإرلند كزوجة من حيث المرتبة . في السويد كان أقرباؤك يجلسون بين الناس الأرفع منزلة ، وكان أبوك وأبوه من قبله يحملان لقب الفارس في أرض النرويج هذه . كان أجدادي بارونات[١٩] لمقاطعات بالوراثة حتى نوغل في الزمن لنوصل إلى « إيفار العجوز » . كان أبي وجدي حاكمي مقاطعات[١٩] . صحيح أنك وتروند لم تحملا ألقاباً أو تملكا أملاكاً تحت وصاية التاج ، ولكن فيما يخص ذلك ، أعتقد أنه يمكن أن يقال إن شأن إرلند نيكولاوسون لا يختلف عن شأنك » .

قال لافرانس بمرارة : « ليس الأمر كذلك . كانت السلطة ولقب الفارس جاهزين تحت يد إرلند ، ولكنه أدار ظهره لهما ليمارس الفجور . ولكني أستطيع أن أرى الآن أنك ضدي أنت أيضاً . ربما تعتقدين ، شأن آسموند وتروند ، إنه لشرف لي أن هؤلاء الرجال العظام يطلبون يد ابنتي لأحد أقربائهم... »

تكلمت راغنفريد ببعض الانفعال : « لقد قلت لك إني لا أرى أنك في

حاجة إلى أن تكون شديد الدماثة بحيث تخشى أن أقرباء إرلند قد يظنون أنهم يتنازلون في مثل هذه الحالة . ولكن ألا ترى كيف تجري الأمور... هاهي ابنة دمثة مطيعة تتجرأ على تحدينا والتخلي عن سايمون دار... ألا تستطيع أن ترى أن كريستين لم تعد كما عهدناها منذ عودتها من أوسلو... ألا ترى أنها تدور في المكان كأنها مسحورة... ألن تفهم أنها تحب هذا الرجل إلى حد بعيد بحيث أنك إن لم توافق فقد تحدث مصيبة كبيرة ؟ »

سأل الأب وهو يرفع بصره بحدة : « ما الذي تعنينه ؟ »

قالت راغنفريد : « يحيّي رجال كثيرون أصهارهم دون أن يعرفوا ذلك» .

بدا على الرجل كأنه قد تيبس هناك حيث كان يجلس ، ثم بدأ وجهه يشحب ببطء :

« أنت أمها » قال بصوت أجش « هل رأيت أمارات أكيدة... تجعلك تتجرئين على اتهام ابنتك... »

قالت راغنفريد بسرعة : « لا . لا . لم أقصد ما ظننته أنت . ولكن حين تكون الأمور على هذا النحو ، فمن يستطيع أن يعرف ما حدث أو سيحدث ؟ لقد رأيت ما في قلبها . إنها لا تفكر إلا في هذا الرجل... ولا عجب إن أظهرت لنا يوماً أنه أغلى عندها من شرفها... أو حياتها » .

انتفض لافرانس واقفاً :

« أوه ، أنت مجنونة . هل تستطيعين أن تفكري بمثل هذه الأمور فيما يخص طفلتنا الجميلة الصالحة ؟ لا شك أنها لم تتعرض لأي أذى في ذلك المكان الذي كانت فيه... مع الراهبات الورعات . لا أعتقد أنها عاملة في زريبة أبقار لتذهب وتغامر خلف الأسوار والأسيجة . فكري في الأمر فحسب : ليس من الممكن أن تكون قد رأت هذا الرجل أو تحدثت إليه

مرات عديدة... كوني على ثقة أن هذا الأمر سينقضي... لن يكون أكثر من مجرد نزوة فتاة شابة . والله يعلم أنه ليشقّ عليّ أن أراها حزينة إلى هذه الدرجة ، ولكن كوني على ثقة من أن الأمر سينقضي دون شك مع مرور الزمن .

«تقولين الحياة والشرف... في بيتي هنا قرب مصطلاي سيكون الخطب جللاً إن لم أستطع حماية ابنتي العذراء . ولا أظن أن أي فتاة من أصل كريم نشأت نشأة مسيحية وتربت على الخجل سترمي بسرعة شرفها... ولا حتى حياتها . أجل ، مثل هذه الأمور تُروى في الأغاني والقصائد دون شك... ولكني أعتقد أنه حين ينوي رجل أو فتاة على ارتكاب مثل هذا الفعل ، تؤلف أغنية حول القصة ، وبذلك تُواسى القلوب... و لكنهما يمتنعان عن ممارسة الفعل نفسه...

«أنت نفسك» ، قال وهو يتوقف أمام زوجته : «كان هناك رجل آخر رغبت فيه زوجاً لك ، في تلك الأيام حين خُطبنا لبعضنا البعض . كيف تظنين أن الأمور كانت ستجري لو أن أباك انصاع لرأيك في هذه المسألة ؟ »

كانت راغنفريد هي من شحب شحوب الموتى الآن :

«يا للمسيح ومريم! و من أخبرك... ؟ »

«حكى سيغورد أوف لوبتسغارد شيئاً ما... كان ذلك بعد وصولنا إلى ديل مباشرة» ، قال لافرانس . «و لكن أجيبيني عما سألته... أتظنين أن حياتك كان من شأنها أن تكون أسعد لو أعطاك إيفار إلى ذلك الرجل ؟ »

وقفت زوجته مطأطئة الرأس .

قالت : «ذلك الرجل»... ما كان قادراً إلا بالكاد على سماع الكلمات : «كان هو من رفضني...» . بدا وكأن رجفة قد اعترت جسدها كله... ضربت الهواء أمامها بقبضتها .

وضع زوجها يده برقة على كتفيها :

سألها كأنما غلب على أمره وقد بدا في صوته استغراب عميق وحزين : «أهذا هو الأمر إذن... عبر كل هذه السنوات... أو كنت تتأسّين عليه... يا راغنفريد ؟»

ارتجفت كثيراً ، ولكنها لم تقل شيئاً .

سألها مجدداً : «راغنفريد ؟ أجل ، ولكن لاحقاً... حين توفي بيورغولف... وفيما بعد... حين وافقتِ أن أكون بالنسبة لك ما لم أكن أستطيع أن أكونه... هل كنت تفكرين آنذاك بالرجل الآخر ؟» كان يتكلم بصوت خفيض في خشية وحيرة وألم .

همست وهي على وشك البكاء : «و كيف يمكن لمثل هذه الأفكار أن تعتريك ؟»

مرّر لافرانس جبينه على جبينها وحرك رأسه بلطف من جانب لآخر .

«لا أعرف . أنت غريبة جداً... وكذلك كل ما قلته الليلة . كنت خائفاً يا راغنفريد . لكأني لا أفهم قلوب النساء...»

ابتسمت زاغنفريد بشحوب ووضعت ذراعيها حول عنقه .

«الرب يعرف يا لافرانس... كنت أتسول حبك ، لأنني أحببتك أكثر ممّا لدى الروح البشرية القدرة على الحب... وكنت أكره ذلك [الرجل] الآخر حتى أني شعرت أن الشيطان سُرّ من كراهيتي» .

قال لافرانس وهو يقبلها : «لقد أحببتك جداً يا زوجتي ، أجل ، من كل قلبي أحببتك . أنت تعرفين ذلك بكل تأكيد ، أليس كذلك ؟ لقد فكرت دائماً في أننا سعيدان معاً أنت وأنا... يا راغنفريد ، أليس كذلك ؟»

قالت وهي تبكي قليلاً : «كنت دائماً خير زوج لي» ، ثم التصقت به . ضمها إليه بقوة .

«الليلة أود أن أنام معك يا راغنفريد . وإن كنت معي كما في الأيام القديمة ، فلن أكون... أحمق إلى تلك الدرجة...» .

بدت المرأة وكأنها تيبست بين ذراعيه ، وابتعدت عنه قليلاً :

تكلمت بصوت خفيض قاس وغريب : «إنها فترة الصيام» .

ضحك قليلاً : «إنها كذلك فعلاً . أنت وأنا ، يا راغنفريد... لقد حافظنا على فترات الصوم وبذلنا جهدنا لنقوم بكل الواجبات تجاه الرب من كل النواحي . والآن أستطيع أن أفكر الآن بأننا قد نكون أسعد لو كان لدينا ما نتوب عنه...» .

«أوه ، لا تتكلم على هذا النحو...» ، هكذا رجته بصوت هائج وهي تضغط بيديها النحيلتين على صدغيه .

«أنت تعرف جيداً أني لا أرغب في أن تقوم أنت بأي شيء عدا ما تشعر أنه الأمر الصحيح» .

قربها إليه مرة أخرى وأنّ عالياً : «ليساعدها الله! ليساعدنا الله جميعاً ، يا راغنفريدي...»

ثم : «أنا متعب» ، قال وهو يطلق سبيلها . «و لقد آن الأوان لترتاحي» .

وقف قرب الباب منتظراً بينما أطفأت هي الجمرات في المدفأة ، ونفخت على المصباح الحديد الصغير عند المغزل ثم قرصت الفتيل المتوهج . ومعاً عبرا تحت المطر إلى المنزل الرئيسي .

كان قد سبق للافرانس أن وضع قدمه على درج العلية ، حين التفت إلى زوجته التي كانت لا تزال واقفة عند باب المدخل .

ضمها بين ذراعيه بقوة مرة أخرى ، للمرة الأخيرة وقبلها في العتمة . ثم رسم إشارة الصليب فوق وجه زوجته ، وصعد الدرج .

خلعت راغنفريد ملابسها واندست في فراشها . وقد استلقت هناك فترة وهي تصغي إلى وقع خطوات زوجها في العلية فوقها . ثم سمعت السرير يصرّ ، وهدأ كل شيء . صالبت راغنفريد ذراعيها فوق ثدييها الذاويين .

أجل ، فليساعدها الرب! أي نوع من النساء هي ؟ وأي نوع من الأمهات ؟ سرعان ما ستصبح عجوزاً . ولكن هل كانت هي تلك المرأة نفسها ؟ رغم أنها لم تعد ترجو الحب على نحو عاصف ، كما حدث حين كانا شابين وكانت عاطفتها القوية قد جعلت هذا الرجل ينكمش ويصبح بارداً حين أرادته عاشقاً وليس مجرد زوج . هكذا كان الأمر... لذلك حدث في المرة تلو المرة ، حين كانت حاملاً ، أن كانت تشعر بالإهانة ، وكانت غاضبة من العار ، لأنها لم تكن راضية بهذا الحب الزوجي الفاتر . ثم ، حين كانت الأمور على هذه الحال ، واحتاجت هي إلى الطيبة والحنان... عندها كان لديه الكثير ليمنحه . كان الرجل يفكر فيها برقة دون كلل حين كانت مريضة ومعذبة ، وكان هذا يقع على روحها كالندى . كان يتحمل كل ما كانت تحمّله إياه ويصبر عليه... ولكن كان هناك دائماً شيء يخصّه فلا يمنحه . لقد أحبت أطفالها ، لذلك ففي كل مرّة كانت تفقد فيها أحدهم ، كان الأمر أشبه وكأن قلبها قد انتزع منها . يا إلهي! يا إلهي! أي امرأة كانت هي آنئذ ، لذلك حتى في ذلك الحين ، في وسط عذاباتها ، كانت تستطيع أن تشعر بذلك كقطرة من العذوبة التي كانت تأخذ أساها إلى قلبه وتضعها قريبة من قلبه .

كريستين... كانت راغنفريد مستعدة لعبور النار لأجل ابنتها . لم يصدقا الأمر ، لا لافرانس ولا الابنة ، ولكن الأمر كان كذلك . ومع ذلك شعرت تجاهها الآن بغضب أقرب إلى الكراهية... لقد تمنى [زوجها] الليلة أن ينسى أساه لأجل أسى ابنته فرغب في أن يستسلم لإرادة زوجته...

لم تجرؤ راغنفريد على النهوض ، فقد كانت تعرف أن كريستين قد تكون مستلقية إنما مستيقظة في السرير الآخر . ولكنها رفعت نفسها بهدوء إلى ركبتيها ، وبجبين منحنٍ فوق اللوح السفلي للسرير ، حاولت أن تصلي لأجل ابنتها ولأجل زوجها ولأجلها هي . وبينما راح جسمها ، تدريجياً ، يتيبّس من البرد ، فقد انطلقت مجدداً في واحدة من جولاتها الليلية التي تعرفها جيداً ، محاولة أن تشق طريقها إلى بيت سلام لقلبها .

٣

كانت «هاوغن» تقع عالياً في الجبال على الجانب الغربي من الوادي . وفي هذه الليلة المقمرة كان العالم بأسره أبيض اللون . قبعت الجبال البيضاء في موجة إثر أخرى مقبّبة تحت السماء الزرقاء الشاحبة بنجومها الرقيقة المنثورة . وحتى الظلال التي كانت القمم والقباب تمدّها فوق المنحدرات الجبلية بدت رقيقة وخفيفة على نحو غريب ، وكان القمر مبحراً على ارتفاع شاهق .

نزولاً نحو الوادي ، انتصبت الغابات بيضاء كجزات الغنم من كثرة الثلج والصقيع وذلك من حول الحقول البيضاء التي تناثرت فيها الأكواخ والأسيجة . ولكن هناك في الأسفل بعيداً في قعر الوادي كانت الظلال تتحول إلى عتمة .

خرجت الليدي آشيلد من حظيرة البقر ، أغلقت الباب خلفها ، ووقفت برهة في الثلج . العالم كله كان أبيض مع أنه ما زالت هناك ثلاثة أسابيع بحالها قبل حلول أيام الآحاد الأربعة السابقة على عيد الميلاد . برد قداس كلمنت... لكأن الشتاء قد سبق له وحل فعلاً . أجل ، أجل ، في السنوات الرديئة يكون الأمر غالباً كذلك .

تنهدت المرأة العجوز بقوة في الهواء الكئيب . لقد حل الشتاء والبرد

والوحدة مجدداً... ثم تناولت دلو الحليب ومضت نحو المنزل . نظرت مرة أخرى عبر الوادي .

خرجت أربع نقط سود من الأحراج عند منتصف الطريق صعوداً في الجبل . أربعة رجال على جياد... والتمع نور القمر منعكساً من رأس رمح . كانوا يحرثون الأرض بقوة في الأعلى... لم يكن أحد قد قطع ذلك الطريق منذ أن هطل الثلج . أكانوا قادمين إلى هنا ؟

أربعة رجال مسلحين... لم تكن من عادة أولئك الذين لديهم مهمة قانونية هنا أن يحضروا بهذا العدد . فكرت بالصندوق الذي يحوي أمتعتها وأمتعة بيورن . هل عليها أن تخفيه في المرحاض الخارجي ؟

نظرت مرة أخرى فيما حولها إلى القفر الشتوي فيما حولها . ثم دخلت إلى المنزل . كان الكلبان العجوزان القابعان أمام الموقد المدخن يضربان ألواح الأرضية بذيليهما . كان بيورن قد اصطحب الكلاب الشابة في رحلته إلى الجبال .

نفخت آشيلد على الجمرات حتى توهجت إلى لهب ، ووضعت بعض الحطب فوقها . ثم ملأت الوعاء الحديد بالثلج ووضعته على النار . بعدئذ سكبت الحليب في وعاء الخشب وحملته إلى قرب الغرفة الخارجية .

ثم نزعت ثوبها الصوفي الخشن القذر غير المصبوغ الذي تفوح منه رائحة الحظيرة والعرق ، وارتدت ثوباً بلون أزرق داكن ، واستبدلت قلنسوة أخرى ضيقة من الكتان الرقيق بقلنسوتها المصنوعة من نسالة الكتان وقد ملّستها من حول رأسها وعنقها على نحو ملائم . ثم خلعت حذاءها الجلدي الخشن وارتدت حذاء ذا إبزيم فضي . ثم بدأت ترتب غرفتها... ملست الوسائد والجلود في السرير الذي نام فيه بيورن في ذلك اليوم ، ونظفت المائدة الطويلة ثم رتبت وسائد المقعد الطويل .

حين بدأ الكلبان ينبحان محذرين ، كانت تقف قرب الموقد ، وهي تحرك عصيدة العشاء . سمعت جياداً في الساحة ، ثم وقع خطوات رجال في الغرفة الخارجية . قرع أحدهم على الباب بمؤخر الرمح . رفعت الليدي آشيلد القدر عن النار ، وسوّت ثوبها من حولها ، ومع الكلبين إلى جانبها ؛ مضت إلى الباب وفتحته .

تحت نور القمر كان هناك ثلاثة شبان يمسكون بأربعة جياد بيض من الصقيع . صرخ رجل كان واقفاً أمامها في الردهة بمرح :

« خالتي آشيلد! هل تأتين بنفسك لتفتحي لنا ؟ كلا ، إذن عليّ أن أقول : مرحى ! »

« يا ابن أختي ، أهو أنت حقاً ؟ إذن أقول لك الشيء نفسه! ادخل إلى الغرفة بينما أدل رجالك على الاسطبل » .

سأل إرلند : « أأنت وحيدة هنا في المزرعة ؟ » ثم تبعها حين دلّت الرجال أين يذهبون .

« أجل ، السير بيورن وخادمنا قد ذهبا إلى الجبل بالمزلجة... سيحضران بعض العلف الذي خزنّاه هناك » ، قالت الليدي آشيلد . « و ليس لدي أي خادمة » ، هذا ما أضافته ضاحكة .

بعد فترة قصيرة كان الشبان الأربعة جالسين على المقعد الخارجي الطويل وظهورهم إلى الطاولة ، وهم ينظرون إلى السيدة العجوز ، وهي تحضر لهم عشاءهم بانهماك إنما بهدوء . وضعت غطاء قماشياً على الطاولة ، ووضعت فوقه شمعة موقدة ، ثم جلبت الزبدة والجبن ولحم الدب المقدد وكومة كبيرة من الشرائح الرقيقة من الخبز الجيد . جلبت الجعة والميد من القبو تحت الغرفة ، ثم سكبت العصيدة في طبق من الخشب الرائع ، وطلبت إليهم الجلوس إلى الطاولة وتناول الطعام .

قالت ضاحكة : «هذا قليل عليكم أيها الشباب . عليّ أن أغلي قدراً آخر من العصيدة . غداً سيكون الوضع أفضل... ولكني أغلق المطبخ في الشتاء ، إلاّ حين أخبز أو أخمّر . نحن قلة في المزرعة وأنا بدأت أشيخ يا قريبي » .

ضحك إرلند وهز رأسه . لقد لاحظ أن رجاله كانوا يتصرفون أمام المرأة العجوز على نحو ملائم ومتواضع كما لم يسبق له أن عهدهم من قبل .

«أنت امرأة غريبة يا خالتي . كانت أمي تصغرك بعشر سنوات ، وكانت تبدو أكبر سناً حين كنا في منزلك لآخر مرة مما تبدين عليه الآن » .

قالت الليدي آشيلد بصوت رقيق : «أجل ، لقد غادر ماغنهيلد شبابها مبكراً جداً . من أين أنتم قادمون الآن ؟ » ، سألت بعد فترة من الزمن .

قال إرلند : «لقد كنت لسبب من الأسباب في إحدى المزارع في الشمال في ليسيا . لقد استأجرت منزلاً هناك . لا أعرف إن كنت تستطيعين أن تخمني السبب الذي أحضرني إلى هذا الريف ؟ »

«عليك أن تسأل : هل أعرف أنا أنك قد طلبت من لافرانس بيورغولفسون أوف يورروندغارد يد ابنته ؟ »

قال إرلند : «أجل ، لقد خطبتها على نحو ملائم وشريف ، وأجاب لافرانس بيورغولفسون بلا بكل فظاظة . والآن لا أرى من طريقة أفضل ، بما أن كريستين وأنا لا نستطيع العيش بعيدين الواحد عن الآخر ، إلاّ أن أحملها بعيداً بالقوة . لديّ عين هنا في هذا الريف ، وأعرف أن أمها ستكون في «سوندبو » في قداس كلمنت ولفترة أخرى بعده ، وأن لافرانس قد غادر إلى رومسدال مع الرجال الآخرين ليجلب مخزون الشتاء إلى « سيل » » .

جلست الليدي آشيلد صامتة فترة من الزمن .

قالت : «عليك أن تتخلى عن مثل هذا الرأي . لا أعتقد أن الفتاة ستذهب معك طوعاً ، وأعتقد أنك لن تستخدم القوة ؟ »

«أجل ، ولكنها ستفعل . لقد تحدثنا عن ذلك مرات عديدة... لقد رجتني هي بنفسها مرات كثيرة أن أحملها وأنطلق بها بعيداً» .

قالت الليدي آشيلد : «هل فعلت كريستين ذلك حقاً... ؟ » ثم ضحكت . «على أي حال ، لا أنصحك أن تكون واثقاً إلى ذلك الحد من أن الفتاة ستلحق بك حين تطلب منها أن تنفذ وعدها» .

قال إرلند : «بل ستفعل . ويا خالتي ، كانت فكرتي كما يلي : أن ترسلي رسالة إلى يوروندغارد تدعين فيها كريستين لتكون ضيفتك... مدة أسبوع أو نحوه ، خلال غياب أبيها وأمها عن البيت . عندها سنستطيع نحن أن نكون في هامار قبل أن يعلم أحد أنها قد رحلت» .

أجابت الليدي آشيلد وهي لا تزال تبتسم :

«و هل فكرت أيضاً بما علينا نحن ، أعني السير بيورن وأنا ، أن نجيب لافرانس حين يأتي ليسأل عن ابنته ؟ »

قال إرلند : «أجل ، فقد كنا أربعة رجال مسلحين والفتاة كانت راغبة» .

قالت الليدي بانفعال : «لن أساعدك في هذا . فقد كان لافرانس رجلاً موضع ثقة لدينا منذ سنوات كثيرة... وهو وزوجته شخصان محترمان ولن أساهم في خداعهما أو إنزال العار بابنتهما . دع الفتاة في سلام يا إرلند . سرعان ما يحل الوقت الذي يسمع فيه أقرباؤك عن أفعال أخرى لك عدا جولاتك إلى خارج البلاد وفي داخلها مع نساء مختطفات...»

قال إرلند باقتضاب : «عليّ أن أكلمك على انفراد» .

حملت الليدي آشيلد شمعة وقادته إلى حجرة المؤونة وأغلقت الباب

خلفهما . جلست على صندوق القمح . وقف إرلند ويداه مقحمتان في حزامه ، وهو ينظر إليها من فوق .

« قد تقولين هذا أيضاً للافرانس بيورغولفسون . إن السيرا يون أوف غيردارود قد عقد قراننا قبل هروبنا إلى الليدي إنجبيورغ هاكونسداتر في السويد » . .

قالت الليدي آشيلد : « أهذا ما تراه ؟ هل أنت واثق تماماً أن الليدي آشيلد إنجبيورغ سترحب بكما حين تصلان إلى هناك ؟ » .

قال إرلند : « لقد تكلمت معها في الأمر في تونسبرغ . لقد حيّتني بصفتي قريبها العزيز ، وشكرتني حين عرضت عليها خدماتي سواء هنا أو في السويد . وقد وعدني مونان بإرسال الرسائل إليها » .

قالت آشيلد : « حتى لو وجدت كاهناً يعقد قرانك ، فهل ستقبل كريستين أن تتخلى عن كل حقوقها في ميراث أبيها من أراض ومتاع ؟ لن يستطيع أطفالها أن يكونوا ورثة شرعيين لك . أشك كثيراً في أن تعتبر زوجتك الشرعية » .

« ليس في هذه البلاد ربما . لذلك سنسرع إلى السويد . إن جدها لاورنتيوس لاغماند لم يكن متزوجاً من الليدي بنغتا إطلاقاً... إذ لم يستطيعا الحصول على موافقة أخيها . ومع ذلك اعتُبرت سيدة متزوجة... »

قالت الليدي آشيلد : « لم يرزقا بأطفال . أتظن أن أبنائي لن يطالبوا بميراثك إذا تركت كريستين أرملة مع أطفال وكان مولد هؤلاء الشرعي موضع نزاع ؟ »

قال إرلند : « أنت تخطئين بحق مونان . لا أعرف إلا القليل عن أولادك الآخرين... أعرف بالفعل أنه لا مبرر لديك للحكم عليهم بعطف . ولكن مونان كان دائماً قريبي الموثوق . وهو سيسعده أن أتزوج . إنه هو الذي ذهب إلى

لافرانس ليطلب يد ابنته نيابة عني... وعلاوة على ذلك، أستطيع أن أضمن لك أن أولادنا من الناحية القانونية سينالون ميراثهم وحقوقهم».

قالت الليدي آشيلد: «وبذلك تُعتبر أمهم محظيتك»، قالت الليدي آشيلد. ولكن ما لا أفهمه هو كيف سيتجرأ رجل متواضع وورع شأن يون هلغيسون على تحدي أسقفه بأن يعقد قرانكما على نحو مخالف للقانون».

«لقد اعترفت له بكل شيء في الصيف الماضي»، قال إرلند بصوت خفيض. «و قد وعدني عندها بأن يعقد قراننا إن لم تفلح كل الطرق الأخرى...»

قالت الليدي آشيلد: ببطء: «هل الأمر كذلك حقاً؟... لقد ألقيت بخطيئة كبرى على روحك يا إرلند نيكولاوسون. كانت كريستين في بيتها في وضع ملائم مع أبيها وأمها... وكان أمامها مشروع زواج جيد اتُّفق عليه مع رجل صالح وشريف من أسرة صالحة...»

«لقد حكت لي كريستين بنفسها كيف قلت لها مرة إننا هي وأنا نلائم أحدنا الآخر. وإن سايمون أندرسون ليس بالزوج الملائم لها...»

«أوه... لقد قلت وقلت!» قاطعته آشيلد. «لقد قلت أموراً كثيرة خلال حياتي... لا أستطيع أن أفهم إطلاقاً أنك استطعت أن تسيطر على إرادة كريستين بهذه السهولة. ما كان ممكناً لكما أن تتقابلا مرات كثيرة. وما كان يمكن لي أن أظن تلك الفتاة سهلة المنال إلى تلك الدرجة...»

قال إرلند: «لقد تقابلنا في أوسلو. وبعد ذلك أقامت في غيردارود مع عمها. كانت تخرج لتقابلني في الغابة». نظر إلى الأرض وتحدث بصوت خفيض جداً: «لقد انفردت بها هناك...»

أجفلت الليدي آشيلد. أحنى إرلند رأسه أكثر من السابق.

«و بعد ذلك... ألا تزال هي على حال من الود معك حتى الآن ؟» سألت بلهجة من لا يصدق .

«أجل» . ابتسم إرلند ابتسامة ضعيفة مرتعشة . «كنا ولا نزال في حال من الود . ولم تشعر بمرارة كبيرة... ولكنها لا تلام على ذلك . عندها كانت تريد مني أن أذهب بها بعيداً... كانت كارهة العودة إلى أهلها...»

«و لكنك لم تفعل ؟»

«لا . كنت مصمماً على محاولة جعلها زوجة لي بموافقة أبيها» .

سألته الليدي آشيلد : «هل مرّ وقت طويل على ذلك ؟» .

«كان قد مرّ عام على ذلك حين حلّ «قداس لورنس»» ، أجاب إرلند .

قالت الأخرى : «أنت لم تستعجل كثيراً في طلب يدها» .

«لم تكن قد تحرّرت بعد من خطيبها الأول» .

سألت آشيلد : «ومنذ ذلك الحين لم تقترب منها ؟»

«لقد استطعنا أن نتقابل بين الحين والآخر» . ومن جديد فإن الابتسامة المرتعشة ارتسمت فوق وجه الرجلّ . «في منزل في البلدة» .

قالت الليدي آشيلد : «سأساعدكما باسم الرب ،أنت وهي ، بقدر ما أستطيع . أرى الأمر جيداً : لن تستطيع كريستين أن تتحمل طويلاً أن تعيش هناك مع أبيها وأمها ، وهي تخفي عنهما أمراً كهذا... هل هناك المزيد ؟» سألته فجأة .

قال إرلند باختصار : «لم أسمع شيئاً جديداً» .

سألت السيدة بعد برهة : «هل فكرت بأن لكريستين أصدقاء وأقرباء يعيشون جميعاً في ديل ؟»

قال إرلند : «علينا أن نسافر بأكبر سرية ممكنة . لذلك سيلائمنا ألاّ

نؤجل الانطلاق ، أي أن نكون قد أصبحنا على الطريق قبل عودة أبيها إلى البيت . عليك أن تعيرينا زلاجتك يا خالتي » .

هزت آشيلد كتفيها .

«ثم هناك عمها في سكوغ... ماذا لو سمع أنك ستعقد قرانك على ابنة أخيه في غيردارود ؟ »

«لقد تكلم آسموند مع لافرانس لصالحي » ، قال إرلند . «لن نطلعه على خططنا ، ولكن من المحتمل أن يتغاضى... علينا أن نصل إلى الكاهن ليلاً ، ثم نتابع السفر ليلاً . وبعد ذلك ، أعتقد أن آسموند سيبلغ لافرانس أنه لن يكون أمراً ملائماً لشخص يخشى الرب شأن لافرانس أن يفرق بين اثنين جمعهما الكاهن بعقد زواج... وأنه من الأفضل له أن يمنح موافقته ، حتى نصبح زوجاً وزوجة شرعيين . وعليك أن تقولي هذا الشيء نفسه للرجل ، يا خالتي . ويمكنه أن يحدد أي شروط يريدها ككفارة ، وأن يطالب بأي تعويضات يراها عادلة » .

« أعتقد أن لافرانس بيورغولفسون لن يكون بالرجل السهل في مثل هذه الأمور » ، قالت الليدي آشيلد . «و الرب والقديس أولاف يعرفان يا ابن أختي ، أني لا أحب هذه المسألة كلها . ولكني أرى جيداً أن الملاذ الأخير أمامك هو أن تعوض عن الأذى الذي سببته لكريستين . غداً سأذهب شخصياً إلى يوروندغارد ، هذا إذا أعرتني أحد رجالك ، وسوف أكلف أنغريد من المزرعة الصغيرة فوقنا هنا أن تعتني ببقراتي » .

•

وصلت الليدي آشيلد إلى يوروندغارد في مساء اليوم التالي بينما كان نور القمر يكافح آخر ومضات نور النهار . رأت كريستين الشاحبة

ذات الوجنتين الغائرتين حين خرجت هذه إلى الساحة لتستقبل ضيفتها .

جلست الليدي قرب المدفأة تداعب الطفلتين . بين الحين والآخر كانت تختلس نظرات حادة إلى كريستين بينما كانت هذه تتحرك في أرجاء المكان لتحضير مائدة العشاء . كانت نحيلة فعلاً ، ولا يزال قوامها كما هو . كانت دائماً هادئة ، ولكنه كان هدوءاً من نوع آخر يطغى على الفتاة الآن . حزرت الليدي آشيلد أن السبب هو كل التوتر والتحدي العنيدين القابعين تحت ذلك .

قالت كريستين وهي تقترب منها : «لكأنك قد سمعت ما حدث هنا في الخريف الماضي» .

«أجل... أن ابن أختي قد طلب يدك» .

قالت كريستين : «أتذكرين حين قلت لي مرة إننا نلائم بعضنا جيداً ؛ إلا أنه أغنى وأعظم نسباً مني ؟»

قالت الليدي بلهجة جافة : «سمعت أن لافرانس لم يوافق» .

كان هناك وميض في عيني كريستين ، وابتسمت قليلاً . فكرت الليدي آشيلد أن كريستين ستفعل ما هو مطلوب حتماً . ورغم أنها لم تكن تحب الأمر كثيراً ، إلا أن عليها أن تصغي إلى إرلند ، وتقدم له المساعدة .

•

حضرت كريستين سرير والديها لأجل الضيفة ، وطلبت آشيلد أن تنام الفتاة إلى جوارها . وبعد أن استلقتا في السرير وأصبح المنزل هادئاً ، شرحت آشيلد مهمتها .

لقد أصبح قلبها مثقلاً إلى حد غريب وهي ترى هذه الابنة لا تفكر إطلاقاً في الأسى الذي ستسببه لأبيها وأمها . ومع ذلك عشت أنا مع «بارد» أكثر من

عشرين سنة في الحزن والعذاب ، كما فكرت . حسناً ، ربما كانت هذه هي حالنا جميعاً . بدا وكأن كريستين لم تر حتى كيف هزلت أولفهيلد هذا الخريف... فكرت آشيلد في أن كريستين لن ترى أختها الصغيرة بعد الآن . ولكنها لم تذكر هذا إطلاقاً... كلما بقيت كريستين متعلقة بهذا المزاج من السعادة المجنونة المتهورة ، كانت الأمور أفضل ، كما فكرت .

نهضت كريستين في العتمة ، وجمعت زينتها في صندوق صغير أخذته معها إلى السرير . ثم لم تستطع الليدي آشيلد أن تمنع نفسها عن أن تقول :

« و لكني أعتقد يا كريستين أن أفضل طريقة ستكون أن يأتي إرلند إلى هنا ، حين يعود أبوك إلى البيت... أن يعترف له بصراحة أنه أساء إليك إساءة بالغة ، وأن يضع نفسه تحت تصرف لافرانس » .

قالت كريستين : « أعتقد أن أبي سيقتل إرلند عندئذ » .

« لن يفعل أبوك ذلك إن رفض إرلند أن يجرد سيفه ضد والد حبيبته » .

قالت كريستين : « لا أريد لإرلند أن يُذل على هذا النحو . ولا أريد لأبي أن يعرف أن إرلند قد لمسني قبل أن يطلب يدي بكل احترام وشرف » .

قالت آشيلد : « أتظنين أن لافرانس سيكون أقل غضباً حين يعلم أنك هربت من منزله مع إرلند ؟ وتعتقدين أن حزنه سيكون أقل ؟ طالما أنك تعيشين مع إرلند ، ولم يوافق أبوك على زواجكما ، فلن تكوني سوى عشيقته أمام القانون » .

قالت كريستين :« إنه لأمر آخر أن أكون عشيقة إرلند بعد أن حاول هذا عبثاً أن يطلب يدي لأكون زوجته قانونياً » .

صمتت الليدي آشيلد . فكرت بلقائها مع لافرانس بيورغولفسون حين سيأتي إلى المنزل ويعرف أن ابنته قد اختطفت .

ثم قالت كريستين :
« أري جيداً يا ليدي آشيلد أني أبدو لك كابنة شريرة ناكرة للجميل . ولكن ما جرى في هذا المنزل منذ أن عاد أبي من مجلس هاوغا هو أن أصبح كل يوم من الأيام تعذيباً له، ولي . الأفضل أن نضع حداً لهذه المسألة » .

•

غادرتا يوروندغارد باكراً في اليوم التالي ، ووصلتا إلى هاوغن بعد العصر بقليل . قابلهما إرلند في الساحة ، ورمت كريستين بنفسها بين ذراعيه دون أن تكترث بالرجل الذي كان يرافقها والليدي آشيلد .

في المنزل حيّت بيورن غونارسون ، ثم حيّت خادمي إرلند وكأنها تعرفهما جيداً من قبل . لم تر الليدي آشيلد أي أمارة فيها تدل على الخجل أو الخوف . ولاحقاً ، حين جلسوا إلى المائدة ، وشرح إرلند خطته ، شاركت كريستين في إبداء الرأي مع الآخرين وطرحت أفكارها حول الرحلة : أن عليهم أن يتحركوا من هاوغن في مساء اليوم التالي في وقت متأخر حتى يصلوا إلى الوادي مع غروب الشمس ، ليعبّروا في العتمة عبر « سيل » إلى ما وراء لوبتسغارد ، ومن هناك على امتداد نهر أوتا إلى الجسر ثم على امتداد الجانب الغربي من نهري أوتا ولاغن عبر ممرات ثانوية خلال الأراضي المقفرة بقدر ما تستطيع الجياد حملهم . ثم عليهم أن يرتاحوا خلال النهار في إحدى سايترات الربيع الفارغة على جانب الجبل هناك . « لأنه حتى نخرج من منطقة هولديس هناك خوف دائم من أن نقابل أشخاصاً يعرفونني » .

قالت آشيلد : « هل فكرتم بالعلف للجياد ؟ لا تستطيعون سرقة سايتر الناس في سنة كهذه السنة - حتى لو كان هناك علف فيها - وأنتم لا تعرفون أحداً في كل ديل يملك علفاً يبيعه هذه السنة » .

أجابت كريستين : «لقد فكرت في ذلك . عليك أن تقرضينا طعاماً وعلفاً يكفي لثلاثة أيام . وهذا سبب يدعونا ألا نسافر مع كل هذا العدد الكبير من الرجال . على إرلند أن يرسل يون إلى هوسابي . كان الموسم أفضل في جانب تروندهايم ، ولا شك أن بعض الحمولات يمكن إحضارها عبر الجبال قبل ثلوج فترة عيد الميلاد . هناك بعض الفقراء الذين يسكنون هناك في الجنوب في الأبرشية ، يا ليدي آشيلد ، وأودّ أن أساعدهم بهدية من العلف من إرلند ومني» .

ضحك بيورن ضحكة غريبة خالية من المرح أشبه بضحكة حصان . هَزَّتْ الليدي آشيلد رأسها . ولكن خادم إرلند المسمى «أولف» رفع وجهه الحاد الداكن البشرة ونظر إلى كريستين بابتسامة جريئة :

«في هوسابي لا توجد وفرة على الإطلاق ، يا كريستين لافرانسداتر ، لا في السنوات الطيبة ولا في تلك الرديئة . ولكن ربما ستكون الأمور قد تغيرت حين تأتين لتصبحي سيدة المكان . من يسمع كلامك سيعتبرك ربة المنزل التي يحتاجها إرلند» .

أومأت كريستين برأسها إلى الرجل وتابعت الكلام . عليهم أن يبتعدوا عن الطريق العام بقدر ما يستطيعون . وهي لا تعتبر أنه من الحكمة اتباع الطريق التي تمرّ عبر هامار . ولكن إرلند قال إن مونان موجود هناك ، وعليهم أن يحصلوا على الرسالة الموجهة إلى الدوقة .

قالت بابتسامة : «إذن على أولف أن يغادرنا إلى فاغابيرغ ويمضي إلى السير مونان ، بينما نتابع طريقنا إلى الغرب من ميوسن ونشق طريقنا عبر الأرض والدروب الجانبية من خلال هادلاند حتى هاكيدال . ومن هناك سنجد طريقاً قفراً يؤدي إلى مارغريتادال ، كما سمعت عمي يقول . لن يكون من الحكمة لنا أن نمرَّ عبر راوماريك في هذه الأيام حيث سيقام حفل زفاف ضخم في دايفرين» .

التف إرلند ووضع ذراعه حول كتفيها ، فاستندت إليه ، دون أن تأبه بوجود الآخرين الذين جلسوا وراحوا ينظرون .

قالت الليدي آشيلد غاضبة :

«لن يصدق أحد إلا أنكما معتادان تماماً على الهروب» . وهنا ضحك السير بيورن مجدداً ضحكته الحصانية .

وبعد فترة قصيرة نهضت الليدي آشيلد لتذهب إلى المطبخ وتدبر أمر الطعام . كانت قد أشعلت نار المطبخ حتى يستطيع رجال إرلند النوم هناك ليلاً . طلبت من كريستين أن ترافقها : «لأنه سيكون عليّ أن أقسم أمام لافرانس بيورغولفسون أنك لم تكوني وحدك ولو لحظة واحدة في منزلي» ، هذا ما قالته بغضب .

ضحكت كريستين وذهبت مع الليدي . وسرعان ما جاء إرلند يمشي خلفهما ، وسحب كرسياً ووضعه أمام الموقد ، وجلس هناك ، معيقاً عمل المرأتين . كان يمسك بكريستين في كل مرة كانت تقترب فيها منه ، وهي منشغلة بأداء عملها بسرعة . وأخيراً أجلسها على ركبته :

«صحيح ما قاله أولف من أنك ربة البيت التي أحتاج إليها» .

قالت آشيلد : «أجل ، أجل» و ذلك بضحكة يشوبها الغضب . «ستخدمك جيداً . إنها هي من يخاطر بكل شيء في هذه المغامرة... أنت لا تغامر بالكثير» .

قال إرلند : «أنت تنطقين بالحقيقة . ولكني وددت كثيراً أن أبرهن على أنه كانت لديّ الإرادة على طلب يدها بالطريقة الصحيحة . لا تكوني غاضبة إلى هذا الحد ، يا خالة آشيلد» .

قالت الليدي : «لا بدّ من غضبي . ما أن نظمتَ أمور بيتك بشق الأنفس ، هاأنت تعود مضطراً إلى الهروب منه مجدداً مع امرأة» .

«عليك أن تتذكري يا قريبتي... وكما هي الحال دائماً... أن ليس أسوأ الرجال هم من يقعون في ورطة من أجل امرأة... هكذا تحكي لنا الحكايات البطولية» .

قالت آشيلد : «فليكن الرب في عوننا جميعاً!» كان وجهها قد عاد شاباً وناعماً . «لقد سمعت تلك الحكاية سابقاً يا إرلند» . وضعت يدها على رأسه وشدت شعره قليلاً .

في تلك اللحظة فتح أولف هالدورسون الباب بقوة وأغلقه من خلفه بسرعة :

«لقد جاء ضيف آخر يا إرلند... آخر شخص تتمنى أن تراه على ما أعتقد» .

قال إرلند مجفلاً : «هل هو لافرانس بيورغولفسون ؟» .

قال الرجل : «ليته كان هو . إنها إلين أورمسداتر» .

•

فُتح الباب من الخارج ، وكان أن دفعت المرأة التي دخلت أولف جانباً وتقدمت نحو النور . نظرت كريستين إلى إرلند . بدا أولاً وكأنه ينكمش ويتقلص معاً . ثم تمالك نفسه مع حميّا داكنة على وجهه :

«باسم الشيطان ، من أين أتيت ؟ ما الذي تريدينه هنا ؟»

تقدمت الليدي آشيلد وتكلمت :

«عليك أن تأتي معنا إلى المنزل الرئيسي يا إلين أورمسداتر . ما لدينا من حسن السلوك في هذا البيت يمنعنا من استقبال ضيوفنا في المطبخ .

قالت الأخرى : «لا أتطلع يا ليدي آشيلد إلى أن يرحب بي كضيفة من

قبل أقرباء إرلند . سألتني من أين أتيت ؟... لقد جئت من هوسابي ، كما تعرف . وأحمل لك تحيات أورم ومارغريت ، وهما بخير » .

لم يجب إرلند .

تابعت : «حين سمعت أنك طلبت من غيسور أرنفينسون أن يجمع لك بعض المال ، وأنك رحلت إلى الجنوب مجدداً ، فكرت أنك تريد قضاء بعض الوقت مع أقربائك في غودبراندسدال . كنت أعرف أنك طلبت يد ابنة جار من جيرانهم » .

نظرت إلى كريستين للمرة الأولى ، وقابلت عيني الفتاة . كانت كريستين شديدة الشحوب ، لكنها نظرت بهدوء وحدة إلى الأخرى .

كانت هادئة كالحجارة . لقد عرفت الأمر من لحظة سماعها اسم الشخص القادم... كانت هذه هي الفكرة التي كانت تهرب منها دائماً . هذه الفكرة حاولت هي أن تخنقها تحت نفاد الصبر والقلق والتحدي . لقد حاولت طوال الوقت جاهدة ألاّ تفكر فيما إذا كان إرلند قد حرّر نفسه تماماً وبالكامل من عشيقته السابقة . والآن غلبتها المفاجأة : لا مجال للنضال بعد الآن . ولكنها لم تتوسل ولم تتضرع لنفسها .

رأت أن إلين أورمسداتر كانت جميلة . ما عادت شابة الآن ، ولكنها كانت جميلة... لا بد أنها كانت فائقة الجمال ذات مرة . كانت قد رمت بقلنسوتها إلى الخلف . رأسها مدور كالكرة ، وقاس . كانت عظام وجنتيها بارزة... ولكن كان من الواضح للعيان أنها كانت جميلة جداً ذات مرة . كانت قبعتها الكتانية الضيقة لا تغطي سوى الجزء الخلفي من رأسها . وبينما كانت تتكلم كانت يداها تمسدان باستمرار شعرها الأمامي المموج الذهبي اللون تحت القبعة الكتانية . لم تكن كريستين قد شاهدت امرأة لها مثل هاتين العينين الواسعتين . كان لونهما بنياً داكناً وكانتا مستديرتين وقاسيتين .

ولكن تحت الحاجبين الضيقين الأسودين كالفحم والرموش الطويلة كانتا جميلتين إلى حد غريب تحت ذلك الشعر الذهبي . كانت بشرة وجنتيها وشفتيها مقرحة ومسلوخة من سفرها في البرد ، ولكن ذلك لم يفسد جمالها كثيراً . كانت أجمل من أن يفسد ذلك من حسنها . كان ثوب الركوب الثقيل يغطي قوامها ، ولكنها كانت تتحرك كامرأة شديدة الاعتزاز بنفسها ومطمئنة إلى روعة جسدها الجميل . لم تكن طويلة ككريستين . ولكنها كانت تتحرك بحيث تبدو أطول من الفتاة الرشيقة ذات الأطراف كالرمح .

سألت كريستين بصوت خفيض : «هل كانت معك في هوسابي طوال الوقت ؟ »

قال إرلند بغضب ووجهه يحمرّ مجدداً : «لم أكن في هوسابي . كنت أسكن في هستنايس معظم الصيف» .

قالت إلين : «إليك الأنباء التي أحملها لك يا إرلند . لم يعد هناك حاجة إلى أن تلجأ إلى أقربائك وتجرب ضيافتهم لأني أدير منزلك . منذ هذا الخريف أصبحت أرملة» .

وقف إرلند دون حراك .

قال بجهد : «لم أطلب منك القدوم إلى هوسابي في العام الماضي لتديري منزلي» .

قالت إلين : «سمعت أن كل شيء كان آخذاً بالضياع هناك . وكنت لا أزال أحتفظ لك ببعض الحنان من الأيام الغابرة ، يا إرلند ، ففكرت في أن أقدم لك يد المساعدة... رغم أن الرب يعلم أنك لم تعامل ولديك كما لم تعاملني بعدل» .

قال إرلند : «لقد فعلت ما استطعت للولدين . حسناً أنت تعرفين أني لأجلهم سمحت لك بالسكن في هوسابي . أما أنك كنت ذات فائدة لهما أو

لي فلا أعتقد أنك تظنين ذلك» . ثم أضاف وهو يبتسم باحتقار : «يمكن لغيسور أن يدير الأمور على نحو جيد دون مساعدتك» .

قالت إلين ضاحكة برقة : «أجل ، كانت لك دائماً ثقة كبيرة في غيسور . ولكن الأمر الآن يا إرلند هو ما يلي : أنا حرة الآن . وإن شئت تستطيع أن تفي بالوعد الذي قطعته لي ذات مرة» .

وقف إرلند صامتاً .

سألت إلين : «أتذكر الليلة التي ولدت فيها ابنك ؟ لقد وعدتني بالزواج حين يموت سيغورد» .

تخلّل إرلند شعره بيده ، شعره الرطب من العرق .

قال : «أجل... أذكر» .

سألت إلين : «هل ستفي بهذا الوعد الآن ؟»

قال إرلند : «لا» .

نظرت إلين أورمسداتر إلى كريستين... ثم ابتسمت قليلاً وأومأت برأسها . ثم نظرت مجدداً إلى إرلند .

قال الرجل : «لقد مرت عشر سنوات على ذلك الوعد يا إلين . ومنذ ذلك الحين عشنا أنت وأنا معاً الحلو والمر كروحين ملعونتين في جهنم» .

قالت بالابتسامة نفسها : «و لكن ليس ذلك فحسب ، على ما أعتقد» .

قال إرلند ببطء : «لقد مضت سنوات وسنوات منذ أن حدث أي شيء : لن يكون حال الطفلين أفضل . وأنت تعرفين... تعرفين أني لم أعد أحتمل المكوث في غرفة واحدة معك!» كان على وشك الصراخ .

قالت إلين بابتسامة ذات مغزى : «لم ألاحظ أياً من هذا حين كنت في البيت خلال الصيف . عندها لم نكن دائماً في جفوة» .

«إن كنت تعتقدين أننا كنا صديقين ، فلتفهميها كما تشائين» ، قال منهكاً .

قاطعت الليدي آشيلد : «هل ستقفين هنا إلى ما لا نهاية ؟» صبت العصيدة من القدر في طبقين خشبيين كبيرين وأعطت أحدهما إلى كريستين . تناولته الفتاة . «احمليه إلى القاعة... وأنت يا أولف ، خذ الآخر... ضعوهما على المائدة... علينا أن نتعشى مهما كان الأمر» .

خرجت كريستين والرجل وهما يحملان الطبقين . قالت الليدي آشيلد للآخرين .

«تعالا أنتما الاثنين الآن . ما الفائدة من وقوفكما هناوأحدكما ينبح على الآخر ؟»

قال إرلند : «الأفضل أن نتحادث إلين وأنا معاً الآن» .

لم تقل الليدي آشيلد شيئاً آخر ، بل خرجت وتركتهما .

•

في القاعة كانت كريستين قد حضرت المائدة وجلبت الجعة من القبو . جلست على المقعد الخارجي ، مستقيمة كالعصا وهادئة الوجه ، ولكنها لم تأكل شيئاً . ولم يكن لدى الآخرين شهيّة كبيرة لا رجال بيورن ولا إرلند . ولكن الرجل الذي رافق إلين وأجير بيورن فقد أكلا بشهية . جلست الليدي آشيلد وأكلت العصيدة . لم ينبس أحد ببنت شفة .

و أخيراً وبعد وقت طويل دخلت إلين أورمسداتر وحدها . طلبت منها الليدي آشيلد الجلوس بين كريستين وبينها . جلست إلين وأكلت قليلاً . بين الحين والآخر كان وميض من ابتسامة خفية يلوح على وجهها ، فتختلس نظرة من كريستين .

•

بعد فترة ، خرجت الليدي آشيلد إلى المطبخ .

كانت النار في الموقد قد انطفأت تقريباً . وكان إرلند يجلس قربها على كرسي واطئ وقد انطوى على نفسه ورأسه بين ذراعيه .

ذهبت الليدي آشيلد إليه ووضعت يدها على كتفه .

«فليغفر لك الله يا إرلند لأنك أوصلت الأمور إلى هذه النتيجة» .

التفت إرلند إليها بوجه لطخه البؤس .

قال : «إنها حامل» . ثم أغمض عينيه .

التهب وجه الليدي آشيلد . أمسكته بقوة من كتفه :

«أيهما ؟» سألت بخشونة واحتقار .

قال إرلند بالصوت الميت نفسه : «إنه ليس ابني . ولكن من المحتمل ألاّ تصدقيني -لن يصدقني أحد...» ثم غرق مجدداً في الصمت .

جلست الليدي آشيلد أمامه على حافة الموقد :

«الآن عليك أن تحاول لعب دور الرجل يا إرلند . ليس من السهل جداً تصديقك في هذه القضية . أتقسم أنه ليس ابنك ؟»

رفعُ إرلند وجهه المحطم .

«كما أنا في حاجة إلى رحمة الرب بكل تأكيد -على ما آمل- وكما واسى الرب في السماء الأم لقاء كل ما عانته هنا -فإني لم ألمس إلين منذ أن شاهدت كريستين لأول مرة!» صرخ بهذه الكلمات حتى اضطرت الليدي آشيلد إلى إسكاته .

«إذن لا أرى أن هذه المصيبة كبيرة إلى هذا الحد . عليك أن تعرف من هو الأب ، وتجعله يتزوجها» .

«أعتقد أنه غيسور أرنفينسون ، وكيلي في هوسابي» ، قال إرلند منهكاً . «لقد تحدثنا معاً في العام الماضي -و منذ ذلك الحين أيضاً- فقد

كان موت سيغورد أمراً متوقعاً طوال هذه الفترة . كان راغباً في الزواج منها ، حين تصبح أرملة ، إن منحتها حصة ملائمة... »

قالت الليدي آشيلد : « حسناً إذن ؟ » وتابع إرلند :

« إنها تقسم أعظم الأيمان بأنه لا علاقة له بالأمر . وهي ستقول إني أنا الأب . ولو أقسمت بأني لست الأب ، هل تعتقدين أن أي شخص سيصدق سوى أني أحنث باليمين ؟ »

قالت الليدي آشيلد : «عليك أن تتمكن من ثنيها عن غرضها . لا مجال الآن أمامك سوى الذهاب إلى هوسابي معها في الغد لا أكثر . وهناك عليك أن تقسّي قلبك وتقف موقفاً حازماً حتى تحقق هذا الزواج بين وكيلك وإلين » .

قال إرلند : «أجل» . ثم رمى بنفسه إلى الأمام ثانية وأنّ بصوت مرتفع :

«ألا ترين الوضع يا خالتي ؟ ما الذي ستعتقده كريستين في رأيك ؟ »

•

في الليل استلقى إرلند في المطبخ مع الرجال . في المنزل الرئيسي نامت كريستين مع الليدي آشيلد في سريرها ، كما نامت إلين أورمسداتر في السرير الآخر . خرج بيورن ونام في الإسطبل .

في صباح اليوم التالي خرجت كريستين مع الليدي آشيلد إلى زريبة الأبقار . وبينما مضت الليدي إلى المطبخ لتحضر الإفطار ، حملت كريستين الحليب إلى المنزل الرئيسي .

كانت هناك شمعة موقدة على المائدة . كانت إلين جالسة على طرف سريرها مرتدية ملابسها . حيّتها كريستين بصمت ثم أحضرت وعاء حليب وصبت الحليب فيه .

سألت إلين : «هل لك أن تعطيني جرعة من الحليب ؟» تناولت كريستين مغرفة خشبية وملأتها بالحليب وسلمتها إلى الأخرى . شربت برغبة ، وهي تنظر إلى كريستين من فوق حافة المغرفة .

قالت وهي تعيد المغرفة : «إذن أنت كريستين لافرانسداتر التي سرقت حب إرلند مني» .

قالت الفتاة : «أنت التي تعرف بالضبط إن كان قد تبقى هناك حب ليُسرق» .

عضت إلين شفتها .

قالت : «ما ستفعلين لو أن إرلند ملّ منك يوماً وعرض عليك الزواج من خادمه ؟ هل ستلبين مطلبه ذاك أيضاً ؟»

لم تجب كريستين . ثم ضحكت الأخرى وقالت :

«أنت تلبين رغباته كلها الآن ، كما أعتقد . ما رأيك يا كريستين... هل نرمي بالنرد لنرى من التي ستربح هذا الرجل نحن عشيقتي إرلند نيكولاوسون ؟» وحين لم تحصل على جواب ، ضحكت ثانية وقالت : «هل أنت ساذجة إلى حد تنكرين معه أنك عشيقته ؟»

قالت كريستين : «لا أهتم بالكذب عليك» .

«لن يفيدك هذا إلاّ قليلاً لو فعلته» ، أجابت إلين وهي لا تزال تضحك . «أعرف الفتى جيداً جداً . لقد رمى بنفسه عليك كديك أسود على ما أعتقد ، في المرة الثانية التي كنتما فيها معاً . أرثي لك أيتها الطفلة الجميلة» .

شحبت وجنتا كريستين . وإذ شعرت بالغثيان من الكراهية ، قالت بصوت خفيض :

«لن أكلمك...»

استأنفت إلين الكلام : «أو تظنين أنه سيعاملك أفضل من معاملته لي ؟» فأجابت كريستين بحدة :

«لن ألوم إرلند على أي شيء ، مهما فعل . لقد ضللت بإرادتي... لن أتذمر أو أنوح لو قادني ذلك الدرب إلى الصخور...»

صمتت إلين فترة . ثم قالت دون ثبات ووجهها آخذ بالاحمرار :

« كنت عذراء أيضاً حين عاشرني يا كريستين... رغم أني كنت زوجة بالاسم لذلك الرجل المسن منذ سبع سنين . ولكنك لن تفهمي على الأرجح أبداً بؤس تلك الحياة» .

بدأت كريستين ترتجف بشدة . نظرت إلين إليها . ثم أخرجت قرناً صغيراً من حقيبة سفرها التي كانت إلى القرب منها على درجة السرير . كسرت السدادة التي كانت على فم القرن وقالت برقة :

«أنت شابة وأنا عجوز يا كريستين . أعرف جيداً أني لن أنجح في المواجهة ضدك... فهذا أوانك . هل تشاركينني الشراب يا كريستين ؟»

لم تتحرك كريستين . ثم رفعت الأخرى القرن إلى شفتيها ، ولكن كريستين لاحظت أنها لم تشرب . قالت إلين :

«سيكون شرفاً عظيماً لي أن تشربي نخبي... هل تعدينني بألاّ تكوني زوجة أب قاسية لولديّ ؟»

أخذت كريستين القرن . في تلك اللحظة فتح إرلند الباب . وقف برهة وهو يُنَقِّلُ النظر بين المرأتين .

سأل : «ما هذا ؟»

أجابت كريستين بصوت هائج ثاقب :

«نحن نشرب نخب بعضنا البعض... نحن... عشيقتيك...»

أمسك برسغها وأخذ منها القرن .

قال بصوت قاس : «اهدئي . لن تشربي معها» .

سألت كريستين بالصوت نفسه : «و لم لا ؟ كانت طاهرة مثلي حين أغويتها...»

قال إرلند : «لقد كررت هذا غالباً حتى صرت أعتقد الآن أنها قد صدقته . أتذكرين يا إلين حين جعلتني أذهب إلى سيغورد بتلك الحكاية حتى أحضر شاهداً شهد بأنه قد أمسك بك من قبل وأنت تعاشرين رجلاً آخر ؟»

أشاحت كريستين بوجهها وقد شحب من الكراهية . كان وجه إلين قد احمر الآن فقالت بتحدٍ :

«و لكن الفتاة لن تصاب بالجذام لو شربت معي!»

التفت إرلند إلى إلين غاضباً... وفجأة استطال وجهه وأصبح قاسياً كالصخر ، وشهق في رعب .

«يا للمسيح» قال وهو يتنفس بصعوبة . وأمسك بألين من ذراعها .

«اشربي أنت نخبها إذن» ، قال بصوت قاس مرتجف . «اشربي أنت أولاً ، ثم ستشرب هي نخبك» .

خلصت إلين ذراعها من قبضته وهي تئنّ . هربت نحو الخلف في الغرفة والرجل يلاحقها . «اشربي الشراب الذي خمّرته لأجل كريستين!» أمسك بذراع إلين ثانية وجرها إلى المائدة ، ثم قرّب رأسها بالقوة من القرن .

زعقت إلين ودفنت وجهها في ذراعها . حرّرها إرلند ووقف يرتجف .

صرخت إلين : «كانت حياتي جحيماً مع سيغورد . لقد وعدتني... أنت... ولكنك أسوأ الجميع معي يا إرلند!»

تقدمت كريستين وأمسكت بالقرن :

«على إحدانا أن تشرب... لا يمكنك الاحتفاظ بنا كلتينا...»

انتزع إرلند القرن منها وأبعدها عنه بشدة حتى أنها دارت حول نفسها ثم سقطت قرب سرير الليدي آشيلد . ومن جديد دفع بالقرن أمام فم إلين أورمسداتر... وإحدى ركبتيه على المقعد . كان يقف إلى جانبها ، وبيد حول رأسها حاول أن يقحم الشراب بين أسنانها .

مدت يدها من تحت ذراعه وانتزعت الخنجر من المائدة وطعنته به بقوة . ولكن الطعنة خدشت لحمه فحسب عبر ملابسه . ثم وجهت رأس الخنجر نحو صدرها وفي اللحظة التالية كانت قد انهارت جانبياً بين ذراعيه .

نهضت كريستين واقتربت منهما . كان إرلند ممسكاً بإلين ، ورأسها مدلى على ذراعه . وعلى الفور سمعت حشرجة من حنجرتها ونبَع الدم وجرى من فمها . بصقت بعضاً منه وقالت :

« كنت أخبئ ذلك الشراب لك... منذ زمن بعيد... لقد خدعتني... »

قال إرلند بصوت خفيض : « أحضري الليدي آشيلد . وقفت كريستين دون حراك » .

قال إرلند بالصوت نفسه : « إنها تحتضر » .

قالت كريستين : « إنها في وضع أفضل منّا » . نظر إرلند إليها... ولكن اليأس في عينيه جعلها ترق . غادرت الغرفة .

« ما الحكاية » سألت الليدي آشيلد حين نادتها كريستين من المطبخ .

قالت كريستين : « لقد قتلنا إلين أورمسداتر . إنها تحتضر... »

هرعت الليدي آشيلد نحو المنزل الرئيسي . ولكن إلين لفظت أنفاسها الأخيرة حين تخطت الليدي العتبة .

●

مددت الليدي آشيلد المرأة الميتة على المقعد ، ومسحت الدم عن

وجهها وغطته بكتان قبعتها . وقف إرلند مستنداً على الجدار خلف الجثمان .

قالت آشيلد : «أتعرف أن هذا أسوأ أمر يمكن أن يحدث ؟ »

كانت قد ملأت الموقد بالأغصان والحطب .

و الآن أقحمت القرن في وسطها وأضرمت النار فيها .

سألته الليدي مجدداً : «هل تستطيع الثقة بالرجال ؟ »

«أولف وهافتور يمكن الوثوق بهما على ما أعتقد . أما يون والرجل الذي يرافق إلين فلا أعرفهما إلا قليلاً» .

قالت الليدي : «أنت تعرف أنه ربما لو كشف أنك كنت وكريستين معاً هنا وأنكما كنتما معها حين ماتت ، لكان أفضل لكريستين لو تركتها تشرب من شراب إلين... ولو جرى كلام عن السم ، فإن الجميع سيتذكرون التهمة التي وجهت إليَ ذات مرة... هل لها أي أقرباء أو أصدقاء ؟ »

قال إرلند بصوت خفيض : «لا . ليس لها سواي» .

قالت الليدي آشيلد ثانية : «و مع ذلك ، سيكون من الصعب إخفاء الأمر والتخلص من الجثة ، دون أن يُظن بك أسوأ الظنون» .

قال إرلند : «ستزتاح في أرض مقدسة ، ولو كلفني ذلك هوسابي . ما تقولين يا كريستين ؟ »

أومأت كريستين برأسها .

جلست الليدي آشيلد صامتة . وكلما فكرت في الأمر بدت لها المسألة أكثر صعوبة على الحل . في المطبخ كان أربعة رجال : حتى لو استطاع إرلند أن يرشوهم جميعاً ليبقوا صامتين ، وحتى لو أن بعضهم قد أعطي الرشوة ليغادر البلاد ، ومن بينهم مرافق إلين ، ما كان ممكناً ضمانهم جميعاً . وكان معروفاً في يوروندغارد أن كريستين كانت هنا... ولو سمع لافرانس بهذا ،فإنها تخشى من التفكير بما سوف يفعله . وكيف ستحمل المرأة الميتة من هنا . كان الممر

الجبلي إلى الغرب مستحيل العبور الآن... ولكن هناك الطريق إلى رومسدال أو عبر الجبال إلى تروندهايم أو جنوباً إلى «ديل» . وإذا ما كشفت الحقيقة ، لن يصدقها أحد ، حتى لوسمح الناس باعتبارها حقيقة .

قالت : «عليّ أن أشاور بيورن في هذه المسألة» ، ثم نهضت وذهبت لتناديه .

أصغى بيورن غونارسون إلى حكاية زوجته دون أن يحرك عضلة ودون أن يبعد عينيه عن وجه إرلند .

قالت آشيلد يائسة : «بيورن ، لا مجال أمامنا إلاّ أن يقسم أحدهم أنه رآها تقتل نفسها» .

بدأت عينا بيورن الميتتان تصبحان داكنتين ببطء والحياة تعود إليهما . نظر إلى زوجته فزوى فمه بابتسامة ماكرة .

«وتعنين أن عليّ أن أكون ذلك الشخص ؟»

فركت الليدي آشيلد يديها بقوة ورفعتهما باتجاهه :

«بيورن ، أنت تعرف جيداً ما يعنيه ذلك لهذين الشخصين» .

قال ببطء : «و تعتقدين أن الأمر انتهى بالنسبة إليّ على أي حال ؟ أو هل تظنين أن هناك الكثير لا يزال من ذلك الرجل الذي كنته حتى أتجرأ فأقسم يميناً كاذبة لأنقذ ذلك الفتى من الخراب ؟ أنا الذي حُط من قدره... قبل كل تلك السنوات» . ثم كرر قائلاً : «أنا الذي حُط من قدره» .

همست آشيلد : «تقول ذلك لأني أصبحت عجوزاً الآن» .

انفجرت كريستين تبكي بطريقة بحيث أن صوتها الثاقب ملأ الغرفة . جلست في الزاوية قرب سرير آشيلد ، متيبسة وصامتة . والآن راحت تبكي بكاء عاصفاً وعالياً . لكأن صوت الليدي آشيلد قد مزق قلبها . كان صوتها محملاً بذكريات حلاوة الحب . لكأن الصوت قد جعلها تفهم لأول مرة ماهيّة

حبها وحب إرلند . كانت ذكرى السعادة الحارة والمتقدة قد اجتاحت كل شيء آخر... اجتاحت اليأس والكراهية القاسيين اللذين عرفتهما الليلة الماضية . كل ما كانت تعرفه الآن كان حبها وإرادتها على الصمود .

نظروا إليها... ثلاثتهم . ثم مضى السير بيورن ورفع ذقنها بيده ونظر إليها :

« قولي لي يا كريستين ، هل قتلت نفسها بيدها ؟ »

قالت كريستين بصرامة : « كل كلمة سمعتها صحيحة . لقد هددناها حتى فعلتها » .

قالت آشيلد : « كانت تنوي لكريستين مصيراً أسوأ » .

ترك السير بيورن الفتاة . مضى نحو الجسد ورفعه إلى السرير الذي نامت عليه إلين في الليلة السابقة ، ثم جعله قريباً من الجدار ، وغطاه جيداً بالأغطية .

« عليك أن ترسل يون والرجل الذي لا تعرفه إلى هوسابي ، مع رسالة تفيد بأن إلين ستسافر جنوباً معك . اجعلهما يسافران ظهراً . قل إن النساء لا يزلن نائمات في المنزل الرئيسي ، وعليهن أن يتناولن الطعام في المطبخ . وبعد ذلك تكلم إلى أولف وهافتور . هل هددت هي سابقاً بالانتحار ؟ حتى تجعلهما شاهدين على ذلك إذا ما طُرح سؤال كهذا ؟ »

قال إرلند منهكاً : « كل شخص في هوسابي في آخر عام عشناه معاً هناك يستطيع أن يشهد بأنها كانت تهدد بالانتحار... وبقتلي أحياناً – في كل مرة حدثتها فيها عن انفصالي عنها » .

ضحك بيورن بقسوة :

« فكرت في ذلك . الليلة علينا أن نلبسها معاطف الركوب ونضعها في المزلجة . عليك الجلوس إلى جانبها... »

ترنح إرلند على قدميه حيث كان واقفاً :

«لا أستطيع ذلك» .

«الرب يعرف كم سيتبقى فيك من الرجولة بعد أن تعيش على هواك عشرين سنة أخرى» ، قال بيورن . «هل تظن أنك تستطيع قيادة المزلجة ؟» إذن سأجلس أنا إلى جانبها . علينا أن نسافر ليلاً وفي ممرات منعزلة ، حتى نصل إلى فرون . في هذا البرد لن يعرف أحد كم مرّ عليها منذ موتها . سنسير حتى تكية الرهبان في روالدستاد . وهناك سنشهد أنت وأنا على أنكما كنتما معاً في المزلجة وأن عبارات مريرة قد تم تبادلها بينكما . هناك شهود على أنك كنت لا تريد العيش معها منذ أن رُفع التحريم عنك ، وأنك قد خطبت فتاة من أسرة تليق بمقامك . على أولف وهافتور أن يكونا منعزلين طوال الرحلة ، حتى يستطيعا أن يقسما عند الحاجة أنها كانت حية حين رأوها آخر مرة . تستطيع أن تطلب منهما القيام بذلك ، على ما أعتقد ، أليس كذلك ؟ في الدير تستطيع أن تجعل الرهبان يضعونها في تابوت... وبعد ذلك سيكون عليك أن تقايض الكهنة مقابل راحة روحها في القبر وراحة روحك...

«... أجل ، هذا ليس بالعمل الجميل . ولكن حسب إدراتك أنت للأمور ، فلا يمكن أن تكون أجمل من ذلك . لا تقف هناك كامرأة حامل على وشك أن يغمى عليها . فليساعدك الله يا فتى ، يستطيع المرء أن يرى أنك لم تمرّ سابقاً بتجربة الإحساس بحد السكين على عنقك» .

وصلت ريح قارسة مندفعة من الجبال ، تدفع بدخان فضي رقيق من أكاليل الثلج إلى الهواء الأزرق القمري ، بينما استعد الرجال للرحيل .

تم تجهيز حصانين الواحد أمام الآخر . جلس إرلند في مقدمة المزلجة . مضت كريستين إليه :

«هذه المرة يا إرلند عليك أن ترسل إليّ رسالة تخبرني فيها عن مسار الرحلة وما سيحلّ بك بعدها» .

ضغط على يدها حتى ظنت أن الدم سيخرج من تحت أظافرها .

«أمازلتِ تجرؤين على البقاء مخلصة لي يا كريستين ؟»

قالت : «أجل» . وبعد لحظة : «نحن كلانا مذنبان في هذه الفعلة -لقد حثثتك على فعل ذلك... لقد أردتُها أن تموت» .

وقفت الليدي آشيلد وكريستين ونظرتا إلى المزلجة وهي تبتعد صاعدة وهابطة فوق ركام الثلج . ثم ابتعدت عن الأبصار في وهدة لتصعد مرة أخرى على منحدر ثلجي . ثم مرّ الرجال تحت ظل جبل ، وابتعدوا عن الأنظار نهائياً .

•

جلست المرأتان قرب المدفأة ، وظهراهما إلى السرير الخالي ، الذي رفعت عنه آشيلد الفراش والقش . كانتا كلتاهما قادرتين على الإحساس به هناك فارغاً وفاغراً خلفهما .

«أتفضلين النوم في المطبخ الليلة ؟» سألت الليدي آشيلد أخيراً .

قالت كريستين : «سيكون الأمر هو نفسه أنّى نمنا» .

مضت الليدي آشيلد خارجاً لتنظر إلى الطقس :

«أجل ، إن اشتدت الريح أو جاء الدفء ، لن يسافروا مسافة بعيدة قبل اكتشاف الأمر» . قالت كريستين .

أجابت الليدي آشيلد : «هنا في هاوغن تهب الريح دائماً . لا دليل على تبدّل الطقس» .

جلستا كما من قبل .

قالت الليدي أخيراً : «لا تنسي المصير الذي أرادته لكما كليكما» .

أجابت كريستين بصوت خفيض :

«كنت أفكر أنني لو كنت مكانها لكنت رغبت في فعل الشيء نفسه» .

قالت آشيلد بقوة : «ما كنت رغبت في أن تصبح الأخرى مجذومة» .

«أتذكرين يا خالة أنك قلت لي مرة أنه لأمر جيد حين لا نجرؤ على فعل شيء نعتبره نحن غير صالح وغير عادل ، ولكنه ليس بالأمر الجيد حين نفكر أن الأمر غير صالح وغير عادل لأننا لا نجرؤ على فعله ؟»

«لم تَجْرُئي على فعله لأنه كان خطيئة» ، قالت الليدي آشيلد .

قالت كريستين : «لا ، لا أعتقد بذلك . لقد فعلت الكثير حتى الآن مما اعتبرته سابقاً أمراً لا أجرؤ عليه لأنه خطيئة . ولكنني لم أستطع أن أرى حتى هذا الوقت ما تجلبه الخطيئة... أن علينا أن ندوس الآخرين تحت أقدامنا» .

قالت الليدي آشيلد بحماسة : «كان من شأن إرلند أن يضع حداً لحياته الرديئة قبل فترة طويلة من لقائه بك . كان كل شيء بين هذين الشخصين منتهياً» .

قالت كريستين : «أعرف ذلك . ولكني أعتقد أنها لم يكن لديها مبرر لتعتبر نيات إرلند شديدة الرسوخ إلى حد أنها لن تستطيع هزّها» .

قالت الليدي بخوف : «كريستين ، طبعاً لن تتخلي عن إرلند الآن ؟ لا يمكن إنقاذكما الآن إلاّ إذا أنقذ أحدكما الآخر» .

قالت كريستين وهي تبتسم ببرود : «هذه مشورة سيعطيها كاهن بشق الأنفس . ولكني أعرف أني لن أتخلى عن إرلند الآن... حتى لو كان عليّ أن أدوس أبي تحت قدميَّ» .

نهضت الليدي آشيلد . قالت :

«الأفضل أن نقوم بعمل ما بدلاً من الجلوس هكذا . ومن المحتمل أننا سنحاول عبثاً أن ننام» .

أحضرت ممخضة الزبدة من حجرة المؤونة ، ثم أحضرت بعض أوعية الحليب وملأت الممخضة واستعدت للبدء بصنع الزبدة .

قالت كريستين : «اسمحي لي بالعمل فظهري أكثر شباباً منك» .

عملتا دون كلام . وقفت كريستين قرب باب حجرة المؤونة وهي تصنع الزبدة ، بينما راحت آشيلد تسرّح الصوف عند الموقد . أخيراً سألت الفتاة فجأة :

«خالة آشيلد... ألا تخشين أبداً من اليوم الذي سيكون عليك فيه الوقوف أمام قضاء الله ؟»

نهضت الليدي آشيلد ، ثم جاءت ووقفت أمام كريستين في النور :

«ربما سأجد الشجاعة لأسأله لم صنعني كما أنا ، وإن كان سيشملني برحمته . لم يسبق لي أن طلبتُ رحمته حين خالفت وصاياه . كما لم يسبق لي أن طلبت من الرب أو من أي إنسان أن يسامحني على قرش واحد من السعر الذي دفعته هنا في هذا الكوخ الجبلي» .

و بعد فترة قالت برقة :

«مونان ابني الأكبر ، كان في العشرين من عمره . لم يكن كما هو عليه الآن . لم يكن أولادي كما هم الآن...»

أجابت كريستين بصوت خفيض :

«و لكن السير بيورن كان إلى جانبك في كل يوم وكل ليلة في كل هذه السنوات» .

«أجل لقد حصلت على هذا أيضاً» ، قالت آشيلد .

بعد فترة قصيرة ، انتهت كريستين من صنع الزبدة . قالت الليدي

آشيلد حينذاك أن عليهما أن تستلقيا وتحاولا النوم قليلاً .

في الداخل ، في السرير المعتم ، وضعت ذراعها حول كتف كريستين وجذبت رأسها الشاب إلى صدرها . ولم يمض وقت طويل قبل أن تعرف من تنفسها المنتظم الرقيق أن كريستين قد نامت .

٤

استمر الجليد . في كل زريبة في الأبرشية كانت الأبقار نصف الميتة من الجوع تخور بحزن من الجوع والبرد . كان المزارعون قد سبق لهم وراحوا يقنّنون ويوفرون في العلف ، في كل قشة يستطيعونها .

كانت هناك زيارات قليلة في موسم عيد الميلاد هذه السنة ، فقد بقي الناس في بيوتهم .

خلال فترة عيد الميلاد زاد البرد ـ وكأن كل يوم كان أبرد من سابقه . ما كان أحد قادراً على تذكر شتاء قارس كهذا... لم يعد الثلج يهطل ، ولا حتى في الجبال . ولكن الثلج الذي هطل في قداس كلمنت قد تجلّد حتى أصبح كالحجر . وكانت الشمس تلتمع في سماء صافية ، وراحت الأيام تصبح أكثر ضياء . في الليل كانت الأنوار الشمالية تلتمع وتضيء فوق المدى إلى الشمال... كانت تشع فوق نصف السماء ، ولكنها لم تحدث أي تغيير في الطقس . بين الحين والآخر كان يأتي يوم غائم ، وكان ثلج جاف قليل يتناثر... ثم يحل طقس صاف مجدداً مع برد قارس . كان نهر لاغن يهمهم ويقرقر بكسل تحت الجسور المتجلدة .

فكرت كريستين في كل صباح أنها لم تعد تحتمل ، وأنها ما كانت

تستطيع الصمود إلى نهاية اليوم . وفي كل يوم كانت تشعر أنه مبارزة بينها وبين أبيها . وهل يستطيعان أن يكونا ضد بعضهما البعض على هذا النحو ، بينما كل كائن حي في الأبرشية ، من بشر وحيوان ، يعاني تجربة مشتركة واحدة ؟... ولكن مع ذلك ، حين حلّ المساء ، كانت قد صمدت يوماً آخر .

لم يكن الأمر أن أباها كان غير ودود فحسب . لم يكونا يتبادلان أي كلمة حول ما جرى بينهما ، ولكنها أحست ، أنه خلف ما كان لا يتلفظ به ، كانت إرادته الصلبة العنيدة تستند إلى رفضه .

كان قلبها يؤلمها في الداخل لقلة الودّ لدى أبيها . كان الألم رهيباً في حدته ، لأنها عرفت كم كان العبء الذي يحمله والدها على كتفيه... ولو أن الأمور كانت كما هي في السابق ، لكان سيتحدث معها عن ذلك كله... وكان الأمر بالفعل على هذا النحو ، لذلك كانوا في يوروندغارد في وضع أفضل من معظم الأماكن الأخرى . ولكن هنا أيضاً كانوا يشعرون بعبء هذه السنة كل يوم وكل ساعة . في سنوات أخرى كان من عادة لافرانس في الشتاء أن يروّض أمهره الصغيرة . ولكن في هذه السنة كان قد أرسلها كلها جنوباً في الخريف وباعها . وقد افتقدت بناته سماع صوته في الساحة ، ورؤيته وهو يناضل مع الأمهر الرشيقة المرهقة ذات السنتين في اللعبة التي كان يحبها كثيراً . كانت المخازن والحظائر والمستودعات في يوروندغارد غير فارغة بعد... كان هناك مخزون متبق من حصاد السنة السابقة ، ولكن الكثيرين كانوا يأتون طلباً للمساعدة... للشراء أو للتسول ، ولم يرجع صاحب حاجة خالي الوفاض .

في وقت متأخر من إحدى الأمسيات وصل على مزلجة رجل عجوز ضخم يرتدي فروة . حادثه لافرانس في الساحة ، وحمل هالفدان الطعام إلى غرفة

الموقد لأجله . لم يعرفه أحد ممّن كانوا في المكان ، ربما يكون واحداً من أولئك الذين يعيشون في الجبال . ربما صادفه لافرانس هناك . ولكن لافرانس لم يذكر شيئاً عن الزائر ، كما لم يفعل هالفدان .

ولكن جاء في إحدى الأمسيات رجل لم يكن لافرانس بيورغولفسون على وفاق معه منذ سنوات كثيرة . ذهب لافرانس إلى المستودع معه . حين عاد إلى المنزل الرئيسي ثانية ، قال :

«لقد جاؤوا إليَّ طلباً للمساعدة ، كل واحد منهم . ولكن هنا في منزلي أنتم جميعاً ضدي . وأنت أيضاً يا زوجتي» ، قال بانفعال .

هاجمت الأم كريستين :

«أتسمعين ما يقوله أبوك لي! ؟ لا ، لست ضدك يا لافرانس . أعرف وأريدك أن تعرفي أيضاً يا كريستين... ما حدث في الجنوب بعيداً في رولدستاد في أواخر الخريف ، حين سافر إلى «ديل» مع ذلك الزاني الآخر ، قريبه من هاوغن... انتحرت تلك المرأة التعيسة ، تلك التي أغواها لترحل معه بعيداً عن كل أقربائها» .

وقفت كريستين بوجه قاس متجمد :

«أرى أن الأمر كله واحد : أنتم تلومونه على السنوات التي عاشها وهو يحاول أن يحرر نفسه من الخطيئة بقدر ما تلومونه على السنوات التي عاشها في الخطيئة» .

«يا للمسيح ومريم!» صاحت راغنفريد ، وهي تعصر يديها : «ما الذي جرى لك! ألم ينجح حتى هذا في تغيير قلبك ؟»

قالت كريستين : «لا . لم أتغير» .

ثم رفع لافرانس نظره عن المقعد الذي كان جالساً عليه قرب أولفهيلد ، وقال بصوت خفيض :

«و لا أنا تغيرت يا كريستين» .

●

ولكن كريستين أحسّت في داخلها أنها قد تغيرت بطريقة ما ، من حيث الأفكار إن لم يكن في القلب . وصلتها أنباء عن كيفية تطور الأحداث معهما في تلك الرحلة الرهيبة . وكما حدث فقد جرت الأمور على نحو أسهل ممّا توقعا . وسواء كان البرد قد تغلغل في الجرح أو مهما كان السبب ، إلا أن جرح الخنجر في صدر إرلند قد التهب ، وقد أجبره ذلك على أن يبقى في التكية في روالستداد ، واعتنى به السير بيورن . ولكن إصابة إرلند بالجرح جعل الأمر أسهل على التصديق حين رويا حكايتهما عن كيفية حدوث الأمر .

وحين أصبح أهلاً لمتابعة السفر ، أخذ جثمان المرأة الميتة في تابوت حتى أوسلو ، وهناك بمساعدة سيرا يون ، استطاع أن يحصل لها على دفن مسيحي في ساحة كنيسة القديس نيكولاوس القديمة التي هدمت . ثم اعترف أمام أسقف أوسلو بنفسه ، وقد فرض عليه الأسقف كفارة أن يذهب ليحج إلى «الدم المقدس في شفيرن»[٢٠] . والآن كان قد رحل إلى خارج البلاد .

لم تستطع هي أن تذهب للحج في أي مكان في هذه الأرض ، لتجد الغفران . لم يكن أمامها سوى الجلوس هنا والانتظار والتفكير ، ومحاولة الصمود في نزاعها مع أبيها وأمها . سقط نور شتائي بارد غريب على كل ذكرياتها عن لقاءاتها مع إرلند . فكرت بقوته... في الحب كما في الحزن... وقد كانت بالفطرة قادرة مثله ، على تنفيذ كل الأمور باندفاعة فجائية مباشرة ، وربما كانت تبدو تلك أقل تخويفاً وأثقل على التحمل . أحياناً كانت تفكر كما يلي : ربما سيتخلى عني إرلند . بدا لها أنه سيكون عليها دائماً أن تعاني خوفاً مترصداً مفاده أنه لو أضحت الأمور شديدة الصعوبة

عليها فسوف يتخلى عنها . ولكنها لن تتخلى عنه أبداً ، ما لم يحلّها هو من كل العهود .

•

وهكذا تجرجر الشتاء حتى نهايته . ولم تستطع كريستين غشّ نفسها بعد ذلك . كان عليها أن ترى أصعب محنة عليهم أن يواجهوها : أن أولفهيلد لم يعد أمامها فترة طويلة تعيشها . وفي وسط حزنها المرير على أختها رأت برعب أن روحها كانت مضللة ومستهلكة بالخطيئة . فمع وجود الطفلة المحتضرة وحزن الأبوين الذي لا يوصف أمام عينيها ، كانت لا تزال تفكر في هذا الأمر... لو ماتت أولفهيلد ، فكيف سأتحمل أن أنظر إلى أبي ولا أرمي بنفسي على قدميه والاعتراف بكل شيء وأطلب منه الغفران... وأن يأمرني بما عليَّ أن أفعله...

•

كانوا قد قطعوا شوطاً طويلاً من الصيام الكبير . كان الناس قد بدؤوا بذبح الحيوانات الصغيرة التي أملوا أن تبقى حية ، خشية أن تموت من تلقاء أنفسها . وكان الناس أنفسهم قد مرضوا وهزلوا من أكل السمك وحده ولا شيء آخر سوى القليل من الجريش والدقيق البائسين . منح سيرا آيريك سكان الأبرشية كلهم الإذن ليأكلوا الطعام المصنوع من الحليب إن شاؤوا [رغم الصيام/ المترجم] . ولكن ما استطاعت سوى قلة الحصول على قطرة من الحليب .

كانت أولفهيلد تستلقي في سريرها . كانت وحيدة في سرير الأخوات ، وكان هناك من يرعاها كل ليلة . وكان يحدث أحياناً أن يرعاها كل من كريستين وأبوها . وفي ليلة كتلك قال لابنته :

«أتذكرين ما قاله الأخ إدفين تلك المرة حول مصير أولفهيلد ؟ حتى في ذلك الحين خطرت لي فكرة مفادها أنه ربما عنى هذا . ولكني أبعدتها عني في ذلك الحين» .

أحياناً في هذه الليالي كان يتحدث عن هذا الأمر أو ذاك من ذكريات طفولة البنات . كانت كريستين تجلس هناك شاحبة ويائسة... كانت تعرف أن أباها كان يتضرع إليها من وراء الكلمات .

•

في أحد الأيام كان لافرانس مع كولباين لملاحقة دب في وجاره الشتوي في الجبال الحرجية إلى الشمال . وقد عاد إلى البيت بدبة على مزلجة ، وجلب معها لافرانس ديسمها الحي في صدر معطفه . انتعشت أولفهيلد قليلاً حين أراها الديسم . ولكن راغنفريد قالت إنه لم يكن الوقت المناسب لتربية مثل هذا الحيوان... ما الذي يمكن فعله به في مثل هذا الوقت ؟

«سأربيه وأربطه أمام كوخ بناتي» ، قال لافرانس وهو يضحك بقسوة .

ولكنهم لم يستطيعوا أن يتدبروا للديسم الحليب الدسم الذي كان في حاجة إليه ، واضطر لافرانس إلى قتله بعد بضعة أيام .

•

كانت الشمس تكتسب الكثير من القوة الآن حتى أنه كان يحدث أحياناً ، عند منتصف النهار ، أن يذوب الثلج فيقطر من السقوف . كانت طيور القرقف تتسلق بجهد وهي تتشبث بالجانب المشمس من الجدران الخشبية ، وتنقر حتى يرن الخشب ، باحثة عن الذباب الذي ينام بين

الشقوق . عبر الحقول المنتشرة من حولهم ، كان الثلج يلمع بقسوة وببريق كالفضة .

و أخيراً في إحدى الأمسيات بدأت الغيوم تتجمع فوق القمر . وفي صباح اليوم التالي استيقظ الناس في يوروندغارد في وسط عالم مدوّم من الثلج جعلهم في حالة حصار من كل جانب ، فلا يستطيع البصر أن يرى شيئاً .

•

في ذلك اليوم عرفوا أن أولفهيلد كانت تحتضر .

كان كل سكان المنزل في الداخل ، ووصل سيرا آيريك لزيارتهم . كان كثير من الشموع يحترق في القاعة . في وقت مبكر من المساء ماتت أولفهيلد بهدوء وسلام بين ذراعي أمها .

تحملت راغنفريد ما جرى أفضل ممّا كان متوقعاً من أي شخص . كان الأب والأم جالسين معاً ، وكانا كلاهما يبكيان بهدوء شديد . كل من كان في الغرفة كان يبكي . حين مضت كريستين إلى أبيها ، وضع ذراعه حول كتفيها . أحسّ كيف أنها كانت ترتجف وترتعد فأدناها منه . ولكن بدا الأمر لها وكأنه لا بدّ قد شعر أنها كانت أبعد عنه من الفتاة الميتة في السرير .

لم تفهم كيف أنها لا تزال صامدة . لم تذكر إلاّ بالكاد ما كانت تصمد لأجله . ولكنها إذ جعلها الحزن كليلة وخرساء ، فقد صمدت ولم تستسلم...

... اقتلعت بعض ألواح الخشب من أرضية الكنيسة أمام ضريح القديس توماس ، وحفر قبر في الأرض القاسية كالصخر تحتها لتكون قبراً لأولفهيلد لافرانسداتر .

كان الثلج يهطل كثيفاً وبصمت خلال تلك الأيام كلها ، بينما كانت الطفلة

ممددة فوق عشب الموتى . وكان الثلج لا يزال يهطل حين حُملت إلى القبر ؛ وقد استمر الثلج بالهطول دون توقف تقريباً حتى مضى شهر كامل .

•

بدا الربيع وكأنه لن يأتي أبداً بالنسبة إلى سكان ديل الذين راحوا ينتظرون وينتظرون مجيئَهُ ليخلصهم . أضحت الأيام أطول وأكثر ضياء ، وكانت غيوم البخار من الثلج المنصهر تقبع فوق كل الوادي طالما كانت الشمس مشرقة . ولكن البرد كان لا يزال يمسك بالهواء ، ولم يكن في الحرارة قوة على التغلب عليه . في الليل كان كل شيء يتجمد بقسوة... كان هناك صوت فرقعة الجليد ، وأصوات مدوية من الجبال البعيدة . كانت الذئاب والثعالب تعوي بين المزارع كما في منتصف الشتاء . قام الرجال بنزع لحاء الأشجار لإطعام أبقارهم ، ولكن هذه أخذت تقع ميتة أرضاً بالعشرات . ولم يكن هناك من يعرف كيف سينتهي هذا كله .

خرجت كريستين في يوم كذاك حين كان الماء يجري في القنوات وكان الثلج على الحقول المجاورة يلتمع كالفضة . كانت أكاليل الثلج قد تبخرت على الجانب المقابل للشمس ، حتى أن التعريشة الجليدية الدقيقة لحواف القشرة الثلجية كانت تتكسر برنين فضي حين تلمسها بقدمها . ولكن في كل مكان ، حيث سقطت أصغر الظلال ، كان البرد القارس يمسك بالهواء وكان الثلج قاسياً .

صعدت نحو الكنيسة... لم تعرف هي نفسها ما تفعله هناك ، ولكن جذبها شيء ما إلى هناك . كان أبوها هناك ،و قد عرفت أن بعض الملاُك الأحرار وأعضاء النقابة سيلتقون هناك في الرواق .

في منتصف الطريق إلى التل قابلت مجموعة من المزارعين وهم يهبطون وكان سيرا آيريك معهم . كانوا جميعاً راجلين . وكانوا يمشون وقد أحنوا

ظهورهم مشكلين عقدة داكنة مضطربة ، دون أن يتبادلوا الكلام فيما بينهم . ردوا على تحيتها بتجهم حين مرت بهم .

فكرت كريستين كم أصبح ذلك الزمن بعيداً حينما كان كل فرد في الأبرشية صديقاً لها . على الأرجح أنهم أضحوا كلهم يعرفون أنها ابنة عاقة . وربما كانوا يعرفون أكثر من ذلك عنها . وربما كانوا يعتقدون جميعاً أن هناك بعض الحقيقة في الكلام القديم الذي حُكِيَ عنها وعن آرن وبنتاين . ربما تكون قد أصبحت ذات سمعة سيئة . رفعت رأسها عالياً وتابعت طريقها إلى الكنيسة .

كان الباب موارباً والجو بارداً في الكنيسة ، ولكن كأنما كان دفء لطيف يتغلغل إلى قلبها من القاعة البنية المعتمة ذات الأعمدة العالية المنصوبة التي تحمل العتمة تحت أعمدة السقف . لم يكن هناك أي نور عند المذابح ، ولكن شعاعاً من الشمس كان يلتمع داخلاً عبر شق الباب ويومض على نحو باهت مرتداً من الصور والأوعية المقدسة .

أمام مذبح القديس توماس شاهدت أباها منحنياً إلى الأمام على يديه المطوْيتين اللتين تحملان قبعته التي كانت تلتصق بصدره منسحقة .

تسللت كريستين خارجة بعد أن ارتدّت إلى الخلف من الخوف والحزن ، ووقفت في الرواق ويداها حول اثنين من الأعمدة الصغيرة . وبينما وقفت متأطرة في القوس الذي بينهما رأت يوروندغارد ممتدة تحتها ، وخلف منزلها كان السديم الأزرق الشاحب الذي يملأ الوادي . وحيث امتد النهر عبر الريف كان جليده وماؤه يرسلان التماعات تحت نور الشمس . ولكن أجمات شجر جار الماء على امتداد حوضه كانت ذات لون بني مصفرّ من تفتح الزهر ، وحتى غابة الصنوبر قرب الكنيسة كانت ملونة بلون الربيع الأخضر ، وكانت هناك أنغام وزقزقة وتغريد الطيور الصغيرة في البستان

المجاور . أجل ، كان هناك شدو للعصافير مشابه لهذا في كل مساء بعد أن تغرب الشمس .

و شعرت أن التوق الذي ظنت أنه قد غادرها منذ زمن طويل ، التوق الذي في جسدها ودمها ، قد أخذ يتحرك مجدداً الآن ، على نحو ضعيف وواهن ، وكأنه يكاد يستيقظ من سبات شتوي .

خرج لافرانس بيورغولفسون وأقفل باب الكنيسة من خلفه . اقترب ووقف إلى جانب ابنته ، وهو ينظر من خلال القوس المجاور لها . رأت كيف أن الشتاء الذي انقضى قد ترك آثاره على وجه أبيها . لم تفهم كيف كان يمكن لها أن تذكر ما كان بينهما ، ولكن الكلمات بدت كأنها تندفع من تلقاء نفسها .

«هل صحيح ما قالته لي أمي في ذلك اليوم أي أنك قلت لها : لو كان آرن غيردسون هو خاطبي لوافقت على تزويجي منه لو طلبت ذلك ؟»

قال لافرانس دون أن ينظر إليها : «أجل» .

قالت كريستين : «لم تقل ذلك حين كان آرن لا يزال حياً» .

«لم يطرق الموضوع قط . لقد رأيتُ على نحو كاف أن ذلك الفتى كان يقدّرك كثيراً... و لكنه لم يقل شيئاً ـ وكان شاباً صغيراً ـ و أنا لم ألاحظ إطلاقاً وجود أفكار كهذه تجاهه من قبلك . ما كان يمكن التفكير إلا بالكاد في أن أعرض ابنتي على رجل لا أملاك له ، أليس كذلك ؟» ابتسم ابتسامة خفيفة . «و لكني كنت أحب ذلك الفتى» ، قال بصوت خفيض ؛ «ولو كنت رأيت أنكِ كنتِ تذوين في حبه...»

وقفا ساكنين ، محدقين . شعرت كريستين أن أباها كان ينظر إليها : حاولت بجهد أن تكون هادئة الوجه ، ولكنها شعرت بنفسها تشحب كالموتى . ثم اقترب منها أبوها ووضع ذراعيه من حولها وضمها إليه بقوة .

ثنى رأسها نحو الخلف ، ونظر إلى وجه ابنته ، ثم أخفاه مجدداً في كتفه .

«يا يسوع المسيح يا كريستين الصغيرة ، هل أنت تعيسة إلى هذا الحد ؟...»

«أعتقد أني سأموت من شدة التعاسة يا أبي» ، قالت ووجهها مدفون في جسمه .

انفجرت باكية . ولكنها بكت لأنها شعرت في ضمته ورأت في عينيه أنه كان الآن منهكاً من الألم وأنه لم يعد يستطيع الصمود أمامها بعد الآن . لقد غلبته .

•

في الليل أيقظتها في الظلام لمسة أبيها على كتفها .

قال برقة : «انهضي . هل تسمعيني... ؟»

سمعت غناء الريح من حول زوايا المنزل... النغمة العميقة المليئة للريح الجنوبية ، المترعة بالرطوبة . كانت جداول من الماء تنهمر من السقف . كانت هناك همسة مطر يتساقط على الثلج الطري الذائب .

رمت كريستين بثوبها فوق ظهرها وخرجت خلف أبيها إلى الباب الخارجي . وقفا معاً ينظران إلى غسق ليلة من ليالي أيار (مايو) . كانت الريح الدافئة والمطر يهبان عليهما بقوة ، وكانت السماء خليطاً من الغيوم الماطرة المتشابكة المنجرفة ، وراحت الغابات تزمجر ، والريح تصفر بين المنازل . ومن بعيد في الجبال سمعا الوقع المدوي لكتل الثلج الساقطة .

تلمست كريستين يد أبيها وأمسكت بها . كان قد ناداها ليريها هذا . هكذا كان الأمر بينهما من قبل . كان من شأنه أن يفعل هذا من قبل . وهاهو قد عاد إلى دأبه ثانية .

حين دخلا ليذهبا إلى الفراش مجدداً قال لافرانس :

«الخادم الغريب الذي وصل الأسبوع الماضي جلب لي رسائل من السير مونان باردسون . إنه ينوي القدوم إلى ديل في الصيف القادم ليرى أمه . وقد طلب الإذن ليراني ويكلمني» .

همست : «بم ستجيبه يا أبي ؟»

قال لافرانس : «لا أستطيع أن أقول لك الآن . ولكني سأتحدث معه . وثم سأرتب هذه القضية كما يأمر به الله يا ابنتي» .

زحفت كريستين إلى جانب رامبورغ ، ومضى لافرانس ونام إلى جانب زوجته النائمة . استلقى وراح يفكر أنه لو جاء الطوفان فجأة وبقوة ، لما كان سيجد في طريقه سوى أمكنة قليلة في هذه الأبرشية شأن يورونڈغارد ليجتاحها . كان الناس يقولون إن هناك نبوءة تفيد بأن النهر سيحمل يورونڈغارد بعيداً في أحد الأيام .

٥

جاء الربيع دفعة واحدة . وبعد أيام قليلة فحسب من الذوبان المفاجئ للجليد ، غرقت الأبرشية تحت مطر متواصل وقد أضحت بلون بني داكن . اندفعت المياه وهي تزبد من على المنحدرات الجبلية ، وفاضت الأنهار في قعر الوادي حتى صارت كبحيرة ضخمة بلون رمادي رصاصي ، مع خطوط من قمم الأشجار تطفو فوق المياه وأخدود غادر مزبد حيث يجري التيار . في يوروندغارد طغت المياه على الحقول . ولكن كان الضرر الذي حصل في كل مكان أقل مما توقع الناس .

وبالضرورة تأخرت أعمال الربيع ، وبذر الناس حبات القمح القليلة مع صلوات إلى الرب أن ينقذهم من جليد الليالي الخريفية . وبدا وكأن الرب سيصغي لهم ويخفف قليلاً من عبئهم . جاء حزيران بطقس لطيف تدريجي ، وكان الصيف جيداً ، وأمل الناس أن تُمحى أمارات السنة الرديئة في الوقت الملائم .

•

كان جمع التبن قد بدأ حين وصل في إحدى الأمسيات أربعة رجال على

جيادهم إلى يوروندغارد . وصل أولاً فارسان ، وخلفهم خادماهما . كان الفارسان هما السير مونان باردسون والسير بارد بيترسون أوف هستنايس .

كان راغنفريد ولافرانس قد حضّرا المائدة في القاعة العلوية ، وجُهزت الأسرة في غرفة الضيوف فوق بناء المخزن . ولكن لافرانس طلب إلى الفارسين أن يرجئا المهمة إلى اليوم التالي ، بعد أن يكونا قد ارتاحا من رحلتهما .

أدار السير مونان الحوار خلال تناول وجبة الطعام . التفت إلى كريستين كثيراً خلال كلامه ، وتحدث وكأنه وإياها كانا على معرفة جيدة الواحد بالآخر . وقد لاحظت أن هذا لم يرق لأبيها . كان السير مونان ذا بنية مربعة ، أحمر الوجه ، قبيحاً ، ثرثاراً ، وأشبه بالمهرج نوعاً ما في هيئته . كان الناس يسمونه «مونان القصير البدين» أو «مونان الراقص» . ولكن رغم مظهره الطائش كان ابن الليدي آشيلد ذا فهم وكفاءة ، وقد استخدمه التاج أكثر من مرة في مسائل تتطلب الثقة ، وقد عُرِفَ عنه أنه صاحب كلمة في مجالس أولئك الذين كانوا يديرون شؤون المملكة . كان قد حصل على ميراث أمه في «سكوغهايم هندرد» : كان ثرياً للغاية وقد تزوج من امرأة ثرية . أما زوجته الليدي كاترين فكانت امرأة ذات ملامح قاسية أكثر من المعتاد ، ونادراً ما تفتح فمها . ولكن زوجها كان غالباً ما يتحدث عنها على أنها أحكم النساء ، وأنها معروفة باسم «ليدي كاترين سريعة البديهة» من حيث قول النكات ، أو «ذات اللسان الفضي» . وقد بدا أنهما يعيشان متفاهمين ، رغم أن السير مونان كان معروفاً بحياته الفاجرة قبل الزواج وبعده .

أما السير بارد بيترسون فكان رجلاً عجوزاً وسيماً وجليلاً ، رغم أنه أصبح الآن بديناً ثقيل الأطراف . كان شعره ولحيته قد أخذا بالاضمحلال ،

ولكن لونهما كان لا يزال أصفر بقدر ما هو أبيض . ومنذ وفاة الملك ماغنوس هاكونسون عاش متقاعداً ، يدير أملاكه الضخمة في نوردمور . كان أرملَ للمرة الثانية ، ولديه الكثير من الأطفال ، وكانوا كلهم كما يقال وسيمين جيدي التربية وأغنياء .

•

في اليوم التالي ذهب لافرانس مع ضيفيه إلى القاعة العليا لإجراء الحوار . أراد لافرانس أن تحضر زوجته ولكنها رفضت :

«هذه مسألة يجب أن تكون بين يديك برمتها . أنت تعرف جيداً أن ابنتنا ستعاني أعظم الأسى لو لم تصلوا إلى نتيجة . ولكني أرى جيداً أن هناك أشياء كثيرة جداً قد تقف عثرة أمام هذا الزواج» .

كان السير مونان قد أحضر رسالة من إرلند نيكولاوسون . وكان عرض إرلند هو أن يحدد لافرانس نفسه كل الشروط(٢١) ، هذا إن قبل تزويجه من ابنته كريستين . كان إرلند راغباً في جعل كل أملاكه ومداخيله موضع التقييم من قبل أشخاص حياديين ، وأن يمنح كريستين هدية استثنائية وهدية صباحية العرس ، وأن تحوز على ثلث مجموع أملاكه علاوة على بائنتها وكل الميراث الذي قد يصلها من أقربائها لو أنها تُركت أرملة دون أولاد أحياء . كما كان عرضه يشمل منح كريستين كامل السلطة للتصرف كما تشاء بحصتها من الأملاك المشتركة ، سواء كان من ميراثها من أقربائها أو ما سترثه من زوجها . ولكن لو أراد لافرانس فرض شروط أخرى على الاتفاق ، فإن إرلند مستعد دائماً للاستماع إلى رغباته وتلبيتها جميعاً . أما هو فلديه شرط واحد يطلبه من أهل كريستين ، وهو أن عليهم من جانبهم أن يلتزموا بما يلي : أنه لو حصل وانتقلت رعاية ولديه وكريستين إليهم ،

فهم لن يحاولوا أن يلغوا الهدايا التي منحها لولديه من إلين أورمسداتر ، بل سيدعون تلك الهدايا كما هي ، كونها قد أصبحت ملكاً لهما قبل زواجه من كريستين لافرانسداتر . وفي النهاية تعهّد إرلند بإقامة حفل زفاف فخم في هوسابي .

أجاب لافرانس :

«هذا عرض جيد . وأرى من خلاله أن قريبكما راغب من كل قلبه في أن يصل إلى اتفاق معي . وما يجعل هذا واضحاً لي هو أنه قد طلب منك يا سير مونان أن تأتي إليّ للمرة الثانية في هذه المهمة نفسها ، أنا الشخص صاحب القيمة الضئيلة خارج هذا الريف ؛ وأن فارساً من مقامك أيها السير بارد ، قد تحمل مشاق السفر لدعم طلبه هذا . ولكن فيما يخص عرض إرلند ، أود أن أقول إن ابنتي لم تنشأ على التعامل شخصياً بمسائل التجارة ، وكنت آمل أن أزوجها إلى رجل أستطيع أن أسلمه مصالح الفتاة وأنا مرتاح البال . لا أعرف بالضبط إن كانت كريستين قادرة على تسلم مثل هذه السلطة ، ولكني لا أعتقد إلا بالكاد أن ذلك في مصلحتها . إنها صاحبة مزاج لطيف وطيّعة ، وهذا كان أحد الأسباب الذي جعلني أعارض هذا الزفاف . إنه لمن المعروف عن إرلند أنه أظهر تقصيراً في فهم أكثر من أمر . ولو كانت [ابنتي] امرأة محبة للسلطة وجريئة وعنيدة ، لكانت المسألة قد اتخذت منحى آخر» .

انفجر السير مونان ضاحكاً :

«عزيزي لافرانس ، أتحزن لأن الفتاة ليست عنيدة بما فيه الكفاية ؟»

وقال السير بارد بابتسامة خفيفة :

«أعتقد أن ابنتك قد أثبتت أنها لا تفتقر إلى إرادة خاصة بها ، فهي قد حافظت منذ سنتين وإلى الآن على إخلاصها لإرلند ضد رغبتك» .

قال لافرانس :

«لم أنس ذلك . ولكني أعرف جيداً ما أقوله . لقد عانت هي شخصياً كثيراً خلال هذه الفترة التي وقفت فيها ضدي . ولن تكون سعيدة فترة طويلة مع زوج لا يستطيع أن يسيطر عليها » .

قال السير مونان : « كلا ، إذن فالشيطان يتحكم بهذه القضية! لا بد أن ابنتك لا شبيه لها بين كل النساء اللواتي عرفتهن . فأنا لم يسبق لي أن رأيت امرأة واحدة لا تحب أن تحكم نفسها بنفسها وأن تحكم زوجها أيضاً! »

هزّ لافرانس كتفيه ولم يجب .

ثم قال بارد بيترسون :

«أعتقد جيداً يا لافرانس بيورغولفسون أنك لا تجد هذا الزواج بين ابنتك وابني بالتربية مرضياً لك ، بما أن المرأة التي عاشت معه انتهت تلك النهاية التي نعرفها في العام الماضي . ولكن عليك أن تعرف أنه قد أصبح معلوماً الآن أن تلك المرأة قد سمحت لنفسها أن تضل عن الطريق بتوجيه من رجل آخر ، هو وكيل إرلند في هوسابي . لقد كان إرلند عارفاً بذلك حين سافر معها إلى ديل . وكان قد عرض عليها أن يقدم لها بائنة ملائمة لو تزوجها ذلك الرجل» .

سأل لافرانس : «أأنت على ثقة تامة من هذا ؟ وأنا لا أعرف مع ذلك إن كانت الأمور أفضل لأنها جرت على هذا النحو . إنه لأمر صعب على امرأة من أسرة طيبة أن تدخل منزلاً ويدها في يد سيد المنزل ثم تخرج منه ويدها في يد الخادم» .

تكلم مونان باردسون :

«من الواضح لي يا لافرانس بيورغولفسون أن ما لديك ضد ابن خالتي

هو ما فعله من أمور غير لائقة مع زوجة سيغورد ساكسولفسون . ولاشك أن ما فعله لم يكن أمراً لائقاً . ولكن أستحلفك بالله يا رجل أن تتذكر ما يلي : هذا فتى صغير يسكن في منزل مع امرأة شابة وجميلة لها زوج عجوز بارد لا حول له... والليل هناك يستغرق نصف سنة بحالها : أعتقد أنه ما من إنسان لا يتوقع ما سيحدث ما لم يكن إرلند قديساً . لا مجال لإنكار ذلك : لم يكن إرلند طوال تلك الفترة راهباً حزيناً . إلا أني أعتقد أن ابنتك الشابة الجميلة لن تكون سعيدة لو زوجتها إلى زوج أشبه بالرهبان . صحيح أن إرلند قد تصرف كأحمق آنذاك ، وكأحمق كبير منذ ذلك الحين... ولكن لا يجب أن نظلمه بهذا الأمر إلى الأبد... فنحن أقرباءه قد بذلنا جهدنا لمساعدة الشاب كي ينهض على قدميه مجدداً . فالمرأة قد ماتت ، وقد بذل إرلند كل جهده للعناية بجثمانها وروحها . لقد أحلّه أسقف أوسلو نفسه من خطيئته ، وقد عاد إلى بيته الآن طاهراً بعد الحج إلى «دم شفيرين»... فهل ستكون أشد صرامة من أسقف أوسلو وأسقف شفيرين... أو أياً يكون ذاك المسؤول عن ذاك الدم الأثير... ؟

«عزيزي لافرانس : صحيح أن العفة أمرٌ جميل بالفعل . ولكن من الصعب حقاً على رجل ناضج أن يحوزها دون هبة خاصة من الله . وحق القديس أولاف... أجل ، وعليك أن تتذكر أيضاً أن الملك المقدس لم يكن يتحلى بتلك الهبة حتى انتهت حياته... وربما كانت إرادة الله أن يرزق أولاً بذلك الابن أي الملك ماغنوس الذي أباد الوثنيين الذين ثاروا على النوردلاند . وأعتقد أن الملك أولاف قد رزق بذلك الابن من امرأة أخرى غير زوجته الملكة... ولكن أليس موضعه بين أسمى القديسين في السماء . أجل ، أستطيع أن أرى في وجهك أنك تعتبر هذا كلاماً غير لائق...»

و هنا قاطع السير بارد قائلاً :

«يا لافرانس بيورغولفسون : أنا نفسي لم أكن راضياً عن المسألة حين جاء إرلند ليقول لي إنه قد أحب فتاة مخطوبة لرجل آخر . ولكن منذ ذلك الحين عرفت أن هناك الكثير من الود بين هذين الشابين ، حتى أنه سيكون أمراً مؤسفاً جداً أن نفرق بينهما . كان إرلند معي في آخر حفل لعيد الميلاد أقامه الملك هاكون لرجاله : وقد تقابلا هناك ، ولم تره ابنتك حتى غابت عن الوعي واستلقت هناك فترة طويلة كالميتة... ورأيت في وجه ابني بالتربية أنه يفضل أن يخسر حياته على أن يخسرها» .

صمت لافرانس فترة قبل أن يجيب :

«أجل ، كل هذه الأمور ستكون جيدة وملائمة حين يسمعها المرء تروى في حكاية بطولية عن الفرسان في البلاد الجنوبية . ولكننا لسنا في بريتلاند هنا ، وأعتقد أنكما أيضاً ستطلبان من الرجل الذي قد تختاراه كصهر لكما ما هو أكثر من مجرد أن يجعل ابنتكما تغيب عن الوعي من شدة الحب تحت أنظار الناس كلهم...»

صمت الآخران وتابع لافرانس :

«إنه في ذهني أيها السيدان الصالحان ، أنه لو لم يضيع إرلند نيكولاوسون كلاً من أملاكه وسمعته ، لما كنتما جالسين هنا تلتمسان بهذه الشدة من رجل بمثل مركزي أن يمنح ابنته له . ولكنني سأكره أن يقال عن كريستين إنه لشرف لها أن تتزوج من رجل ذي أملاك كبيرة ومركز هو بين الأعلى في البلاد... بعد أن مرّغ نفسه في العار إلى ذلك الحد ، حتى أنه ما عاد قادراً على أن يأمل في زواج أفضل ، أو أن يرفع من شرف بيته» .

نهض منفعلاً وبدأ يمشي جيئة وذهاباً .

و لكن السير مونان قال :

«والآن بحق الرب يا لافرانس ، إن كنت تتكلم عن العار ، فإني أود أن أعلمك أنك تبالغ في الاعتزاز بـ ...»

قاطعه السير بارد بسرعة وذهب إلى لافرانس :

«أنت معتز بنفسك يا لافرانس... أنت أشبه بأولئك المزارعين الذين سمعنا عنهم قديماً ، والذين رفضوا الحصول على ألقاب من الملك لأن اعتزازهم بأنفسهم لم يكن يسمح لهم أن يقول الناس إنهم ممتنون لأي شخص سوى أنفسهم . وأقول لك إنه لو بقي إرلند محافظاً على كل شرفه وثروته اللذين آلا إليه ، لما كنت سأعتبر أني أحطّ من قدره أو قدري في أن أطلب من رجل كريم المحتد وغني أن يمنح ابنته إلى ابني بالتربية ، لو كنت أعرف مسبقاً أن الشابين قد يحطمان قلبيهما لو كتب عليهما الفراق» . ثم قال بصوت خفيض وهو يضع يده على كتف لافرانس : «و أنه حريّ بهما والحال هذه أن يتزوجا لأن في ذلك راحة لكل الأرواح» .

انسحب لافرانس من يد الرجل الآخر . بدا وجهه مصمّماً وبارداً :

«لا أعتقد إلا بالكاد أني أفهم ما تعنيه يا سيدي الفارس» .

نظر الرجلان أحدهما إلى الآخر فترة . ثم قال السير بارد :

«أعني أن إرلند قد حكى لي أنهما أقسما أغلظ أيمان الولاء أحدهما للآخر . ربما ستقول إنك قادر على أن تحل ابنتك من قسمها ، بما أنها أقسمته دون إرادتك . ولكنك لن تستطيع أن تحل إرلند من قسمه... وأرى أن ما يقف في الطريق هو اعتزازك بنفسك وكرهك للخطيئة . ولكنك تبدو لي في ذلك أكثر صرامة من الرب نفسه يا لافرانس بيورغولفسون» .

أجاب لافرانس دون ثقة نوعاً ما :

«ربما تكون هناك حقيقة فيما تقوله لي يا سير بارد . ولكن ما يجعلني

أعارض هذا الزواج هو أني أعتبر إرلند رجلاً غير موثوق فيه ولا أستطيع أن أسلم ابنتي إلى عهدته» .

«أعتقد أني أستطيع أن أجيب نيابة عن ابني بالتربية الآن» ، قال بارد بهدوء . «إن كريستين عزيزة عليه كما أعرف إلى حد أنك لو زوجته منها ، سيثبت لك في النهاية أنه الصهر الذي لن يسبب لك أي أسى» .

لم يجب لافرانس فوراً . ثم قال السير بارد بحماسة وهو يمد يده :

«باسم الرب يا لافرانس بيورغولفسون ، امنحني موافقتك!»

وضع لافرانس يده في يد السير بارد :

«باسم الرب» .

•

نودي على راغنفريد وكريستين لتصعدا إلى القاعة العلوية ، وأنبأهما لافرانس بموافقته . حيّا السير بارد المرأتين بأسلوب ملائم ومهذب . أخذ السير مونان يد راغنفريد وتحدث إليها بلباقة ، ولكنه حيّا كريستين بالأسلوب الأجنبي بأن قبّلها ، وأطال تحيته . أحست كريستين أن أباها كان ينظر إليها خلال ذلك .

سأل ممازحاً حين تُرِكَ وحده معها لحظة في مساء ذلك اليوم : «كيف تجدين قريبك الجديد السير مونان ؟»

نظرت إليه كريستين بتوسل . ثم ربت على وجهها ولم يقل شيئاً آخر .

•

حين مضى السير بارد والسير مونان إلى غرفتهما ، انفجر السير مونان قائلاً :

«سأعطي الكثير لأرى وجه لافرانس بيورغولفسون هذا حين يعرف الحقيقة حول ابنته الغالية تلك . هاأنت وأنا نضطر إلى الركوع توسلاً إليه لنحوز لإرلند المرأة التي اصطحبها إلى منزل برينهيلد مرات عديدة» .

أجاب السير بارد بغضب : «اهدأ ، لا تذكر ذلك إطلاقاً . كانت تلك أسوأ فعلة قام بها إرلند حتى الآن ، أن يغوي تلك الطفلة للذهاب إلى مثل تلك الأماكن... وعليه أن يحرص على ألا يسمع لافرانس ذلك . أفضل ما يمكن أن يحدث للجميع الآن ، هو أن يصبح هذان صديقين» .

•

تم تحديد موعد احتفال شرب نخب الخطوبة في ذلك الخريف نفسه . قال لافرانس إنه لن يستطيع أن يجعل الاحتفال فخماً جداً لأن السنة السابقة كانت رديئة جداً في «ديل» . ولكنه سيعوّض عن ذلك بأن يتحمل نفقات العرس بنفسه وأن يقيمه في يوروندغارد مع كل الأبهة المطلوبة . ثم ذكر السنة الرديئة مجدداً على أنها السبب في طلبه أن تستمر فترة الخطوبة سنة كاملة .

٦

حصلت أسباب أخرى جعلت حفل الخطوبة يؤجل حيث أنه لم يقم حتى رأس السنة الجديدة . ولكن لافرانس وافق على أن يكون حفل الزفاف دون تأجيل ، أي أن يجري بعد قداس ميكائيل كما تم الاتفاق على ذلك في البداية .

إذن مكثت كريستين الآن في يوروندغارد على أنها خطيبة إرلند في عيون كل الرجال . وراحت مع أمها تشرف على كل البضائع والملابس التي تم تجميعها وتوفيرها لبائنتها ، وحاولتا جهدهما لإضافة المزيد إلى الأكوام الكبيرة من الفراش والملابس . لأنه ما أن أعطى لافرانس موافقته على زواج ابنته من سيد هوسابي ، كانت إرادته ألاّ ينقص شيء عليها .

كانت كريستين تتساءل أحياناً لماذا لم تشعر أنها أكثر سعادة . ولكن رغم كل الانهماك ، لم تكن هناك سعادة حقيقية في يوروندغارد .

كان أبوها وأمها يفتقدان أولفهيلد إلى حد الألم ، وكانت هي ترى ذلك . ولكنها فهمت أيضاً أن الذي كان يجعلهما صامتين وبائسين إلى ذلك الحد لم يكن هذا السبب وحده . كانا لطيفين معها ، ولكن حين كانا يتكلمان معها عن خطيبها ، كانت ترى أنهما كانا يجبران نفسيهما على

ذلك ليرضياها ويظهرا لها العطف . لم يكن الأمر عدم وجود رغبة لديهما في التحدث عن إرلند . ولكن لم يتعلما أن يستمدا الفرح من الزواج الذي كانت ستدخل فيه ، بعد أن عرفا الرجل الآن . كما أن إرلند أيضاً قد بَقيَ صامتاً ومنعزلاً خلال الفترة القصيرة التي قضاها في يوروندغارد لأجل حفل الخطوبة ، وربما لم يكن ممكناً أن يكون الأمر خلاف ذلك ، كما فكرت كريستين فقد كان يعرف أن أباها لم يمنح موافقته عن طيب خاطر .

لم يتح لها ولإرلند الفرصة لتبادل عشر كلمات على انفراد إلا نادراً . وقد تسبب الجلوس على هذا النحو تحت أنظار الناس في شعور غريب غير مرغوب فيه . في مثل تلك الأوقات ما كان لديهما شيء يقولانه ، بسبب الأمور الكثيرة بينهما والتي لا يمكن قولها . نشأ لديها خوف مليء بالشك ، من النوع الغامض والمعتم ، ولكنه الموجود دائماً : ربما سيكون من الصعب عليهما على نحو ما بعد زواجهما ، أن يقتربا كثيراً ، أحدهما من الآخر ، بعد أن عاشا طوال هذه الفترة متباعدين تماماً .

ولكنها حاولت أن تبعد الخوف عنها . كان من المفروض أن يزورهم إرلند في أسبوع العنصرة . كان قد سأل لافرانس وراغنفريد إن كان لديهما اعتراض على قدومه ، وقد ضحك لافرانس قليلاً ، وأجاب بأن إرلند يجب أن يكون واثقاً بأن عريس ابنته سيكون مرحباً به .

في أسبوع العنصرة سيكونان قادرين على الخروج معاً . سيكون لديهما الفرصة للتحادث معاً كما في الأيام الخالية ، ثم ما سيحدث بالتأكيد هوأن يضمحلّ ذلك الظل الذي ظهر بينهما خلال هذه الفترة الطويلة من الفراق ، حين انصرف كل واحد لشأنه حاملاً عبئاً لا يستطيع الآخر المشاركة فيه .

•

في عيد الفصح وصل سايمون أندرسون وزوجته إلى مورمو . رأتها كريستين في الكنيسة . كانت زوجة سايمون واقفة غير بعيد عنها .

لا بدّ أنها أكبر منه بكثير ، كما فكرت كريستين : ربما لها حوالي الثلاثين من العمر . كانت الليدي هالفريد ضئيلة الجسم ، رشيقة ونحيلة ، ولكن كان لها وجه فاتن تماماً . كان لون شعرها البني الفاتح وهو ينسدل في موجات من تحت القبعة الكتانية ، يبدو شديد النعومة ، وكانت عيناها مترعتين جداً بالرقة . كانتا عينين رماديتين واسعتين مبقعتين بنقط ذهبية في منتهى الصغر . كان كل ملمح من ملامح وجهها دقيقاً ونقياً... ولكن بشرتها كانت باهتة ورمادية ، وحين تفتح فمها يرى المرء أن أسنانها لم تكن جيدة . لم يبد عليها أنها قوية البنية ، ويقول البعض إنها عليلة : لقد أجهضت أكثر من مرة حتى الآن ، كما سمعت كريستين . وقد تساءلت كيف هي حال سايمون مع زوجته .

تبادلت جماعة يوروندغارد وجماعة فورمو التحيات عبر مرج الكنيسة أكثر من مرة ، ولكن دون أن يتبادلوا الحديث . ولكن في يوم عيد الفصح ، كان سايمون في الكنيسة دون زوجته . مضى نحو لافرانس وتحادثا معاً فترة قصيرة . سمعت كريستين اسم أولفهيلد يلفظ . بعدها تحدث مع راغنفريد . أما رامبورغ التي كانت واقفة قرب أمها فقد صاحت بصوت مرتفع : «أتذكرك جيداً... أعرفك» . رفع سايمون الطفلة قليلاً ودوّرها [في الهواء] : «مرحى لك يا رامبورغ ، لأنك لم تنسني» . أما كريستين فحيّاها من بعيد . ولم يقل أبوها وأمها أي كلمة بعد ذلك اللقاء .

و لكن كريستين فكرت كثيراً بذلك اللقاء . فرغم كل ما جرى وما حصل كان غريباً عليها أن ترى سايمون دار مجدداً كرجل متزوج . الكثير ممّا كان ماضياً عاد إلى الحياة مجدداً أمام ذلك المشهد : تذكرت حبها

الأعمى والمستسلم كلياً لإرلند في تلك الأيام . أحست الآن بوجود تغيير ما فيه . وصلت الفكرة إليها : ماذا لو حكى سايمون لزوجته كيف افترقا ، هو وهي... ولكنها كانت تعرف أنه حافظ على صمته... «لأجل خاطر أبي» كما فكرت هازئة . كان زعماً ضعيفاً ، وإنه لمن الغريب أنها لا تزال هنا دون زواج ، في منزل والديها . ولكنهما مخطوبان في الأقل . كان بإمكان سايمون أن يرى أنهما توصلا إلى ما يريدانه رغم كل شيء . ومهما يكن ، إرلند قد فعل ، فإنه قد حافظ على إخلاصه لها ، وهي لم تكن فالتة أو لعوباً .

●

في إحدى الأمسيات في بداية الربيع كان على راغنفريد أن ترسل شخصاً إلى الوادي إلى غونهيلد العجوز ، تلك الأرملة التي تخيط الفراء . كان المساء جميلاً جداً حتى أن كريستين طلبت أن تذهب وأخيراً مُنحت الإذن بما أن كل الرجال كانوا مشغولين .

كان الوقت بعد غروب الشمس ، وكان ضباب جليدي أبيض يتصعّد نحو السماء الخضراء الذهبية . كانت كريستين تسمع عند كل وقع لحافر صوت تكسر جليد المساء وهو يتهشم ويطير نحو الخارج في شظايا ذات رنين . ولكن من كل الأجمات على جانبي الطريق كان هناك الضجيج السعيد لشدو الطيور ، الناعم إنما الحماسي مع قدوم الربيع ، في الغسق .

كانت كريستين تهبط بحصانها الطريق المنحدرة ، دون أن تفكر بأي شيء ، إلا أنها أحست أنه لأمر طيب أن تكون في الخارج وحيدة مرة أخرى . كانت عيناها مثبتتين على القمر الجديد الذي راح يغرق وراء حافة الجبل على الجانب البعيد من «ديل» ، وكادت مرة أن تسقط عن حصانها حين انحرف فجأة إلى الجانب وشب على قائمتيه الخلفيتين .

رأت جسماً داكناً متمدداً وقد أقعى ملتفاً على بعضه عند جانب الطريق ، وشعرت بالخوف أولاً . لم تكن قادرة على التخلص تماماً من الخوف الكريه الذي تسلّل إلى دمها... الخوف من مقابلة الناس وهي على الطريق وحدها . ولكنها ظنت أنه قد يكون عابر سبيل وقع فريسة المرض ، لذلك عادت لتتحكم بحصانها مجدداً ، واستدارت وعادت إليه منادية تسأله من هو .

تحركت الكومة قليلاً وقال صوت :

«أعتقد أنك كريستين لافرانسداتر» .

سألت برقة : «الأخ إدفين ؟» كادت تظن أنه شبح من أشباح الشيطان جاء يحتال عليها . ولكنها اقتربت منه . وكان ذاك هو الراهب العجوز نفسه ولم يكن قادراً على النهوض دون مساعدة .

«يا أبي العزيز... هل خرجت تتجول في هذا الوقت من السنة ؟» قالت متعجبة .

«الشكر للرب الذي أرسلك في هذه الدرب الليلة» ، قال الراهب . لاحظت كريستين أن جسده كله كان يرتجف . «و لكن ساقيّ ما عادت تحملانني هذه الليلة . وقد كدت أحسب أنها إرادة الله أن أستلقي وأموت على الطرقات التي تجولت عليها طوال حياتي . ولكني سعيد لرؤيتك مرة أخرى يا ابنتي...»

ساعدت كريستين الراهب على الصعود إلى حصانها . ثم قادته إلى البيت من لجامه ، بينما كانت تمسك بالراهب . وكان هذا يندب طوال الطريق بأنها ستبلّل قدميها بالوحل الجليدي ، واستطاعت أن تسمعه يئنّ بصوت خفيض من الألم .

حكى لها أنه كان في «إيابو» منذ عيد الميلاد . فقد كان بعض

المزارعين الأغنياء من الأبرشية قد تعهدوا في هذه السنة الرديئة على تجميل كنيستهم بزخارف جديدة . ولكن العمل كان يسير ببطء ، فقد مرض فترة آخر الشتاء كلها ـ كان الشر في معدته ـ لم تعد هذه تستطيع تحمل أي طعام ، وكان يتقيأ دماً . كان يعتقد أنه لن يعيش طويلاً بعد ، وقد راح يتوق إلى العودة إلى ديره ، إذ كان يتمنى أن يموت هناك بين أخوته . إلا أنه كان راغباً أولاً في أن يتجه شمالاً إلى «ديل» للمرة الأخيرة ، وهكذا انطلق في طريقه ، برفقة الراهب الذي جاء من هامار ليكون مقدم الدير الجديد لتكية الحجاج في «روالدستاد» . واعتباراً من «فرون» كان وحيداً على الطريق .

قال : «سمعت أنك خطبت لذلك الرجل... وهكذا شعرت بتوق شديد لرؤيتك . بدا لي أنه أمر مؤلم أن يكون ذلك اللقاء بيننا في أوسلو في الكنيسة هو الأخير . لقد كان ذلك عبئاً ثقيلاً على قلبي يا كريستين ، أنك قد ضللت بعيداً في طريق لا سلام فيه...»

قبلت كريستين يد الراهب .

«لا أعرف حقاً يا أبت ما الذي فعلته حتى أستحق منك كل هذا الحب أو كيف لي أن أستحقه» .

أجاب الراهب بصوت خفيض :

«لقد فكرت مرات كثيرة يا كريستين ، أنه لو حدث واجتمعنا مرات أكثر ، لكانت هناك فرصة كبيرة في أن تصبحي «ابنتي الروحية»» .

سألت كريستين : «أتعني أنك كنت ستجعلني أتجه بقلبي إلى حياة الدير المقدسة ؟» ثم قالت بعد برهة : «لقد فرض عليَّ سيرا آيريك أمراً مفاده أني إن لم أحصل على موافقة أبي وأتزوج من إرلند ، عندها عليَ أن أنضم إلى رهبانية وأكفّر عن ذنوبي...»

«لقد صليت مرات عديدة حتى يعتريك التوق إلى حياة الرهبنة» ، قال الأخ إدفين . «و لكن ليس منذ أن أخبرتني بما تعرفينه ـ كنت سأجعلك تأتين إلى الرب مرتدية إكليلك يا كريستين...»

حين وصلا إلى يوروندغارد حُمل الأخ إدفين إلى السرير . وضعوه في المنزل الشتوي القديم ، في غرفة المدفأة ، واعتنوا به بكل عطف . كان مريضاً جداً ، وكان سيرا آيريك يأتي ليعطيه دواء لجسده ولروحه . ولكن الكاهن قال إن مرض الرجل العجوز كان السرطان وأن أيامه أضحت معدودة . وقال الأخ إدفين نفسه إنه حين سيسترد بعض القوة سيسافر جنوباً مرة أخرى ليحاول الوصول إلى ديره . ولكن سيرا آيريك قال إنه لا يظن أن هذا أمر ممكن التفكير فيه .

بدا للجميع في يوروندغارد أن سلاماً وسعادة كبيرين قد حلاّ عليهما مع وصول الراهب . كان الناس يدخلون ويخرجون من غرفة المدفأة طوال اليوم ، ولم يكن هناك نقص في وجود أشخاص يسهرون ليلاً على الرجل المريض . وكان الكثيرون يحضرون للاستماع ، حين يحضر سيرا آيريك ، ليتلو للرجل المحتضر من الكتب الإلهية ، كانوا يحدثون الأخ إدفين كثيراً عن الأمور الروحانية . ورغم أن كثيراً مما قاله كان غامضاً وملتبساً ، كما هو حديثه عادة ، فقد بدا لهؤلاء الناس أنه يقوي أرواحهم ويسليها ، لأن الجميع كانوا قادرين على أن يروا أن الأخ إدفين كان ورعاً مترعاً بحب الله .

ولكن الراهب كان سعيداً أيضاً بالإصغاء إلى كل أنواع الحديث الأخرى... فيسأل عن أحوال الأبرشيات المجاورة ، ويطلب من لافرانس أن يحكي له قصة سنة القحط الرديئة . كان هناك بعض الناس الذين اتخذوا مسارات شريرة في تلك المحنة ، فالتجؤوا إلى طلب العون ممّا يشمئز منه المسيحيون . على مسافة إلى الغرب من «ديل» هناك في الجبال كان مكان

يحوي بعض الصخور البيضاء الضخمة التي لها أشكال بذيئة ، وقد انحط بعض الناس إلى حد أنهم ضحوا بخنازير وهررة مخصية أمام هذه الأشياء البغيضة . لذلك حثّ سيرا آيريك بعض أكثر المزارعين شجاعة وورعاً على الذهاب معه في إحدى الليالي وهناك حطموا تلك الحجارة . كان لافرانس معهم ، وشاهد الحجارة ملطخة كلها بالدماء ، وكانت هناك عظام ونفايات أخرى من حولها . وكان يقال إنه في هايدال شمالاً كان الناس قد جعلوا عجوزاً شمطاء تجلس على صخرة ترابية كبيرة هناك في ثلاث ليال من ليالي الخميس وهم ينشدون رقى قديمة .

•

في إحدى الليالي سهرت كريستين وحدها على الأخ إدفين . استيقظ في منتصف الليل وبدا أنه يعاني ألماً عظيماً . ثم طلب من كريستين أن تقرأ له من كتاب «معجزات مريم العذراء» الذي أعاره له سيرا آيريك .

لم تكن كريستين معتادة على القراءة بصوت مرتفع ، ولكنها جلست على درجة السرير ووضعت شمعة إلى جوارها ، ووضعت الكتاب في حجرها وراحت تقرأ له بأفضل ما تستطيع .

بعد فترة قصيرة رأت الرجل المريض مستلقياً بأسنان مطبقة وهو يشد على قبضتيه ونوبات الألم تعتصره .

قالت كريستين بحزن : «أنت تتألم كثيراً يا أبي العزيز» .

«يبدو لي هذا الآن ، ولكني أعرف أن الرب قد أعادني طفلاً مرة أخرى ، وهو يدحرجني في أرجاء المكان صعوداً ونزولاً...

«أتذكرُني حين كنت طفلاً ـ كنت في الشتاء الرابع من عمري ـ وكنت

قد هربت من البيت إلى الغابات . هناك تهت ورحت أتجول في المكان أياماً وليالي كثيرة . كانت أمي برفقة الأشخاص الذين وجدوني ، وحين ضمتني بين ذراعيها ، أتذكر جيداً أنها عضتني من عنقي ، وظننت أنها كانت غاضبة مني ، ولكني عرفت الحقيقة لاحقاً...

«أنا أتوق الآن إلى العودة إلى بيتي خارجاً من هذه الغابة . لقد كتب : «تخلوا عن كل شيء واتبعوني »... ولكن لقد حدث في هذه الدنيا كثير مما لا أحب أن أتخلى عنه... »

سألته كريستين : « أنت يا أبي ؟ إن ما سمعته دائماً من كل الناس هو أنك كنت نموذجاً للحياة الطاهرة والفقر والتواضع... »

ضحك الراهب بمكر .

«أجل ، الطفلة الصغيرة شأنك تظن على الأرجح أنه لا شيء في هذه الدنيا سوى المسرات والثروات والسلطة . ولكني أقول لك إن هذه أمور صغيرة يجدها الناس على جانب الطريق . أما أنا... فقد أحببت الطريق نفسها... ولم أتجنب الأشياء الصغيرة الدنيوية ، إنما تجنبت الدنيا كلها . لقد منحني الرب نعمة حب «السيدة فقر » و«السيدة طهارة» منذ يفاعتي وحتى الآن ، وهكذا ظننت أني سأكون مع رفاق اللعب هؤلاء قادراً على التجول بأمان ، ولذلك طفت وتجولت ، وكان من شأني أن أتجول على كل طرقات الأرض . كما أن قلبي وأفكاري قد طافت وتجولت أيضاً... وأخشى أني غالباً ما تهت في أفكاري في أكثر الأمور سرية . ولكن انقضى الآن كل شيء يا كريستين الصغيرة . سأعود الآن إلى بيتي وأضع جانباً كل أفكاري ، وأصغي إلى كلمات «الراعي» الواضحة وهو يأمرني بما عليَ أن أؤمن به وأفكر به فيما يتعلق بذنوبي ورحمة الله... »

بعد فترة قصيرة ، غرق في النوم . مضت كريستين وجلست قرب

الموقد ، وراحت تعتني بالنار . ولكن مع اقتراب الصباح ، حين كانت على وشك النوم هي أيضاً ، قال الأخ إدفين فجأة من سريره :

«أنا سعيد يا كريستين أن قضيتك مع إرلند نيكولاوسون قد وصلت إلى هذه النهاية السعيدة» .

انفجرت كريستين باكية :

«لقد ارتكبنا الكثير من الأخطاء قبل الوصول إلى هنا . وما ينهش قلبي أكثر ما ينهشه هو أني جلبت لأبي الكثير من الحزن . لا أراه سعيداً بهذا الزواج . ورغم أنه لا يعرف ، إلا أنه لو عرف كل شيء لكان حرمني من كل حنانه على ما أعتقد» .

قال الأخ إدفين بلطف : «يا كريستين ألا ترين يا طفلتي أنه لأجل ذلك عليك أن تبقي الأمر سراً عنه وألاّ تسببي له المزيد من الحزن ، لأنه لن يطلب منك أبداً دفع الغرامة . لا شيء تفعلينه سيجعل قلب أبيك يتحول عنك» .

•

بعد أيام قليلة تحسنت حالة الأخ إدفين كثيراً حتى أنه رغب في الانطلاق في رحلته جنوباً . وبما أنه كان مصمماً على ذلك من كل قلبه ، فإن لافرانس صنع له محفّة تعلق بين حصانين وعليها وضع الرجل المريض ونقل جنوباً حتى لبدستاد . وهناك زُوّد بأحصنة جديدة ورجال رافقوه حتى هامار . ثم مات في «دير الأخوة الواعظين» ، ودفن في كنيستهم . فيما بعد طالب «الرهبان حفاة الأقدام» باسترجاع رفاته ، لأن كثيراً من الناس من كل الأبرشيات كانوا يعتبرونه رجلاً مقدساً ويلقبونه باسم «القديس إيفان» . كان فلاحو «الأبلاند» و«ديل» شمالاً إلى تروندهايم يصلون له كقديس .

وهكذا اندلع نزاع طويل بين الأخويتين حول رفاته .

لم تسمع كريستين بذلك إلاّ بعد وقت طويل . ولكنها حزنت جداً عند فراقها للراهب . لقد بدا لها أنه كان وحده من يعرفها طوال حياتها... لقد عرف الطفلة البريئة وهي تحت حمى والدها ، وعرف حياتها السرية مع إرلند . لذلك كان هو الرابطة التي تجمع ما كان أولاً عزيزاً عليها مع كل ما يملأ قلبها وعقلها الآن . لقد أضحت الآن مقطوعة عن نفسها كما كانت وهي عذراء بعد .

٧

قالت راغنفريد وهي تتحسس بيدها الشراب المخمر الفاتر في الرواقيد : « أجل ، أعتقد أنه بارد بما فيه الكفاية لخلطه مع خميرة الجعة » .

كانت كريستين جالسة في مدخل غرفة التخمير وهي تغزل بينما تنتظر الشراب المخمر حتى يبرد . وضعت المغزل على العتبة ورفعت الدثار الغليظ عن دلو الخميرة المنتفخة وبدأت تقيس .

قالت لها أمها : « أغلقي الباب أولاً حتى لا يدخل تيار الهواء... تبدين كمن يمشي في نومه يا كريستين » ، قالت ذلك بنكد .

صبت كريستين الخميرة في الرواقيد بينما راحت راغنفريد تحرك .

(... نادت غايرهيلد دريفسداتر على هارت[٢٢] لكنه كان « أودين » . لذلك جاء وساعدها بالتخمير . وكان تواقاً للحصول على أجره الذي كان بين الراقود وبينها...) كانت تلك حكاية بطولية اعتاد لافرانس أن يقصها عليها وهي صغيرة بعد

... الذي كان بين الراقود وبينها...

أحست كريستين بالدوار والغثيان من الحرارة والبخار الحلو المعطر الذي كان يملأ غرفة التخمير المغلقة .

في الخارج في المزرعة كانت رامبورغ وعصبة من الأطفال يرقصون في حلقة ويغنون :

« يجلس النسر على قمة أعلى شق في الجبل
و هو يلوي مخالبه الذهبية... »

لحقت كريستين بأمها عبر الغرفة الخارجية حيث كانت براميل الجعة الفارغة وكل الأنواع من عدد التخمير . كان أحد الأبواب يؤدي منها إلى قطعة أرض ضيقة بين الجدار الخلفي لغرفة التخمير والسياج المحيط بحقل الشعير . كان قطيع من الخنازير يتصادم ويعض الواحد منها الآخر وتصرخ صرخات حادة وهي تتقاتل على الحبوب نصف المغلية التي ترمى إليها .

ظللت كريستين عينيها أمام شمس الظهيرة المبهرة . نظرت الأم إلى الخنازير وقالت :

« مع أقل من ثمانية عشر أيلاً لن نصمد » .

« أتظنين أننا في حاجة إلى كل هذا العدد ؟ » قالت ابنتها غائبة الذهن .

« أجل ، لأنه يجب أن يكون لدينا ما يكفي من لحم الصيد لتقديمه مع لحم الخنزير كل يوم » ، أجابت راغنفريد . « أما لحوم الطيور والأرانب البرية فليس لدينا منها ما يكفي لمائدة القاعة العلوية . تذكري أن العدد سيكون حوالي مائتي شخص ـ من بينهم الخدم والأطفال من بينهم ـ والفقراء الذين يجب أن نطعمهم . وإذا انطلقت في اليوم الخامس أنت وإرلند ، فإن بعض الضيوف ، على ما أعتقد ، سيبقون ليكملوا الأسبوع في الأقل... »

« عليك البقاء هنا ومراقبة الجعة يا كريستين ، هكذا استأنفت كلامها ، لقد حان وقت تحضير الغداء لأبيك وللحصادين » .

•

جلبت كريستين عدة غزلها وجلست هناك في المدخل الخلفي . وضعت فلكة الغزل مع حزمة من الصوف تحت إبطها ، ولكن يديها ، والمغزل بينهما ، غرقتا في حجرها .

ما وراء السياج كانت سنابل الشعير تلتمع فضية وحريرية تحت نور الشمس . فوق أغنية النهر سمعت بين الحين والآخر رنين المناجل من مروج جزيرة النهر . كان المنجل يضرب أحياناً بصخرة . كان أبوها وخدم المنزل منهمكين في الحصاد حتى ينتهوا منه . لقد كان هناك الكثير من الأعمال التي يجب أن تنجز قبل الزفاف .

كانت رائحة الحبوب نصف المغلية والرائحة الزنخة للخنازير قد جعلتها تشعر بالغثيان مجدداً . وقد جعلتها حرارة الظهيرة دائخة وواهية . جلست شاحبة متيبسة وانتظرت أن يتلاشى ذلك الشعور... لن تصاب بالغثيان مجدداً...

لم تشعر مطلقاً من قبل بما تشعر به الآن . لم يكن هناك من فائدة في تعزية نفسها . لم يكن الأمر أكيداً بعد... قد تكون على خطأ... ذلك الذي كان بين الراقود وبينها...

ثمانية عشر أيلاً... حوالي مائتي ضيف في حفل الزفاف... سيكون لدى الناس نكتة نادرة يضحكون عليها حين سيُعرف أن كل هذا الهرج والمرج كان حول امرأة حامل كان عليهم أن يروها ويزوجوها قبل أن ...

أوه ، كلا رمت بالغزل بعيداً عنها ونهضت حين عاودها الغثيان... أوه ، كلا كان الأمر مؤكداً بما فيه الكفاية!...

كانا سيزفان لبعضها في يوم الأحد التالي بعد «قداس ميكائيل» ، على أن يدوم حفل الزفاف خمسة أيام . كان لا يزال أمامها شهران من الانتظار . لا شك أن الأمر سيكون جلياً لهن... لأمها وربات منازل الأبرشية الأخريات .

لقد كن دائماً ماهرات في مثل هذه الأمور... كن يميزن الأمر قبل شهور من تمييزه من قبل كريستين . «مسكينة ، إنها شاحبة جداً...» راحت كريستين تفرك يديها بصبر نافد على خديها... شعرت أنهما شاحبان دون دماء .

غالباً ما فكرت من قبل : لا بد أن يحدث هذا إن عاجلاً أم آجلاً . ولم تكن تخشاه إلى هذا الحد الرهيب . ولكن ما كان الأمر ليبدو هكذا آنئذ ، حين لم يكونا قادرين... حين كانا ممنوعين من اللقاء قانونياً . كان هذا يعتبر عاراً على نحو ما ، وخطيئة أيضاً ، ولو كان هناك شابان صغيران لا يريدان أن يفرق بينهما بالقوة ، لتذكر الناس أن الأمر كان كذلك ، وتحدثوا عنهما برفق . ما كانت لتشعر بالخجل . ولكن حين تحدث مثل هذه الأمور بين خطيبين... فليس أمامهما سوى الضحك والنكات السمجة . لقد رأت ذلك بنفسها ، ما كان المرء يستطيع مغالبة نفسه في الضحك : هاهي أعمال تخمير ومزج النبيذ قائمة ، وكذلك الذبح والخبز والطبخ لزفاف يجب أن يصل ضجيجه إلى خارج البلاد... وهي العروس ، تصاب بالغثيان لو شمت رائحة الطعام ، وهاهي تزحف تحت العرق البارد خلف المراحيض الخارجية لتتقيأ .

إرلند! أطبقت أسنانها بقوة من الحنق . كان عليه أن يوفر عليها هذا العبء كله . لم تكن هي راغبة . كان عليه أن يتذكر أنه من قبل ، حين كان الأمر كله غير مضمون لها ، وحين لم يكن لديها ما تثق به سوى حبّه ، فقد منحته نفسها بكل سعادة . وكان عليه أن يتركها وشأنها الآن ، حين حاولت أن ترفض طلبه لأنها ظنت أنه ليس بالأمر المناسب أن يختلسا شيئاً بالسر بعد أن ضم أبوها يديهما معاً تحت أنظار أقرباء إرلند وأقربائها . ولكنه ، ضمها بالقوة حيناً وبالضحك واللمسات أخرى . لذلك لم تجد القوة الكافية لتبرهن له أن رفضها كان جدياً .

دخلت وراقبت الجعة في الرواقيد ، ثم عادت مجدداً ووقفت مستندة على السياج . كانت سنابل الحبوب تتحرك بلطف في موجات لامعة أمام نسمة الهواء . لم تستطع أن تتذكر أي سنة رأت فيها حقول القمح في مثل هذا النمو الوافر... كان النهر يلتمع من بعيد ، وسمعت صوت أبيها يصرخ... لم تستطع فهم الكلمات ، ولكنها سمعت الحصادين فوق الجزيرة يضحكون .

... هل تذهب إلى أبيها وتحكي له : سيكون الأفضل التخلي عن كل هذا الاهتياج الصاخب المنهك وأن يدعهما يتزوجان إرلند وهي بهدوء ودون زفاف كنسي أو ولائم رائعة : طالما أن الشيء الوحيد المطلوب الآن كان أن تحمل اسم زوجة قبل أن يتضح للجميع أنها تحمل بالفعل طفل إرلند تحت قلبها ؟

سيكون هو مادة للضحك ، وإرلند أيضاً ، وهي بالقدر نفسه : أو حتى ما هو أسوأ ، فهو ليس بالفتى الغرّ الآن . ولكنه هو من يريد إقامة هذا الاحتفال بالزفاف . لقد كان مصراً على رؤيتها تقف كعروس له في الحرير والمخمل وتاج ذهبي عال : كانت هذه هي إرادته أيضاً أن يتملكها في تلك الساعات السرية العذبة في الربيع الماضي . لقد استسلمت له في ذلك المجال . وعليها أن تلبي إرادته أيضاً في هذه المسألة الأخرى .

ولكن في النهاية سيكون عليه أن يرى : لا يمكن لأي شخص أن يحصل على الأمرين معاً في مثل هذه الأمور . لقد تحدث كثيراً عن احتفال عيد الميلاد الهائل الذي سيقيمه في هوسابي في السنة الأولى من وجودها هناك كسيدة للمنزل : كيف سيري كل أقربائه وأصدقائه وكل الناس من حوله كم هي جميلة الزوجة التي حصل عليها . ابتسمت كريستين باحتقار . سيبدو احتفال عيد الميلاد ذاك كشيء ملائم ، يا له من احتفال عودة إلى البيت!

ستضع وليدها في ذكرى قداس القديس غريغوري أو نحوه . وقد بدأت

الأفكار تتزاحم وتتراكب في ذهنها حين قالت لنفسها إنه في ذكرى قداس القديس غريغوري كانت ستضع الوليد . كان هناك خوف ما بين تلك الأفكار... تذكرت صرخات أمها التي ترددت في كل أنحاء المزرعة ليومين متتاليين حين ولدت أولفهيلد . في أولفسفولد ماتت زوجتان شابتان خلال الوضع ، الواحدة بعد الأخرى ـ كما حدث أيضاً لأولى زوجات سيغورد أوف لوبتسغارد . كما جرى ذلك لأم أبيها التي تحمل هي اسمها...

ولكن لم يكن الخوف هو الطاغي على أفكارها . لقد فكرت غالباً أنه بعد تلك المرة الأولى لم تر أي دليل على أنها حامل ـ ربما كانت تلك عقوبتها ـ هي وإرلند . ستكون عقيمة دوماً . سينتظران وينتظران عبثاً لما كانا يخشيانه من قبل ، وسيأملان عبثاً كما في الماضي في أن يكون خوفهما دون مبرر... حتى يعرفا أخيراً أنه في أحد الأيام سيطردان من منزل آبائه ، ويصبح هو كأنه لم يكن... فأخوه كاهن ، والأطفال الذين لديه لا يمكنهم أن يرثوا منه شيئاً . سيأتي مونان القصير البدين وأبناؤه ليدخلوا ويجلسوا في مقاعدهم ، وسيُمحى إرلند من خط أقربائه .

ضغطت بيديها بقوة على جسمها . كان هناك بين السياج وبينها ـ بين الداقور وبينها . كان هناك بينها وبين العالم ـ ابن إرلند . لقد سبق لها أن أجرت التجربة التي سمعت الليدي آشيلد تذكرها ؟ مع الدم من ذراعها اليمنى واليسرى . كان ذاك ابناً قادماً إليها... مهما يكن المصير الذي سيجلبه معه... تذكرت أخوتها الصغار الميتين ، ووجهي أبويها الحزينين حين يذكرانهم . تذكرت كل المرات التي رأتهما فيها معاً في حالة يأس لأجل أولفهيلد... والليلة التي ماتت فيها أولفهيلد . كما فكرت بكل الأسى الذي جلبته هي لهما ، ووجه أبيها الذي أنهكه الحزن... ولم تكن النهاية قد وصلت بعد ، نهاية الأحزان التي ستجلبها على أمها وأبيها .

ومع ذلك ، وضعت كريستين رأسها على الذراع التي كانت تستريح على السياج وباليد الأخرى كانت لا تزال ممسكة بجسدها . وحتى لو جلب لها ذلك الأمر الأحزان ، وحتى لو قاد قدميها إلى الموت... ستفضل الموت بالأحرى خلال ولادتها لابن إرلند على أن يموتا كلاهما في يوم واحد ، وأن تشخص منازلهما فارغة ، ويتموج القمح الذي في أراضيهما للأغراب...

سمعت وقع خطوات في الغرفة التي خلفها . الجعة! فكرت كريستين... كان عليّ أن أتفحصها منذ وقت طويل . نهضت والتفتت... ووصل إرلند وهو ينحني عبر الباب ويخطو خارجاً إلى نور الشمس... كان وجهه يشع سعادة .

سأل : «أأنت هنا ؟ أولن تتقدمي خطوة واحدة لتقابليني حتى ؟» قال ذلك ثم رمى بذراعيه من حولها .

قالت مستغربة : «يا أعز الأعزاء ، هل أتيت إلى هنا ؟»

كان من الواضح أنه ترجل عن حصانه للتو... كانت عباءته لا تزال معلقة على كتفه ، وسيفه إلى جانبه... كان غير حليق ، ومعفراً بتراب السفر ووعثائه . كان يرتدي معطف فرسان أحمر معلقاً بثنيات من قبته ومفتوحاً عند الجوانب حتى الإبطين تقريباً . وحين مر عبر غرفة التخمير وعبر الساحة ، كان المعطف يتأرجح ويخفق من حوله فظهرت فخذاه حتى الخصر . كانت ساقاه تنحنيان قليلاً نحو الخارج وهو يمشي ـ من الغريب أنها لم تلاحظ مطلقاً ذلك من قبل ـ فقد كانت ترى أن لهساقين طويلتين رشيقتين فحسب ، مع كاحلين جيدين وقدمين حسنتي الشكل .

وصل إرلند مع رفقة جيدة : خمسة رجال وأربعة أحصنة مُقادة . قال لراغنفريد إنه قد وصل ليأخذ أمتعة كريستين... سيكون أبهج لها ـ كم فكر ـ في أن تجد الأمتعة تنتظرها في هوسابي حين سيصلان إلى هناك . وفي وقت متأخر من الخريف الذي هو موعد الزفاف ، قد يكون نقل الأمتعة عبر الجبال

أصعب... كما أنه يمكن أن يتلفها بسهولة ماء البحر لو نقلت على السفينة . كان رئيس دير الرهبان في نيدارهولم قد منحه الإذن لإرسال الأمتعة على السفينة الشراعية الضخمة «لاورانثيوس»... وكان المفترض بها أن تبحر من «فيوي» حوالي يوم ذكرى صعود العذراء . لذلك جاء لنقل الأمتعة إلى «رومسدال» ثم إلى «نايس» .

جلس في مدخل المطبخ ، يشرب الجعة ويتحدث بينما راحت راغنفريد وكريستين تنتفان ريش البطة البرية التي أحضرها لافرانس في اليوم السابق . كانت الأم والابنة وحدهما في المكان . بدا شديد السعادة والحبور... كان مسروراً بنفسه لأنه وصل لإنجاز هذه المهمة الحكيمة والحصيفة .

خرجت راغنفريد ، وبقيت كريستين وهي تعتني بالسفود الذي يحمل الطائر الذي يشوى . عبر الباب المفتوح استطاعت أن تلمح رجال إرلند جالسين في الظل على الجانب الآخر من الساحة ، وكأس الجعة تنتقل فيما بينهم . كان إرلند نفسه جالساً على العتبة ، يثرثر ويضحك... وكانت الشمس تلتمع مباشرة على شعره الأسود الفحمي المكشوف ، فلاحظت بعض الخيوط البيضاء فيه . أجل ، لا شك أنه أصبح في حوالي الثانية والثلاثين من العمر الآن ، ولكنه يتصرف كغلام شرير . عرفت أنها لن تستطيع أن تحكي له عن مشكلتها... سيكون أمامها من الوقت ما يكفي ليرى ذلك بعينه . سرى في قلبها حنان ضاحك وذلك فوق البقعة الصغيرة القاسية من الغضب القابعة في مركزه ، مثل نهر لامع يتدفق فوق أحجار .

أحبته أكثر من جميع من هم فوق الأرض... كانت روحها مترعة بحبه ، رغم أنها كانت ترى وتتذكر طوال الوقت كل تلك الأمور الأخرى . كم كان هذا الشاب الأنيق في معطف الفرسان الأحمر الثمين والمهمازين الفضيين

على كعبيه والحزام المطلي بالذهب ، كم كان غير ملائم لفترة الحصاد المترعة بالعمل والنشاط في يوروندغارد... لاحظت جيداً أيضاً أن أباها لم يأت إلى المزرعة ، رغم أن أمها قد أرسلت رامبورغ إلى النهر لتحمل له رسالة عن وصول الضيف .

وقف إرلند قربها ومرر ذراعه من حول كتفيها :

«هل تصدقين!» قال بمرح . «أليس رائعاً بالنسبة إليك... أنه لأجل زفافنا يبذل كل هذا الجهد والجلبة ؟»

منحته كريستين قبلة ودفعته بعيداً... ثم التفتت إلى عملها في تطرية لحم الطيور وأمرته أن يبتعد عن الطريق . لا ، لن تحكي له عن الأمر ...

•

لم يعد لافرانس الى المزرعة حتى وقت العشاء ... مع الحصّادين الآخرين . كان يرتدي ملابس لا تختلف عن تلك التي يرتديها عماله ، أي معطف من الصوف الخشن غير المصبوغ مقصوص عند الركبتين وبنطال فضفاض يصل إلى الكاحلين . كان يمشي حافي القدمين ومنجله فوق كتفه . لم يكن في ملبسه ما يميزه عن الخدم الآخرين ، باستثناء قطعة الجلد على كتفه التي كانت مجثماً للصقر الذي يحمله على كتفه اليسرى . كان يقود رامبورغ من يدها .

حيّا صهره وهو منهك إلى حد كاف ، ورجاه أن يسامحه لعدم قدومه في وقت أبكر... كان عليهم أن يعجلوا في أعمال المزرعة بقدر ما يستطيعون ، فقد كان هو نفسه مضطراً للذهاب في رحلة إلى بلدة ذات سوق بين جمع التبن وحصاد القمح . ولكن حين حكى له إرلند عن المهمة التي جاء من أجلها ، وهما جالسان إلى مائدة العشاء ، تعكر مزاج لافرانس .

كان من المستحيل عليه أن يكرس عربات وجياداً لمثل هذا العمل الآن . أجاب إرلند : أنه جلب أربعة أحصنة حمولة معه . ولكن قال لافرانس إنه ستكون هناك حمولة ثلاث عربات في الأقل . وعلاوة على ذلك يجب أن تحتفظ الفتاة بملابسها هنا معها . كما أن أثاث الفراش الذي ستحمله كريستين معها يجب أن يكون هنا لأجل الزفاف ، فسيكون لديهم الكثير من الضيوف .

حسناً ، حسناً ، قال إرلند . لا شك أن هناك طريقة ما لإرسال الأمتعة خلال الخريف . ولكنه كان سعيداً ، وقد فكر في أن الأمر يبدو كمشورة حكيمة ، حين عرض عليه رئيس دير الرهبان نقل البضاعة في سفينة الكنيسة الشراعية . لقد ذكره رئيس الدير بقرابتهما . «كلهم مستعدون لتذكر ذلك» ، قال إرلند وهو يبتسم . لم يبد أن انزعاج حميه قد أثر فيه إطلاقاً .

لكن وفي النهاية تم الاتفاق على أن إرلند سيستعير عربة وسيصطحب معه حمولة عربة من الأشياء التي تحتاجها كريستين في الأغلب حين تصل إلى بيتها الجديد أول ما تصل .

في اليوم التالي كانوا منشغلين بالحزم والتوضيب . النول الكبير والصغير يمكن أن يذهبا حالاً كما قالت الأم : فلن يكون لدى كريستين الوقت إلا بالكاد للنسج قبل الزفاف . قطعت راغنفريد وابنتها الشبكة التي كانت على النول . كانت من الصوف الخشن غير المصبوغ ، إلا أنها من أفضل وأرق أنواع الصوف ، مع حزمات خيوط صوفية متداخلة من صوف خروف أسود مما شكل نموذجاً مبقعاً . لفت كريستين وأمها القماش ووضعتاه في الجراب الجلدي . فكرت كريستين : من شأنه أن يكون قماطاً جيداً... وقماطاً جميلاً أيضاً مع شرائط زرقاء أو حمراء تُلف من حوله .

كما كان سيرسل أيضاً كرسي الخياطة الذي صنعه لها آرن ذات مرة . أخرجت كريستين من المقعد الصندوقي كل الأشياء التي كان إرلند يقدمها لها بين الحين والآخر . أرت أمها العباءة الزرقاء المخملية المخططة بالأحمر التي كانت سترتديها في العرس ، وهي في طريقها إلى الكنيسة . قلبتها الأم بين يديها وتحسست القماش والبطانة التي من الفرو .

قالت راغنفريد : «عباءة ثمينة بالفعل . متى قدمها لك إرلند ؟»

قالت ابنتها : «لقد قدمها لي حين كنت في دير نونسيتر» .

كان صندوق عرس كريستين الذي يحوي كل الأشياء التي جمعتها لها أمها وخبأتها لها منذ أن كانت طفلة صغيرة قد تم إفراغه وحُزم مجدداً... كانت جوانبه وغطاؤه منقوشة بالمربعات ، مع رسم لوحش في حالة انقضاض أو طير بين أوراق الشجر في كل مربع . وضعت راغنفريد ثوب العرس في أحد صناديقها . لم يكن جاهزاً تماماً بعد ، رغم أن العمل به كان جارياً طوال الشتاء . كان من الحرير القرمزي وقد خيط ليكون لصيقاً بالجسم . فكرت كريستين أنه سيكون ضيقاً جيداً عند الصدر الآن .

حوالي المساء كانت الحمولة كلها قد أصبحت جاهزة ، وقد حزمت بقوة تحت غطاء العربة . كان إرلند سينطلق باكراً في صباح اليوم التالي .

وقف مع كريستين مستنداً إلى بوابة الساحة ، يتطلع نحو الشمال إلى حيث كانت غيمة عاصفة زرقاء سوداء تملأ «ديل» . كان الرعد يقصف في الجبال... ولكن باتجاه الجنوب كانت الحقول الخضراء والنهر تحت شمس صفراء حارقة .

سألها برقة وهو يداعب أصابعها : «أتذكرين تلك العاصفة في ذلك اليوم في الغابات في غيردارود ؟» .

أومأت كريستين برأسها وحاولت أن تبتسم . كان الجو كثيفاً وثقيلاً

حتى أن رأسها كان يؤلمها ، وعند كل نفس كانت تستنشقه ، كانت بشرتها تتبلل من العرق .

اقترب لافرانس منهما وهما واقفان عند البوابة ، وتحدث عن العاصفة . من النادر أن تتسبب في أضرار هنا في الأبرشية... ولكن الرب يعلم إن كانوا سيسمعون عن أبقار أو جياد تقتل هناك في الجبال .

كانت السماء سوداء كالليل فوق الكنيسة هناك على حافة الجبل . وقد كشفت لهم لمعة برق مجموعة من الأحصنة تقف بقلق وقد تجمعت معاً على المرج الأخضر خارج باب الكنيسة . فكر لافرانس في أن هذه لا يمكن أن تكون ملكاً لأحد في الأبرشية... بل هي في الأغلب أحصنة من دوفر كانت تعدو حرة صاعدة الجبال تحت «يتا» ؛ ومع ذلك فكر في أن يصعد ليراها ، فصرخ تحت قصف الرعد... قد يكون بينها بعض أحصنته...

مزق وميض برق مخيف العتمة فوق الكنيسة... قصف الرعد وجأر حتى كاد يصم آذانهم عن كل الأصوات الأخرى . تفرق شمل الأحصنة المجتمعة ، فتناثرت فوق منحدر التلة تحت حافة الجبل . رسم ثلاثتهم إشارة الصليب...

ثم جاء وميض آخر ، ولكأن السماء انشطرت فوق رؤوسهم مباشرة ، وانقض عليهم لهيب قوي أبيض كالثلج... ارتمى الثلاثة الواحد على الآخر ، ووقفوا بعيون مغلقة معمية ، مع رائحة بأنوفهم أشبه برائحة الحجر المحترق... بينما مزق الرعد القاصف آذانهم .

قال لافرانس بصوت خفيض : «عونك أيها القديس أولاف» .

صرخ إرلند : «انظروا! شجرة البتولا... البتولا!» كانت شجرة البتولا الضخمة في الحقل القريب قد بدت وكأنها تترنح ، وافترق عنها غصن ضخم وهوى على الأرض ، تاركاً ثغرة كبيرة في الجذع .

صرخ لافرانس : «أتعتقدون أنها ستشتعل... يا للمسيح يسوع! الكنيسة تحترق!»

وقفوا وحدقوا... لا... أجل! كانت ألسنة اللهيب الحمراء تندلع من بين الألواح الخشبية تحت البرج التزييني .

اندفع الرجلان كلاهما عبر الساحة . فتح لافرانس أبواب كل الأبنية التي وصلها ، وصرخ على من هم في الداخل ، فخرج الناس مندفعين .

صرخ : «أحضروا الفؤوس ، أحضروا الفؤوس... فؤوس ألواح الخشب ، ومناجل تشذيب الأغصان» . ركض إلى الإسطبلات . خلال لحظة خرج وهو يقود غولدسفاينن من عرفه . قفز فوق ظهر الحصان العاري وانطلق به صاعداً التلة ، وفي يده الفأس الكبيرة العريضة . كان إرلند على حصانه إلى خلفه مباشرة... وتبعهم كل الرجال . البعض على ظهور الجياد ، ولكن البعض الآخر لم يستطع السيطرة على الحيوانات المذعورة ، فتخلوا عنها ، فانطلقوا على أقدامهم . أخيراً وصلت راغنفريد وكل النساء في المكان حاملات الدلاء والسطول .

لم يبدُ أن أحداً عاد يأبه بالعاصفة . تحت نور الوميض كان ممكناً مشاهدة الناس يخرجون من المنازل في الوادي بعيداً في الأسفل . كان قد سبق للسيرا آيريك أن صعد التلة ، وهو يجري وأهل منزله من ورائه . كان هناك صوت وقع حوافر هائل عند الجسر في الأسفل... كان بعض الرجال يعبرونه وقد شحبت وجوههم الخائفة باتجاه كنيستهم المحترقة[٢٢] .

كان الهواء يهب قليلاً من الجنوب الشرقي . كانت النار قد تشبثت بالجدار الشمالي . إلى الغرب كان باب دخول قد سُدّ مسبقاً . ولكن النار لم تكن قد وصلت بعد إلى الجانب الجنوبي أو الجزء الناتئ نصف الدائري .

دخلت كريستين ونساء يورروندغارد إلى مقبرة الكنيسة إلى جنوب الكنيسة في مكان كان السياج فيه محطماً .

كان الوهج الأحمر الهائل ينير البستان إلى شمال الكنيسة والمرج إلى القرب منها حيث كانت هناك أوتادٌ لربط الأحصنة إليها . ما كان ممكناً لأحد الاقتراب من هناك من شدة الحرارة المتقدة... كان الصليب الضخم يقف وحده هناك ، مستحماً في نور اللهب . بدا كأنه حي يتحرك .

عبر هسهسة وزمجرة اللهيب وصل صوت ضرب الفؤوس على عوارض الجدار الجنوبي . كان هناك رجال في الرواق ذي الأعمدة وهم يضربون الجدار بالفؤوس والمطارق ، بينما راح آخرون يحاولون أن يهدموا الرواق نفسه . صرخ أحدهم على نساء يورروندغارد بأن لافرانس وبعض الرجال الآخرين قد لحقوا بسيرا آيريك إلى داخل الكنيسة ، وأنه قد حان الوقت لشق طريق عبر الجدار الجنوبي... كانت ألسنة صغيرة من اللهيب تصل من بين الألواح الخشب هنا أيضاً ، وإذا ما التفت الريح من حول المكان أو توقفت ، فإن الحريق سيلتهم الكنيسة كلها .

كان التفكير في إطفاء الحريق لا طائل فيه . لم يكن هناك وقت كاف لتشكيل سلسلة بشرية حتى النهر . ولكن بناء على أوامر راغنفريد شكلت النساء سلسلة صغيرة ومرّرن الماء من الجدول الصغير الذي يجري على جانب الطريق... كان هناك القليل من الماء فقط لرميه فوق الجدار الجنوبي وعلى الرجال العاملين هناك . بكت وناحت نساء كثيرات خلال هذه الفترة ، خوفاً على الرجال الذين شقوا طريقهم إلى داخل المبنى ، وحزناً على الكنيسة .

كانت كريستين واقفة في آخر صف النساء اللواتي رحن يتناقلن

الدلاء . راحت تحدق لاهثة الأنفاس إلى الكنيسة الملتهبة . كانا كلاهما في الداخل... أبوها وإرلند أيضاً دون شك .

كانت الأعمدة المنتزعة من الرواق ممددة في كومة متشابكة من الألواح الخشب والعوارض التي أخذت من السقف . كان الرجال يهجمون الآن على الجدار الداخلي للعوارض بكل قوتهم... كانت مجموعة منهم قد رفعت جذعاً ضخماً وراحت تضرب الجدار به .

خرج إرلند وواحد من رجاله من الباب الصغير في الجدار الجنوبي من الجزء الخاص بالكهنة من الكنيسة ، حاملين بينهما الصندوق الكبير من الموهف... الصندوق الذي اعتاد سيرا آيريك الجلوس عليه لدى سماع الاعترافات . رمى إرلند وخادمه الصندوق خارجاً في ساحة الكنيسة .

صرخ بشيء ما ، ولكن كريستين لم تستطع سماعه . اندفع فوراً إلى الرواق . بدا رشيقاً كالهر وهو يعدو : كان قد خلع عنه ملابسه الخارجية ولم يكن يرتدي سوى قميص وبنطال قصير وجوارب .

سمع الآخرون صراخه... كان الجزء المخصص للكهنة والموهف يحترقان . ما كان ممكناً لأحد المرور من صحن الكنيسة إلى الباب الجنوبي الآن... فقد سدت النار كلا طريقي النجاة . كانت بعض العوارض في الجدار قد تشظت من ضربها بالمدكّ . وكان إرلند قد أمسك بخطاف نار ، وبه راح يشدّ ويسحب حطام العوارض الخشب . كان هو ومن معه يحاولون أن يصنعوا ثقباً في جانب الكنيسة ، بينما كان آخرون يصرخون بأن عليهم أن يحذروا ، فالسقف قد ينهار ويسد الطريق على الرجال الذين في الداخل . كان السقف المؤلف من ألواح خشب على هذا الجانب أيضاً آخذاً بالاحتراق بقوة الآن ، والحرارة قد زادت حتى ما عاد ممكناً احتمالها .

دخل إرلند عبر الثقب وساعد سيرا آيريك على الخروج . خرج الكاهن يحمل الأوعية المقدسة من المذابح في الجزء السفلي من ردائه .

تبعه فتى ويده فوق وجهه والأخرى تحمل الصليب الطويل الخاص بالمواكب كمن يحمل رمحاً أمامه . ثم خرج لافرانس . كان يبقي عينيه مغمضتين من الدخان ، وقد ترنح تحت وزن الصليب الضخم الذي كان يحمله بين ذراعيه . كان أطول بكثير من الرجل الذي يحمله .

هرع الناس وساعدوهم في الخروج نحو ساحة الكنيسة . تعثر سيرا آيريك وسقط على ركبتيه ، وسقطت أوعية المذبح وتدحرجت هابطة المنحدر . انفتحت الجامة الفضية وسقط خبز القربان المقدس . حمله الكاهن ومسح عنه التراب وقبّله وهو ينوح عالياً . قبل الرأس المذهب أيضاً والذي كان يوضع عادة على المذبح مع بقايا أظافر وشعر القديس أولاف عليه .

كان لافرانس بيورغولفسون لا يزال واقفاً ممسكاً بتمثال المسيح مصلوباً . كانت ذراعه ممتدة على طول ذراعي الصليب ، ورأسه منحن فوق كتف تمثال المسيح . كان يبدو كأن المخلّص نفسه كان يحني رأسه الجميل الحزين فوق الرجل إشفاقاً ومواساة .

كان السقف على الجانب الشمالي من الكنيسة قد بدأ يتهاوى قطعاً... وهوت قطعة مشتعلة من عمود ساقط خارجاً وضربت الجرس الكبير في بيت الجرس عند بوابة الكنيسة . أصدر الجرس رنة باكية عميقة تلاشت في نواح طويل غرق تحت زمجرة اللهيب .

لم يكن أحد قد انتبه إلى الطقس خلال هذه الفترة كلها... لم يكن كل ذلك قد دام فترة طويلة قط ، ولكن سواء كانت الفترة قصيرة أم طويلة ما كان أحد قادراً على أن يعرف . كان الرعد والبرق قد عبرا الآن بعيداً نحو

«ديل» . وكان المطر الذي قد بدأ بالهطول قبل فترة قد راح ينهمر على نحو أقوى ، بينما سكنت الريح .

ولكن فجأة بدا وكأن صفحة من اللهب اندلعت من عتبة البناء... وما هي إلا برهة من الزمن حتى كانت زمجرة متصاعدة للنيران قد ابتلعت الكنيسة من أولها إلى آخرها .

تناثر الناس ، مندفعين بعيداً للنجاة من الحرارة الملتهمة . كان إرلند إلى جانب كريستين في تلك اللحظة ، وجذبها بعيداً هابطين من التلة . كانت رائحة الرجل كلها رائحة حريق... حين مسّدت رأسه ووجهه خرجت يدها مليئة بالشعر المحروق .

ما كانا قادرين على سماع صوتيهما من شدة هدير النار . ولكنها رأت أن حاجبيه قد احترقا حتى الجذور . وكانت هناك حروق على وجهه وثقوب كبيرة محترقة في قميصه . لقد ضحك وهو يجذبها معه وراء الناس الآخرين .

تبع الناس كافة الكاهن العجوز وهو يمشي باكياً ، بينما حمل لافرانس بيورغولفسون الصليب .

عند الجزء الأدنى من ساحة الكنيسة أسند لافرانس تمثال المسيح المصلوب إلى شجرة ، وجلس منهكاً على مقعد فوق حطام السياج . كان قد سبق لسيرا آيريك أن جلس هناك ، ثم مد ذراعيه نحو الكنيسة المحترقة :

«وداعاً ، وداعاً يا كنيسة أولاف ، فليباركك الله ، يا كنيسة أولاف يا كنيستي . فليبارك الله كل ساعة رتلت فيها وأنا بداخلك وتلوت القداس فيك... أنت يا كنيسة أولاف... فلتصبحي على خير... فلتصبحي على خير...» .

بكى أهل الكنيسة مع كاهنهم بصوت مرتفع . كان المطر ينهمر بقوة على المجموعات من الناس ، ولكن لم يفكر أحد في البحث عن مأوى . ولم يبد أن المطر قد أوقف الاحتراق العنيف للخشب المطلي بالقطران... كانت

جمرات وألواح خشبية متقدة تتناثر من كل جانب . ثم فجأة انهار البرج التزييني نحو الفرن الناري مرسلاً نثاراً هائلاً من الشرار عالياً في السماء .

جلس لافرانس ويده فوق وجهه . كانت الذراع الأخرى في حجره ، ورأت كريستين أن الكم كان كله مدمّى من الكتف ونازلاً ، وكان الدم يجري فوق أصابعه . ذهبت إليه ولمست ذراعه .

قال وهو يرفع نظره : «أعتقد أنها مسألة بسيطة ، فقد سقط شيء ما فوق كتفي» . كان شاحباً حتى الشفتين . همهم متألماً وهو يحدق إلى الكومة المحترقة : «أولفهيلد» .

سمع سيرا آيريك الكلمة فوضع يده على كتفه :

«لن يوقظ هذا طفلتك يا لافرانس... ستنام نوماً عميقاً رغم صوت الاحتراق فوق رأسها . لم تفقد موطن روحها ، كما فقدناه نحن في هذه الليلة» .

خبأت كريستين وجهها في صدر إرلند ، ووقفت هناك وهي تشعر بذراعه تمسك كتفيها . ثم سمعت أباها يسأل عن زوجته .

أجابه أحدهم بأن امرأة قد أتاها المخاض من الخوف . لقد حملوها إلى بيت الكاهن ومضت راغنفريد إلى هناك .

ثم تذكرت كريستين أنها نسيت تماماً منذ أن رأت الكنيسة تحترق . كان عليها ألا تنظر إلى هذا . فقد كان هناك رجل يعيش إلى الجنوب من الأبرشية وله بقعة حمراء تغطي نصف وجهه . وكان يقال إن السبب هو أن أمه قد نظرت إلى منزل يحترق وهي حامل به . صلت في قلبها : «عزيزتي أيتها الأم المقدسة العذراء . لا تدعي طفلي يتشوه من هذا!»

•

في اليوم اللاحق ، دعيت الأبرشية كلها إلى اجتماع على مرج الكنيسة للتشاور حول كيفية بناء الكنيسة مجدداً .

مضت كريستين لترى سيرا آيريك في روموندغارد قبل الوقت المحدد للاجتماع . سألت الكاهن إن كان يظن أن عليها أن تأخذ ما حدث على أنه علامة . ربما كانت تلك إرادة الله أن عليها أن تقول لأبيها إنها لا تستحق ارتداء تاج العروس ، وأنه من الأنسب أن تتزوج إلى إرلند نيكولاوسون دون احتفال أو مراسيم زفاف .

ولكن سيرا آيريك انفجر غاضباً بعينين تلتمعان بالحنق :

«أتظنين أن الرب يهتم كثيراً بما تفعلنه أنتن الفاسقات من عبث ولهو ، حتى أنه ليحرق كنيسة جميلة محترمة لأجلكن ؟ تخلّي عن غرورك الآثم ولا تجلبي لأمك وللافرانس مثل هذا الحزن الذي لن يعرفا مثله فترة طويلة قادمة . إن لم ترتدي التاج بشرف في يوم تبجيلك... فهذا أسوأ لك . ولكنك ستكونين أنت وإرلند أكثر حاجة إلى كل طقوس الكنيسة حين يتم جمعكما معاً . كل واحد منا ونحن جميعاً لنا خطايا نسأل عنها ، لذلك أعتقد أن هذا العقاب الإلهي الذي قد نزل حل بنا جميعاً . حاولي أن تصلحي من شأن حياتك وأن تساعدي على إعادة بناء الكنيسة أنت وإرلند كلاكما» .

كان في ذهن كريستين أنه لا يعرف كل شيء ، فهي لم تحك له بعد عن هذا الأمر الأخير الذي حصل لها ، ولكنها كانت راضية ولم تقل أي شيء آخر .

مضت إلى الرجال المجتمعين . وصل لافرانس وقد ربط ذراعه في معلاق . وكان على وجه إرلند الكثير من الحروق . كان منظره غير محبب ولكنه كان يضحك هازئاً من ذلك . لم يكن أي من الجروح كبيراً ، وقال إنه يأمل أنها لن تتلف وجهه كثيراً حين سيحتفل به عريساً . وقف إرلند بعد

لافرانس ووعد بدفع أربعة ماركات من الفضة كهبة إلى الكنيسة ، وعن خطيبته ،و بموافقة لافرانس ، سيهب أرضاً[٢٤] قيمتها ستون بقرة من ضمن أملاكها في الأبرشية .

كان من الضروري أن يبقى إرلند أسبوعاً في يوروندغارد بسبب حروقه . رأت كريستين أن لافرانس أصبح يحب صهره أكثر منذ ليلة الحريق : فقد بدا الرجلان وكأنهما أصبحا صديقين جيدين . وفكرت ربما سيحب أبوها إرلند نيكولاوسون كثيراً إلى درجة أنه لن يكون قاسياً جداً في حكمه عليه ، ولن يغالي في غضبه كما كانت تخشى حين سيحل الوقت ويكون عليه أن يعرف أنهما قد أثما .

٨

كانت السنة خيّرة على نحو نادر في الجزء الشمالي من «ديل» كافة . كان محصول التبن كبيراً ، وقد تم تخزينه جافاً . وقد عاد الناس إلى البيوت من «السايترات» في الخريف مع مخزون كبير من الأجبان وقطعان سمينة ممتلئة : لقد نجت بأعجوبة من الحيوانات المتوحشة هذا العام . أما القمح فكان كثيفاً وطويلاً إلى حد لا يتذكر معه إلا قلة من الناس أنهم رأوا شبيهاً له من قبل : كان ينمو بسنابل مليئة وجيدة النضوج ، والطقس كان جميلاً كما يتمنى القلب . بين عيد القديس بارتولوميو وعيد مولد العذراء ، حين يخشى الجليد الليلي كأكثر ما تكون الخشية ، أمطرت السماء قليلاً وكان الجو لطيفاً وغائماً ، ولكن بعد ذلك مضى موسم الحصاد مع شمس وريح وليال لطيفة ضبابية . وفي الأسبوع الذي جاء بعد قداس ميكائيل كان معظم القمح قد كدّس في كل أنحاء الأبرشية .

•

في يوروندغارد كان الناس جميعاً يعملون بكد ونشاط ويجهزون لحفل الزفاف العظيم . في الشهرين الأخيرين كانت كريستين منهمكة من الصباح

إلى الليل حتى أنه لم يكن لديها من الوقت ما يكفي لتهتم بشيء سوى عملها . كانت قد رأت صدرها وقد كبر ، كما أن الحلمتين الصغيرتين الزهريتين قد أصبحتا بنيتين ، وأصبحتا تؤلمانها حين تخرج من السرير في البرد... ولكن كان الألم يزول حين تدفئ نفسها . وبعد ذلك لم تكن تفكر إلاّ بأن عليها أن تنتهي قبل المساء . وحين كانت تضطر بين الحين والآخر إلى رفع ظهرها والوقوف والاستراحة قليلاً ، فقد أحست أن العبء الذي تحمله كان يصبح أثقل فأثقل... ولكنها حين ينظر إليها تبدو رشيقة ونحيلة كما كانت دائماً . مررت يديها على طول فخذيها الطويلتين الجميلتين . لا ، لن تحزن على ذلك الآن . وأحياناً كان توق زاحف ضعيف ينتابها مع الفكرة التالية : ربما خلال شهر أو نحوه ستشعر بالجنين يتحرك في داخلها... وفي ذلك الحين ستكون قد أصبحت في هوسابي... ربما سيكون إرلند سعيداً... أغمضت عينيها وثبتت أسنانها على خاتم خطبتها... ثم رأت أمامها وجه إرلند ، شاحباً ومنفعلاً ، وهو واقف في القاعة هنا في الشتاء يتلفظ بكلمات الزواج بصوت مرتفع واضح :

« فليكن الرب إذن شاهدي وكذلك هؤلاء الناس الواقفون هنا أني إرلند نيكولاوسون أتزوج فعلاً كريستين لافرانسداتر بموجب قوانين الرب والناس ، بالشروط التي ذكرت هنا أمام هؤلاء الشهود الواقفين هنا . سأتخذك زوجة لي وستتخذينني زوجاً لك ، طالما نحن على قيد الحياة ، وأن نعيش معاً كزوجين ، مع كل الألفة والمودة اللتين ينص عليهما قانون الرب وقانون البلاد » .

وبينما كانت تقوم بالمهمات بين منزل وآخر عبر المزرعة ، كانت تتوقف قليلاً... كانت أشجار السمّان مترعة بالتوت هذا العام... سيكون شتاء ثلجياً . كانت الشمس تلتمع فوق الحقول المحصودة الشاحبة حيث كانت

أكداس القمح مكومة على سناداتها . لو أن هذا الطقس يدوم حتى الزفاف!

•

أصر لافرانس على أن ابنته يجب أن تتزوج في الكنيسة . لذلك تقرر إجراء زفاف في الكنيسة الصغيرة في سوندبو . في يوم السبت سينطلق موكب العرس فوق التلال إلى «فاغ» . ثم سيقضون الليل في سوندبو والمزارع المجاورة ، ويعودون يوم الأحد بعد قداس الزفاف . في المساء نفسه بعد صلاة الغروب ، حين ينتهي اليوم المقدس ، فإن حفل الزفاف سيجري ، وكان على لافرانس أن يقدم ابنته إلى إرلند . وبعد منتصف الليل فإن العروس والعريس سيمضيان إلى الفراش .

•

في عصر يوم الجمعة ، وقفت كريستين في شرفة القاعة العلوية ، وراحت تراقب موكب الزفاف وهو قادم من الشمال ، عبر الآثار المتفحمة للكنيسة على جانب التلة . كان إرلند قادماً مع كل أشابينه . خدقت جيداً لتميزه بين الآخرين . لا يجب أن يرى احدهما الآخر... لا يجب أن يراها أي رجل الآن قبل أن تُقاد غداً في ثوب زفافها .

عند مفترق الطرق غادر بعض النساء الموكب واتخذن طريق يورووندغارد . ركب الرجال نحو لاوغاربرو . كن سينمن الليلة هناك .

هبطت كريستين لتقابل النساء القادمات . أحست بالإجهاد بعد الحمام ، وكانت فروة رأسها تؤلمها بعد محلول القلي الكثيف الذي استخدمته أمها في غسل شعرها ، حتى يلتمع في الغد أشقر براقاً .

نزلت الليدي آشيلد من سرجها برشاقة إلى ذراعي لافرانس . كيف

يمكنها أن تبقى رشيقة وشابة حتى الآن ؟ هكذا فكرت كريستين . كانت زوجة ابنها السير مونان ، الليدي كاترين ، تبدو أكبر سناً منها ، فقد كانت سيدة بدينة ضخمة لها بشرة وعينان دون لون أو لمعة . إنه لأمر غريب ، كما فكرت كريستين . فهي بغيضة وهو غير مخلص ، ومع ذلك يقول الناس إنهما يعيشان معاً بوفاق ومودة . ثم كان هناك ابنتا السير بارد بيترسون ، واحدة متزوجة والأخرى عزباء . لم تكونا جميلتين ولا بغيضتين ؛ بل بدا عليهما الصدق واللطف ، إنما كانتا تبدوان غير مرتاحتين بين هذه الرفقة من الغرباء . شكر لافرانس السيدات بدماثة على تكرمهن بتشريف هذا الزفاف بعد قطع كل هذه المسافة الطويلة في مثل هذا الوقت من العام .

«لقد تربى إرلند في بيت أبينا حين كان صبياً» ، قالت البنت الكبرى ، وهن يتقدمن ليحيين كريستين .

و لكن وصل الآن شابان على ظهور الخيل إلى المزرعة بعدو سريع . قفزا من فوق حصانيهما واندفعا ضاحكين وهما يطاردان كريستين ، التي هربت إلى الداخل واختبأت . كانا ولدي تروند غيسلنغ ، وهما شابان وسيمان وأشقران . لقد جلبا تاج الزفاف معهما من سوندبو في صندوق . لم يكن تروند وزوجته ليصلا قبل يوم الأحد ، حين سينضمان إلى موكب الزفاف بعد القداس .

هربت كريستين إلى غرفة الموقد . ولحقت بها الليدي آشيلد ، ووضعت يديها فوق كتفي الفتاة وجذبت وجهها إليها لتقبلها .

قالت الليدي آشيلد : «يسرني أن أعيش حتى أرى هذا اليوم» .

شاهدت كم كانت يدا كريستين قد هزلتا ، وهي تمسكها بيديها . لاحظت أن كل شيء فيها قد نحل عدا صدرها الذي كان ناهداً وممتلئاً . كل ملامح الوجه كانت أصغر وأدق من قبل . بدا الصدغان وكأنهما قد غارا في

ظل الشعر الكثيف الرطب . لم تعد وجنتا الفتاة مستديرتين ، كما كان لونها النضر قد بهت . ولكن عينيها كانتا قد أصبحتا أوسع وأدكن .

قبلتها الليدي آشيلد مجدداً ثم قالت :

« أرى جيداً أنه كان لديك الكثير لتناضلي ضده ، والليلة سأعطيك شراباً منوماً حتى ترتاحي وتكوني نشيطة غداً » .

بدأت شفتا كريستين بالارتجاف .

قالت الليدي آشيلد وهي تربت على يدها : «اصمتي! لقد شعرتُ بالفعل بالمتعة لأني سأزينك غداً... لم يسبق لأحد أن شاهد عروساً أجمل ، على ما أعتقد ، من العروس التي ستكونينها غداً» .

•

ركب لافرانس حصانه إلى لاوغاربرو ليولم لضيوفه الذين كانوا نازلين هناك .

لم يستطع الرجال أن يجدوا الكلمات المناسبة لمديح الطعام... ما كان ممكناً لشخص أن يجد طعام يوم جمعة أفضل من هذا في أكثر الأديرة غنى . كانت هناك عصيدة الشوفان المطحون ، والفاصولياء المسلوقة والخبز الأبيض... ومن أنواع السمك كان هناك السلمون المرقط فقط ، وكان مملحاً وطازجاً ، وكذلك السمك المفلطح المجفف من النوع السمين .

و مع مرور الوقت ومع استمرار الرجال بالشراب ، أصبح مزاجهم أكثر مرحاً وراحت النكات التي تنزل على رأس العريس تتعاظم . كل أشابين إرلند كانوا أصغر منه سناً بكثير... فأنداده في السن وأصدقاؤه كانوا قد تزوجوا منذ زمن بعيد . كانت النكتة المفضلة بين الأشابين أنه كان عجوزاً الآن ومع ذلك فعليه أن يعتلي سرير الزفاف لأول مرة . جلس بعض أقرباء إرلند الأكبر

سناً ، الذين كانوا قد حافظوا على رشدهم ، في خشية من كل نكتة جديدة ، لئلا يتطرق الكلام إلى مسائل يفضل ألا تُذكر . كان السير بارد أوف هستنايس يراقب لافرانس . راح المضيف يشرب بإسراف ، ولكن بدا أن الجعة لم تكن تزيده مرحاً... كان يجلس في مقعد مرتفع ، ووجهه يبدو أكثر فأكثر توتراً وعيناه تصبحان أكثر ثباتاً . ولكن إرلند ، الذي جلس إلى يمين حميه ، كان يردّ على النكات البذيئة التي ترمى عليه بمثلها ، وكان يضحك كثيراً ، وقد التمع وجهه وعيناه .

و فجأة اندفع لافرانس قائلاً :

«تلك العربة يا صهري ـ بينما ما زلت أتذكر ـ ما الذي فعلته بالعربة التي استعرتها مني في الصيف ؟»

«العربة... ؟» ، قال إرلند .

«هل سبق لك ونسيت أنك استعرت مني عربة في الصيف... الله يعلم أنها كانت عربة جيدة جداً لا آمل أن أرى أفضل منها ، فقد أشرفت على صنعها في ورشتي الخاصة بالحدادة في المزرعة . لقد وعدت وأقسمت... وأنا أشهد الله على ذلك ويعرف ذلك أهل منزلي ـ أنك وعدت بإعادتها إليّ... ولكنك لم تحافظ على وعدك...»

قال بعض الضيوف بأن هذه ليست مسألة يجري طرحها الآن ، ولكن لافرانس ضرب المائدة بقبضته وأقسم أنه يريد أن يعرف ما فعله إرلند بعربته .

قال إرلند بخفة : «أوه ، أعتقد أنه من المحتمل أنها لا تزال في المزرعة في نايس ، حيث أخذنا القارب إلى فيوي . لم أكن أظنها ذات شأن . ألا ترى يا عمي أنها كانت رحلة طويلة ومتعبة مع عربة ثقيلة عبر الجبال ، وحين وصلنا إلى المخاضة (الشريعة) ، لم يتذكر أي من رجالي أن

يعيد العربة طوال طريق العودة إلى هنا ، ثم يسافر شمالاً مجدداً عبر الجبال إلى تروندهايم . لذلك فكرنا في أن نتركها هناك لبعض الوقت...»

انفجر لافرانس قائلاً : «ليخطفني الشيطان من حيث أجلس في هذه الساعة ، لو سبق لي أن سمعت بمن يشبهك . أهكذا تدار الأمور في منزلك... من الذي يأمر أنت أم رجالك... أين يذهبون أو لا يذهبون... ؟ »

هزّ إرلند كتفيه :

« هذا صحيح ، لقد جرت أمور ما كان يجب أن تجري في منزلي... ولكني سأعمل على إرسال العربة جنوباً إليك من جديد ، وذلك حين أتوجّه أنا وكريستين إلى هناك... يا عمي العزيز» . ، قال ذلك ومد يده : « كن واثقاً من أني ما أن أوصل كريستين إلى البيت لتصبح سيدة منزلي حتى تتغير الأمور كلها فيما يخص كل شيء ، حتى فيما يخصني أنا . كان تصرفاً سيئاً مني فيما يخص العربة . ولكني أعدك بأن هذه ستكون آخر مرة أسبب لك فيها إزعاجاً » .

قال بارد بيترسون : «عزيزي لافرانس ، سامحه في هذه المسألة الصغيرة» .

شرع لافرانس يقول : « صغيرة أم كبيرة... » ولكنه أمسك لسانه وأخذ يد إرلند .

وسرعان ما أعطى الإشارة بإنهاء الاحتفال ، وبدأ الضيوف يذهبون إلى أماكن نومهم .

•

في يوم السبت قبل الظهر كانت كل النساء والفتيات منهمكات في علية مبنى المخزن ، وبعضهن كن يجهزن سرير الزفاف ، والبعض الآخر يلبس العروس ويزينها .

كانت راغنفريد قد اختارت هذا المبنى للعروس ، وذلك لأن فيه أصغر علية... وكان ممكناً منح المجال للكثير من الضيوف في علية مبنى المخزن الجديد ، تلك التي استخدموها في الصيف للنوم حين كانت كريستين طفلة صغيرة ، قبل أن يشيد لافرانس المسكن الجديد الكبير الذي يقطنون فيه الآن صيفاً وشتاء . ولكن إلى جانب هذا ، لم يكن هناك مبنى أجمل في المزرعة من مبنى المخزن القديم ، بما أن لافرانس قد رمّمه ورتّبه... فقد كان آيلاً للسقوط حين انتقلوا إلى يوروندغارد . كان مزخرفاً بأجمل نقش على الخشب من الخارج والداخل ، وإن لم تكن العلية كبيرة ، إلا أن تزيينها بالسجاجيد والأبسطة والجلود كان أسهل .

كان سرير الزفاف جاهزاً ، مع وسائد مغطاة بالحرير ، وقد علقت من حوله الستائر الفخمة حتى بدت كخيمة . وفوق الجلود والأغطية على السرير وضع غطاء حرير مزخرف . كانت راغنفريد وبعض النساء الأخريات مشغولات بتعليق النسيج المزركش على الجدران الخشب ووضع الوسائد بانتظام على المقاعد .

جلست كريستين في كنبة كبيرة جلبت إلى هناك . كانت ترتدي ثوب زفافها القرمزي الذي تمسك به دبابيس تزيينية فضية كبيرة فوق صدرها ، وتثبت القميص الحرير الأصفر التحتاني الذي يظهر من فتحة العنق . كانت الأساور الذهبية تلتمع فوق الأكمام الفراء الحريرية . كان حزامٌ فضيٌ مذهبٌ قد مُرّر ثلاث مرات حول خصرها ، وعلى عنقها وصدرها كانت سلسلة ذهبية ، وفوق ذلك كله سلسلة أبيها الذهبية القديمة مع صليب المذخر الضخم . كانت يداها الموضوعتان في حجرها مثقلتين بالخواتم .

وقفت الليدي آشيلد خلف كرسيها وهي تمشط لها شعرها البني المذهب الكثيف من كل الجوانب .

قالت مبتسمة وهي تلف الشرائط الحمراء والخضراء التي كانت ستسند التاج ، حول رأس كريستين : «غداً ستطلقينه حراً للمرة الأخيرة» . ثم تجمعت النساء من حول كريستين .

تناولت راغنفريد وغيريد أوف سكوغ التاج الزفافي العظيم الخاص بآل غييسلينغ من الطاولة . كان مذهباً من كل جوانبه ، وكانت رؤوسه تنتهي بصلبان وأوراق النفل على التوالي ، وكانت حليته الدائرية مرصعة بأحجار كريستالية كبيرة .

وضعوه فوق رأس العروس . كانت راغنفريد شاحبة ، ويداها ترتجفان وهي تقوم بذلك .

نهضت كريستين ببطء على قدميها . يا للمسيح! كم كان ثقيلاً حمل كل ذلك الذهب والفضة... ثم أمسكت الليدي آشيلد بيدها وقادتها نحو الأمام إلى حوض كبير من الماء... بينما فتحت وصيفات العروس الباب أمام نور الشمس الخارجي ، حتى يكون النور في الغرفة ساطعاً .

قالت الليدي آشيلد : «انظري الآن إلى نفسك في الماء يا كريستين» . وانحنت كريستين فوق الحوض . لمحت صورة وجهها الشاحب في الماء ؛ واقترب وجهها منها حتى شاهدت التاج الذهبي من فوقه . من حولها كانت ظلال كثيرة لامعة وداكنة ، وكانت هذه تتحرك في المرآة ـ كان هناك شيء كادت تتذكره ـ ثم أحست وكأنه سيغمى عليها ـ فتمسكت بحافة الحوض أمامها . في تلك اللحظة وضعت الليدي آشيلد يدها فوق يد كريستين ، وغرزت أظافرها بشدة في لحمها حتى عادت كريستين إلى وعيها من جراء الألم .

سمعت نفخات بوق كبير من قرب الجسر في الأسفل . راح الناس يصرخون من الساحة بأن العريس كان قادماً مع الموكب . قادت النسوة كريستين إلى الشرفة .

في الساحة كانت جمهرة متدافعة من الخيل في أغطية مزركشة وأشخاص في ملابس احتفالية ، والكل يلمع ويبرق تحت الشمس . نظرت كريستين بعيداً إلى ما وراء ذلك كله ، بعيداً نحو «ديل» . كان وادي موطنها يقبع لامعاً وهادئاً تحت سديم أزرق ضبابي رقيق . عالياً فوق السديم برزت الجبال رمادية من اكوام الصخور ، وسوداء من الغابات ، وراحت الشمس تصب نورها في حوض الوادي الكبير من سماء دون غيوم .

لم تكن قد لاحظت ذلك من قبل ، ولكن الأشجار كانت قد تعرت من كل أوراقها : والبساتين المجاورة تلتمع عارية بلون رمادي فضي . كانت أجمات شجر جار الماء وحدها على امتداد النهر لها لون أخضر باهت على أعلى أغصانها ، وهنا وهناك كانت شجرة بتولا قد احتفظت ببعض الأوراق البيضاء المصفرة التي ما زالت تلتصق بآخر أغصانها . ولكن الأشجار في أغلبها كانت عارية تقريباً ـ كلها عدا أشجار السمّن ، فقد كانت هذه لا تزال لامعة ذات أوراق حمراء بنية من حول عناقيد ثمارها الحمراء الدموية ، في النهار الهادئ الدافئ كانت هناك رائحة عفونة خريفية تبرز من اللون الرمادي الذي كان يغطي الأوراق الساقطة التي تغطي الأرض فيما حولها كافة .

لولا شجيرات السمن لكان ذلك أشبه ببدايات الربيع . وكذلك الهدوء ـ ولكن هذا كان هدوءاً خريفياً ، هادئاً إلى حد الموت . وحين توقف نفخ البوق ، لم يسمع أي صوت آخر في الوادي عدا رنين الأجراس من الحقول المحصودة والأرض المراحة حيث كانت الحيوانات تتجول وترعى .

كان النهر قد تضاءل وتحول هديره إلى همهمة ، فقد أضحى مجرد حبال قليلة من الماء تجري وسط ضفاف من الرمل وامتدادات واسعة من حجارة كبيرة مستديرة بيضاء . لا ضجيج لجداول نازلة من الجبال : لقد كان الخريف شديد الجفاف . كانت الحقول المجاورة ما تزال تلتمع رطبة ـ إلا

أنها الرطوبة التي تنزّ من التربة في الخريف ، مهما كانت الأيام دافئة ومهما كان الجو صافياً .

كان الحشد الذي ملأ المزرعة قد تراجع ليفسح في المجال أمام موكب العريس . ومباشرة وصل أشابين العريس يركبون الجياد : حدث اضطراب بين النساء في الشرفة .

كانت الليدي آشيلد تقف قرب العروس .

قالت : «تحملي جيداً الآن يا كريستين فلن يطول الأمر حتى تكوني آمنة تحت القبعة الكتانية » .(٢٥)

أومأت كريستين برأسها دون حول . أحست أن وجهها بدا شاحباً كالموتى دون شك .

قالت بصوت خفيض : «أعتقد أني عروس شاحبة جداً » .

قالت الليدي آشيلد : «أنت أجمل عروس وهاهو إرلند قد وصل على جواده : من الصعب أن يجد المرء زوجاً أجمل منكما أنتما الاثنين » .

والآن سار إرلند نفسه متقدماً إلى ما تحت الشرفة . قفز بخفة من على حصانه ، دون أن تعيقه ملابسه الثقيلة المتدلية . بدا جميلاً جَداً لكريستين إلى حد أن النظر إليه كان مؤلماً .

كان في ملابس داكنة . معطف حرير ذو شق طويل يصل إلى قدميه ، لونه بني كورق الشجر ومطرز بالأسود والأبيض . من حول خصره كان حزام مرصع بالذهب وإلى جوار فخذه اليسرى علق سيفاً مذهب المقبض والغمد . وعلى كتفيه كانت عباءة مخملية زرقاء داكنة اللون وثقيلة ، وقد ارتدى على رأسه ذي الشعر الأسود الفحمي قبعة فرنسية من الحرير كانت ناتئة من الجانبين على شكل جناحين مغضنين ومنتهية بقصاصتين طويلتين إحداهما تنزل إلى كتفه اليسرى عبر صدره والأخرى خلف الذراع الأخرى .

انحنى إرلند انحناءة خفيفة أمام عروسه وهي واقفة هناك . ثم ذهب إلى حصانها ووقف قربه ويده على قوس السرج ، بينما صعد لافرانس الدرج . طغى شعور غريب على كريستين سبب لها الدوار لدى رؤيتها كل هذه الروعة : كان أبوها في ملابسه الوقورة من المخمل الأخضر النازلة حتى قدميه يبدو كشخص غريب . وكان وجه أمها تحت القلنسوة الكتانية ، يبدو أبيض رمادياً بالمقارنة مع اللون الأحمر لثوبها الحرير . تقدمت راغنفريد ووضعت العباءة على كتفي ابنتها .

ثم أخذ لافرانس بيد العروس وقادها إلى الأسفل إلى إرلند . رفعها العريس إلى السرج ، ثم ركب هو نفسه على حصانه . أبقيا حصانيهما الواحد إلى جانب الآخر ، هذان الاثنان ، تحت شرفة العروس ، بينما بدأ الموكب يتشكل ويخرج عبر باب الساحة . أولاً الكهنة : سيرا آيريك ، سيرا تورمود أوف أولفسفولدن وأخ من «الصليب المقدس» من «هامار» ، وهو صديق للافرانس . ثم الأشابين والاشبينات ، زوجاً زوجاً . والآن كان دورها هي وإرلند للتقدم . ومن بعدهما جاء والدا العروس والأقارب والأصدقاء والضيوف ، في صف طويل بين الأسيجة حتى الطريق العام . الطريق كان لمسافة طويلة مزروعاً بعناقيد توت السمّن وأغصان الصنوبر الصغيرة ، وآخر زهور الأقحوان الخريفية البيضاء ، ووقف الناس محتشدين على امتداد الطريق حيث سيمر الموكب ، وراحوا يحيونه بهتافات عالية .

•

في يوم الأحد ، بعد الغروب مباشرة ، عاد موكب الزفاف إلى يورونگارد . عبر طيات الظلمة الأولى كانت النيران الكبيرة تلتمع حمراء

من ساحة منزل العروس . كان المغنون والعازفون يغنون ويقرعون الطبول ويعزفون على آلات الكمان بينما اقترب الموكب من المشعلات الحمراء المتقدة .

كادت كريستين تسقط بطولها على الأرض حين رفعها إرلند من حصانها تحت شرفة القاعة العليا .

همست : «كان البرد شديداً في الجبال . أنا منهكة جداً...» وقفت لحظة ، وحين صعدت الدرج إلى العلية ، ترنحت وتعثرت عند كل درجة .

في القاعة سرعان ما شعر الضيوف نصف المتجمدين بالدفء مجدداً . كانت الشموع الكثيرة التي تشتعل في الغرفة تبث الحرارة . أدخلت أطباق الطعام الساخنة المدخنة وكذلك النبيذ والميد والجعة القوية ووزعت على الحاضرين . بدت الهمهمة المرتفعة للأصوات وضجيج المتناولين للطعام كهدير بعيد في أذني كريستين .

تهيأ لها وهي جالسة هناك أنها لن تشعر بالدفء أبداً مجدداً . خلال فترة بدأت وجنتاها تحرقانها ، ولكن قدميها كانتا لا تزلان باردتين ، وكانت رعدات البرد تسري في ظهرها . لقد أجبرها كل الذهب الثقيل الذي كان فوق رأسها وجسدها على أن تنحني نحو الأمام وهي جالسة في الكرسي العالي إلى جانب إرلند .

وفي كل مرة كان عريسها يشرب نخبها ، لم تستطع أن تبقي عينيها على البقع واللطخات الحمراء التي تظهر على وجهه على نحو بارز . وقد بدأ يدفأ بعد تلك الرحلة في البرد على ظهر الحصان . كانت تلك العلامات التي خلفتها حروق الصيف الماضي .

•

كان الرعب قد حلّ بها في المساء الماضي ، حين جلسا إلى مائدة

العشاء في سوندبو ، وقابلت هي عيون بيورن غونارسون الخاليتين من النور المثبتتين عليها وعلى إرلند : كانت عيناه لا تطرفان ولا ترتعشان . كانوا قد ألبسوا السير بيورن ملابس الفرسان : بدا كشخص ميّت أعيد إلى الحياة برقية شريرة .

في الليل كانت قد نامت مع الليدي آشيلد ، أقرب القريبات إلى العريس في موكب العرس .

سألت الليدي آشيلد ببعض الحدة : «ما خطبك يا كريستين ؟ الآن حان الوقت لتتحملي بصلابة حتى النهاية... وليس أن تستسلمي على هذا النحو» .

قالت كريستين وقد جعلها الخوف تشعر بالبرد : «أنا أفكر بكل هؤلاء الذين سبّبنا لهم الأسى حتى نرى هذا اليوم» .

«أعرف أنكما لم تسببا الفرح فحسب أنتما الأثنين ، ليس إرلند في الأقل . وأعتقد أن الأمر أسوأ بالنسبة إليك» ، قالت الليدي آشيلد .

قالت العروس مجدداً : «أفكر بولديه البائسين . أتساءل إن كانا يعرفان أن أباهما يشرب اليوم في احتفال عرسه...»

قالت الليدي : «فكري في طفلك أنت . كوني سعيدة وأنت تشربين في زفافك مع الرجل الذي هو أبوه» .

استلقت كريستين فترة قصيرة ، ضعيفة ودائخة . كان الأمر غريباً جداً أن تسمع ذلك الاسم الذي ملأ قلبها وعقلها في كل يوم من الأيام خلال ثلاثة شهور ونيف ، وهي التي لم تكن تجرؤ على ذكر كلمة واحدة عنه لأي شخص . ولكن هذا لم يساعدها إلا قليلاً .

همست وهي ترتجف : «أفكر بها تلك التي اضطرت إلى دفع الثمن بحياتها ، لأنها كانت تحب إرلند كثيراً» .

قالت الليدي آشيلد بقسوة : «حسناً هذا إذا لم تضطري إلى دفع حياتك ثمناً أنت نفسك قبل مرور نصف سنة أخرى . كوني سعيدة أنك...

«ما الذي أقوله لك يا كريستين ؟» قالت المرأة العجوز بعد برهة ، يائسة . «هل فقدت كل شجاعتك مرة واحدة في هذا اليوم بين كل الأيام ؟ سرعان ما سيطلب إليكما كزوجين أن تدفعا ثمن كل ما فعلتماه خطأ... لا تخشي من أن الأمور لن تكون خلاف ذلك» .

•

ولكن كريستين أحست أن كل الأشياء في روحها كانت تنزلق ، تنزلق... وكأن كل ما عمرته منذ يوم الرعب ذاك في هاوغن قد تهاوى . في تلك المرة الأولى التي فكرت فيها ـ وقد أفقدها الخوف الرشد والبصر ـ بأن تصمد يوماً آخر ، ثم يوماً آخر . وقد صمدت حتى أصبح عبئها أخف... وأخيراً أصبح أخف ، حين رمت كل تلك الأفكار بعيداً عدا هذه الفكرة : أن يوم زفافهما قد أزف أخيراً ، يوم زفاف إرلند أخيراً .

و لكن حين ركعا هي وإرلند معاً في قداس الزفاف ، بدا كل ما حولها مجرد خداع بصر... الشموع والصور والأوعية الملتمعة والكهنة في غفّاراتهم وأرديتهم البيضاء . كل هؤلاء الذين عرفوها حيث عاشت من قبل ـ بدوا لها مثل رؤى في حلم ، يقفون هناك ، متراصين في الكنيسة في ملابسهم غير المعتادة . ولكن السير بيورن كان يقف مستنداً إلى عمود ، ينظر إلى هذين بعينين ميتتين ، وبدا لها أن تلك التي ماتت كان يجب أن تعود معه ، مستندة إلى ذراعه .

حاولت أن ترفع بصرها إلى صورة القديس أولاف ـ كان يقف هناك أحمر وأبيض ووسيماً ، مستنداً على فأسه ، وقد راح يدوس طبيعته البشرية الآثمة

تحت قدمه ـ ولكن نظرتها كانت تعود دائماً إلى السير بيورن ، وإلى القرب منه كانت ترى وجه إلين أورمسداتر الميت ، وهي تنظر دون أن تتحرك إليها وإلى إرلند . لقد داساها تحت الأقدام حتى يصلا إلى هنا... وهي لم تضنّ عليهما بذلك .

كانت المرأة الميتة قد نهضت ورمت بعيداً كل الأحجار الضخمة التي حاولت كريستين جاهدة أن تكومها فوقها : شباب إرلند الضائع وشرفه وسعادته وفضائل أصدقائه وصحة روحه . لقد تخلصت المرأة الميتة من هذه جميعاً . سيتملكني وسأتملكه ؛ سيكون لك وتكوني له قالت إلين . لقد دفعت الثمن وهو عليه أن يدفع وأنت عليك أن تدفعي حين يحين أوانك . حين يكون زمن الخطيئة قد اكتمل سيجلب لك الموت...

بدا لها أنها كانت تركع مع إرلند على حجر بارد .ركع هناك بالبقع الحمراء المحترقة على وجهه الشاحب .وركعت تحت تاج الزفاف الثقيل وأحست بالعبء الكئيب الساحق في داخلها ـ عبء الخطيئة التي حملتها . لقد عبثت وأسرفت في خطيئتها ، وقد وزنتها كما في لعبة من ألعاب الأطفال . يا للعذراء المقدسة! لقد حان الآن الوقت الذي يجب أن تكون فيه خطيئتها مولوداً كاملاً أمامها ، ينظر إليها بعينين حيتين ، ويريها علامات الخطيئة موسومة على نفسه ، يريها التشوه البشع للخطيئة ، ويضرب بحقد بيدين مشوهتين على صدر أمه . حين ستلد ابنها وترى علامات خطيئتها عليه ، ومع ذلك ستحبه كما أحبت خطيئتها ، عندها ستكون اللعبة قد لُعبت حتى النهاية .

فكرت كريستين : ماذا لو صرخت بصوت عال الآن ، صرخة تقاطع الأغنية والأصوات العميقة التي تنشد القداس ، وتتردد في رؤوس الناس ؟ هل ستتخلص حينها من وجه إلين ...هل ستعود الحياة إلى عيني الرجل الميت ؟ ولكنها أطبقت على أسنانها .

... أيها الملك أولاف المقدس ، أناديك . أطلب منك العون وحدك في السماء ، لأني أعرف أنك أحببت العدل الإلـهي فوق كل شيء آخر . أناشدك أن ترفع يدك لتحمي البريء الذي في رحمي . أبعد غضب الرب عن البريء ودعه ينزل عليّ . آمين باسم الرب العزيز...

وطفلاي ، قالت إلين ، أليسا هما بريئان ؟ ومع ذلك ليس لهما مكان في الأراضي التي يسكن فيها المسيحيون . لقد حبلت بطفلك خارج القانون كما هو شأن طفليّ . لا يمكنك أن تطالبي له بأي حقوق في البلد الذي ضللت فيها ، أكثر مما يحق لي أن أطالب لأجل طفليّ...

يا أولاف المقدس! ومع ذلك أصلي لأجل الرحمة . أطلب الرحمة لأجل ابني ، خذه تحت جناح حمايتك ، حتى أحمله إلى كنيستك بقدمي الحافيتين ، حتى أحمل إكليل عذريتي الذهبي إليك وأضعه على مذبحك ، إن كنت ستساعدني . فحسب . آمين .

كان وجهها قد أصبح قاسياً كالحجر في نضالها لتبقى ساكنة وهادئة . إلا أن جسدها كله كان يخفق ويرتجف وهي تركع هناك خلال القداس الذي بموجبه أصبحت زوجة لإرلند .

•

والآن ، وبينما هي جالسة إلى القرب منه في الكرسي العالي في بيتها ، كان كل شيء حولها مجرد ظلال في حلم محموم .

كان هناك مغنون يعزفون على القيثارة والكمان في العلية ، وكان صوت الموسيقى والأغاني يخرج من القاعة في الأسفل والساحة في الخارج . كان هناك توهج أحمر للنار من الخارج ، حين يفتح الباب لتحمل الأطباق والأكواب إلى الداخل أو إلى الخارج .

أولئك الذي كانوا من حول المائدة كانوا وقوفاً الآن . كانت تقف بين أبيها وإرلند . كان أبوها قد أعلن بصوت مرتفع أنه منح ابنته كريستين كزوجة إلى إرلند نيكولاوسون . شكر إرلند حماه وشكر كل الناس الطيبين الذين اجتمعوا هناك ليشرفوه هو وزوجته .

كان عليها أن تجلس ، كما قالوا ... والآن وضع إرلند هدية الزفاف في حجرها . نشر سيرا آيريك والسير مونان باردسون صكوكاً وقرآ بصوت مرتفع منها كل ما يتعلق بالمهر العقاري والاتفاقيات المتعلقة بالعروسين . بينما كان الأشابين يقفون من حول المائدة ، وفي أيديهم رماح ، وكانوا بين الحين والآخر ، خلال القراءة ، أو حين كانت الهدايا أو منح المال توضع على المائدة ، يضربون الأرض بأعقاب الرماح .

نظفت الموائد . قادها إرلند نحو الأمام ورقصا معاً . فكرت كريستين : إن أشابيننا وإشبيناتنا كلهم أصغر سناً منا بكثير... كل من كان شاباً معنا قد رحل عن هذه الأمكنة ، كيف عدنا إلى هناك يا ترى ؟

همس إرلند وهما يرقصان : « أنت غريبة جداً يا كريستين . أنا خائف منك يا كريستين... هل أنت غير سعيدة... ؟ »

•

تنقّلا من مبنى إلى آخر وحيّا ضيوفهما . كان هناك الكثير من الأنوار في كل غرفة ، وفي كل مكان كانت حشود من الناس تشرب وتغني وترقص . بدا لكريستين أنها لا تعرف إلا بالكاد بيتها... وأنها فقدت كل معرفة بالزمن... الساعات والصور في دماغها بدت وكأنها تطفو على نحو غريب بحرية ، وقد امتزجت الواحدة بالأخرى .

كانت الليلة الخريفية معتدلة . كان هناك مغنون في الساحة أيضاً ،

وأشخاص يرقصون حول النيران الكبيرة . وقد صاحوا بأن على العروسين أن يشرفاهم أيضاً... ثم راحت ترقص مع إرلند فوق المرج البارد والرطب . بدا وكأنها راحت تستيقظ قليلاً عندئذ ، وأصبح فكرها أوضح .

في العتمة إلى البعيد كانت حزمة من الضباب الأبيض تطفو فوق همهمة النهر . انتصبت الجبال من حولها سوداء كالفحم أمام السماء التي انتثرت فيها النجوم .

قادها إرلند خارج حلقة الراقصين وضمها إليه بقوة في العتمة تحت الشرفة .

«لم تتح لي الفرصة مرة واحدة لأقول لك... إنك جميلة جداً... جميلة وحلوة جداً . وجنتاك حمراوان كاللهيب...» ضغط بخده على خدها وهو يتكلم : «كريستين ، ما خطبك ؟»

همست : «أنا متعبة جداً ، متعبة جداً» .

«سرعان ما سنذهب للنوم الآن» ، أجابها عريسها وهو يتطلع إلى السماء . كانت درب التبانة قد انعطفت وأصبحت الآن باتجاه الشمال والجنوب... «أتعرفين أننا لم ننم مرة واحدة معاً منذ تلك الليلة الوحيدة التي كنت فيها معك في مخدعك في سكوغ ؟»

سرعان ما صرخ سيرا آيريك بعد ذلك عالياً عبر المزرعة بأن يوم الاثنين قد حل . وصلت النساء لتقود العروس إلى الفراش . كانت كريستين منهكة إلى حد أنها ما كانت قادرة على المقاومة والعناد كما كان يليق بها أن تفعل . تركت نفسها يمسك بها وتقاد خارج العلية من قبل الليدي آشيلد وغيريد أوف سكوغ . وقف الأشابين قرب أسفل الدرج حاملين المشاعل وبسيوف مشرعة . وقد شكلوا حلقة حول مجموعة النساء ورافقوا كريستين عبر المزرعة ثم صعوداً إلى العلية .

خلعت عنها النسوة ملابس العرس وزينته قطعة قطعة ، ووضعوها

بعيداً . رأت كريستين أنه كان قد وضع على الجزء السفلي من السرير الثوب المخملي البنفسجي الذي كانت سترتديه في الغد ، وفوقه كان قماش كتاني مضفور بدقة أبيض كالثلج . كان هذا هو قلنسوة الزوجة . كان إرلند قد أحضرها لها . غداً سيكون عليها أن تربط شعرها في عقدة وتربط الكتان فوقه . بدا لها نضراً وبارداً ومريحاً جداً .

و أخيراً هاهي تقف أمام سرير الزفاف على قدميها الحافيتين ، وبذراعين عاريتين ، لا ترتدي سوى القميص الحرير الأصفر الذهبي الطويل . كانوا قد وضعوا التاج على رأسها مجدداً ، فقد كان على العريس أن يخلعه حين يتركان وحدهما .

وضعت راغنفريد يديها على كتفي ابنتها ، وقبلتها على وجنتها... كان وجه الأم ويداها في منتهى البرودة ولكن بدا وكأن البكاء كان يعتمل في مكان عميق في صدرها . ثم رفعت أغطية السرير وأمرت العروس أن تجلس فيه . أطاعت كريستين الأمر واستندت إلى الوسائد المكومة على رأس السرير... كان عليها أن تحني رأسها قليلاً إلى الأمام لتبقي التاج عليه . رفعت الليدي آشيلد الأغطية حتى خصر العروس ، ووضعت يديها فوق الغطاء العلوي الحرير ، ثم لملمت شعرها اللامع ونثرته فوق صدرها وذراعيها العاريتين الرشيقتين .

ثم قاد الرجال العريس إلى العلية . فك مونان باردسون الحزام الذهبي والسيف من على خصر إرلند . حين انحنى ليعلقه على الجدار من فوق السرير همس بشيء ما للعروس... لم تفهم كريستين ما قاله ، ولكنها بذلت جهدها لتبتسم .

فك الأشابين ثوب إرلند الحرير ورفعوا الرداء الطويل الثقيل من فوق رأسه . جلس في الكرسي الكبير وساعدوه على خلع مهمازه وحذائه .

مرة واحدة ، مرة واحدة فحسب وجدت العروس الشجاعة لترفع نظرها وتقابل عينيه .

ثم بدأ تبادل التمنيات بليلة سعيدة . وقبل أن يمضي وقت طويل كان ضيوف العرس قد غادروا العلية . وقد كان آخر من خرج هو لافرانس بيورغولفسون الذي أغلق باب غرفة الزفاف .

•

نهض إرلند وخلع ملابسه التحتانية ورماها على المقاعد . وقف قرب السرير ورفع التاج والحبال الحرير عن شعرها ووضعها على الطاولة . ثم عاد وصعد إلى السرير . ركع بالقرب منها فأمسك بها من رأسها وضغطه على صدره الحار العاري ، بينما راح يقبل جبينها على امتداد الخط الأحمر الذي خلفه التاج .

رمت بذراعيها من حول كتفيه وناحت بصوت عال... اعتراها شعور عذب كئيب بأن الرعب ورؤى الأشباح كانت تتبخر في الهواء... الآن مرة أخرى لم يعد هناك من شيء سواه وسواها : رفع وجهها لحظة ، ونظر إليه ، ثم مرّر يده على وجهها وجسمها ، بسرعة وخشونة غريبتين ، وكأنه يمزق غطاء ما .

رجاها بهمسة حارة : «انسي ، انسي كل شيء يا كريستين... كل شيء باستثناء أنك زوجتي ، وأنا زوجك...»

و بيده أطفأ شعلة آخر شمعة ، ثم رمى بنفسه إلى جانبها في الظلام : كان هو أيضاً يبكي الآن :

«لم أصدق ذلك مطلقاً ، مطلقاً خلال كل هذه السنين ، أننا سنرى هذا اليوم...»

•

في الخارج ، في الساحة خفتت الضجة تدريجياً . كان الضيوف المنهكون من الرحلة الطويلة على الجياد في النهار ، والثملين من الشراب القوي الكثير ، لا يزالون يمرحون حتى الآن ، ولكن المزيد ثم المزيد منهم راحوا يتسللون إلى أماكن نومهم .

أوصلت راغنفريد كل ضيوف الشرف إلى أماكنهم ، وتمنت لهم ليلة سعيدة . أما زوجها الذي كان من المفروض أن يساعدها في هذا فلم يكن يُرى في أي مكان .

كانت الساحة المعتمة فارغة ، باستثناء مجموعات صغيرة قليلة من الشبان ـ معظمهم من الخدم ـ حين انسلّت أخيراً لتجد زوجها وتحضره إلى سريره . كانت قد لاحظت والليل ينقضي أن زوجها كان ثملاً جداً .

تعثرت به أخيراً ، بينما كانت تمشي ببطء باحثة عنه خارج ساحة القطعان : كان مستلقياً على وجهه فوق العشب خلف الحمام .

راحت تتلمس في العتمة ، فوجدت يده... أجل ، كان هو . ظنته نائماً ، وأمسكت به من كتفه : عليها أن ترفعه عن الأرض الباردة كالجليد . ولكنه لم يكن نائماً ، في الأقل ليس تماماً .

سألها بصوت غليظ : «ما الذي تريدينه ؟»

قالت زوجته : «لا تستطيع النوم هنا» . أسندته حين وقف مترنحاً . وبيد واحدة مسحت التراب عن ردائه المخملي . «لقد حان وقت ذهابنا نحن الاثنين للراحة يا زوجي» . أخذته من ذراعه وسحبته وهو يترنح ناكصاً على عقبيه ، باتجاه مباني المزرعة .

قال لها بالصوت نفسه : «لم ترفعي بصرك أنت يا راغنفريد حين كنت جالسة في سرير الزفاف خاصتك تحت التاج . أما ابنتنا فلم تكن بالخجولة : لم تكن عيناها خجلتين حين رفعتهما إلى عريسها» .

«لقد انتظرته سبعة أنصاف سنة» ، قالت الأم بصوت خفيض . «لا عجب أنها وجدت الشجاعة لترفع بصرها...»

«كلا ، فليلعنني الشيطان لو كانا قد انتظرا!» صرخ الرجل بينما حاولت زوجته بخوف إسكاته .

كانوا في الممر الضيق بين ظهر المرحاض والسياج . ضرب لافرانس بقبضته على العمود عبر حفرة المجرور .

«وضعتك هنا احتقاراً وسخرية ، أنت أيها العمود . وضعتك هنا حتى تتآكلك القذارة . وضعتك هنا عقاباً لأنك ضربت ابنتي الرقيقة الصغيرة... كان عليّ أن أضعك عالياً فوق باب غرفة القاعة ، وأن أشرّفك وأشكرك بأجمل زينة منقوشة ، لأنك أنقذتها من العار والحزن... لأن ما فعلته هو الذي جعل أولفهيلد تموت طفلة دون خطيئة...»

التفت ، ثم ترنح نحو السياج وسقط نحو الأمام عليه ، ثم انخرط ورأسه بين ذراعيه في نوبة انفعال من البكاء لا يمكن إخمادها ، تتخلّلها أنّات طويلة عميقة .

أمسكت به زوجته من كتفيه .

«لافرانس ، لافرانس!» ولكنها لم تستطع إيقاف بكائه . «زوجي!»

«أوه ، ما كان يجب عليّ أبداً أبداً أبداً أن أزوجها لذلك الرجل! فليساعدني الله ـ كان عليّ أن أعرف الأمر خلال ذلك الوقت كله ـ لقد حطم شبابها وشرفها . لم أصدق ذلك... كلا ، هل كنت أستطيع أن أصدق أن كريستين يمكن أن تفعل مثل ذلك ؟... ولكني عرفت ذلك رغم كل شيء . وهي إلى ذلك أفضل بكثير من هذا الفتى الضعيف ، الذي ضيّع نفسه وضيّعها... ولو أنه أغواها على طريق الضلال عشرة أضعاف ما فعله ، ما كان عليّ أن أزوجها إياه ، حتى لا يضيّع المزيد من حياتها وسعادتها...»

«و لكن هل كان هناك سبيل آخر ؟» قالت المرأة بيأس . «أنت تعرف الآن كما أعرف أنا... أنه كان قد سبق له وامتلكها...»

قال لافرانس : «أجل ، ما كانت هناك حاجة كبيرة بي للقيام بكل ذلك المنح لإرلند ، أن أمنحه ما سبق له أن أخذه بنفسه على نحو مسبق . لقد نالت زوجاً شهماً... كريستين...» مزق السياج ثم عاد إلى البكاء . لقد بدا لراغنفريد على أنه قد عاد إلى رشده قليلاً ، ولكن نوبة أخرى انتابته الآن مجدداً .

ظنت أنها لن تستطيع أن تحضره ثملاً وفاقداً رشده من اليأس كما كان ، إلى السرير في غرفة المدفأة حيث كان عليهما أن يناما... فالغرفة مليئة بالضيوف . نظرت فيما حولها... إلى القرب منها كانت حظيرة صغيرة كانا يبقيان فيها أفضل التبن لإطعام الأحصنة عند حراثة الربيع . ذهبت ونظرت إلى الداخل... لم يكن هناك أحد . أخذت زوجها من يده وقادته إلى داخل الحظيرة ، وأغلقت الباب خلفهما .

كومت التبن عالياً فوقها وفوقه ووضعت عباءتيهما من الأعلى ليبقيا دافئين . كان لافرانس يبدأ بالبكاء بين الحين والآخر ويقول شيئاً ما... ولكن حديثه كان غير متماسك إلى حد أنها لم تفهم منه شيئاً . خلال فترة قصيرة رفعت رأسه إلى حضنها .

«يا زوجي العزيز... بما أنهما يحبان بعضهما إلى هذا الحد ، فقد يكون الأمر أفضل مما نتوقع» .

كان لافرانس يتحدث في نوبات واندفاعات... بدأ ذهنه يصفو :

«ألا ترين... إنها الآن تحت سيطرته الكاملة... هو الذي لم يكن رجلاً بما فيه الكفاية ليسيطر على نفسه... سيكون الأمر صعباً عليها قبل أن تجد الشجاعة لتقف أمام إرادة زوجها في أي شيء... وإذا ما اضطرت هي في أحد الأيام لفعل ذلك ، سيكون في ذلك حزن مرير... طفلتي اللطيفة...

« ... لم أفهم حتى الآن لماذا وضع الرب كل هذه الأحزان الكثيرة والثقيلة على كاهلي... فلقد حاولت بكل إخلاص أن أنفذ أوامره . لِمَ أخذ أطفالنا منا يا راغنفريد واحداً واحداً... أولاً أبناؤنا... ثم أولفهيلد الصغيرة... والآن لقد منحتها ، تلك التي أحببتها أكثر من الجميع ، دون شرف ، إلى شخص لا يستحق الثقة ومخبول . والآن كل ما تبقى لدينا هي تلك الصغيرة... ولن أعتبر أنه من الحكمة أن أسعد بها... قبل أن أرى كيف ستجري الأمور معها... مع رامبورغ » .

ارتجفت راغنفريد كورقة . ثم وضع الرجل ذراعه حول كتفيها :

قال : « هيا لنستلق ونحاول أن ننام... »

استلقى فترة ورأسه على ذراع زوجته ، متنهداً بين الحين والآخر ، ولكنه نام أخيراً .

•

كان الظلام ما زال كثيفاً في الحظيرة حين تحركت راغنفريد... تعجبت حين علمت أنها نامت . تحسست بيدها مَا حولها . كان لافرانس جالساً ، وركبتاه إلى فوق وذراعاه من حولهما .

سألته مستغربة : « هل سبق لك واستيقظت ؟ هل أنت بردان ؟ »

قال بصوت خشن : « لا ، ولكني لا أستطيع النوم مجدداً » .

سألت الأم : « أتفكر بكريستين ؟ ربما ستجري الأمور على نحو أفضل مما نتوقعه يا لافرانس » .

« أجل ، كنت أفكر بذلك . أجل... أجل... عذراء أم ثيب... في الأقل فقد ذهبت إلى فراش الزفاف مع الرجل الذي تحبه . ولم يكن الأمر كذلك بالنسبة إليّ ولا بالنسبة إليك يا راغنفريد المسكينة » .

أنّت زوجته أنة عميقة كئيبة ، ثم رمت بنفسها على جانبها بين التبن . مدّ لافرانس يده ووضعها على كتفها .

«و لكني لم أستطع» ، قال بانفعال وألم . «لا ، لم أستطع... أن أكون كما أردتني أن أكون... حين كنا شابين . لست من ذلك النوع...»

بعد فترة قالت راغنفريد برقة عبر دموعها :

«و مع ذلك فإن الأمر كان جيداً بيننا في حياتنا معاً ، يا لافرانس... أليس كذلك ؟... كل هذه السنوات ؟»

أجاب بكآبة : «هذا ما ظننته أنا بنفسي» .

ازدحمت الأفكار وراحت تضطرب في داخله . تلك النظرة الوحيدة المكشوفة التي قفز بها قلبا العروس والعريس معاً... الوجهان الشابان يتضرجان معاً... بدا له ذلك وقاحة . كان هناك ألم ، ألم حارق له ، أن هذه كانت ابنته . ولكن منظر تينك العينين ما كان يغادره ، وحاول بجنون وبتخبط أن يناضل ضد رفع الستار عن شيء كان في قلبه ، شيء ما لم يمتلكه ولكنه كان هناك ، وهو كان يمنعه عن زوجته حين كانت تحاول أن تبحث عنه .

المسألة أنه لم يستطع ، هذا ما قاله بعناد لنفسه . باسم الشيطان... لقد تزوج وهو صبي بعد . لم يختر عروسه بنفسه . كانت أكبر منه سناً... لم يشتهيها . لم يكن راغباً في أن يتعلم منها الحب . إنه ينفعل من الخجل حتى الآن حين يفكر بذلك... أنها كانت تريده أن يحبها ، حين لم يكن راغباً في أن ينال مثل ذلك الحب منها . إنها قد عرضت عليه كل ما لم يطلبه هو قط .

كان زوجاً صالحاً لها... هكذا كان يفكر دائماً . لقد أظهر لها كل الشرف الذي يستطيعه ، ومنحها كامل السلطة للتصرف بشؤونها ؛ وكان يطلب مشورتها في كل الأمور . كان صادقاً معها... وقد رزقا بستة أطفال .

كل ما كان يطلبه هو أن يعيش معها ، دون أن تفهم هي أبداً ذلك الشيء في قلبه الذي لا يريد هو أن يكشفه بعد...

لم يحمل قلبه الحب لأي امرأة... «إنغون» ، زوجة كارل ستاينسون ، في «برو» ؟ تضرج وجه لافرانس في العتمة الشاملة . لقد كان ينزل ضيفاً عليهما كلما سافر إلى «ديل» . لم يستطع أن يتذكر أنه حادث ربة البيت مرة واحدة على انفراد . ولكنه كان حين يراها... لو فكر بها فحسب ، يعتريه إحساس يشبه الشعور بأول نسيم في الأراضي المفلوحة في الربيع ، حين تكون الثلوج قد ذابت للتو وتلاشت . لقد عرف ذلك الآن... كان يمكن للأمر أن يحدث له هو أيضاً... هو أيضاً كان يمكنه أن يحب .

ولكنه كان قد زُوِّجَ وهو صغير جداً ، وأصبح يخجل من الحب . لذلك حصل أنه راح يشعر أنه في أحسن حالاته في الغابات البرية... أو في الأراضي القفر الجبلية... ـ حيث يجب أن يكون لكل الأشياء التي تعيش فضاءات واسعة حولها ـ مكان تهرب عبره ـ وحيث تنظر بخوف إلى أي غريب يسترق النظر اليها...

في وقت ما من السنة ، يحدث أن تنسى كل الوحوش في الغابات والجبال خجلها... فتندفع إلى أقرانها في المضاجعة . ولكنه مُنح قرينته دون أن يطلبها . وقد منحته كل ما لم يطلب منها .

أما الصغار في العش... فقد كانوا البقعة الخضراء الصغيرة الدافئة في البرية... المتعة العميقة الأعذب في حياته . تلك الرؤوس الصغيرة للفتيات تحت يده...

الزواج... لقد زوجوه دون أن يستشيروه تقريباً . الأصدقاء... كان لديه الكثير منهم... وليس لديه صديق واحد . الحرب... لقد جلبت له السعادة ، ولكن ما عادت هناك حروب... فدرعه معلق هناك في العلية ، دون استخدام .

لقد تحول إلى مزارع... ولكنه رزق ببناته... أصبحت كل حياته وكفاحه عزيزين عليه ، لأنه بوساطتها كان يحافظ عليهن ويجعلهن آمنات ، تلك الكائنات الناعمة الرقيقة الصغيرة التي كان يحملها بين يديه . تذكر جسد كريستين الصغير وهي في السنتين من عمرها على كتفه ، وشعرها الحرير على خده بلونه التبني الشاحب ، ويداها الصغيرتان تتمسكان بحزامه ، بينما تروح تضرب بجبينها المستدير القاسي الطفولي على لوح كتفه حين كان يخرج وهي وراءه على حصانه .

وهاهو الآن ذلك التوهج نفسه في عينيها... لقد حازت على ما هو لها . كانت تجلس هناك في نصف الظل على الوسائد الحرير للسرير . تحت نور الشمعة كانت كلها ذهبية... تاج ذهبي ورداء ذهبي وشعر ذهبي مسدل فوق ذراعيها الذهبيتين العاريتين . لم تعد عيناها خجلتين...

أجفل أبوها من العار .

و مع ذلك فقد بدا الأمر وكأن قلبه كان ينزف في جوفه ، بسبب ما لم يفز به هو نفسه . ولأجل زوجته التي كانت إلى جانبه ، والتي لم يمنحها قط ما كان يجب أن يكون ملكاً لها .

تحسس في العتمة يد راغنفريد وقد أضعفته الشفقة :

قال : «أجل ، أظن أن حياتنا معاً كانت جيدة... أعتقد أن الأمر كذلك لولا أنك حزنت على أطفالنا... أجل ، وأنك ولدت بمزاج كئيب . لم يخطر لي مطلقاً أن الأمر قد يعود إلى أني لم أكن زوجاً صالحاً لك» .

ارتجفت راغنفريد كمن أصابتها نوبة :

« كنت دائماً الزوج الصالح » .

جلس لافرانس وذقنه مستريح على ركبتيه : «و مع ذلك أعتقد أن الأمر كان أفضل لك لو تزوجت كما فعلت ابنتنا اليوم...»

أجفلت راغنفريد بصرخة خفيفة ثاقبة :

«أنت تعرف! كيف عرفت ذلك... منذ متى عرفت... ؟ »

«لا أعرف ما تتحدثين عنه» ، قال لافرانس بعد فترة قصيرة بصوت غريب خافت .

«أنا أتحدث عن هذا : أني لم أكن عذراء حين تزوجتك» ، قالت راغنفريد ورنّ صوتها واضحاً في يأسها .

خلال فترة قصيرة أجاب لافرانس كما في السابق :

«هذا ما لم أعرفه حتى الآن» .

وضعت راغنفريد يدها في التبن وهي ترتجف من البكاء . حين انتهت نوبة البكاء ، رفعت رأسها قليلاً . كان نور رمادي باهت قد بدأ يزحف عبر ثقوب النافذة في الجدار . استطاعت أن تميز زوجها بصعوبة وهو جالس وذراعاه من حول ركبتيه ، ساكن كالحجر .

أعولت : «لافرانس... كلمني...»

سألها دون أن يتحرك : «ما الذي عليّ قوله ؟ »

«أوه ، لا أعزف... اشتمني... اضربني...»

أجاب الرجل : «لقد فات أوان ذلك» . كان هناك ظل ابتسامة احتقار في صوته .

بكت راغنفريد مجدداً : «أجل... لم أفكر حينها في أني كنت أخونك . فلقد كنت تعرضت للخيانة ولإهانة الشرف أنا نفسي . لم يغفر لي أحد . أتوا وجلبوك لي... وأنت تعرف بنفسك ، ما كنت قد شاهدتك سوى ثلاث مرات قبل أن نتزوج... أعتقد أنك كنت مجرد غلام ، أبيض وأحمر... صغيراً جداً وطفولياً...»

«كنت كذلك» ، قال لافرانس ، وعادت رنة ضعيفة من الحياة إلى

صوته . «لذلك قد يعتبر المرء أنك أنت ، أنت التي كنت امرأة... كنت أكثر خشية من... أن تخدعي من كان صغير السن إلى حد لا يعرف معه شيئاً...» .

قالت راغنفريد باكية : «هذا ما ظننته لاحقاً . حين أصبحت أعرفك . سرعان ما حل ذلك الوقت الذي كنت مستعدة فيه أن أمنح روحي عشرين مرة لأكون بريئة من الإثم أمامك» .

بقي لافرانس صامتاً دون حراك ، ثم قالت زوجته :

«ألا تسألني أي سؤال ؟»

«ما الفائدة من السؤال ؟ كان هو الذي... لقد قابلنا موكبه الجنائزي عند فيغنسبريكا ، حين حملنا أولفهيلد إلى نيداروس...»

قالت راغنفريد : «أجل . كان علينا أن نخلي الطريق... أن نتنحّى جانباً إلى أحد المروج ، وقد رأيتهم يحملونه على نعش... مع كهنة ورهبان وحرس مسلح . سمعت أن نهايته كانت جيدة... فقد تصالح مع الرب . صليت وأنا واقفة هناك ونقالة أولفهيلد بيننا... صليت أن توضع خطيئتي وحزني عند قدميه في يوم الدينونة...»

«أجل ، لا بد أنك فعلت» ، قال لافرانس ، وكانت هناك لمسة الاحتقار نفسها في صوته الهادئ .

قالت راغنفريد وقد اعترتها القسوة من اليأس : «أنت لا تعرف كل شيء . أتذكُر أنه جاء إلينا في سكوغ في أول شتاء بعد زواجنا... ؟»

أجاب الرجل : «أجل» .

«حين كان بيورغولف يحتضر... أوه ، لم يغفر لي أحد ، لم يغفر لي أحد... كان ثملاً حين فعل ذلك... قال لاحقاً إنه لم يكن يهتم بي إطلاقاً ، ولم يكن ليتزوجني... طلب مني أن أنسى الأمر . لم يكن أبي يعرف ذلك . لم يخدعك أبي... إياك أن تظن ذلك . ولكن تروند... كنا صديقين جداً في ذلك

الحين... لقد اعترفت له . حاول أن يجبر الرجل على الزواج مني ، ولكنه كان مجرد غلام في ذلك الحين ، وقد تلقى ضرباً مبرحاً... ثم نصحني بأن أصمت وأتزوجك... »

جلست لفترة في صمت .

« ثم جاء إلى سكوغ... بعد مرور عام . لم أكن قد فكرت كثيراً في الأمر لاحقاً . ولكن وصل إلى هناك... قال إنه نادم ، وأنه مستعد للزواج مني لو لم أكن متزوجة... وأنه يحبني . قال ذلك . والله يعلم إن كان صادقاً . وحين رحل... لم أجرؤ على الخروج إلى المخاضة (الشريعة) ، لم أجرؤ بسبب خطيئتي ، ليس مع الطفل . وكنت قد بدأت... كنت قد بدأت أحبك كثيراً! »

صرخت صرخة واحدة من ألم مجنون . التفت الرجل برأسه بسرعة إليها .

« حين ولد بيورغولف... أوه ، ظننت أنه أعزّ عليّ من حياتي . وحين راح يحتضر ، فكرت في أنه لو مات ، فسأموت أنا أيضاً . ولكني لم أصل لله لينقذ حياة ابني... »

جلس لافرانس صامتاً فترة طويلة ، ثم سأل بصوت خافت كئيب :

« أكان ذلك لأني لم أكن أباه ؟ »

قالت راغنفريد وهي تتصلب وتتخشب في جلستها :

« لم أعرف إن كنت أباه » .

جلسا هناك طويلاً في سكون كالأموات . ثم سأل الرجل بقوة وفجأة :

« باسم المسيح يا راغنفريد... لم تحكين لي هذا كله... الآن ؟ »

« أوه ، لا أعرف! » فركت يديها حتى طقطقت مفاصلها . « حتى تنتقم مني... تطردني من بيتك... »

« أتظنين أن هذا سيساعدني... ؟ » كان صوته مرتجفاً من الاحتقار .

« ثم هناك ابنتانا » ، قال بهدوء .

« كريستين... والصغيرة » .

كانت راغنفريد هادئة فترة .

قالت برقة : « حين أتذكر كيف حكمت على إرلند نيكولاوسون ، أتساءل كيف ستحكم عليّ إذن ؟ »

اعترت جسد الرجل رجفة طويلة من البرد... ومع ذلك بدا أن بعض التخشب قد غادره .

« أنت... لقد عشنا معاً حتى الآن سبعاً وعشرين سنة... تقريباً . ليس الأمر مماثلاً لقضائها مع غريب . أرى ذلك ، أيضاً... كان الأمر لك أسوأ من البؤس » .

انهارت راغنفريد وهي تبكي من كلماته . تجرأت فوضعت يدها على إحدى يديه . لم يحركها إطلاقاً... بل جلس ساكناً كأنه ميت . بدأ بكاؤها يعلو أكثر فأكثر... ولكن زوجها كان لا يزال دون حراك ، وهو يتطلع إلى النور الرمادي الضعيف يزحف من حول الباب . وأخيراً بدا وكأن دموعها قد نفدت . ثم لمس ذراعها بخفة مجدداً وعادت تبكي من جديد .

« أتذكر ذلك الرجل الذي زارنا ذات مرة ونحن نسكن في سكوغ ؟ » قالت عبر دموعها . « ذاك الذي كان يعرف كل الحكايا الشعرية القديمة ؟ » أتذكر تلك الحكاية عن رجل ميت عاد من عالم العذاب ، وحكى لابنه عن كل ما رآه ؟ لقد سُمع أنين من أعمق أعماق جهنم ، إنها أصوات المطاحن اليدوية للنساء غير المخلصات وهن يطحنّ التراب ليطعمنه لأزواجهن بدلاً من اللحم . كانت الحجارة التي تجرها النساء مدماة... وكانت قلوبهن معلقة خارج صدورهن وهي مدماة... »

كان لافرانس صامتاً .

« فكرت خلال كل هذه السنوات بتلك الكلمات » ، قالت راغنفريد .

«في كل يوم كأن قلبي كان يدمى ، وفي كل يوم كنت أظن أني أطحن التراب بدلاً من اللحم...»

لم يعرف لافرانس نفسه لم أجاب كما فعل . بدا له أن صدره كان فارغاً وأجوف ، كصدر رجل أعدم بطريقة «نسر الدم»[٢٦] . ولكن وضع يده بثقل وتعب على رأس زوجته ونطق :

«ربما يكون التراب في حاجة إلى أن يطحن يا راغنفريد قبل أن ينمو اللحم» .

وحين حاولت أن تأخذ يده لتقبلها ، خطفها منها . ولكنه نظر بعدئذ إلى زوجته ، وأخذ إحدى يديها ووضعها على ركبته ، ثم أحنى وجهه البارد المتخشب باتجاهها . وهكذا جلسا معاً دون حراك ودون كلام .

انتهت

حواشي المترجم

من النرويجية إلى الإنكليزية

١ ـ إكليل العروس

كانت هذه هي الكلمة النرويجية القديمة (التي أخذت مباشرة عن الكلمة الإنكليزية) garland والتي يقصد بها الدائرة المذهبة المقصور ارتداؤها على العذارى من محتد نبيل ، في المناسبات الرسمية ، وذلك بأن يوضع على الشعر المرسل . وفي عنوان هذا الجزء من الثلاثية فإنه يعني علاوة على الدائرة المذهبة ، إكليل الأزهار الذهبية الذي حاولت به الجنية أن تغوي كريستين وكذلك تاج الزفاف الذي كان إرثاً يحتفظ به لترتديه العرائس خلال احتفالات الزفاف .

٢ ـ يورونـد غارد

إن مباني الضيعة النرويجية القديمة كانت تجمع عادة في مربعين متجاورين أو مستطيلين من حول «الساحة» و«فناء المزرعة» . ومنازل السكن والمخازن ، الخ كانت تتجمع حول «الساحة» ، بينما أبنية المزرعة (الحظائر وحظائر البقر والماعز والغنم ، الخ) فكانت حول «فناء المزرعة .» كان الإسطبل يقسم الساحتين ، مما يجعل أحد الجملونين يواجه «الساحة» والثاني «فناء المزرعة» . كانت أبنية صغيرة من كل الأنواع تبنى عند الحاجة ، وحين لا يعود أحد المباني مطلوباً ، سواء كان كبيراً أم صغيراً ، كان يترك ليتهاوى وحده من البلى ، ما لم يكن موقعه

مطلوباً لبناء جديد . وحتى هذا اليوم فإن عدد الأبنية في مزرعة كبيرة من هذا الطراز قد يصل إلى ما بين ثلاثين إلى أربعين مبنى رمادياً عتيقاً .

لم تكن هناك عادة تحصينات من حول الضيعة القروسطية ، إلا أن المباني كانت تحاط بأسيجة خشبية تتخللها هنا وهناك بوابات خشب ، وكانت هناك بوابة كبيرة تسد المدخل الرئيسي إلى الساحة . وكان الطريق المؤدي إلى الضيعة محاطاً بحقول القمح المسورة بالأسيجة .

كانت الساحة مرجاً وأسطح المباني تغطى بالتراب الذي يكون لونه أخضر مغطى بالزهور في فصول الصيف الماطرة أو أصفر جافاً في سنوات القحط الشائعة في غودبراندسدال . وتبنى كل الأبنية من الجذوع الضخمة من شجر التنوب .

في الأصل كان كل منزل يحوي غرفة واحدة (عادة مع إضافة العلية في حال المخازن الموصوفة أدناه) . وهكذا فإن الكلمة المعتادة لوصف الغرفة بالنرويجية (Stue) كانت غالباً ما تعني «منزلاً أو مبنى» . ومع بداية أحداث هذه الرواية ، فإن المباني المؤلفة من غرفة واحدة كبيرة أصبحت تلحق بها مبانيَ إضافية مؤلفة من أضلاع خشب (انظر الحاشية رقم ٢٣) ، تبنى من حولها من أحد الجوانب أو الاثنين أو الثلاثة أو الأربعة كلها وذلك لحماية جذوع الغرفة الرئيسية من عوامل الطقس ولدرء الريح . والمبنى الإضافي يتم الدخول إليه عبر رواق مدعم على أعمدة وأقواس خشب . وعلى امتداد أحد جوانب المنزل ، كانت الحواجز تقام لتقسمه بحواجز إلى غرف صغيرة . ومن بين هذه الغرف كانت «الغرفة الخارجية» التي يفتح منها الباب الرئيسي لغرفة المعيشة ، والأخرى كانت حجيرات تستخدم لوضع الخزائن أو الأسرّة .

و كان الطبخ يتم في مبنى مستقل هو المطبخ ، كما كان يوجد في العادة بناء للتخمير وآخر للحياكة ولوضع أنوال السيدة والخادمات ، وكذلك الورشات : فكل أدوات الزراعة كانت تصنع وتصلح في المكان . وكانت ورشة الحدادة والحمام (حمام البخار) توضع على مسافة بعيدة بين الحقول درءاً لخطر الحريق .

عبر الساحة من المباني الرئيسية المخصصة للسكن كان صف من المخازن وهي مبان تبنى من الجذوع ولها طابقان في العادة . كان الطابق الأرضي من

المخزن يستخدم لتخزين كل أنواع المنتجات : الجلود والزبدة والجبنة والشموع وأرغفة الخبز والسمك المجفف واللحم المملح ، الخ . والرجل الغني الذي يملك عدة مزارع علاوة على مزرعته ، كان يتلقى إيجاره عيناً ، وهكذا كانت المنتجات التي تصله على هذا النحو إضافة إلى ما تنتجه مزرعته تخزن في هذه المخازن . كان الصوف والسمك والجلود والمنتجات الأخرى ذات الرائحة القوية توضع في أحد المخازن وأما منتجات الألبان والدقيق والخبز ، الخ فتوضع في آخر .

من أبرز المباني من النوع القديم كان مبنى غرفة الموقد ومبنى المخزن . كان السريران (اللذان يبنيان إلى جانب الجدار) يشغلان عادة من قبل السيد والسيدة وغالباً مع أحد الأطفال الأصغر سناً وربما أكثر من واحد ، بينما كان الأطفال الأكبر سناً أو أفراد آخرون من الأسرة ينامون في السرير الآخر ، أما أفراد الأسرة الذين لا مكان لهم للنوم في السريرين ، فكانوا ينامون على المقاعد الجدارية الطويلة . في المزارع الصغيرة كان الخدم ينامون أيضاً على هذه المقاعد ؛ ولكن في المزارع الكبيرة مثل يوروندغارد كانت هناك مبان مستقلة للخدم والخادمات ، وكذلك مبنى مستقل للوكيل وزوجته : يون وتروند في هذه الرواية .

أما الموقد في وسط غرفة الموقد فكان المركز المقدس لحياة المنزل والأسرة . وكان الدخان يخرج عبر منفذ للدخان في حافة السطح . وكان المبنى الذي يحوي عادة غرفة الموقد من طابق واحد حتى تؤدي فتحة الدخان إلى الهواء الطلق . وغرفة الموقد هي الأدفأ وبالتالي الأكثر استخداماً في الشتاء ، لذلك كانت تسمى أحياناً الغرفة الشتوية .

أما الأنواع الأخرى من المباني مثل «القاعة» في يوروندغارد فكانت تبنى من طابقين ، أما صعوبة التدفئة فكان يتم التغلب عليها بوضع مدفأة حجرية في الطابق الأرضي والعلية ، وتبنى من الحجر والطين في زاوية الغرفة . في المنازل الريفية كانت هذه المدافئ تعطي دخاناً مزعجاً ، حتى أصبحت تسمى «مدافئ الدخان» . وكانت الطوابق الأرضية من هذا الطراز الجديد لها نوافذ زجاجية ، بينما كانت غرف الموقد تنار من فتحة الدخان والباب .

كان الطابق العلوي من المخزن له شرفة بأقواس تطل على الساحة ويصعد إليه

بدرج خارجي يؤدي إلى الشرفة . وكان المخزن هو البناء المفضل لدى النرويجيين فكان يبنى على نحو جميل ويزين بالنقوش . وكان يستخدم لتخزين ملابس ومجوهرات الأسرة وكذلك الفرش الإضافية والأسلحة الخاصة بالسيد . كما كانت توجد أسرّة فيه ، حتى يستخدم كحجرة للضيوف ، أو كغرفة نوم صيفية للأسرة أو للبنات أو الخادمات . وبما أن المخزن كله كان دون تدفئة فلم يكن ممكناً استخدامه للنوم في الشتاء .

و كان الفراغ تحت الشرفة المعلقة هو المكان المفضل للقاءات العشاق في أغاني الحب النرويجية والدانماركية ، وغالباً ما كانت حواراتهما تتسلل إلى مسامع مسترقّي السمع في الشرفة .

و كانت القاعة/ المنزل الرئيسي تبنى كالمخزن من حيث الطابق العلوي والشرفة والدرج الخارجي ، إلا أنها تكون أكبر حجماً . وكانت علية هذا المبنى تعتبر الحجرة الرئيسة في مقر صاحب المزرعة . والطابق الأرضي من القاعة كان غرفة المعيشة الشتوية الجديدة للسيد وأسرته مع المدفأة الجدارية والنافذة الزجاجية .

٣ ـ لاغماند

كان منصب «لاغماند » السويدي فيما يتعلق بمجلس المقاطعة مرادفاً لرئيس مجلس العموم في إنكلترا . كان الشعب يختاره وكان يرأس جلسات المجلس ، وحين يكون الملك حاضراً ، فكان من واجب اللاغماند أن يوصل إليه قرارات المجلس وأن يمثل عموماً حقوق العامة .

٤ ـ الملك هاكون العجوز

الملك هاكون العجوز أو الملك هاكون الرابع ، وهو حفيد الملك سفير وبطل مسرحية إبسن «المتظاهرون» . كان ملوك النرويج في الفترة التي تشملها هذه الرواية والفترة السابقة مباشرة هم :

هاكون الرابع ١٢١٧ ـ ١٢٦٣

ماغنوس السادس (لاغابوتر)	١٢٦٣ ـ ١٢٨٠
آيريك	١٢٨٠ ـ ١٢٩٩
هاكون الخامس	١٢٩٩ ـ ١٣١٩
ماغنوس السابع (سميك)	١٣١٩ ـ ١٣٤٣

كان ماغنوس السابع هو حفيد هاكون الخامس كونه ابن ابنة هاكون المسماة انجبورغ (و هي السيدة انجبيورغ في الرواية) وأبوها هو الدوق آيريك السويدي . وقد تسلم عرش النرويج والسويد صغيراً لم يبلغ سن الرشد بعد . هذا وتشكل المضاعفات الناجمة عن منح ملك واحد التاجين معاً أساساً لحوادث الجزء الثاني من هذه الثلاثية .

٥ ـ أوضاع الكهنة

« سيرا » كلمة مأخوذة عن اللغة الإنكليزية وتطلق على كهنة الأبرشيات .

٦ ـ نقابات الفلاحين

(انظر الهامش رقم ١٧)

٧ ـ الجنية

بالنسبة للكثير من الخرافات المتعلقة بسكان الجبال يمكن العودة إلى مجموعات الحكايات الشعبية والخرافية النرويجية وأهمها مؤلف : « أرسبيورنسن ومو » .

٨ ـ القديسة سونيفا ورجال سليي

كانت القديسة سونيفا أميرة ايرلندية هربت ، بصحبة عدد من أتباعها المخلصين في سفينة دون دفة أو شراع أو مجاديف لتتحاشى الغزل غير المرغوب فيه لزعيم وثني ، فوصلوا الشاطئ النرويجي حيث هبطوا في جزيرة سليي . سكن اللاجئون الكهوف في الجبال وعاشوا على صيد السمك . وقد شك السكان الوثنيون

في الجزر المجاورة بأن هؤلاء الغرباء كانوا يسرقون بعض أغنامهم التي تترك على الجزر لترعى ، فأرسلوا ضدهم فرقة مسلحة . وعند وصول هؤلاء وجدوا الكهوف التي يقطنها اللاجئون قد سدت منافذها وأن سكانها قد دفنوا في داخلها بسبب انهيار صخري هائل .

بعد مضي فترة من الزمن كان المارون في زوارق يلاحظون نوراً غريباً يتسلل من البقعة التي دفن فيها هؤلاء الغرباء . وقد وصلت هذه الأنباء إلى أسماع الملك أولاف تريغفسون (الذي كان منهمكاً آنئذ في نشر المسيحية في البلاد) ، فوصل إلى المنطقة برفقة الأسقف ، وطلب فتح الكهوف ، وبينما ظهرت قداسة رفات رفاق سونيفا من خلال بعثها لأنوار فوق طبيعية ورائحة عذبة ، فإن جسد الأميرة وجد سليماً دون أي آثار للفساد عليه . فأمر الملك ببناء كنيسة في المكان ودفن الجثمان هناك . وبعد مائة سنة نقل الجثمان إلى كاتدرائية برغن .

و كان قداس جماعة سليي يقام سنوياً في الثامن من تموز (يوليو) لتكريس ذكرى سونيفا ورفاقها .

٩ ـ كرسي الخياطة

كرسي بذراعين وصندوق في المقعد لاحتواء أدوات الخياطة والتطريز إلخ .

١٠ ـ سيقان البتولا

كان أتباع الملك سفير يسمون هكذا لأنهم غطوا عوراتهم خلال مغامراتهم التي أوصلته إلى العرش بأردية مصنوعة من لحاء البتولا .

١١ ـ هوفيدو

أكبر جزر المخاضة (الشريعة) كريستيانا القريبة من البلدة . وفيها الدير الذي بني هناك في القرن الثاني عشر من قبل رهبان وصلوا من كيركستيد في لينكولنشاير .

١٢ ـ بارون

بالنرويجية (لندرماند) وهو إقطاعي رفيع المقام يملك إقطاعة منحها التاج لقاء خدمات قدمت إلى الملك في الحرب أو السلم ، ولم يكن هذا المنصب أو الأملاك من النوع الذي يورث .

و قد تغير لقب «لندرماند» ليصبح «باروناً» من قبل الملك ماغنوس لاغابوتر ، ولكن بقي شخصياً غير وراثي .

أما الملك هاكون الخامس الذي اتبع سياسة عدم تشجيع نمو الأرستقراطية النرويجية ولمنع تشكيل طبقة نبلاء إقطاعيين كما في أوروبا ، فأصدر عام (١٣٠٨) مرسوماً بعدم تعيين أي «بارونات» . وهكذا ألغي هذا المنصب نهائياً .

١٣ ـ العامة

هؤلاء هم أشخاص كانوا يسكنون ويطعمون في الدير لقاء أجر . وكانت الأديرة الخاصة بالرهبان والراهبات تحوي مثل هؤلاء ، لذلك كانوا من الجنسين (رغم أوامر الأساقفة القاضية بعكس ذلك) وكانوا يسكنون عادة في أبنية خارج بوابات الأديرة .

١٤ ـ أيام وأعياد القديسين

القديس غريغوري	١٣ شباط (فبراير)
القديس هالفارد	١٥ أيار (مايو)
القديس يوحنا	٢١ حزيران (يونيو)
القديس لورنس (لافرانس)	١٠ آب (أغسطس)
القديس بارتولوميو	٢٤ آب (أغسطس)
مولد العذراء	٨ أيلول (سبتمبر)
عيد الصليب	١٤ أيلول (سبتمبر)
قداس ميكائيل	٢٩ أيلول (سبتمبر)

١٥ ـ مساكن البلدة

تُرجمت كلمة « غارد » حين تستخدم في الريف إلى « ضيعة » أو « مزرعة » أما في المدن فهي تستخدم أيضاً لتعني مساكن العائلات وساحات التجار وأصحاب الحوانيت .

و كان من عادة البيوت أن تتجمع حول ساحة مشتركة .

و حسب تشريعات الملك هاكون الخامس فقد نظم لكل حرفة « غارد » خاص . وهكذا كان « ميكل غارد » حياً لصناع الأحذية والجلود .

١٦ ـ النقود

منح لافرانس إلى كريستين مصروف جيب هو عبارة عن « مارك فضي في نقود معدودة » . وإليكم باختصار أنواع النقود في تلك الفترة وهي ذات نظام معقد :

« المارك الفضي الصافي » ما يعادل (٢١٥,٨) غرام من الفضة .

أقسام المارك هي :

المارك =٨ أوره =٢٤ أورتوغ =٢٤٠ بنينغر

و لكن قيمة مارك الفضة كان ١/٣ قيمة المارك الفضي الصافي .

كما كان يتم تداول كل أنواع العملات الأجنبية حسب أوزانها ونقائها .

وفي القسم الثاني مَن الرواية تفاوض كريستين رجال روستوك على منحهم « أورتوغ » .

و في القسم الثالث منها يعد إرلند بالمساهمة بـ « أربعة ماركات فضة » لإعادة بناء الكنيسة وهذا لا شك من الفضة الصافية .

١٧ ـ نقابات الفلاحين أو المزارعين

و تشمل هذه الملاكين الأحرار والمستأجرين من كلا الجنسين الذكور

والإناث ؛ وكانت النقابات تهدف إلى تقديم أنواع العون المشترك والحماية ، من التأمين ضد الحريق (في أوقات السلم ـ في أوقات الحرب وظائف النقابة كانت تعلق جزئياً) إلى الانتقام من موت الأعضاء وتقديم الرعاية لأرواحهم بالصلوات والقداسات .

لقد نشأت النقابات في عهود الوثنية ، ولكن تم تبنيها بحماسة من قبل الكنيسة الكاثوليكية . كان يعين لكل نقابة قديس عام ، ويقام لكل نقابة احتفال كبير يقدم فيه الشراب بمناسبة عيد قديسها والأيام التي تليه . وكانت هذه الاحتفالات ذات تنظيم معقد تذكر في قوانين النقابة ، على أن تكون فخمة ومجيدة . وهكذا كان الشجار واللغة البذيئة والتصرفات غير اللائقة محظورة تجاه النساء . كما كان محظوراً على أي رجل أن يثمل إلى درجة فقدان السيطرة على نفسه . كان إحضار الكلاب والصقور محظوراً . وكذلك كان محظوراً إحضار الأطفال في سن تقل عن الثالثة إلا إذا كان تحت إشراف أمه أو مربيته . وكان أعضاء النقابة مسؤولين عن تصرفات ضيوفهم من خارج النقابة ، إلخ .

كانت الأنخاب تشرب لذكرى «المخلّص» ومريم العذراء والقديسين والأعضاء الراحلين في النقابة من رجال ونساء .

١٨ ـ البعثة إلى فارغويهوس

فارغويهوس الآن بلدة صغيرة تسمى «فاردو» في شمال شرق فينمارك . وكان الهدف من بعثة غيسور غال (١٣١٠ ـ ١٣١١) كان الهدف منها تنظيم الضرائب المفروضة على سكان لابلاند وإنشاء وتدعيم القلعة الصغيرة على فارغوي (جزيرة وولف) ، أصبحت هذه في القرون التالية ثغراً أمامياً للنرويجيين ضد الغزوات الروسية لفينمارك .

١٩ ـ البارونات والحكام

بالنسبة للبارونات انظر الهامش رقم (١٢)

أما منصب الحاكم فكان الإداري والقائد العسكري وضابط الشرطة في منطقة

من المناطق . وكان التعيين يتم من قبل التّاج ويتم الاختيار بين السادة ذوي الامتياز . وفي فترة الرواية يكون الحاكم عادة فارساً . وكان يحتفظ بعدد من الرجال المسلحين والموظفين التابعين له . وكان راتبه يختلف بين حالة وأخرى ، وقد يدفع له التاج مباشرة أو يأخذ حصة من الغرامات والإقطاعات .

٢٠ ـ الدم المقدس في شفيرين

بعض نقط الدم من خبز قربان مقدس نازف تم الاحتفاظ بها في شفيرين وكانت مقدسة جداً في الشمال كله ، ويزورها الكثير من الحجاج الاسكندنافيين .

٢١ ـ اتفاقيات الزواج

حسب القانون النرويجي القديم والعادات كانت تجري اتفاقية الزواج كما يلي :

تحضر العروس معها إلى الشراكة بائنتها ، أما العريس فكان ملتزماً حسب القانون بأن يقدم لها «هدية إضافية» هي ثلث أو نصف قيمة بائنتها . وكانت قيمة الدوطة والهدية الإضافية تصل إلى ثلث الأملاك المشتركة .

و هذه البائنة والهدية الإضافية هما حصة الزوجة من الأملاك المشتركة للزوجين . وفي حال عدم الانجاب ووفاة الزوجة وبقاء الزوج حياً تعود هذه الحصة إلى عائلة الزوجة . أما إذا مات الزوج قبلها ، فإن أسرتها ستحرص على أن يدفع ورثة الزوج هذه الحصة إلى الأرملة .

في حال ارتكاب الزوجة الزنا ، فإن الزوج كان يحتفظ بالهدية الإضافية تحت رعايته حتى وفاتها . ثم يعود ليدفع قيمتها إلى ورثتها .

في حال ارتكاب الزوج الزنا (فقط مع زوجة رجل آخر) يمكن لزوجته إن رغبت أن تطالب بأن تنقل حصتها إلى رعاية أقاربها .

لا يرث الزوج والزوجة احدهما الآخر .

« هدية الصباح » هي ما يقدمه الرجل إلى زوجته صباح اليوم التالي على الزواج . وقد تكون أثمن من الهدية الإضافية . ولكن أبوي العروس غالباً ما يتركان العريس يثبت « هدية الصباح » المنوي تقديمها حين يبرم عقد الزواج .

٢٢ ـ هات

كان «هات» واحداً من تجسدات «أودين» .

٢٣ ـ كنائس الأضلاع

كانت الكنائس القروسطية في المناطق الداخلية من النرويج تبنى من «الأضلاع» ، وهي قطع سميكة وثقيلة جداً من الخشب تنشر من الجذع بوساطة الفؤوس ـ كان استخدام المنشار والمسحاج غير معروف تقريباً . وكان السقف يبنى من ألواح مطلية بالقار .

لتدعيم البناء وحماية الجدران ضد العواصف والمطر ، كان ثمة رواق معمّد له أقواس منخفضة تفتح نحو الخارج يحيط بكل الكنيسة . في هذا الرواق كان الرجال يضعون سيوفهم وفؤوسهم قبل دخول الكنيسة . كما كانت الكنيسة تستخدم كمكان للاجتماع وتنظيم الوثائق القانونية ولمجالس الأبرشية واجتماعات التحكيم وما شابه .

لم يكن للكنيسة برج بل بريج صغير يحوي جرساً صغيراً أما الأجراس الكبيرة فكانت في برج مستقل قرب المدخل المسقوف إلى الكنيسة .

٢٤ ـ قياسات الأرض

بالنسبة للأربع ماركات من الفضة انظر الهامش رقم (١٦)

«الأراضي التي تساوي ستين بقرة» : ما يعادل أرضاً قيمتها(٢٠) ماركاً فضياً .

٢٥ ـ قلنسوة المرأة المتزوجة

كانت العذارى فقط يرسلن شعورهن . أما كل النساء غير العذراوات فكان عليهن أن يغطين شعورهن إلزامياً . فالمتزوجات يربطن شعورهن إلى الأعلى ويغطينه بقماش من الكتان الأبيض .

٢٦ ـ نسر الدم

طريقة إعدام كانت تمارس في عهد الفايكنغ . كانت الأضلاع تقص من عظم الظهر ثم تنتزع الرئتان والقلب عبر الجرح . وأحياناً كان رجل ما يطلب أن يعدم على هذا النحو ليظهر روح التحدي لديه ويثبت شجاعته ، في الأقل في الحكايات البطولية .

سيغريد أوندست

نوبل ١٩٢٨

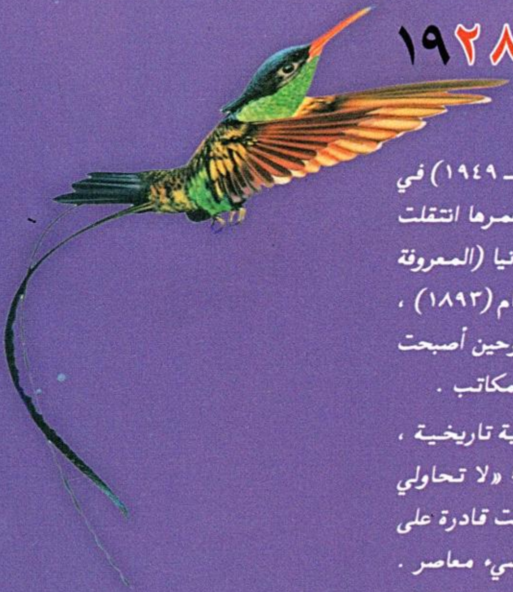

- ولدت سيغريد أوندست (١٨٨٢ ـ ١٩٤٩) في كالدوندبورغ . وحين بلغت السنتين من عمرها انتقلت أسرتها إلى النرويج واستقرت في كريستيانيا (المعروفة الآن باسم أوسلو) . وبعد وفاة والدها في عام (١٨٩٣) ، تخلّت عن طموحها في أن تصبح رسامة ، وحين أصبحت في السادسة عشرة بدأت بالعمل في أحد المكاتب .

- أعاد الناشر لها أولى مخطوطاتها ، رواية تاريخية ، حوالي عام (١٩٠٥) مع العبارات التالية : «لا تحاولي أبداً كتابة رواية تاريخية مرة أخرى . لست قادرة على هذا النوع من الكتابة . قد تحاولين كتابة شيء معاصر . ولا يمكن لكِ أن تعرفي ما قد يحدث» . في عام (١٩٠٧) كان أول ظهور لها مع رواية «السيدة مارتا أولي» ، ولكن الفتح الحقيقي لها جاء مع رواية «جني»(١٩١١) .

- إنتاج سيغريد أوندست غني ومتنوع ، ويمتد من الروايات المعاصرة إلى الروايات القروسطية العظيمة والقصص القصيرة والمقالات وحكايات السفر .

- «كريستين لافرانسداتر» هي قمة عطائها وهذه الثلاثية هي التي كانت السبب في منحها جائزة نوبل للآداب في عام (١٩٢٨) .

علي مولا

ISBN => 2-84305-090-1
EAN => 9782843050909